

كلير ماكينتوش
مكتبة
492
تركتك ترحلين
حادث مأسوي.
ماضٍ لا يمكن الهروب منه.
المركز الثقافي العربي
مليون قارئ
جائزة بولار لأفضل رواية عالمية 2016
جائزة القرّاء 2017

مكتبة | 492

كلير ماكينتوش

تركتك ترحلين

الكتاب

تركتك ترحلين

تأليف

كلير ماكينتوش

ترجمة

محمد التهامي العماري

الطبعة

الأولى، 2019

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-902-9

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 - 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 - 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:

Clare Mackintosh

I Let You Go

نُشرت للمرة الأولى في المملكة المتحدة عام 2015 من قِبل Sphere وهي جزء من Little, Brown Book Group

حازت في أكتوبر 2016 على جائزة أفضل رواية عالمية الممنوحة في مهرجان كونياك للرواية البوليسية، وعلى جائزة القرّاء للعام 2017.

كلير ماكينتوش

مكتبة | 492

تركتك ترحلين

رواية

ترجمة: محمد التهامي العماري





إلى أليكس

استهلال

عبث الريح بشعرها المبتلّ، وأسدله على وجهها بينما اضطرّها المطر إلى إغلاق عينيها قليلاً لحمايتهما من قطراته. ففي هذا الجوّ الماطر، جميع المارّة يحثّون الخطى على الرصيف الزلق حاشرين ذقونهم في ياقاتهم، وكلّما مرّت السيارات رشّت أحذيتهم. ولم يكن صخب حركة المرور يسمح لها بالتقاط سوى نتف من الأحاديث التي بدأت تتردّد حولها عندما فتحت المدرسة بابها الحديدي. ومضت الكلمات تخرج من فَمِهِ بلا توقّف، متداخلة بسبب هذا العالم الجديد الذي يكبر فيه. والتقطت أذناها شيئاً عن صديق حميم، وعن عرض حول الفضاء، وعن معلّمة جديدة. خفضت عينيها وابتسمت من حماسها غير عابئة بالبرد المتسلّل من تحت وشاحها. ابتسم الولد لابتسامتها، ورفع رأسه ليحسّ بقطرات المطر، فبدت أهدابه المبتلّة كطوق أسود حول عينيه.

«تعلّمتُ كتابة اسمي يا ماما!».

ردّت وهي تتوقّف لتقبّل جبينه النديّ بحنان:

«رائع يا عزيزي، ستُطلعني على ذلك في البيت؟».

وراحا يسيران بأقصى ما تسمح به ساقان في الخامسة من العمر، ماسكةً به بيد، وبالأخرى تحمل محفظته التي كانت ترتطم بركبتيها.

وأوشكا على الوصول.

كانت أضواء السيارات الساطعة المنعكسة على الأسفلت المبتلّ تبهر بصرهما بين الفينة والأخرى. انتظرا فجوة ليعبرا بسرعة الطريق المزدحم ويدها تطبق بقوة على اليد الصغيرة المحشورة في القفازة الصوفية الناعمة. انطلقت بسرعة بحيث اضطر الطفل إلى الجري ليلحق بها. كانت ثمة أوراق مبتلة عالقة بالحواجز وقد بدأ لونها اليانع يميل إلى الشحوب.

وبلغا الشارع الهادئ الذي يقع منزلهما عند زاويته، فتملّكتهما السعادة من فكرة أنهما سينعمان بعد لحظة بدفئه. وبما أنها شعرت بالأمان وقد وصلت إلى حيّها، أطلقت يده لتزيح خصلات شعر كانت تنزل على عينيها وهي تضحك من سيل الماء النازل منها.

قالت وهما ينعطفان عند زاوية الشارع:

«ها قد وصلنا. تركت النور موقداً حتّى لا ندخل في الظلام».

منزل قرميد أحمر موجود في الواجهة الأخرى من الشارع، مكوّن من غرفتين ومطبخ صغير، وحديقة تناثرت فيها أُصُص تنوي ملأها بالزهور. لم يكن ثمّة غيرهما.

«من يصل الأوّل هو الفائز يا ماما...».

لا يتوقّف عن الحركة، يفيض حيوية منذ أن يستيقظ صباحاً حتّى يضع رأسه على الوسادة مساء. يقضي اليوم كلّه يجري ويقفز.

«هيّا، لننطلق!».

وفي رمشة عين شعرت بالفراغ من حولها بينما انطلق هو جارياً نحو دفء المدخل المُضاء. سيشرب اللبن ويأكل البسكويت، ثمّ يشاهد التلفاز عشرين دقيقة قبل أن يتعشّى أصابع سمك. إنّه الروتين

الذي اعتادا عليه رغم أن الفصل الأوّل من السنة الدراسية بالكاد انتصف.

وفجأة لاحت السيارة آتية من حيث لا تدري، وسُمِع صرير فرامل على الأسفلت المبلّل، ودويّ ارتطام طفلٍ بالزجاج الأمامي. دار على نفسه في الهواء قبل أن يسقط على الرصيف. هرعت لتقف أمام السيارة التي كانت لا تزال تتحرّك، ثمّ زلقت وسقطت بعنف على يديها، فقطعت الصدمة أنفاسها.

كلّ ذلك وقع في رمشة عين.

قرفصت إلى جانبه، ومضت تجسّ بيأس نبضه وأنفاسها ترسم غيمة بيضاء وحيدة في الهواء. رأت ظلاً ينتشر تحت رأس الطفل، وسمعت عويلها كما لو أنّه صادر عن شخص آخر. رفعت عينيها نحو زجاج السيارة الأمامي المضبّب. كانت مسّاحتاه تزيحان عنه قطرات المطر في هذا الظلام البهيم، ونادت على السائق المجهول أن يهبّ لنجدتها.

أحنت لكي تدفّئ الولد بجسدها. غطّته بمعطفها الذي تبلّلت حاشيته بماء الرصيف. وبينما كانت تقبّله وتتوسّل إليه لكي يصحو، مضى الضوء الأصفر المسلّط عليهما يخبو شيئاً فشيئاً بتراجع السيارة إلى الوراء. وبينما كان السائق المتعجّل يحاول العودة أدراجه في ذلك الشارع الضيّق، وأزيز المحرك يتعالى متذمّراً، كشطت السيارة إحدى شجرات الجُمّيز الكبيرة التي تحفّ بالشارع.

ثمّ حلّ الظلام.

القسم الأول

1

وقف النقيب راي ستيفنس قرب النافذة يتأمل كرسي مكتبه الذي كُسِرَ أحدُ مِسْنَدَيه منذ سنة على الأقلّ. كان قد اكتفى إلى حدود هذه اللحظة بمواجهة المشكلة على نحو براغماتي -أيّ بعدم الميل يساراً-، لكنّه بينما خرج للغداء، خربش أحدهم على مسند ظهره بقلم أسود عبارة «غير صالح». وتساءل عمّا إذا كان الجرد الذي قامت به المصلحة اللوجيستية حديثاً سيسفر عن تغيير التجهيزات أم مقدّرٌ عليه أن يدير فرقة الشرطة الجنائية ببريستول على كرسي يشكّك في مصداقيّته.

أحنى راي وتناول قلماً من درج مكتبه الغارق في الفوضى، ثمّ قرفص وشطّب على العبارة. وما كاد يسمع باب المكتب يُفتح حتّى رفع رأسه وهو يعيد للقلم غطاءه.

«آه، هذه أنت يا كايت... كنت بصدد...» وصمت لمّا رأى سحنتها والفاكس الذي في يدها، «ماذا جرى؟».

«جريمة اصطدام وهروب في فيشبوندس ومقتل طفل في الخامسة من عمره أيّها النقيب».

تناول راي الورقة، وبينما راح يقرأها، ظلّت كايت واقفة في فتحة الباب وقد بدا عليها الضيق. كانت لا تزال تبحث عن موقع لها

في الفرقة الجنائية التي لم تلتحق بها إلا منذ شهرين بعد أن كانت في فرقة ترتدي الزي. ومع ذلك أبدت موهبة فذة، أكبر ممّا كانت تتوقع.

«أعُرِف ترقيم السيارة؟».

«الظاهر أنه غير معروف. لقد أُغلق المكان، وأم الطفل تُستجوب في هذه الأثناء. لا تزال تحت وقع الصدمة».

وسألها راي:

«ألا يزعجك أن تشتغلي ساعات إضافية؟».

هزّت كايت رأسها موافقة قبل أن ينهي كلامه.

وارتسمت على وجهيهما ابتسامة متواطئة خجولة. كان ما يشعران به من دفق الأدرينالين يبدو في غير محله أمام حدث مأساوي كهذا.

«حسناً، فلننطلق إذاً!».

أومآ برأسيهما لتحيّة حشد المدخّنين الذين تجمّعوا قرب الباب الخلفي للاحتماء من المطر.

قال راي:

«هل أنتَ بخير يا ستامبي؟ رافقت كايت إلى مكان جريمة الفرار بفيشبوندس. هلا اتّصلت بمصلحة الاستعلامات بالمنطقة لترى ما إذا كانوا يتوفّرون على أخبار جديدة؟!».

«حاضر».

سحب الرجل المسن آخر نفس من لفافته. لقد مضى وقت طويل على تلقيب الملازم جايك أوين بـ«ستامبي» -وتعني الحَادِر- حتّى أنّه قلّما يُنادى باسمه في المحكمة. ورغم تحفّظه وعدم ميله

إلى الثرثرة، لم يكن يحكي من طرائف الشرطة إلا القليل ممّا يعرف. وهو بلا شكّ أفضل ملازم في فرقة راي. ذلك أنّ الرجلَين اشتغلا معاً لسنوات عديدة، وستامبي الذي يتمتّع بقوة مدهشة بالنظر إلى قامته القصيرة، كان يمثّل له خير معين.

يتكوّن فريق ستامبي فضلاً عن كايت، من مالكوم جونسون ذي الطبع الجاد، والشاب دايف هيلسدون، وهو مفتّش يتّقد حماساً، لكنّه مستقل، تكاد طرائقه وأساليبه -حسب راي- تخرج عن حدود المشروعية أحياناً. وهم يؤلِّفون معاً فريقاً ممتازاً، يساعد كايت على التعلُّم بسرعة. إنّ حماسها المتّقد يُشعر راي بالحنين إلى المرحلة التي كان فيها مفتّشاً شابّاً مندفعاً، قبل أن تجهز عليه سبع عشرة سنة من البيروقراطية.

لم تكن كايت تسوق في طريقها إلى فيشبوندس سيارة شرطة، بل سيارة عادية، وكانت زحمة المرور آخر ذلك اليوم في أوجها. عيل صبرها، وأخذت علامات السخط تعلو وجهها كلّما اشتعل ضوء أحمر، فتشرئبّ بعنقها متى تأخّرت السيارات التي أمامها في الإقلاع. لم تكن تتوقّف عن الحركة، تُربِّت على المِقود أو تجعِّد أنفها أو تتململ في مقعدها. وحين يشتعل الضوء الأخضر، تنحني إلى الأمام كما لو أنّها تحثّ السائقين بذلك على الإسراع.

قال راي مازحاً:

«ما أحوجك إلى أضواء دوارة الشرطة!».

فلاحت على وجهها ابتسامة عريضة.

«أنت محقّ».

لم تكن على وجهها زينة باستثناء الكحل في عينيها. وكان

شعرها الكستنائي القاتم ينسدل على وجهها في شكل جدائل غير مرتّبة رغم المشبك الصدفي الذي وضعته لإمساكها.

تناول راي هاتفه الجوال لكي يجري المكالمات اللازمة. تأكّد من أن فرقة التحقيق في حوادث السير في طريقها إلى مكان الحادث، وأنّ مفوض الشرطة المشرف على التحقيق قد أُخطر، وما إذا كان أحدهم طلب التحاق شاحنة التدخل، وهي ناقلة ثقيلة ممتلئة عن آخرها بالأغشية وإضاءات الطوارئ والمشروبات الساخنة. أُخبِر بأنّ كلّ شيء على ما يرام. وقال في نفسه إن الأمور تسير دائماً بهذا النحو، لكن بوصفه قائد العمليات، هو المسؤول في حال وقوع مشكلة. إنّ مفتشي الشرطة يستاؤون عموماً من حضور أعضاء الشرطة الجنائية، ومن إصرارهم على طرح الأسئلة نفسها مرّة ثانية، لكن الأمور تجري هكذا. جميع من يعملون في الشرطة مرّوا من هذا الموقف، بمن فيهم راي، هو من لم يلبس البذلة إلا لفترة قصيرة قبل أن يترقّى.

أخبر مركز القيادة بأنّه لم يعد يبعد عن مكان الحادثة إلا بخمس دقائق، لكنّه لم يتصل بالمقابل بزوجته. فهو لم يكن يتّصل بماغس إلا إذا اضطرّ للتأخر في العمل. أما إذا كان سيعود في الوقت المحدّد، وهو أمر نادر، فلا يتّصل.

عندما انعطفت كايت في زاوية أحد الشوارع، خففت السير كثيراً حتى أوشكت على التوقف. كان ثمة ست سيارات مركونة في الطريق يشعّ من أضوائها الدوّارة على نحو متقطّع نور أزرق يغمر مكان الحادث. وكانت ثمّة كشافات مرفوعة على حاملات معدنية ثلاثية القوائم، تجلّي أضواؤها القويّة رذاذَ المطر الذي كان قد خفّ في تلك الأثناء لحسن الحظ.

ولمّا تجاوزت نقطة الحراسة البوليسية، توقّفت لكي ترتدي معطفاً، واستبدلت حذاءها الخفيف ذي الكعب بجزمة مطاطية.

قالت ضاحكة بينما تخلع حذائها وراحت تلبس الجزمة:

«الجانب العملي يحظى بالأولوية على المظهر».

نادراً ما يتذكّر راي مثل هذه الأمور، لكنّه يأسف الآن على عدم جلبِ رداءٍ دافئ على الأقلّ.

رَكَنا السيارة على بعد مئة متر من خيمة بيضاء نُصبت على ما قد يكون بقي من أدلّة في مسرح الحادث لحمايتها من المطر. كان جانب من الخيمة مفتوحاً، فلاحت لهما منه في الداخل خبيرة الشرطة العلمية وهي تأخذ عيّنات وقد جثت على ركبتيها واستندت على يديها، وأبعدُ من الخيمة قليلاً، في الشارع، أبصرا طيف شخص ببدلة بيضاء يتفحّص شجرة عظيمة من الأشجار التي تحفّ بالطريق.

وبينما كان راي وكايت يتقدمان، اعترضهما شرطي شاب. كانت فتحة سترته البراقة مزررة بالكامل حتى أنّ راي بالكاد رأى وجهه بين طوقه ومُقدَّم قبعته.

«مساء الخير سيدي النقيب، أترغبون في إلقاء نظرة على المكان؟ آسف، عليكم أن تتفضلوا بتوقيع السجل».

أجابه راي:

«كلا، شكراً. هل يمكن أن تخبرني أين هو عريفك؟».

ردّ الشرطي وهو يشير إلى صفّ من المنازل الصغيرة المتجاورة قبل أن يحشر عنقه في طوقه:

«مع أمّ الطفل في بيتها».

ثمّ أضاف بصوت مخنوق:

«المنزل رقم أربعة».

هتف راي وهو يبتعد مع كايت:

«تبّاً! يا له من عمل لعين! أذكر مرّة، لما كنت متدرّباً، أنني قضيت اثنتي عشرة ساعة في الحراسة تحت وابل من المطر. ولمّا جاء القائد في صباح اليوم الموالي على الساعة الثامنة، وبّخني لأنّني كنت متجهّماً».

ضحكت كايت وهي تقول:

«لهذا آثرت أن تتخصّص».

فردّ راي معترفاً:

«ليس تماماً، لكن ذلك له دخل. الأمر يعود أساساً إلى أنني تعبت من رفع القضايا الكبيرة إلى المختصين دون أن تتاح لي فرصة التحقيق فيها بنفسي وحلّها. وأنت؟».

«أنا أيضاً اخترت التخصص للأسباب نفسها تقريباً».

بلغا صف المنازل الذي دلّهما عليه الشرطي، واسترسلت كايت في الكلام بينما كانا يبحثان عن الرقم أربعة.

«أنا شغوفة بالقضايا الجادة، لكن أيضاً لأن السأم يتسرّب إلى نفسي بسرعة. أحب التحقيقات المعقّدة التي تصيب المرء بالصداع. أوثر الكلمات المتقاطعة الصعبة على السهلة. أفهمت؟».

فردّ راي:

«جيّداً، رغم أنّني لم أكن يوماً موهوباً في الكلمات المتقاطعة».

«هناك حيلة، سأدلّك عليها في يوم من الأيام. ها قد وصلنا إلى الرقم أربعة».

كان الباب المطلي على نحو بديع مواربًا. دفعه راي وأعلن:

«الفرقة الجنائية، هل تسمحون بالدخول؟».

فأجابه صوت:

«نحن في الصالون».

مسحا أقدامهما، وعبرا المدخل الضيق. أزاحا من طريقهما مشجباً مثقلاً، وضعت تحته جزمة أطفال مطاطية إلى جوار جزمة للكبار.

كانت أمّ الطفل جالسة على مقعد صغير وهي تحدّق في حقيبة مدرسية زرقاء تشدّها فوق ركبتيها.

«اسمي النقيب راي ستيفنس. أنا آسف لما حدث».

رفعت عينيها نحوه وقد لفّت مشدّ الحقيبة بقوّة على يديها حتى ظهرت آثار عميقة على بشرتها.

«جاكوب، كان اسمه جاكوب».

إلى جوار المقعد الصغير جلس عريف ببدلته على كرسي مرتفع بلا مسند وقد وضع أوراقاً على ركبتيه. سبق لراي أن رآه في المخفر، لكنّه لا يعرف اسمه، لذلك ألقى نظرة على شارته.

«هلا رافقت كايت إلى المطبخ يا برايان وأخبرتها بالوضع؟ أريد، إذا كنت لا تُمانع، أن أستجوب الشاهدة. لن أستغرق وقتاً طويلاً. بإمكانك أن تغتنم الفرصة وتهيّئ لها فنجان شاي».

كان واضحاً من سحنة برايان أنّ ذلك هو آخر شيء يرغب فيه، لكنّه اعتدل واقفاً مع ذلك، وغادر الغرفة مع كايت، لكي يشكوها، ربّما، تصرفات الفرقة الجنائية. على أنّ راي لم يأبه بذلك.

«آسف إن كنت سأثقل عليك ببضع أسئلة أخرى. لكن علينا أن نجمع أكبر قدر من المعلومات في أسرع وقت».

هزّت أم جاكوب رأسها دون أن ترفع عينيها.

«حسبما فهمت، لم تتمكني من رؤية لوحة ترقيم السيارة؟».

«وقع ذلك بسرعة».

وبينما كانت تنطق هذه الكلمات، استبدّ بها الانفعال. حكت عن عودتهما من المدرسة، ثمّ...

«لم أحرّر يده من قبضتي إلا لثانية واحدة» وزادت من شدّ حبل الحقيبة على يدها، فرأى راي الشحوب يعلو أصابعها، «وقع كلّ ذلك في رمشة عين. جاءت السيارة كالسهم».

كانت تجيب بهدوء عن أسئلته بحيث لم يظهر عليها أيّ أثر للصدمة التي تعرضت لها. كان راي يكره أن يلحّ في الكلام، لكن لم يكن أمامه خيار آخر.

«هل يمكن أن تصفي لي السائق؟».

«لم أرَ من يوجد داخل السيارة».

«أكان مع السائق ركّاب؟».

فكرّرت بصوت حزين فاتر:

«لم أرَ من يوجد داخل السيارة».

«حسناً».

من أين سيبدأ؟

حدّقت فيه وسألت:

«هل ستعثرون على الرجل الذي قتل جاكوب؟ هل ستعثرون عليه؟».

تكسّر صوتها، وتفتت الكلمات لتستحيل إلى أنين عميق. انحنت وراحت تضغط الحقيبة إلى بطنها، فشعر بقلبه ينفطر. التقط نفساً عميقاً لعلّه يتخلّص من هذا الإحساس.

ردّ مؤكّداً وهو يلوم نفسه على هذه العبارة المسكوكة:

«سنبذل قصارى جهدنا».

عادت كايت من المطبخ يتبعها برايان وهو يحمل في يده فنجان شاي، وسأل:

«هل يمكن أن أواصل الاستماع إلى شهادتها أيّها النقيب؟».

قال راي في نفسه: تقصد **كُفّ عن تعذيب شاهدتي**.

«نعم. شكراً، آسف على مقاطعتك. هل حصلنا على كلّ ما يلزم يا كايت؟».

«نعم».

كانت شاحبة، وتساءل عمّا إذا كان برايان قال لها شيئاً أغاظها. في غضون سنة أو سنتين، سيعرفها مثلما يعرف باقي أفراد الفرقة. أمّا الآن، فهو ما زال لم يخبرها. كان يعلم أنّها صريحة، لا تتردّد في التعبير عن وجهة نظرها خلال اجتماعات الفريق. كما أنّها تتعلّم بسرعة.

غادرا المنزل، والتحقا بالسيارة في صمت.

سألها عمّا إذا كانت بخير رغم أنّ حالها كانت تشي بعكس ذلك، بوجهها المتجهّم ونظرتها الكابية. وردّت بصوت أبحّ:

«نعم».

وتنبّه إلى أنّها كانت تُغالب دموعها.

فقال لها وهو يطوّق كتفيها بذراعه على نحو أخرق:

«أبِسبب هذه القضية؟».

كان راي قد اكتسب مع مرور السنين قدرة على المقاومة والجلَد في مثل هذه الحالات. وهي قدرة يملكها معظم العاملين في الشرطة. لهذا كان من اللازم أن يغضّ المرء البصر عن بعض المزح التي تُتداول في المطعم، لكنّ كايت كانت على الأرجح مختلفة.

هزّت رأسها، والتقطت نفساً عميقاً وهي ترتعش.

«آسفة. أؤكّد لك أنّني لست هكذا في العادة. لقد نعيت العشرات، ولكن، ربّاه، لم يجاوز الخامسة من عمره! الظاهر أنّ الأب أهمله، وأنه كان يعيش مع أمّه بمفردهما. لا أستطيع أن أتصوّر كيف ستجتاز هذه المحنة».

وانقطع صوتها، فأحسّ راي بقلبه ينفطر من جديد. كانت استراتيجية التكيُّف التي يتّبعها تتمثّل في تركيز ذهنه على التحقيق -على العناصر الملموسة التي بين يديه- دون أن يفكر كثيراً فيما يحسّ به الأشخاص المعنيين. إذا فكّر المرء كثيراً فيما شعرت به وهي ترى ولدها يموت بين ذراعيها، لن تكون له أي فائدة، لا سيما بالنسبة إلى جاكوب وأمّه. ودون أن يشعر، انصرف فكره إلى أبنائه، وأحسّ برغبة لا إرادية في الاتصال بالبيت، والسؤال عن أحوالهم.

قالت بصوت متلعثم وقد علت وجهها ابتسامة لا تخلو من حرج:

«آسفة».

فردّ راي مطمئناً:

«لا عليك. لقد مررنا جميعاً في هذه المرحلة».

ارتسمت الدهشة على وجهها وهي تقول:

«حتى أنت؟ ما كنت أظنّك من النوع المرهف».

«يحدث لي هذا أحياناً». وشدّ على كتفها قبل أن يسحب ذراعه. هو لا يذكر أن قضية من القضايا أبكته يوماً، لكنّه كان يوشك على ذلك أحياناً. «لا تقلقي، ستكون الأمور على ما يرام».

«أجل، شكراً».

وبينما شغّلت كايت محرّك السيارة، التفتت إلى مكان الحادث حيث كانت الشرطة العلمية لا تزال تذرع المكان.

«أيّ وغد هذا الذي قتل طفلاً في الخامسة من العمر، وانصرف إلى حال سبيله هكذا!».

فقال راي دون أن يتردّد لحظة:

«هذا بالضبط ما سنحاول الكشف عنه».

2

لا أرغب في شرب الشاي، لكنّني أتناول الفنجان مع ذلك. أمسك به بلطف بين يدي، وأعرّض وجهي للبخار الساخن إلى أن يوشك على الاحتراق. يخز الألم بشرتي، ويخدّر وجنتَي ويلسع عينَي. أحاول أن أردع الرغبة في إزاحة وجهي، لكنّني لا أستطيع. أنا بحاجة إلى هذا لكي أمحو المشاهد التي لا تبرح ذهني.

«أأحضِّر لك شيئاً تأكلينه؟».

انتصب أمامي، وعلمت أنّ عليّ أن أرفع عينَي، لكنّني لا أستطيع. كيف له أن يقترح عليّ شيئاً آكله أو أشربه كما لو أنّ شيئاً لم يقع؟ انتابني شعور بالغثيان، وأجهدت نفسي لكي أبتلع مذاقه اللاذع. هو يعتقد أنّني مسؤولة عمّا وقع. لم يجهر بها، لكن ذلك واضح في عينَيه. وهو محقّ... فالخطأ خطأي. كان علينا أن نسلك طريقاً آخر إلى البيت. ما كان عليّ أن أتحدّث. كان ينبغي أن أوقفه...

أجبت بلطف:

«كلا، شكراً. لا أشعر بالجوع».

لم يكن شيء يدور في رأسي غير الحادثة. وددت لو أضغط على زر «التوقف»، إلا أن ذلك مستحيل: لا يكفّ جسده عن

الارتطام بالزجاج الأمامي للسيارة. قرّبت الفنجان من وجهي مجدداً، إلا أنّ الشاي كان قد برد، ولم تعد الحرارة كافية لإيلامي. لم أشعر بالدموع في عينَي، لكن قطرات كبيرة كانت تتحطم على ركبتي. أنظر إلى ثوب الجينز وهو يتشرّبها وأفرك لطخة طين على فخذي.

أجول بعيني في الغرفة التي قضيت سنوات في إعدادها. الستائر التي اشتريت لكي تناسب الوسائد، والأعمال الفنية التي رسمت بعضها، وبعضها الآخر عثرت عليه في الأروقة وأحببته. كنت أعتقد أنّني أهيّئ بيتاً، لكنّني كنت في الحقيقة أؤثّث منزلاً.

يدي تؤلمني. أشعر بنبضي في رسغي سريعاً وواهناً. أنا سعيدة بهذا الألم، وأودّ لو يحتدّ. تمنّيت لو أنّ السيارة داستني أنا عوضه.

ومضى يتحدث من جديد. **الشرطة تبحث عن السيارة في كلّ مكان... والجرائد ستنشر إعلانات للبحث عن شهود... وسيتكلّمون عن الحادثة في النشرات الإخبارية...**

الغرفة تدور، فأركّز بصري على المائدة الواطئة، وأهزّ رأسي حين يبدو ذلك مناسباً. تقدّم خطوتين نحو النافذة، ثمّ عاد. وددت لو يجلس، فهو يوتّر أعصابي. أخذت يداي ترتعشان، فوضعت الفنجان الذي لا يزال ممتلئاً قبل أن يسقط، إلا أنّه ارتطم بصخب بسطح المائدة الزجاجي، فحدجني بنظرة تشي بالضيق، فقلت: «عفواً».

شعرت بطعم معدنيّ في فمي، فتنبّهت إلى أنّني عضضت شفتي. بلعت الدم حتّى لا أطلب منديلاً، فأثير الانتباه إليّ.

كلّ شيء تغيّر في اللحظة التي انزلقت فيها السيارة على الأسفلت المبلّل، وانقلبت حياتي بكاملها رأساً على عقب. أرى

الصورة أوضح الآن كما لو أنّني أتفرّج على حياتي. لا أستطيع أن أستمرّ على هذه الحال.

حين أصحو للحظة خاطفة، أجد نفسي عاجزة عن تبيّن كُنه هذا الإحساس. كلّ شيء هو هو، عدا أنّ كلّ شيء تغيّر مع ذلك. ثم، وحتّى قبل أن أفتح عيني، يضجّ صوت مخنوق في رأسي، مثل الصوت الذي يعلن عن وصول ميترو الأنفاق، فإذا بتلك المشاهد الملوّنة التي لا أستطيع إيقافها ولا إسكاتها، تلوح من جديد. أضغط بيدي على صدغي كما لو أنّني أستطيع طرد الصور بالقوة، إلا أنّها تظل تتعاقب بسرعة كما لو أنّني من دونها أستطيع أن أنسى.

على مائدة سريري يوجد منبّه نحاسي كانت قد أهدتني إيّاه إيف عند التحاقي بالجامعة، وقالت: «من دونه لن تحضري دروسك أبداً». وتفاجأت بملاحظة أنّ الساعة بلغت العاشرة والنصف. ما أشعر به من صداع حجب الألم في يدي، وهو يُعميني كلّما حرّكت رأسي بسرعة. وبينما حاولت أن أنتزع نفسي من السرير، أحسست بأنّ كل عضلاتي تؤلمني.

أرتدي الملابس نفسها التي ارتديتها بالأمس، وأخرج إلى الحديقة دون أن أعدّ القهوة رغم اجتفاف فمي، ورغم أن ابتلاع الريق يكلّفني جهداً كبيراً. لم أعثر على حذائي، وبينما عبرت العشب لسع الصقيع قدميّ. الحديقة ليست كبيرة، والشتاء قريب، ورغم قصر المسافة لبلوغ الجانب الآخر، فقدت الإحساس بأصابع رجلي.

صارت ورشة الحديقة ملاذي منذ خمس سنوات. ورغم أنّها تبدو من الخارج مجرّد كوخ خشبي، فهي مكاني الذي أختلي فيه

لأفكّر وأعمل وأهرب. على أرضيته تناثرت بقع الطين المتساقطة من عجلة الفخار التي أشتغل عليها، والتي وضعتها في الوسط حتّى أستطيع التحرّك حولها، والتراجع إلى الخلف لملاحظة منحوتاتي بعين ناقدة. على ثلاثة من جدران الورشة ثُبِّتت رفوفٌ أضع عليها تماثيلي بنوع من الفوضى المنظّمة التي لا يفهمها أحد سواي. هنا عمل لم يكتمل، وهناك آخر محروق، وفي مكان ثالث منحوتات جاهزة تنتظر الصباغة، وفي مكان غيره أعمال مكتملة ينبغي تسليمها لأصحابها. مئات القطع المتباينة، ومع ذلك إذا أغمضت عينَي، أستطيع أن أشعر بشكل كلّ منها تحت أصابعي، وأحسّ بها طيناً مبلّلاً بين يدي.

أتناول المفتاح من مخبئه تحت حافة النافذة وأفتح الباب. الأمر أسوأ ممّا كنت أتوقع. الأرض مكسوّة بقطع الفخار المتكسّر. أوانٍ فخارية مستديرة مكسورة إلى نصفين بحواف مسنّنة، والرفوف الخشبية فارغة تماماً، والعمل الذي كان فوق مكتبي اختفى، والتماثيل الصغيرة التي كانت موضوعة على حافّة النافذة صارت قطعاً من المتعذّر التعرّف إليها، عبارة عن شقفٍ تتلألأ تحت أشعة الشمس.

هناك قرب الباب تمثال امرأة ممدّد. أنهيته في السنة الماضية في إطار مجموعة أعمال أنجزتها لمتجر كليفتون. كنت أودّ أن أصنع شيئاً واقعياً، شيئاً أبعد ما يكون عن الكمال، لكن دون أن يعدم الجمال. نحتّ عشر نساء، لكلّ منهنّ منحنياتها المميزة ونتوءاتها وندوبها وعيوبها. استوحيت فيها أمّي وأختي وبنات كنّ تلميذاتي، ونساء رأيتهنّ في الحديقة العامّة. وهذا تمثالي. لا أحد يتعرّف فيه إلي، لكنّه تمثالي. الصدر ضئيل والردفان ضيقان قليلاً، والقدمان

كبيران نسبياً، والشعر مشدود بمشبك عند الرقبة. أنحني لالتقاطه ظانة أنّه سليم، لكنّني ما إن لمستُه حتّى شعرتُ بأجزائه تتحرّك. ولمّا حاولت التقاطه، لم تمسك يداي غير قطعتَين تأمّلتهما ثمّ ضربتهما بكلّ ما أوتيت من قوة على الجدار، فتكسّرتا، وتناثرت شظاياهما على المكتب.

التقطت نفساً عميقاً وزفرت ببطء.

لا أذكر كم مضى على الحادثة من يوم، ولا ماذا فعلتُ لكي أصمد طوال الأسبوع، مع أنني أشعر كما لو أنّني سائرة في ضباب كثيف. لست أدري لِمَ قرّرت أن يكون هذا اليوم هو اليوم المناسب. هكذا تجري الأمور. لن أحمل معي إلا ما تسعه حقيبتي، علماً أنّني إن لم أنصرف الآن، فلن أقوَ على الانصراف أبداً. أطوف هائمة في المنزل وأنا أحاول أن أتخيّل أنّني لن أعود إليه أبداً، وهي فكرة مرعبة ومخلّصة. أأنا قادرة فعلاً على فعل هذا؟ هل بإمكان المرء أن يترك حياة ليبدأ أخرى؟ عليّ أن أحاول: إنّها فرصتي الوحيدة للخلاص.

حاسوبي المحمول موجود في المطبخ، وهو يحتوي على صور وعناوين ومعلومات مهمة قد أحتاجها يوماً. وهي أشياء لم أفكّر في حفظها في مكان آخر، ولست أملك الآن الوقت للقيام بذلك. رغم ثقله وحجمه الكبير سأضعه في الحقيبة حتّى إن امتلأت. لا أستطيع الانصراف من دون أخذ تذكار يذكّرني بماضيّ. تخلّصت من سترة وبضعة أقمصة خفيفة حتّى أُخلي مكاناً أضع فيه الصندوق الخشبي الصغير حيث أخفي فيه تذكاراتي مكدَّسٌ بعضها فوق بعض. لم أكن بحاجة إلى النظر إلى ما يحويه. فهو يضم مذكرات مراهقتي التي

كنت أكتبها بشكل غير منتظم، والتي نزعت بعض أوراقها بعد أن ندمت على كتابتها. كما يضمّ حزمة من تذاكر الحفلات الموسيقية ودبلوم تخرجي وقصاصات صحف تتحدث عن معارضي وكذا صور ابني الذي كنت أحبه بكل ما أوتيت من قوة. صور ثمينة وقليلة بالنسبة إلى شخص محبوب إلى هذا الحدّ. رغم أنّ وقعها ضئيل على هذا العالم، فهي المركز الذي يدور حوله عالمي.

لم أستطع المقاومة، ففتحت الصندوق وأخرجت الصورة الموجودة في الأعلى: صورة بولارويد التقطَتْها إحدى القابلات يوم ميلاده. قطعة صغيرة ورديّة، بالكاد تظهر تحت بطّانية المشفى البيضاء. يبدو ذراعاي على الصورة متصلّبين في وضع أخرق لأمٍّ في مقتبل العمر غمرها الحب ونال منها التعب. كلّ شيء كان متعجّلاً ومرعباً ومبايناً لما يوجد في الكتب التي التهمتها خلال حملي، لكن ما كنت قادرة على منحه من حبّ، لم يضعف. وانقطعت أنفاسي فجأة، فأعدت الصورة إلى مكانها ووضعت الصندوق في حقيبتي.

ظهر خبر مصرع جاكوب على الصفحات الأولى للجرائد. لاحقني في محطّة الوقود التي أتردد عليها، وفي متجر بقّالة الحي وطابور محطّة الحافلة حيث أنتظر كما لو أن لا فرق بيني وبين الآخرين، كما لو أنني لست هاربة.

تجري الحادثة على كلّ لسان. كيف لشيء رهيب كهذا أن يقع؟ ومن ذا الذي ارتكبها؟ كلّ حافلة تتوقّف تأتي بنصيبها من الأخبار الجديدة، ونتفٍ من محادثات لا أستطيع تجنُّب سماعها.

كانت سيارة سوداء.

كانت سيارة حمراء.

الشرطة على وشك توقيف الجاني.

لم تعثر الشرطة لمرتكب الحادثة على أثر.

تجلس امرأة إلى جواري، وتفتح جريدتها، فأشعر فجأة كما لو أنّ أحدهم ضغط على صدري. أرى وجه جاكوب يحدّق فيّ، وعيناه الذاهلتان تلومانني على تقصيري في حمايته، وتركه عرضة للموت. أبذل قصارى جهدي لكي أنظر إليه، فأشعر بغصّة في حلقي، ويضطرب بصري، فلا أقوى على قراءة ما كتب في الجريدة. لكنّني لست بحاجة إلى ذلك. فقد سبق أن رأيت نصّ هذا المقال في كلّ الجرائد التي مررت عليها هذا اليوم. كلام المدرِّسين المصدومين، والكلمات التي كتبت على باقات الورد الموضوعة على جانب الطريق، والتحقيق الذي فتح ثمّ عُلِّق. وفي صورة ثانية بدا إكليل من الأقحوان الأصفر على نعش بالغ الصغر. ندّت عن المرأة صرخة ناقمة، وراحت تتحدث، تتحدث إلى نفسها فيما أعتقد، على أنّها كانت تنتظر ربّما أن أعبّر عن رأيي.

«حادثة مروعة، أليس كذلك؟ وما يزيد من فظاعتها أنّها وقعت عشيّة أعياد الميلاد».

ألوذ بالصمت ولا أعلِّق، فتضيف:

«ويروح في حال سبيله دون أن يُقبَض عليه! لاحظي أنّه كان في الخامسة من العمر، أيّ أمٍّ تترك طفلاً في هذا السنّ يعبر الطريق بمفرده؟!».

لم أستطع تمالك نفسي وتنهّدت بعمق. ودون أن أنتبه، مضى الدمع يسيل ساخناً على وجنتَي، ثمّ على المنديل المطوي بعناية في يدي.

ثمّ قالت المرأة كما لو أنّها تواسي صبيّاً:

«مسكين! لا أحد يمكن أن يتصوّر شيئاً كهذا، أليس كذلك؟».

بلى. وددت لو أقول لها أنّها مهما تصوّرت الواقع، فهو أسوأ من ذلك بألف مرّة. ومدّت لي منديلاً آخر مجعّداً نظيفاً، وطوت صفحة جريدتها لتقرأ مقالة حول الأضواء التي ستنير كليفتون ليلة عيد الميلاد.

لم يخطر الهروب على بالي قطّ، لم أتصوّر لحظة أنّني سأضطرّ إليه يوماً.

3

ارتقى راي الطابقَين الصاخبَين حيث توجد مصالح الشرطة التي تشتغل أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين، ليبلغ الطابق الثالث حيث مكاتب الفرقة الجنائية ذات الأرضية المكسوة بالسجاد، وحيث العمل حسب المواقيت العادية. هو يفضّل المجيء إلى هنا مساء كلّما واتته الفرصة ليعالِج دون أن يقاطعه أحد كومةَ الملفات المتراكمة على مكتبه دائماً. عبَر الفضاء المفتوح متّجهاً إلى حُجرة يشغلها في أحد أركان الصالة.

«كيف مرّ الاجتماع؟».

جفل من سماع الصوت، والتفت، فإذا بكايت جالسة إلى مكتبها.

ثمّ أضافت وهي تتثاءب:

«الفرقة الرابعة كما تعلم كانت فرقتي سابقاً. آمل أن يكونوا تظاهروا بالاهتمام على الأقلّ».

فردّ راي:

«لم يكونوا سيئين. إنّهم أشخاص طيبون. إن كان للّقاء من جدوى، فسيكون ذكّرهم على الأقل».

لقد نجح راي في أن يضمن بقاء جريمة الاصطدام والهروب في

جدول الأعمال لمدة أسبوع، لكنّه اضطرّ إلى قبول إزاحته من هذه القضية للاهتمام بقضايا أخرى جديدة. وهو يبذل ما في جهده لكي يطوف على فِرق الشرطة قصد تذكيرهم بأنّه ما زال بحاجة إلى مساعدتهم. وربت على ساعته.

«ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟».

فردّت وهي تمرّر إبهامها على حافة كومة من الأوراق:

«أتفحّص أجوبة النداء الذي وُجِّه بحثاً عن شهود، رغم أن لا جدوى منها».

«ألا يوجد فيها شيء يمكن استثماره؟».

«لا شيء ذا بال. بعض الإشارات لسيارات يسوق أصحابها على نحو سيّئ، وثلاث أو أربع شهادات حول سلوك الأم غير المسؤول، وحول شُلّة المعتوهين والمجانين المعهودة. بل منهم شخص تنبّأ بعودة المسيح». ثمّ تنهّدت. «ينبغي العثور على خيط يمكن التشبّث به».

«رغم أنّ الأمر محبط، عليك أن تصمدي. ستنكشف الحقيقة. فهي تنكشف دائماً».

تأوّهت كايت، ودفعت الكرسي بعيداً عن كومة الأوراق.

«لا أظنّني أملك ما يكفي من الصبر».

جلس راي على حافّة المكتب، وقال:

«خَبِرْتُ هذا الشعور. إنّه الجانب المملّ في التحقيق، الجانب الذي لا يُعرَض في التلفاز».

ثمّ أضاف مبتسماً من سحنة كايت الحزينة:

«لكن ذلك يستحق العناء. فكّري قليلاً: بين هذه الأوراق يوجد ربّما المفتاح الذي سيمكننا من حلّ هذه القضية».

نظرت كايت إلى مكتبها بارتياب جعل راي يضحك.

«هيّا، سأحضر فنجان شاي ثمّ آتي لمساعدتك».

تفحّصا الأوراق واحدة واحدة دون أن يعثرا على المعلومة التي كان يأمل راي العثور عليها.

وقال أخيراً:

«حسناً، على الأقلّ، هذا عمل خلَّصْناه. على كلّ حال أشكرك على بقائك هنا حتّى هذا الوقت المتأخّر».

«أتظنّ أنّنا سنعثر على السائق؟».

هزّ راي رأسه وأجاب:

«علينا أن نؤمن بذلك، وإلا لماذا يضع الناس فينا ثقتهم؟ لقد تكفّلت بمئات القضايا، صحيح أنّني لم أنجح في حلّها جميعاً، لكنني لا أيأس، وأظل مقتنعاً بأنّني قريب جداً من الجواب».

«أخبرني ستامبي بأنّك طلبت إذاعة نداء بحثاً عن شهود في برنامج **كرايمواتش**؟».

قال وهو يشير إلى كومة الأوراق التي لم تعد تصلح إلا للتمزيق:

«نعم. هذا أمر معهود بالنسبة إلى جرائم الاصطدام والهروب، لا سيما حين تكون الضحية طفلاً، بمعنى -وهذا ما أخشاه- أن القضية ستطول».

فهتفت كايت مؤكّدة:

«حسناً، على كلّ حال فأنا بحاجة إلى ساعات إضافية. فقد اشتريت شقّتي الأولى السنة الماضية، ولا أخفيك سرّاً إن اعترفت لك بأنّني أجد صعوبة في سدّ نفقاتي».

«أتعيشين بمفردك؟».

وتساءل عمّا إذا كان مباحاً طرح مثل هذه الأسئلة في أيامنا. منذ أن انخرط في سلك الشرطة، صار عليه اجتناب السؤال عن كل ما يتصل بالحياة الشخصية. في غضون سنوات لن يكون بمقدور الناس الخوض في أي شيء.

أجابت كايت:

«معظم الوقت. اشتريت الشقة بمفردي، لكن رفيقي كثيراً ما ينام فيها. أظنّ أنّني أستفيد من المزايا من دون تحمّل السلبيات».

أعاد راي الفنجانَين إلى مكانهما.

«حسناً، من الأفضل أن تعودي الآن إلى بيتك. لا بدَّ أنّ رفيقك يتساءل أين تأخّرت».

فأجابت وهي تنهض:

«لا أظنّ. فهو طبّاخ، وأوقات عمله أسوأ من أوقاتي. وأنت، ألم تضق زوجتك ذرعاً بتأخّرك في العمل؟».

فقال راي بصوت مرتفع بينما اتّجه إلى مكتبه ليجلب سترته:

«لقد تعوّدَت. ثمّ إنّها كانت تشتغل في الشرطة. بدأنا العمل معاً في الوقت نفسه».

لم يكن لمركز تكوين الشرطة في رايتن أون دونسمور مزايا كثيرة، لكنّ توفره على حانة رخيصة كان إحداها حتماً. فخلال حفلة موسيقية شاقّة، أبصر راي ماغس جالسة إلى مائدة مع رفاق صفّها. كانت تقهقه حتى أنّ رأسها مال إلى الخلف بسبب شيء قاله أحد الأصدقاء. ولمّا نهضت واقفة لكي تجلب كأساً، شرب كأسه التي كانت لا تزال ممتلئة دفعة واحدة حتّى يلحق بها إلى البار، لكنّه لم

يتجاسر على التحدّث إليها. ومن حسن حظّه أنّ ماغس لم تكن من النوع المتحفّظ، ومن ثمّة صارا لا يفترقان خلال الأسابيع الستة عشرة من الدراسة. وتمالك راي نفسه من أن يبتسم وقد تراءت له صورته وهو يتسلّل في السادسة صباحاً من جناح الفتيات ليلتحق بغرفته.

«كم مضى على زواجكما؟».

«خمس عشرة سنة. عقدنا القران عند نهاية فترة التدريب».

«لكنّها لم تعد تشتغل هنا؟».

«توقّفت عن العمل عند ميلاد توم، ولم تستأنف بسبب ميلاد لوسي التي بلغت الآن التاسعة من عمرها. أمّا توم فالتحق بالإعدادية. لهذا هي تفكّر الآن في العودة، لكن كمدرّسة».

«ولماذا توقفت كلّ هذه المدّة؟».

كان الفضول واضحاً في عينَي كايت، وتذكّر راي كيف كانت ماغس في بداية التحاقهما بالشرطة في مثل ريبة كايت. لمّا رأت رئيستها تستقيل لكي تنجب أطفالاً، قالت لراي إنّها لا ترى فائدة من أن يبني الإنسان مشواراً مهنياً، ثم يتخلّى عنه بعد ذلك.

ثمّ أضاف راي:

«كانت تريد أن تلزم البيت لكي تعتني بالطفلَين».

ثمّ ساوره شيء من الإحساس بالذنب. أرغِبَتْ ماغس فعلاً في ذلك؟ أم تراها فكّرت في أنّ ذلك هو أفضل ما يمكن أن تفعل؟ فرعاية الأطفال من الغلاء بحيث بدا قرار التوقّف عن العمل هو الأقرب إلى المنطق. وأدرك أنّها شاءت أن تكون حاضرة لكي ترافقهما إلى المدرسة، وتشارك في مختلف الحفلات التي تنظّم هناك رغم أنّها لم تكن تقلّ عنه ألمعية وكفاءة... إن لم تكن تفوقه.

«أظنّ أنك حين تقبل بالزواج من شخص يشتغل معك، ينبغي أن تتحمّل الفظاعات التي تترتب عن ذلك».

أطفأت كايت مصباح المكتب، فألفيا نفسيهما لحظة في الظلام قبل أن يتوجّه راي إلى الممر ويوقد النور.

وقال مؤمّناً على كلامها:

«هذا جزء من مخاطر المهنة. منذ متى وأنت ترتبطين برفيقك؟».

وتوجّها إلى الساحة حيث كانت سيارتاهما مركونتَين.

«ستّة أشهر تقريباً. لكنّ هذا شيء جيد بالنسبة إلي. فأنا عادة ما أتخلّص منهم بعد بضعة أسابيع. تقول عنّي أمّي إنّني حادّة الطبع».

«ما الذي لا تطيقينه فيهم؟».

فردّت بمرح:

«أشياء كثيرة. فيهم المبتذل والمهرّج، وثقيل الدم...».

فقاطعها راي:

«يا له من حكم قاسٍ».

«ربّما. لكن أليس من المهمّ أن يبحث الإنسان عن الشخص المناسب؟ أقفلت سنتي الثلاثين في الشهر الفارط، ولم يعد أمامي وقت أضيّعه».

لا يبدو عليها أنّها في الثلاثين، لكنّ راي لم يملك يوماً موهبة خاصة في تقدير أعمار الناس. لمّا ينظر إلى نفسه في المرآة، يرى الرجل الذي كانه في العشرين رغم التجاعيد البادية على وجهه.

بحث عن المفاتيح في جيبه.

«على كلّ حال، لا داعي لأن تستعجلي الاستقرار. لا تنسي أنّ الحياة ليست كلها ورود».

«شكراً على هذه النصيحة يا بابا».

«لا تبالغي، فأنا لست في سنّ أبيك!».

ضحكت كايت، فأضاف:

«شكراً على المساعدة هذا المساء. نلتقي غداً».

بينما كان راي يُخرج سيارة الدورية بحذر، ضحك في سرّه وهو يردِّد: يا بابا، يا لها من وقاحة!

لمّا عاد إلى البيت وجد ماغس جالسة في الصالون تشاهد التلفاز، مرتدية سروال منامة وكنزة صوفية قديمة، وقد عقصت رجليها كما يفعل الأطفال. كان المذيع يستعرض تفاصيل جريمة الاصطدام والهروب ليخبر سكان المنطقة الذين لم يتابعوا نشرات الأسبوع الفارط. رفعت ماغس عينيها لتنظر إلى راي وهزّت رأسها وهي تقول:

«انظر، يا له من خبر! مسكين هذا الطفل».

جلس بجوارها واستولى على جهاز التحكم عن بعد، وأسكت التلفاز. وبدت على الشاشة صور قديمة من مكان الحادث، وأبصر راي الجزء الخلفي من رأسه بينما كان يترجّل هو وكايت من السيارة.

قال وهو يطوّق كتفي زوجته بذراعه:

«اطّلعت عليه. اطمئني، لن يفلت الجاني».

وسرعان ما اختفت اللقطات التي تصوّر المكان، ليظهر وجه راي وهو يحتلّ كلّ الشاشة مجيباً عن أسئلة أحد الصحافيين.

«أتعتقد ذلك؟ هل لديكم خيوط قد تقودكم إلى الجاني؟».

ردّ وهو يتنهّد:

«ليس تماماً. لم يرَ أحد ما وقع، أو لنقل إن كان أحدهم رأى شيئاً، فهو ما زال يلزم الصمت. نحن نعوّل بالكامل إذاً على الشرطة العلميّة وعلى الاستعلامات».

«ألا يحتمل أن يكون السائق اقترف الجريمة دون أن ينتبه؟».

اعتدلت ماغس في جلستها، واستدارت لتواجهه. أزاحت خصلات شعرها عن وجهها بنفاد صبر لتشبكها خلف أذنها. منذ عرفها وهي تحافظ على التسريحة نفسها: شعر مجعّد طويل من دون طُرّة، بنيّ كشعر راي، لكن ما زال لم يخالطه شيب كشعره. وقد حاول راي بُعيد ميلاد لوسي أن يرسل اللحية، إلا أنّه عدل عن الفكرة بعد ثلاثة أيام حين لاحظ أنّ الشعر الأبيض يغلب على الأسود. منذئذ دأب على حلاقة ذقنه والتغاضي عن الشعر الأبيض البادي في صدغَيه، والذي يجعله يبدو، حسبما تقول ماغس، «مميّزاً».

«مستحيل. فقد صدم الطفل بمقدّمة السيارة».

لم تجفل ماغس. ترك الانفعال الذي لمحَهُ على وجهها عند مقدَمِهِ المجالَ لهذه السحنة المستغرقة التي طالما رآها أيّام كانا يشتغلان معاً.

ثمّ أضاف:

«هذا فضلاً عن أن السيارة توقّفت، ثمّ تراجعت إلى الخلف لتستدير وتعود من حيث أتت. قد لا يكون السائق انتبه إلى مقتل جاكوب، لكنّه يعرف كلّ المعرفة بأنّه صدمه».

سألت ماغس:

«هل طفتم على المستشفيات؟ قد يكون أصيب بجروح هو أيضاً و. . .».

ابتسم راي.

«أؤكّد لك أنّنا سنتكفّل به» ونهض، «اسمعي، أرجو ألا تغضبي، فقد قضيت يوماً متعِباً، وكلّ ما أرغب فيه الآن هو أن أشرب زجاجة جعة وأشاهد التلفاز قليلاً، ثمّ آوي إلى الفراش».

فردّت بجفاء:

«لم تتخلَّ عن عاداتك القديمة طبعاً...».

«أعرف، ولكن أعدك بأن نلقي القبض على السائق» ثمّ قبّلها على جبينها، «كما اعتدنا أن نفعل».

وتنبّه إلى أنّه قدّم لماغس الوعد الذي رفض تقديمه لوالدة جاكوب لأنّه لا يستطيع ضمان الوفاء به. قال لها وهو يأمل أن تكون هذه العبارة كافية: سنبذُل قصارى جهدنا.

توجّه إلى المطبخ ليجلب شيئاً يشربه تاركاً بال ماغس مشوّشاً لأنّ الأمر يتعلّق بطفل. ما كان عليه أن يفصح لها عن تفاصيل الحادثة لا سيما أنّه هو نفسه وجد صعوبة في السيطرة على مشاعره. من الطبيعي إذاً أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى ماغس. عليه أن يحرص على الاحتفاظ بمثل هذه المعلومات لنفسه.

تناول جعته وعاد إلى الصالون. جلس أمام التلفاز بجوارها ثمّ غيّر القناة ليشاهد برنامجه المفضّل.

لما وصل إلى مقر الشرطة الجنائية حاملاً حزمة من الملفات جلبها من مصلحة البريد، ووضعها فوق الكومة المكدّسة على المكتب. انزلقت وسقطت على الأرض، فهتف وهو يحدّق في مكتبه باشمئزاز:

«تبّاً!».

كانت المنظّفة قد مرّت وأفرغت سلّة المهملات. حاولت جاهدة

تنظيف الحيّز الفوضوي الذي يشتغل فيه، تاركة طبقة من الغبار حول حامِلة البريد. بجوار لوحة مفاتيح حاسوبه فنجان قهوة باردة، وعلى الشاشة عُلّقت قصاصات ورق تشير إلى أنّه تلقّى مكالمات متفاوتة الأهمية. انتزعها من مكانها، وألصقها على غلاف مفكّرته حيث كانت قصاصة ورق وردية ساطعة تذكّره بأنّ عليه هو وفريقه أن ينجزوا التقييم. هذا ما كان ينقصه! هو يناضل يومياً من أجل الوفاء بالمهامّ الإدارية. صحيح أنّه لم يكن يُظهر التبرم من ذلك -لا سيما حين كان مقبلاً على الترقّي-، لكنه ليس راضياً كلّ الرضا على ذلك الوضع. إنّ قضاء ساعة في الحديث عن تنميته الذاتية ليس إلا تبديداً للوقت في نظره، لا سيما أن عليه أن يحقّق في مقتل طفل.

وفي انتظار تشغيل حاسوبه، استند على مقعده حتّى مال إلى الخلف، ومضى ينظر إلى صورة جاكوب المعلقة على الجدار قبالته. فقد دأب على وضع صور من يحقّق حولهم أمام ناظريه منذ أن التحق بفرقة الشرطة الجنائية، ومنذ قال له رئيسه بنبرة خشنة إنّه من الجميل إلقاء القبض على الجناة، لكن على المرء ألا ينسى أبداً «لماذا يقوم بهذا العمل المُقرف». وقد كان يضع الصور فوق مكتبه إلى أن زارته ماغس مرّة قبل سنوات في العمل. كانت قد أحضرت له شيئاً لم يعد يذكره، لعلّه ملفّ نسيه أو سلّة طعام. ما زال يذكر أنّها حين نادته من مصلحة الاستقبال لتفاجئه، شعر بالتذمر لأنّها ستُعطّله عن العمل، ثمّ شعر بالذنب لمّا تنبّه إلى أنّها تجشمت المشقة لكي تأتي لزيارته. وبينما كانا متوجهين إلى مكتبه، توقّفا للسلام على رئيس ماغس السابق، الذي صار مفوّض شرطة.

قال لها راي لمّا بلغا أخيراً مكتبه:

«لا بدّ أنّ المجيء إلى هنا أثار في نفسك مشاعر غريبة».

ضحكت وهي تقول:

«أشعر كما لو أنّني لم أبرح هذا المكان. حين يصير المرء شرطيّاً، يظلّ كذلك طوال حياته».

وتطلّقت أساريرها بينما كانت تطوف في الحجرة وتتحسّس المكتب بأصابعها.

التقطت صورة امرأة كانت محاذية لصورتها مع الطفلين، وسألت كما لو أنها تعمّدت مضايقته:

«من تكون هذه المرأة؟».

أجاب وهو يلتقط الصورة من بين يديها بلطف ويعيدها إلى مكانها على مكتبه:

«ضحيّة. طعنها عشيقها سبع عشرة طعنة لأنّها تأخرت في إعداد الشاي».

جفلت ماغس، لكنّها لم تظهر شيئاً.

«أليس من الأفضل أن تضع صورتها في الملف؟».

«أفضل أن أضعها نصب عينَي لكي لا أنسى لماذا أقوم بهذا العمل».

هزّت رأسها. فهي تفهمه أحياناً أكثر ممّا يظنّ.

«ولكن لا تضعها إلى جوار صورتنا من فضلك يا راي».

تناولت الصورة، وراحت تبحث عن مكان آخر أنسب. وقع بصرها على لوحة الفلين المهملة الموضوعة في أقصى الحجرة، فتناولت دبوساً من كوز صغير على المكتب، وثبتت في وسطها بتصميم صورة المرأة الباسمة الهالكة.

وبقيت هناك.

مضى زمن طويل على إدانة عشيق تلك المرأة، وعوّضت

صورتَها صورُ ضحايا آخرين. صورة الرجل المسنّ الذي أوسعه جماعة من المراهقين ضرباً، والنساء الأربع اللواتي اعتدى عليهنّ سائق سيارة أجرة، والآن ها هي صورة جاكوب المتألق في لباسه المدرسي. كلّ شيء يتوقّف على راي. ألقى نظرة على الملاحظات التي دوِّنت في مفكرته اليوم السابق لكي يُحضّر لاجتماع هذا الصباح. لم يكن ثمّة شيء ذا بال يمكن أن يستند عليه. ولمّا أعلن حاسوبه بصفير على أنّه مُشغّل، جفل راي. ليست أمامه خيوط كثيرة ربّما، لكنّ الأكيد هو أنّ عملاً مضنياً ينتظره.

قبيل العاشرة بقليل حلّ ستامبي وفرقته بمكتب راي. جلس ستامبي ودايف هيلسدون على مقعدين بالقرب من المائدة الواطئة، بينما مكث الآخرون وقوفاً في أقصى الحجرة، مستندين على الجدار. أمّا المقعد الثالث فتُرك فارغاً لياقة وتأدُّباً. وراح راي يضحك في سرّه وهو يرى كايت تتجاهل المقعد وتلتحق بمالكوم جونسون في الأقصى. كان عددهم قد زاد، إذ انضاف إليهم شرطيان وُضعا حديثاً رهن إشارة الفرقة الجنائية. وقد ظهرا متضايقَين في بذلتيهما اللتين استعاراهما باستعجال من فيل كروكر، العامل بوحدة التحقيق في حوادث السير.

بادرهم راي:

«صباح الخير جميعاً. لن أطيل عليكم. يسرّني أن أقدم لكم برايان والتون من الفرقة الأولى، وبات برايس من الفرقة الثالثة. نحن مسرورون باستقبالكما بيننا. ينتظرنا عمل كثير، فلا تتردّدا في الانخراط».

هزّ برايان وبات رأسيهما مؤمّنان على كلامه.

واسترسل راي يقول:

«حسناً. موضوع هذا الاجتماع هو تفحّص وضع جريمة الاصطدام والهروب التي وقعت في فيشبوندس، والحسم في المقاربة التي سنتّبعها. كما تعلمون، فإنّ مدير الشرطة يتابع هذه القضية عن كثب» وألقى نظرة على الملاحظات التي دوّنها، رغم أنّه كان يحفظها عن ظهر قلب، «يوم الاثنين 26 نوفمبر، في الساعة الرابعة وثمان وعشرين دقيقة، تلقّى مركز الاتّصال مكالمة من امرأة تقطن بشارع إينفيلد. سمعت ضوضاء عالية، تبعه صراخ. خرجت مسرعة، لكنّها وجدت الأمر قد انتهى، ووالدة جاكوب عاكفة عليه في وسط الطريق. استغرق وصول سيارة الإسعاف ستّ دقائق، لكن جاكوب كان قد لفظ أنفاسه».

توقّف راي لحظة حتى يحسّ الجميع بخطورة التحقيق. وألقى نظرة باتجاه كايت، فألفى تعابير وجهها محايدة، بحيث لم يعد يدري أهو راضٍ أم حزين على اكتسابها مناعة قويّة. ولم تكن الوحيدة التي بدت تعابير وجهها محايدة. من يرى هذا المشهد من الخارج، قد يحسِبُ أنّ الشرطة لا تعبأ تماماً بموت هذا الطفل الصغير، بينما راي واثق من أنّ الحادثة هزّت مشاعرهم جميعاً. وأردف:

«لقد أكمل جاكوب عامه الخامس الشهر الماضي، مباشرة بعد التحاقه بمدرسة القديسة مريم الواقعة ببيكيت ستريت. يوم تعرّضه للحادثة كان قد شارك في نشاط مدرسي بعدَ الصف بينما كانت أمّه في العمل. وقد صرّحت بأنّهما بينما كانا عائدين إلى البيت وهما يتحدثان عمّا فعلاه ذلك اليوم، أفلت جاكوب من يدها، وعبر الطريق جارياً إلى المنزل، وهو أمر اعتاد على فعله حسب قولها. لم يكن ينتبِه إلى السيارات، لذلك كانت تمسك بيده كلّما اقتربا من الطريق».

وأضاف في سرّه: باستثناء هذه المرّة. لحظةُ غفلة لن تغفرها لنفسها قطّ. وشعر بقشعريرة تسري في جسده.

سأل برايان والتون:

«هل أبصرت السيارة؟».

«ليس تماماً. قالت إنّ السيارة عوض أن تفرمل حين صدمت جاكوب، زادت من سرعتها. بل كادت تصدمها هي أيضاً. سقطت وتأذّت من ذلك. لاحظ الناس إصاباتها في الحين، لكنّها رفضت أن تُسعف. هل يمكن أن تخبرنا بمزيد من التفاصيل عن الحادثة يا فيل؟».

كان فيل كروكر، وهو الشرطي الوحيد الذي يرتدي البزّة بين الحاضرين، خبيراً في مجال حوادث السير. وبما أنّه يملك سنوات من الخبرة في المجال، كان راي يستعين به في كلّ ما يتعلّق بحوادث السير.

هزّ فيل كتفيه وقال:

«لا شيء لديّ ذا بال أضيفه. لم نعثر على آثار العجلات بسبب المطر، ومن ثمّة لا أستطيع تخمين السرعة التقريبية التي كانت تسير بها السيارة، ولا ما إذا كانت فرملت قبل الحادثة. لقد عُثر على قطعة بلاستيك على بعد عشرين متراً تقريباً من نقطة الاصطدام. وقد قال الخبير إنّها جزء من مصابيح الضباب لسيارة فولفو».

فعلّق راي:

«هذا شيء مشجّع».

وأضاف فيل:

«لقد سلّمت التفاصيل لستامبي. هذا كلّ ما في جعبتي للأسف».

قال راي قبل أن يعود إلى الملاحظات التي دوّن:

«شكراً فيل. تقرير التشريح يشير إلى أنّ وفاة جاكوب تعود إلى صدمة حادّة سببت له العديد من الكسور، كما أدّت إلى انفجار طحاله».

كان راي قد حضر التشريح، ليس لضرورة مهنية، بل لكي لا يترك جاكوب بمفرده في غرفة الموتى. كان ينظر دون أن يرى شيئاً، متجنّباً التحديق في وجه الطفل، ومركّزا على الكلمات القليلة التي نطق بها طبيب وزارة الداخلية الشرعي. كانا معاً يستعجلان انتهاء العملية.

«بالنظر إلى منطقة الاصطدام، يتعلّق الأمر بسيارة صغيرة، وبذلك يمكن إزاحة السيارات المتوسطة والسيارات الرباعية الدفع. فقد عثر الطبيب الشرعي على قطع زجاج في جثة جاكوب، لكنني فهمت أنّ ذلك لا علاقة له ربّما بحجم السيارة. أليس كذلك يا فيل؟».

ونظر راي إلى خبير حوادث السير الذي أمّن على كلامه.

أضاف فيل مؤكّداً:

«الزجاج في حدّ ذاته لا يخصّ سيارة محدّدة. إن نحن ألقينا القبض على الجاني، سنعثر في ملابسه على بعض جزيئات ذلك الزجاج. فمن المستحيل التخلّص منها. لكن لا يوجد زجاج في مكان الحادثة، وهو ما يشير إلى أنّ الزجاج الأمامي للسيارة تصدّع بفعل الاصطدام، لكنّه لم يتكسّر. ينبغي أن تعثروا على السيارة، حينئذ سنقارن زجاجها بالشظايا التي اخترقت الضحية، وإلا . . .».

فعلّق راي وهو يحاول أن ينظر إلى الأمور من زاوية إيجابية:

«لدينا على الأقلّ فكرة عن الأضرار التي لحقت السيارة. هل تستطيع يا ستامبي أن تقدّم لنا نبذة عمّا قمتم به حتى الآن؟».

تأمّل الملازم جدار مكتب راي، حيث عُلِّقت خرائط وترسيمات وأوراق كبيرة دُوِّنت عليها قائمة من المهام الواجب إنجازها.

«قامت دوريّة بالطواف على المنازل واحداً واحداً مساء الحادثة، ثمّ واصلت في اليوم الموالي. كثير من الأشخاص وصفوا ما سمعوه بأنّه «ضوضاء عالية» تبعته صرخة، لكنّ لا أحد منهم رأى السيارة. بعثنا أعوان شرطة إلى المدرسة لحظة خروج التلاميذ لاستجواب الآباء، ووزعنا منشورات في صناديق البريد في الحيّ لعلّنا نعثر على شهود. كما أنّ الملصقات ما زالت معلّقة، وكايت تشرف على متابعة المكالمات الهاتفية».

«ألم يسفر كلّ هذا عن شيء؟»

هزّ ستامبي رأسه:

«يمكن القول إنّ الانطلاقة متعثّرة».

تجاهل راي نزعته المتشائمة، وقال:

«متى يُذاع **كرايمواتش**؟»

«مساء غد. سيُعاد تمثيل الحادثة. وقد قاموا برسم صور تقريبية عجيبة للسيارة. إثر ذلك سيبثّون الحوار الذي أجروه مع قائد الشرطة في استديوهاتهم».

فقال راي مخاطباً الجماعة:

«سأكون بحاجة إلى أحدكم هنا لحظة إذاعة البرنامج في حال ما إذا ظهر خيط من خيوط القضية. أمّا ما عدا ذلك، فلا داعي للاستعجال». حلّ الصمت، ومضى ينتظر جواباً وهو ينظر حوله. «ينبغي أن يتطوّع أحدكم...».

فأعلنت كايت وهي تلوّح بيدها في الهواء:

«لن يزعجني ذلك».

نظر إليها راي شاكراً، ثمّ سأل:
«وماذا عن أضواء الضباب التي أشار إليها فيل؟».
«حصلنا على رقم القطعة من فولفو، كما حصلنا على قائمة ورشات إصلاح السيارات التي أرسلوها إليها خلال العشرة أيام الأخيرة. وقد كلّفت مالكوم بالاتصال بهم، والشروع بأولئك الموجودين في المنطقة للحصول على أرقام السيارات التي ثُبِّتت عليها منذ وقوع الحادثة».
فقال راي:
«حسناً، لا يعزُبَنّ هذا عن بالكم خلال التحقيق. لا تنسوا أنّ الأمر لا يتعلّق إلا بعنصر من العناصر، وأننا لسنا واثقين كلّ الوثوق من أنّنا نبحث عن سيارة فولفو. من تكفّل بكاميرات المراقبة؟».
رفع برايان والتون يده هاتفاً:
«أنا. لقد حجزنا كلّ ما عثرنا عليه: تسجيلات كاميرات المدينة، وكاميرات المتاجر ومحطات الوقود الموجودة في المنطقة. ونحن بصدد مشاهدة ما سجّلته نصف ساعة قبل الحادثة ونصف ساعة بعدها. لكن رغم اختزال المشاهدة في هذه المدّة القصيرة، سنحتاج إلى مئات الساعات من أجل الاطّلاع عليها جميعاً».
جفل راي وهو يفكّر في كم سيلتهم ذلك من حصة الساعات الإضافية المخصّصة لقسمه. ثمّ قال:
«أحضروا لائحة الكاميرات. لن نستطيع مشاهدة كلّ التسجيلات. سنقرّر معاً أيّها سنعطيه الأولوية».
هزّ برايان رأسه، فقال راي:
«حسناً، ينتظرنا إذاً عمل كثير».
وجّه لهم ابتسامة واثقة رغم الريبة. مضى أسبوعان منذ الساعة

الحاسمة التي تلت الجريمة، الساعة التي تكون فيها حظوظ الإمساك بالجاني عالية. ورغم أن الفريق بذل قصارى جهده، فإنه لم يتقدّم في التحقيق. وصمت لحظة قبل أن يعلن عن الخبر السيّئ.

«لا أظنكم ستتفاجؤون إن أخبرتكم بأنّ جميع الإجازات ألغيت إلى أجل غير مسمّى. آنا آسف، ما بوسعي من أجل أن يُسمح لكم بإمضاء قليل من الوقت مع أسركم في عيد الميلاد».

وبينما كانوا يغادرون المكتب الواحد تلو الآخر، سمع همهمات ساخطة، لكنّ لا أحد منهم تجرّأ على التعبير صراحة عن تبرّمه، وهو ما كان يتوقّعه. ورغم أنّ لا أحد منهم جهر بذلك، كانوا كلّهم يفكرون في الكيفية التي ستقضي بها أم جاكوب عيد الميلاد هذه السنة.



بينما كنّا خارجين من بريستول، شعرت بفتور همّتي. لم أفكّر في الوجهة التي أقصدها. اتّجهت على غير هدى نحو الغرب وأنا أقول في نفسي ربّما أقصد دافن أو كورنوال. وتذكرت بحنين إجازات طفولتي. تذكّرت قصور الرمال التي كنت أشيّدها على الشاطئ مع إيف، وأيدينا تلتصق بسبب المثلجات والمرهم الواقي من الشمس. هذه الذكرى تدفعني نحو البحر بعيداً عن شوارع بريستول المحفوفة بالأشجار، وبعيداً عن زحمة المرور. أشعر بخوف مريع من هذه السيارات التي لا تستطيع أن تنتظر دخول الحافلة إلى المحطة لكي تتجاوز. أهيم على وجهي للحظة، ثمّ أدفع عشرة جنيهات في أحد الأكشاك، قرب حافلات غرايهوند، لشخص لا يعبأ مثلي بالوجهة التي أقصدها.

نعبر جسر نهر سيفرن، فأخفض بصري لأرى كتلة المياه القاتمة التي تدور كالدوّامة في قناة بريستول. الحافلة هادئة ولا أحد هنا يقرأ **بريستول بوست**، مثلما أنّ لا أحد يتحدّث عن جاكوب. استويت في جلستي وأسندت ظهري إلى المقعد. رغم أنّني متعبة، لا أقوى على إغماض عيني. بمجرّد ما أنام تحاصرني صور الحادثة وأصواتها،

وأقول في نفسي لو أنّني غادرت قبل ذلك الوقت بدقائق، لما كان وَقَعَ ما وقع.

حافلة غرايهوند متوجّهة إلى سوينسي. ألقي نظرة خاطفة من حولي لأرى من يرافقني في هذه الرحلة. معظم الركّاب من الطلبة، يضعون سمّاعات في آذانهم وهم عاكفون على المجلّات. لمحت أيضاً امرأة في مثل سنّي تتصفّح أوراقاً، وتسجّل بعناية ملاحظات في الهامش. قد يبدو عدم زيارتي لبلاد الغال أمراً مضحكاً، إلا أنّني مبتهجة الآن من كوني لا أعرف أحداً هناك، ومن ثمة فهو مكان مثاليّ لكي أبدأ فيه حياة جديدة.

أنا آخر من نزل من الحافلة. انتظرت في المحطة ريثما ابتعدتْ ولم يعد دفق الأدرينالين الذي شعرت به في بداية الرحلة سوى ذكرى بعيدة. الآن وقد حللت بسوينسي، لم أعد أعرف ما أفعل. رفع رجُل مضطجع على الرصيف بصره، وغمغم بكلام غامض، فابتعدت منه. لا يمكن أن أظلّ هنا رغم أنّني لا أعرف مكاناً أذهب إليه. انطلقت ماشية على غير هدى. ومضيت ألعب لعبة مع نفسي: سأعرّج على أوّل طريق في يساري، لا يهمّ إلى أين يقود، ثمّ أنعطف على الطريق الثاني على يميني، ثمّ أسير في خط مستقيم إلى أن أبلغ ملتقى الطرق القادم. لا أنظر إلى علامات الطريق، وأختار بالأحرى أصغر الطرق عند كلّ تقاطع، أيّ تلك الأقل ازدحاماً. أشعر بالدوار، كما لو أنّ نوبة هستيريا على وشك أن تنتابني. ما هذا الذي أفعله؟ وإلى أين أنا ذاهبة؟ وأتساءل عمّا إذا كنت فقدت رشدي، ثمّ أتنبه إلى أنّ ذلك لم يعُد يعنيني، ولا أهميّة له عندي.

أمشي لكيلومترات تاركة سوينسي خلفي. ألتصق بالشجيرات التي تسيّج الطريق كلّما مرت سيارة، وهو أمر صار نادراً الآن بعد

أن شارف النهار على نهايته. أحمل حقيبتي على كتفي كما لو كانت حقيبة ظهر، فيحفر حزاماها أخاديد في بشرتي، لكنني أحثّ السير مع ذلك، ولا أتوقّف. لا أسمع غير لهاثي، وبدأت أشعر بالهدوء. لا أفكر فيما وقع ولا في المكان الذي أقصده، وأكتفي بالمشي. أُخرِج هاتفي من جيبي، ودون أن أنظر إلى عدد المكالمات التي فاتتني، ألقي به في مياه الخندق الراكدة. كان هذا هو آخر شيء ما زال يربطني بالماضي، وساورني عندئذ شعور بمزيد من الحرية.

بدأت قدماي تؤلماني، وأنا واثقة من أنّني إن توقّفت لكي أستلقي قليلاً، فلن أقوَ بعدئذ على القيام أبداً. خفّفت قليلاً من سرعتي وسمعت سيارة من خلفي. وبينما كانت تمرّ من أمامي، تنحّيت إلى جانب الطريق، وعوض أن تختفي عند المنعطف، توقّفت على بعد خمسة أمتار منّي تقريباً. سمعت صفير الفرامل وفغمت أنفي رائحة غازات العادم. أحسست بالدم ينبض في أذنَي، ودون أن أفكر، استدرت وانطلقت جارية، والحقيبة ترتطم بعمودي الفقري. جريت على نحو أخرق وأنا أشعر بالقروح في رجلي تحتكّ بالحذاء، وبِسَيْلٍ من العرق ينزل على طول ظهري وبين ثديي. لم أعد أسمع السيارة، ولمّا التفت إلى الخلف وأنا أكاد أفقد توازني، وجدتها قد اختفت.

مكثت متسمّرة وسط الطريق المقفر كالبلهاء وقد شوّش التعب والجوع أفكاري. وتساءلت عمّا إذا كنت رأيت السيارة فعلاً أم أن صوت احتكاك مطاط حذائي بالأسفلت هو الذي يتردّد في رأسي، وهو الذي جعلني أتوهّم.

خيّم الظلام، ومع ذلك أنا واثقة من أنني الآن قريبة من البحر: أشعر بطعم الملح على شفتي، وأسمع صوت الأمواج تتكسّر على

الشاطئ. تشير علامة الطريق إلى بينفاتش، وهي من الهدوء بحيث شعرت كما لو أنّني دخلتها من دون استئذان، رافعة عينَي إلى النوافذ ذات المصاريع المغلقة لاتقاء هذا البرد الشتوي. ينشر القمر نوراً متوهّجاً أبيض، يعطي الانطباع بأنّ سائر الأشياء لا تملك سوى بُعدَين، ويجعل ظلّي يستطيل بعيداً أمامي، بحيث يجعلني أبدو أكبر بكثير من حجمي الحقيقي. وأعبر القرية إلى أن ألمح خليجاً تطوِّق شاطئه جُروفٌ كما لو أنّها تحرص على حمايته. أحاول أن أنزل بحذر طريقاً ضيّقاً متعرّجاً، على أنّ الظلام يحجب الرؤية، فيتملّكني الخوف من السقوط في الفراغ. ولم يلبث قدمي أن زلقت على صخرة فصرخت. أفقدتني حقيبتي المعلقة على ظهري التوازن، فارتطمت بالأرض، وتكوّرت إلى أن بلغت أسفل الطريق، وشعرت بالرمل الندي ينسحق تحت وزني، فالتقطت أنفاسي وأنا أتوقّع أن أحسّ بالألم في جزء من أجزاء جسدي. إلا أنني لم أشعر بشيء. وتساءلت لحظة عمّا إذا كنت محمية ضدّ الألم الجسدي: ليت الجسم البشري وُهِب القدرة على مقاومة الألم النفسي والجسدي على حدّ سواء. ما زالت يدي تؤلمني، لكن ذلك الألم يبدو بعيداً كما لو أنّه ينتاب شخصاً آخر.

وأشعر فجأة بالحاجة إلى الإحساس بشيء، مهما كان. ورغم البرد، أنزع حذائي لكي أشعر بحبات الرمل تحت قدمي. السماء زرقاء صافية، والقمر منتصب فوق البحر، مكتملاً ثقيلاً، تنعكس أشعته على صفحة الماء. أنا الآن بعيدة عن بيتي، وهذا هو الأهمّ. إنّه مكان لا يشبه بيتي في شيء. أتدثر في معطفي وأجلس على حقيبتي مسندة ظهري إلى الصخرة الصلبة، وأنتظر.

لعلّني نمت نوماً خفيفاً قطَعَه هدير الأمواج المندفعة على الشاطئ. أتمطى فأشعر بألم في أطرافي المتجمّدة ثمّ أنهض لأشاهد الضوء البرتقالي الخافت الذي ينير الأفق. على أنّ أشعة الشمس ليست دافئة مع ذلك، وتتملّكني الرعشة. لم تكن هذه فكرة جيّدة.

السير في الطريق الضيّق الوعر أسهل في ضوء النهار، وألاحظ الآن، بخلاف ما اعتقدت، أنّ المنحدرات الصخرية ليست مُقفرة. ذلك أنّ بناية واطئة تحيط بها منازل منقولة توجد على بعد ثمانمئة متر من هناك، ومن ثمّة فهذا مكان قد لا يكون أسوأ من غيره لبداية حياة جديدة.

قلت بصوت بدا طفوليّاً حادّاً في متجر المخيّم الدافئ:

«صباح الخير. أبحث عن مسكن».

«أأنت في عطلة هنا؟» قالت المرأة وقد وضعت صدرها المكتنز على نسخة من مجلة **تيك أي بريك**، «أعجب من مجيئك في هذه الفترة».

وافترّ فمها عن ابتسامة لطّفت من حدّة كلامها. حاولت أن أبادلها الابتسامة، لكنّ وجهي لم يستجب.

«أودّ الاستقرار هنا».

وتنبّهت إلى أن مظهري المتّسخ المهمل لا بدّ أنّه جعلني أبدو كمخبولة. وبدأت أسناني تصطك. رحت أرتعش بعنف، ذلك أنّ البرد نفذ إلى عظامي.

فقالت المرأة بابتهاج دون أن تأبه بحالي:

«أنت تبحثين إذاً عن إيجار. المخيّم مغلق إلى نهاية فصل الشتاء. المتجر وحده يظلُّ مفتوحاً. يلزمك الذهاب إلى ليستين

جونز. فهو يملك منزلاً غير بعيد من هنا. سأتصل به هاتفياً. موافقة؟ هل تريدين أن أحضِّر لك شاياً؟ البرد قارس في الخارج وأنت تبدين متجمّدة».

قادتني إلى مقعد بلا مسند خلف المشرب واختفت في الغرفة المجاورة دون أن تتوقّف عن الكلام رغم صخب غليان الماء.

«اسمي بيثان مورغان، أنا من أدير هذا المخيم، مخيم بينفاتش. أمّا زوجي غلين، فيتكفّل بالمزرعة». أخرجت رأسها من الباب وابتسمت لي. «هو يشتغل بالفلاحة على كلّ حال، وهي ليست مهنة مربحة في أيامنا، صدقيني. آه، كنت سأتّصل بليستين، أليس كذلك؟».

لم تنتظر بيثان الجواب، واختفت لدقائق بينما مضيت أعضّ على شفتي وأفكر بِمَ سأجيبها حين سنجلس لنشرب الشاي، وشعرت بالغصّة تكبر في حلقي.

على أنّ بيثان لمّا عادت لم تسألني عن شيء، لا عن وقت وصولي ولا الباعث الذي دعاني لاختيار بينفاتش، ولا حتّى المكان الذي أتيت منه. مدّت لي بكل بساطة الفنجان المثلوم المليء بالشاي المسكّر، ثم استوت على أريكتها. إنّها ترتدي من الملابس ما يجعل من المتعذر تمييز قوامها، لكن مسندي الأريكة ينغرزان في لحمها المترهّل على نحو لا يبدو مريحاً. لا بدّ أنّها في الأربعينات من العمر رغم أنّ استدارة وجهها وبشرته الملساء يجعلانها تبدو أصغر من سنّها. شعرها البنّي مرسل إلى الخلف في شكل ذيل حصان. وهي تنتعل حذاء طويلاً برباط وتلبس تنورة طويلة سوداء وعدداً من القمصان تعلوها سترة صوفية تبلغ حتى الكعبين، وتلامس الأرض المغبرة حين تهمّ بالجلوس. خلفها على حافّة النافذة، تَرَكَ عود

بخور محترق رماده ونشر رائحة توابل طيّبة في الهواء. وعلى صندوق تسجيل المدفوعات النقدية القديم، عُلّقت خيوط لامعة.

ثمّ قالت:

«ها هو ليستين قادم».

وضعت فنجاناً ثالثاً من الشاي على المشرب بجوارها واستنتجتُ أنّ ليستين يقطن على بُعد دقائق من هنا.

«من يكون ليستين؟».

وتساءلتُ عمّا إذا كنت اخطأت بالمجيء إلى هنا حيث يعرف جميع الناس بعضهم بعضاً. كان عليّ أن أختار مدينة، مكاناً يعيش فيه الإنسان دون أن يعرفه أحد.

أجابت بيثان:

«يملك مزرعة في الجانب الآخر من بينفاتش، كما يملك عنزات على التل وعلى طول الممرّ الساحلي. وأومأت بيدها باتّجاه البحر. سنكون جارتين إن أنت استأجرت منزله. لكن لا بدَّ من أن ألفت انتباهك إلى أنّه ليس بالمنزل الفاخر».

وضحكتْ، فلم أجد بدّاً من الابتسامة. ذكّرتني صراحتها بإيف دون أن يغيب عن ذهني أنّ أختي الرشيقة الأنيقة قد تستفظع هذه المقارنة.

«أنا لست متطلّبة».

ونبّهتني بيثان كما لو أنّها تخشى أن يخيب ظنّي:

«ليستين ليس كثير الكلام، لكنّه رجل طيّب. يرعى ماشيته هناك في التل إلى جانب ماشيتنا» وأشارت بيدها إشارة غامضة باتجاه المنطقة الداخلية، «وهو بحاجة، مثلنا جميعاً إلى أن يوفّر موارد إضافية. ماذا يسمّون هذا؟ تنويع المداخيل؟» وأرسلتْ ضحكة

ساخرة، «باختصار، ليستين يملك منزلاً للاصطياف بالقرية وبيتاً ريفيّاً في بلين سيدي، غير بعيد من هنا».

«أتظنّين أنّني سأستأجر البيت الريفي؟».

«إن أنت استأجرته، ستكونين أوّل من يفعل ذلك منذ مدّة».

جعلني صوت الرجل أنخلع من مكاني، فالتفتّ لأرى في فتحة الباب هيئة نحيلة.

قالت بيثان:

«الأمر ليس بالسوء الذي قد تظنّين! هيّا، تعال اشرب كأس شاي وبعد ذلك رافقها لتزور البيت».

وجه ليستين مليء بالتغضنات والتجاعيد حتى أنّ عينيه بالكاد تظهران. تختفي ملابسه تحت وزرة زرقاء مغبّرة، وتظهر على فخذيه بقع دهنية. وبينما كان يشرب شايه بصخب من خلال شاربه الأشيب المصفرّ من التدخين، مضى يتفرّسني.

راح يشرح بلهجة أجهدت نفسي لفكّ رموزها:

«بالنسبة إلى معظم الناس، بلين سيدي شديدة البُعد عن الطريق. هم لا يرغبون في حمل أمتعتهم كلّ تلك المسافة».

«هل يمكن أن أزوره؟».

قمت وأنا آمل أن يكون هذا البيت الريفي الذي لا يرغب فيه أحد هو ما أبحث عنه.

واصل ليستين شرب شايه وهو يدير في فمه كلّ جرعة يرتشفها قبل أن يبلعها. وانتهى به الأمر أن تنهّد دلالة على الاستحسان ثمّ قام وغادر المتجر، فنظرت إلى بيثان.

ضحكت وهي تقول:

«ألم أقل لك؟ هو ليس ثرثاراً. هيا، اتبعيه وإلا فإنه لن ينتظرك».

«شكراً على الشاي».

«سررت بمعرفتك. أرجو أن تأتي لزيارتي بعد أن تستقرّي».

ووعدتها بالعودة مع علمي بأنّني لن أفي بالوعد، وسارعت إلى المغادرة. وجدت ليستين جالساً على دراجة رباعية ملطّخة بالوحل ما إن رأيتها حتّى تراجعت خطوة إلى الوراء. أتراه ينتظر أن أركب خلفه؟ أركب خلف شخص تعرّفت إليه قبل خمس دقائق بالكاد؟

فصاح حتى أسمعه بسبب ضجّة المحرك:

«هذه هي وسيلة النقل الوحيدة هنا».

شعرت بالدوار وأنا أحاول التوفيق بين حاجتي إلى رؤية المنزل وما تملّكني من خوف رهيب، وجعلني أتسمّر في مكاني.

«حسناً، ينبغي أن تركبي إن كنت ترغبين في زيارة البيت».

تشجّعت وجلست بحذر خلفه. ليس ثمة مقبض أتمسك به ممّا أجبرني على تطويق خصر ليستين بيدي. وبينما تنطلق الدراجة النارية كالسهم في الممرّ الساحلي، أتشبّث بمقعدي. نسير بمحاذاة الخليج. المدّ الآن في أوجه، والأمواج تتكسّر على المنحدر الصخري، لكنّنا حين اقتربنا من الممرّ الذي ينزل إلى الشاطئ، ابتعد ليستين عن البحر. التفت وقال كلاماً وهو يشير موجِّهاً نظري إلى البرّ. وبينما راحت الدراجة تتقافز فوق الأرض الوعرة، مضيت أبحث عن المنزل الذي قد يصير بيتي الجديد.

لقد سمّته بيثان منزلاً ريفياً، لكن بلين سيدي لا تعدو أن تكون كوخ رعاة. فطلاء الجدران الأبيض الذي أُهمل منذ مدّة طويلة، وتُرك يواجه عوامل الطبيعة، استحال إلى لون رمادي قذر. والباب

الخشبي الكبير يبدو غير متناسب مع النوافذ الضيّقة القابعة تحت حافة السقف. الكوّة المعلّقة تشير إلى أنّ المنزل مؤلّف من طابقَين رغم ضيق مساحته. وفهمت سبب الصعوبة التي يواجهها ليستين في استئجاره خلال العطل. فمهما كانت شطارة الوكيل العقاري، سيجد صعوبة في التهوين من الرطوبة التي تعلو أُسُس الجدران الخارجية، وإخفاء أحجار السقف المزحزحة من مكانها.

وبينما كان ليستين يفتح باب البيت، نظرت باتّجاه الساحل معتقدة أنني سأرى المخيّم من هناك. لكن الطريق الذي سلكناه من الشاطئ انحدر بنا إلى منخفض عميق حجب عنّا الأفق. لم يكن الخليج بادياً كذلك، لكن صوت الموج المتكسّر على الصخر بانتظام كان يُسمع. وفي ضوء السماء الواهن، كانت النوارس تحوم وتئنّ مثل قطط صغيرة. وتملّكتني رعشة لا إرادية، فشعرت فجأة بالحاجة إلى دخول البيت.

طول الطابق الأرضي بالكاد يتجاوز أربعة أمتار. ثمّة طاولة من الخشب الخشن تفصل بين غرفة المعيشة ومطبخ بالغ الصغر جاثم تحت عارضة ضخمة من خشب البلوط.

أمّا الطابق العلوي، فتتوزّعه غرفة وحمام بالغ الضيق، مجهّز بنصف حوض استحمام، مرآته أكل عليها الدهر، بدت فيها صورة وجهي مشوّهة. ورغم أنّني أملك وجهاً نَمِشاً شاحباً، إلا أن ضعف الإنارة جعل بشرتي تبدو أشدّ شحوباً، ناصعة البياض بالنظر إلى شعري الأحمر الغامق المتدلي أسفل كتفي. أعود إلى الطابق السفلي، فأجد ليستين منهمكاً في ترتيب الحطب بجوار المدفأة. وما إن أنهى ترتيبها حتّى عبر الغرفة باتّجاه موقد الطبخ، وقال معلّقاً:

«إنّه متقلّب المزاج».

سحب درج الموقد في صخب أرعبني. وقلت:
«هل يمكن أن أزور البيت الموجود في القرية من فضلك؟».
لمست في صوتي نبرة يائسة، وتساءلت في نفسي ماذا تُراه يقول عنّي في نفسه.
نظر إليّ بارتياب.
«لا أظنّك تستطيعين دفع إيجاره».
فأجبت بحزم رغم أنني لا أعرف كم ستدوم مدّخراتي، ولا ماذا سأفعل حين ستنفذ:
«أستطيع».
لكنّه بدا غير مقتنع بكلامي.
«هل تشتغلين؟».
وتذكّرت ورشتي التي يغطيها الطين. لم تعد يدي تؤلمني، لكنّ حاسة اللمس في أصابعي ضعفت بحيث صرت أخشى من ألا أعود إلى النحت. كيف سيكون مصيري إن أنا اضطُرِرت إلى ترك النحت إلى الأبد؟
وقلت أخيراً:
«أنا فنانة».
وغمغم ليستين كما لو أن ذلك يفسّر كل شيء.
اتفقنا على مبلغ إيجار رغم ضآلته سيأتي في وقت وجيز على ما ادّخرته من مال. لكنّ البيت الريفي الصغير صار بيتي للشهر المقبل، وتنفّست الصعداء.
خربش ليستين رقماً هاتفياً على ظهر وصل أخرجه من جيبه.
«سلّمي مبلغ إيجار الشهر الجاري لبيثان إن شئت».

أومأ لي برأسه، ثمّ توجّه بخطى واسعة إلى الدراجة الرباعية وشغّل محرّكها الصاخب.

تابعته ببصري وهو ينطلق، ثمّ أغلقت الباب وسحبت مزلاجه العصي. ورغم شمس الشتاء، سارعت إلى الصعود إلى الطابق العلوي لكي أسحب ستائر الغرفة وأغلق نافذة الحمام المواربة. عدت إثر ذلك إلى الطابق الأرضي وحاولت فتح الستائر. كانت ملتصقة بالمثلث المعدني كما لو أنّها لم تستعمل قطّ. وحين سحبتها بحركة عصبية تطايرت من ثناياها سحابة من الغبار. ولاحظت أنّ النوافذ تهتزّ من الريح، وينفذ من جنبات إطارها برد قارس بسبب غياب الوصلات.

جلست على الأريكة، ورحت أصيخ السمع لصوت تنفّسي. لم أعد أسمع البحر، بل صراخ نورس كئيب شبيه بصوت رضيع يبكي، فأغلقت أذني.

شعرت بالتعب، فتكوّمت على نفسي مطوقة ركبتَي بذراعَي، وألصقت وجهي بقماش سروال الجينز الخشن. رغم شعوري بوشوك مجيء الألم، اجتاحني دفق من المشاعر انبعث بقوّة من أحشائي حتّى كاد يقطع أنفاسي. وشعرت به ألَماً حادّاً حتّى خُيِّل إليّ أنّ بقائي على قيد الحياة سيكون معجزة. من المستحيل أن يستمرّ قلبي في الخفقان وقد انفطر. حاولت أن أتمثّل صورته، وأنقشها في ذهني، لكن كلّ ما رأيته حين أغمضت عينيّ هو جسده الهامد بين ذراعي. لقد أهملته، وهو أمر لن أغفره لنفسي أبداً.

5

«هل يمكن أن نعتبر الأمر جريمة اصطدام وهروب يا نقيب؟».

أطلّ ستامبي برأسه من باب مكتب راي، وكايت في إثره.

رفع راي عينيه. فقد تضاءلت بالتدريج خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة الإمكانات المرصودة للقسم، ممّا يفرض التركيز على القضايا الأكثر إلحاحاً. ورغم أنّ راي ما زال يلتقي بستامبي وفريقه مرّة أو مرتين في الأسبوع، إلا أن المكالمات بشأن جريمة الاصطدام والهروب توقّفت، والتحقيق لم يعد يأتي بجديد منذ مدّة طويلة.

«بالطبع».

دخلا إلى المكتب وجلسا، فقال ستامبي من دون مواربة:

«لم نوفّق في العثور على أمّ جاكوب».

«ماذا تقصد؟».

«أقصد أنّ هاتفها لا يردّ، والمنزل خالٍ. لقد اختفت».

نظر راي إلى ستامبي ثمّ إلى كايت التي بدا عليها الضيق.

«أعتقد أنّ الأمر يتعلق بمزحة، أليس كذلك؟».

فردّت كايت:

«إن كانت مزحة، فلا علم لنا كيف ستنتهي».

قال راي وقد بدأ يفقد هدوءه:

«هي أمّ الضحية، والشاهدة الوحيدة، فكيف فقدتم أثرها؟».

امتقعت كايت، وبذلت ما في وسعها لكي تضبط نفسها. سأل راي:

«ماذا وقع على وجه التحديد؟».

حدّقت كايت في ستامبي، فأومأ لها بأن تتكلّم. فقالت شارحة:

«بعد الندوة الصحفية، لم نعد بحاجة إليها. كنّا قد استجوبناها وأخذنا إفادتها، ومن ثمّة أحلناها على الموظّفة المكلّفة بالعلاقات مع الأسر».

«ومن تكون هذه الموظفة؟».

أجابت كايت بعد صمت قصير:

«ديانا هيلث من قسم شرطة المرور».

دوّن راي الاسم في مفكرته الزرقاء، وراح ينتظر كايت أن تسترسل.

«مرّت ديانا لزيارة أمّ جاكوب في ذلك اليوم، فوجدت المنزل مهجوراً. كانت الأمّ قد اختفت».

«وماذا قال الجيران؟».

«لم يقولوا شيئاً ذا بال. لم تكن علاقتها بهم وطيدة، ولا أحد منهم رآها وهي تغادر. كان الأمر كما لو أنّها تبخّرت».

استرقت كايت النظر إلى ستامبي، فنظر إليها راي مليّاً وقال:

«ماذا تخفيّان عنّي؟».

خيّم الصمت لحظة قبل أن يبادر ستامبي إلى القول:

«الظاهر أن أحدهم انتقدها نقداً لاذعاً في أحد المنتديات المحليّة. نعتها أحد الغوغاء بأنّها أم حقيرة أو شيء من هذا القبيل».

«تقصد شهّر بها؟».

«على الأرجح. فكلّ ذلك الكلام حُذف. وقد طلبت من تقنيّي المختبر محاولة استرجاع المستندات المحجوبة. لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ. يبدو أن الشرطيين الذين استجوبوها بعد الحادثة مباشرة تمادوا قليلاً، ولم يراعوا مشاعرها. لقد خالت، فيما يبدو، أنّهم يحمّلونها مسؤولية ما وقع، ومن ثمّة تهيّأ لها أنّ الشرطة تعاملت مع البحث عن السائق الجاني باستخفاف وتقصير».

فقال راي ساخطاً:

«اللعنة!».

وتساءل عمّا إذا كان بإمكانه أن يأمل في عدم وصول هذا إلى رؤسائه.

«وهل تقدّمت بشكوى من معاملة الشرطة؟».

فردَّ ستامبي:

«الشرطيّة المكلّفة بالعلاقات مع الأُسر هي أوّل من حدّثتنا عن ذلك».

فقال راي:

«اذهبا إلى المدرسة. لا بدَّ أن يكون ثمّة أحد ظلّ على اتّصال بها. اسألا أيضاً الأطباء. لن يتجاوز عدد عيادات الطب العام اثنين أو ثلاثاً في الحي. فبحكم أنّها أمّ لطفل، لا بدَّ أن يكون أحد الأطباء مشرفاً على متابعة حالتها الصحية. ومن ثمّة قد يكون بعث بملفّها إلى طبيبها الجديد».

«سمعاً وطاعة».

«احرصا، رأفة بنا، على ألا تعلم بوست بكوننا فقدنا أثرها».

وارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة. «ستبتهج سوزي فرينش أيّما ابتهاج بهذا».

لم ترتسم الضحكة على وجهيهما. واسترسل راي:

«هل ثمّة شيء آخر ينبغي أن تطلعاني عليه عدا اختفاء الشاهدة الوحيدة؟».

فأجابت كايت:

«التحريات الأخرى لم تسفر عن شيء. سُرقت سيارتان أو ثلاث في منطقتنا، لكن عثر عليها. وتفحّصتُ صور كلّ السيارات التي التقطتها كاميرات المراقبة ذلك المساء، وطُفتُ عبثاً على كل ورش إصلاح السيارات وصباغتها ببريستول. لا أحد يعرف شيئاً عن المشتبه به، أو هذا ما يزعمونه على الأقل».

«وأين بلغ برايان وبات في تفحّص الكاميرات؟».

فردّ ستامبي:

«شاهدا بشقّ الأنفس كلّ تسجيلات كاميرات الشرطة والمدينة، وهما الآن بصدد مشاهدة تسجيلات محطات الوقود. تعرّفا في ما سجّلته ثلاث كاميرات متباينة إلى السيارة نفسها التي كانت قادمة من شارع إينفيلد دقائق قليلة بعد جريمة الاصطدام والهروب. قامت بثلاث محاولات تجاوز خطيرة أو أربع قبل أن تختفي من الشاشات. ولم ينجحا في العثور عليها ثانية. حاولا التعرّف إلى ماركتها، لكن لا شيء يسمح بالقول إنّها السيارة التي صدمت الطفل».

«حسناً. شكراً لكما على إخباري بهذه الأمور. نظر راي إلى ساعته لإخفاء خيبته من تعثّر التحقيق. لماذا لا تذهبان إلى الحانة؟ سأتصل برئيستي وألحق بكما بعد نصف ساعة؟».

فردّ ستامبي الذي لم يكن يرفض دعوة للشرب:

«حسناً. وأنت يا كايت؟».

«لماذا سأرفض ما دمت دعوتني؟».

لم يلتحق راي بحانة ناغس هيد إلا بعد ساعة، فوجد ستامبي وكايت يشربان كأسهما الثانية. غبطهما على قدرتهما على نسيان هموم العمل، ذلك أنّ مكالمته مع رئيسته تركت في نفسه شعوراً بالمرارة. لم تكن امرأة بغيضة، لكن الرسالة كانت واضحة: ينبغي إنهاء التحقيق. كانت الحانة هادئة، والجوّ رائقاً داخلها بحيث أمِل راي أن ينسى العمل لساعة، ويتحدّث عن كرة القدم أو الجوّ أو أي شيء آخر لا صلة له بطفل في الخامسة من عمره دهسته سيارة وتبخّرت.

بادره ستامبي متذمّراً:

«أتيت فوجدتني بالكاد طلبت كأساً أخرى».

فأجابه راي وهو يغمز لكايت:

«لا تقل لي أخرجت حافظة نقودك؟ ستكون معجزة!».

ذهب لإحضار زجاجة جعة، وعاد بثلاثة أكياس رقائق بطاطس طرحها على المائدة.

سألته كايت:

«كيف كانت المكالمة مع الرئيسة؟».

لم يكن بوسعه أن يتجاهل سؤالها ولا أن يكذب. رشف جرعة من زجاجته ليربح الوقت. مضت كايت تحدّق فيه وهي متلهّفة لمعرفة ما إذا كانوا وافقوا على تزويدهم بمزيد من الإمكانات. لم يكن يطيق تخييب ظنّها، لكن الحقيقة ستُعرَف عاجلاً أم آجلاً.

«لم تكن جيدة في الواقع. برايان وبات سيعودان إلى فرقتيهما».

«كيف؟ ولماذا؟».

وضعت كأسها على المائدة بقوّة حتى كاد النبيذ يندلق.

فقال راي:

«كنا محظوظين بأن ظلّا معنا طول هذه المدّة. وقد قاما بعملهما على أحسن وجه في تفحّص الكاميرات. لكن فرقتيهما لا يمكن أن تستغنيا عنهما لمدّة أطول. هذا فضلاً عن أنّه لم يعد ثمّة ما يبرِّر نفقات إضافية في هذا التحقيق. آنا آسف».

ورغم أنّه قدّم اعتذاره كما لو أنّه المسؤول عن هذا القرار، لم يمنع ذلك كايت من أن تردّ:

«لا يمكن أن نستسلم هكذا!».

تنهّد راي. شقت عليه هذه المعادلة بين كلفة التحقيق وثمن حياة إنسانية، حياة طفل. كيف يمكن تقدير روح إنسان بثمن؟

فأجابها:

«لن نستسلم. ستواصلين البحث بين من غيّروا مصابيح سياراتهم، أليس كذلك؟».

فأومأت برأسها موافقة.

«استُبدِل ثلاثة وسبعون مصباحاً خلال الأسبوع الذي عقب جريمة الاصطدام والهروب. حتّى الآن كل الإصلاحات التي تكفّلت بها شركات التأمين مبرّرة، وأنا الآن أبحث عمّن أدّوا ثمن المصابيح من جيوبهم».

«أرأيت؟ لا أحد يعرف ما يمكن أن تكتشفيه. كلّ ما في الأمر هو أن وتيرة التحقيق ستتباطأ قليلاً».

نظرت عبثاً إلى ستامبي باحثة عن دعم معنوي. لكنّه قال:

«الإدارة تريد نتائج فوريّة يا كايت. هذا كل ما يهمّهم. إذا لم

تحلّ قضية في بضعة أسابيع، أو في بضعة أيام في الحالات المثالية، لا تصير ذات أولوية، ويجري ويُستعاض عنها بأخرى».

فأجابت كايت مؤيّدة:

«أعرف جيّداً كيف تجري الأمور. لكن هذا ليس سبباً كافياً لكي نعتبر ذلك طبيعياً، أليس كذلك؟» مضت تداعب الفُتات على المائدة، فلاحظ راي أنّ أظافرها غير مطلية ومقضومة عن آخرها. «يحذوني شعور بأنّنا على وشك أن نفكّ لغز هذه القضية».

فقال راي:

«أجل. أنت محقّة ربّما، لكن بانتظار ذلك، عليك أن تشتغلي على قضايا أخرى بالموازاة. أيّام الراحة ولّت».

فأعلنت:

«كنت أنوي الاستخبار في المشفى. ربّما يكون السائق أصيب في الحادثة: كأن تلتوي فقرات رقبته بفعل الصدمة أو شيء من هذا القبيل. رغم أنّ دورية بُعثت إلى قسم طوارئ روايال إنفارموري في الليلة نفسها، علينا أن نعمّق البحث قليلاً فيما إذا لم يزر المشفى للعلاج بُعيد الحادثة».

فعلّق راي:

«فكرة جيّدة». ذكّره هذا الاقتراح بشيء، لكنه لا يتبيّن ما هو. لا تنسي أن تفحصي أيضاً ساوثميد وفرينشاي». ارتعد هاتفه الموضوع على وجهه فوق المائدة، فتناوله ليقرأ الرسالة النصية، «اللعنة!».

نظرا إليه، كايت باندهاش بينما بدت على شفتي ستامبي ابتسامة عريضة.

فسأله:

«ماذا نسيت؟».

علا التجهّم وجه راي دون أن يجيب. أفرغ الزجاجة وأخرج من جيبه ورقة عشر ليرات مدّها إلى ستامبي.

«اشربا شيئاً آخر، أمّا أنا فتلزمني العودة إلى البيت».

لمّا وصل إلى البيت، وجد ماغس تملأ غسالة الأواني، وترتّب الأطباق في السلّة بعنف جعله يجفل. كانت ترسل شعرها في شكل ضفيرة وترتدي سروال بدلة رياضية وأحد قمصانه. وتساءل متى كفّ بالضبط عن الانتباه إلى الكيفية التي تلبس بها، ثمّ ما لبث أن لام نفسه على هذا السؤال، إذ من الصعب أن يجد له جواباً.

وقال:

«أنا آسف حقّاً. لقد نسيت تماماً».

فتحت ماغس زجاجة نبيذ أحمر. ولاحظ راي أنّها لم تجلب غير كأس واحدة، لكنّه قدّر أنّه من غير اللائق إثارة انتباهها لذلك.

بادرته:

«من النادر جدّاً أن أطلب منك الحضور في وقت محدّد. أنا أعلم أنّك تقدّم العمل على كلّ شيء، وأتفهّم ذلك كلّ التفهُّم. لكن هذا الموعد كان محدّداً منذ أسبوعين، نعم منذ أسبوعين! وقد وعدتني بالحضور يا راي!».

وتهدّج صوتها، فطوّق راي كتفيها بذراعه المرتعش.

«آسف يا ماغس. لقد سارت الأمور على نحو سيّئ».

قالت وهي تتخلّص من ذراعه لتجلس إلى مائدة المطبخ وترتشف من كأس النبيذ:

«حسناً. مهما كان، فهم لم يقولوا شيئاً مفزعاً. عدا أنّ توم لا يبدو أنّه تكيّف في المدرسة مثل باقي الأطفال، وهم قلقون بشأنه».

توجّه راي إلى خزنة المطبخ وجلب كأساً ملأها وعاد وهو يقول:

«وماذا يفعل الأساتذة؟ كان عليهم أن يتحدّثوا إليه».

ردّت ماغس وهي تهزّ كتفيها:

«يقول توم إنّ كلّ شيء على ما يرام فيما يظهر. السيدة هيكسون فعلت ما بوسعها لكي تحفّزه وتجعله أكثر انخراطاً في الصف، لكنّه يرفض المشاركة. وقالت إنّ ذلك أثار شكوكها حول ما إذا لم يكن توم طفلاً منطوياً».

«توم طفل منطوٍ؟».

نظرت ماغس إلى راي وقالت:

«لهذا كنت بحاجة إليك هنالك».

«لقد غاب الموعد عن ذهني تماماً. أنا آسف حقّاً. كان هذا اليوم مرهقاً، لذلك توقفت قليلاً لأشرب زجاجة بعد العمل».

«مع ستامبي؟».

حرّك راي رأسه موافقاً. كان ستامبي أثيراً لدى ماغس. فهو عرّاب توم. وقد كانت تغضّ الطرف عن زجاجات الجعة التي يشربانها معاً بعد الفراغ من العمل، لأنّها تعلم أنّ زوجها بحاجة إلى هذه اللحظات التي يقضيها مع أصدقائه. لم يذكر كايت، وهو لا يعرف لذلك سبباً.

تنهّدت ماغس وهي تقول:

«ما العمل؟».

«كل شيء سيسير على ما يرام. اسمعي، الالتحاق بالمدرسة

الإعدادية يكون دائماً صعباً بالنسبة إلى الطفل. بعد أن كان في فضاء يعرفه، يجد نفسه فجأة في ساحة الكبار. سأتحدّث إليه».

«لا داعي للمواعظ...».

«لن أعطيه مواعظ!».

«... لن يعمل ذلك إلا على مفاقمة الأمر».

صمت راي. لطالما شكّل راي وماغس فريقاً جيّداً، إلا أنّ مقاربتيهما لمسائل التربية متباينة. فماغس أكثر مرونة في تعاملها مع الطفلَين، وأميل إلى احتضانهما عوض تركهما يعتمدان على نفسيهما.

وكرّر راي واعداً:

«لن أعطيه دروساً».

«اقترحت المدرسة أن نراقب سلوكه وتصرفاته في الشهرين القادمين، ثمّ نعود للتشاور معهم بعد العطلة».

ورشقته بنظرة ذات معنى. فقال:

«حدّدي تاريخ الموعد، وسأكون حاضراً».

6

أضواء السيارة الساطعة تنعكس على الأسفلت المبلّل، فتبهر بصرهما بين الفينة والأخرى. الناس يحثّون الخطى على الرصيف الزلق، والسيارات التي تمرّ ترش أحذيتهم. أوراق الشجر المبلّلة تتكدّس في أكوام أسفل الحواجز، ألوانها الزاهية تبهت شيئاً فشيئاً.

شارع مقفر.

جاكوب يجري.

صرير مكابح مبتلة، صوت مكتوم يتعالى حين ارتطم جاكوب بالزجاج الأمامي للسيارة، ودار على نفسه قبل أن يسقط على الطريق. زجاج أمامي معتم. بِركة دمٍ تتجمّع تحت رأسه.

تقطع الصرخة نومي، فأستيقظ مفزوعة. لم يطلع النهار بعد، لكن ضوء الغرفة موقد. فأنا لم أعد أطيق الظلام. قلبي يخفق بشدة وأحاول التقاط أنفاسي.

شهيق وزفير.

شهيق وزفير.

الصمت المخيّم أدعى إلى الإرهاق منه إلى السكينة. أغرز

أظافري في راحتَي وأنا أترقّب أن تتبدّد مخاوفي. تزيد أحلامي وتصير أقسى. أسمع فرقعة ارتطام رأسه بالأسفلت...

لم تكن تنتابني الكوابيس في بادئ الأمر، لكنها حين شرعت تعتريني الآن، لم تعد تتوقّف. كلّ مساء حين أخلد إلى فراشي، أقاوم النوم وأتخيّل سيناريوهات متعدّدة على شاكلة كتب الأطفال التي يختار فيها القارئ النهاية التي تناسبه. أغمض عينَي ضاغطة جفنَي بقوة وأنا أردّد النهاية التي اخترت: نهاية ننطلق فيها خمس دقائق قبل انطلاقنا أو خمس دقائق من بعد. تلك التي يكون فيها جاكوب ما زال على قيد الحياة نائماً في فراشه هذه اللحظة، رموشه السوداء موضوعة على وجنتيه المستديرتَين. إلا أنّ ذلك لا يغيّر شيئاً. كلّ مساء أعقد العزم على أن أستيقظ قبل الوقت الذي استيقظت فيه اليوم السابق، كما لو أنّني إن تمكنت من التشويش على الكابوس، سيتأتّى لي تغيير الواقع على نحو من الأنحاء. لكنّ الأمور تبدو كما لو أنّها تسير على نسق ثابت. مرّت أسابيع الآن وأنا أستيقظ مراراً في الليل على صوت جسد صغير يرتطم بالزجاج الأمامي، فأصرخ -بلا جدوى- بينما يدور في الهواء ويسقط على الطريق المبلّل.

تحوّلتُ إلى ناسكة تحبس نفسها داخل جدران البيت الريفي الحجرية، لا أجازف بالذهاب أبعد من متجر القرية لشراء الحليب. صار غذائي يقتصر على الخبز المحمّص والقهوة. ثلاث مرات وأنا أقرّر زيارة بيثان في المخيم، وفي كلّ مرّة أغيّر رأيي. وددت لو أجبر نفسي على الذهاب. لقد مرّت فترة طويلة لم ألتقِ فيها صديقاً، وحتّى الآن ما زلت لا أشعر بالحاجة إلى ذلك.

أشدّ قبضة يدي اليسرى، ثمّ أبسط أصابعي التي تخدّرت بعد

نوم ليلة كاملة. لم أعد الآن أشعر بالألم تقريباً، لكنني لم أحس براحة يدي وإصبعين من أصابعي. أضغط على يدي لأزيل التنمّل. كان علي أن أذهب إلى المشفى بالطبع، لكن هذا يبدو تافهاً مقارنة بما وقع لجاكوب. يبدو كما لو أنّني أستحقّ هذا الألم! لذلك فضّلت تضميد الجرح بنفسي، وكلّ يوم حين أغيّر الضمادة أصك أسناني. وهكذا شفيت شيئاً فشيئاً، واختفت خطوط كفي تحت الندوب.

أخرج قدمي من تحت الغطاء الذي يغطّي سريري. لا توجد تدفئة في الطابق العلوي، وقطرات الماء التي تكاثفت على الجدران تلمع. أرتدي بسرعة سروال البدلة الرياضية وقميصاً أخضر غامقاً، تاركة شعري عالقاً تحت الطوق، وأنزل السلَّم. البلاط البارد يقطع أنفاسي، فأسارع إلى حشر قدمي في الحذاء الرياضي قبل أن أسحب المزلاج لفتح باب البيت. طوال حياتي وأنا مواظبة على القيام باكراً. أستيقظ عند الفجر لأعمل في ورشتي. من دون عملي أشعر بالضياع، كما لو أنني أبحث يائسة عن هوية جديدة.

أظنّ أنّه سيكون ثمّة سُيّاح في الصيف، ليس في مثل هذه الساعة، وربما ليس بقرب هذا البيت الريفي، لكنهم سيأهلون الشاطئ بكلّ تأكيد. أمّا الآن فالشاطئ لي لوحدي، أجد فيه عزلة مسلّية. شمس شاحبة تشقّ طريقها لتبلغ أعلى المنحدرات الصخرية، تنعكس أشعتها على البرك المتجمّدة المتناثرة على الممر الشاطئي الملتوي المحاذي للخليج. أشرع في الجري، فتترك أنفاسي سحباً من البخار من خلفي. لم يسبق لي أن مارست رياضة الجري في بريستول، أمّا هنا فألزم نفسي بالجري لكيلومترات.

أضبط خطواتي الراكضة على إيقاع دقات قلبي، وأتوجّه إلى

الشاطئ. يُصدر حذائي صوتاً بينما يرتطم بالأرض الصخرية، لكنّ قدمي صارت أكثر وثوقاً من كثرة الجري كلّ يوم. صرت أعرف الطريق الضيّق المفضي إلى الشاطئ حتّى أنّني أستطيع نزوله مغمضة العينين، وأقفز الأمتار الأخيرة لأحطّ على الرمل المبلّل. أقترب من المنحدر الصخري، وأركض ببطء بمحاذاة الخليج إلى أن يعترض طريقي الجدار الصخري، ولا يعود لي من منفذ سوى البحر.

تراجع البحر وترك خلفه أخشاباً طافية ومُزقاً من القمامة على الرمل. ولمّا أدرت ظهري للمنحدر الصخري، رفعت من إيقاع ركضي، ورحت أجري على حافة الماء، فتنغرس قدماي في الرمل المبلل. أخفض رأسي لأحتمي من الريح الباردة، وأقاوم الأمواج وأنا أجري بأقصى سرعة على طول الشاطئ إلى أن أشعر برئتَي تلتهبان، وأحسّ بدمي يصفّر في أذني. وبينما أقترب من أقصى الشاطئ، ينتصب أمامي المنحدر الصخري المقابل، لكن عوض أن أخفّض من سرعتي، أسرع أكثر. ينثر الريح شعري على وجهي، فأهز رأسي لكي أزيحه. أزيد من سرعتي، وفي رمشة عين قبل أن أصطدم بالمنحدر، أبسط ذراعَي أمامي، وأضعهما على الصخر البارد. حينئذٍ أشعر بأنني حيّة يقظة، في مأمن من الكوابيس.

تنخفض نسبة الأدرينالين في دمي، فتتملّكني الرعشة. أعود أدراجي وألاحظ أنّ الرمل المبلّل قد محا آثار قدمي، ولم يترك شيئاً من ركضي بين المنحدرَين الصخريَّين. يلوح لي عود قرب قدمي، فأتناوله وأرسم دائرة من حولي، لكن الرمل ينغلق بمجرد ما أرفع العود عن الأرض. يغيظني ذلك فأصعد قليلاً، حيث الرمل جاف، وأرسم دائرة أخرى. هذا أفضل. وتنتابني رغبة لا تقاوم في كتابة اسمي على الرمل مثل طفلة في عطلة، وأثارت هذه الرغبة الصبيانية

ابتسامتي. ورغم أنّ العود ثقيل وزلق، أتمكّن من كتابة الحروف، وأعود إلى الوراء لكي أتأمّل ما كتبت. ما أغرب رؤية اسمي مكتوباً على نحو واضح وبارز. لقد بقيت متوارية عن الأنظار لفترة طويلة. فماذا عساني أكون اليوم؟ نحّاتة لا تنحت شيئاً، أمّاً بلا طفل. الحروف واضحة للغاية، هي من الكبر بحيث تُرى من أعلى المنحدر الصخري. تساورني قشعريرة من الخوف والإثارة. ورغم ما في الأمر من مجازفة، فقد ترك في نفسي شعوراً طيّباً.

يوجد في أعلى المنحدر الصخري حاجز ينبّه المتنزهين إلى تجنّب الاقتراب من الحافة بسبب انهيار الصخور. أتجاهل الإشارة، وأتخطّى السلك الحديدي لأقف على بعد بضعة سنتمترات من الهاوية. بمقدار ما تعلو الشمس في السماء، يستحيل لون الرمل الممتدّ من الرمادي إلى الذهبي، ويلوح اسمي وسط الشاطئ، فيضعني أمام تحدّي الإمساك به قبل أن يندثر.

قرّرت أن ألتقط له صورة قبل أن يصعد المد ويمحو آثاره، وذلك حتّى أخلّد هذه اللحظة التي شعرت فيها بأنني شجاعة. أعود جارية إلى البيت لأجلب آلة التصوير. يساورني إحساس بأنّ خطواتي أخفّ، وأدرك بأنّني لست أجري خوفاً، بل أجري من أجل هدف ما.

ليست لهذه الصورة ميزة خاصة. تأطيرها ليس جيّداً، والحروف شديدة البُعد من الشاطئ. أنزل إلى الرمل من جديد وأكسو وجهه الناعم بأسماء مستمدة من ماضيّ قبل أن أترك الماء يمحوها. ثمّ أكتب أسماء أخرى في مكان أعلى قليلاً. أسماء مأخوذة من كتب قرأتها في طفولتي المبكّرة وأخرى أحببتها فقط لشكل الحروف التي

تؤلفها. إثر ذلك أُخرج آلة التصوير، وأُقرفص على الرمل وألتقط لها صوراً من زوايا متباينة. أصوّرها أوّلاً بحيث تبدو الأمواج في خلفيتها، ثمّ مع الصخرة. بعد ذلك أصوّرها مع رقعة من السماء الزرقاء، ثمّ أصعد الطريق الصخري الوعر حتى أعلى المنحدر لألتقط آخر الصور وأنا واقفة على حافة الجرف، متجاهلة الخوف الذي يستبدّ بي. يبدو الشاطئ مكسوّاً بكلمات مكتوبة بحروف من مختلف الأحجام، أشبه بخربشات بلا رأس ولا ذيل، خطّها رجل مجنون. وبينما يأخذ المدّ الصاعد في التقدم على الشاطئ، تشرع الأمواج في ملامسة الحروف، جارفة معها الرمل. وعندما سيتراجع البحر هذه الليلة، سيترك الشاطئ نظيفاً من جديد، أستطيع إعادة الكتابة عليه مرّة أخرى.

لا أعرف كم الساعة، لكن الشمس ارتفعت في السماء، وقد التقطت ما يناهز مئة صورة. تلطّخت ملابسي بالرمل المبلّل. وحين مسحت بيدي على رأسي، تنبهت إلى أن الملح جعّد شعري. لست أرتدي قفازات، لذلك تجمدت أصابعي. سأعود إلى المنزل، وأستحمّ بالماء الدافئ، ثمّ أنقل الصور إلى حاسوبي لأرى النتيجة. أحسّ بدفق من الحيوية: إنّها المرّة الأولى منذ الحادثة التي أجد فيها لنهاري هدفاً.

أتوجّه إلى البيت الريفي، لكنني ما إن أصل إلى مفترق الطرق، حتّى يتملكني التردُّد. أتذكر بيثان ومتجر المخيم، وكيف أنها ذكّرتني بأختي. وأحسّ فجأة بالحنين إلى بلدي. وقبل أن أغيّر رأيي، أيمّم وجهي صوب المخيّم. ما الذي يحملني على الذهاب إلى المتجر؟ ليس معي مال يسمح لي بأن أزعم أنني أتيت لشراء الحليب أو الخبز. أستطيع أن أزعم بأنّني جئت لأسأل عن شيء، لكنّني وجدت

صعوبة في العثور على ذريعة معقولة. مهما حاولت، ستتفطّن بيثان إلى انعدام الصدق في كلامي، وستشفق من حالي.

ما كدت أقطع مئة متر تقريباً حتّى فترت همّتي. وحين وصلت إلى موقف السيارات توقّفت. نظرت إلى المتجر من الجانب الآخر، فَلاحَ لي طيف في النافذة. لم أستطع أن أتبيّن ما إذا كان طيف بيثان. ومن دون التثبّت من ذلك، عدت أدراجي جارية إلى البيت.

وصلت إلى بلين سيدي، أخرجت المفتاح من جيبي، ولمّا وضعت يدي على الباب وجدت أنّه يتحرّك قليلاً، فتنبّهت إلى أنّه غير مقفل. إنّه باب قديم، وقفله غير موثوق. دلّني ليستين على كيفية سحبه وإدارة المفتاح حسب زاوية محددة، على أنني كثيراً ما كنت أقضي أكثر من عشر دقائق لكي أفتحه. كان قد ترك لي رقم هاتفه وهو لا يعلم بأنني تخلّصت من هاتفي المحمول. ورغم أنّ البيت مرتبط بالشبكة الهاتفية، لا يوجد هاتف. كنت أضطر إذاً إلى الذهاب إلى بينفاتش لأبحث عن مخدع هاتفي وأتّصل به طالبة منه المجيء لتسوية هذه المشكلة.

وما كادت تمضي عليّ بضع دقائق في البيت حتّى سمعت طرقاً على الباب.

«هل أنت هنا يا جينا؟ أنا بيثان».

فكّرت في أن ألزم مكاني، لكن الفضول استبدّ بي، واستبدّت بي الإثارة وأنا أفتح الباب. رغم محاولتي اعتزال الناس، كنت أشعر بالوحدة في بينفاتش.

«لقد أتيتك بفطيرة محشوّة باللحم».

أرتني بيثان طبقاً مغطّى بقطعة قماش ودخلَت دون أن تنتظر دعوتي ثمّ وضعت الفطيرة قرب موقد المطبخ.

قلت لها وأنا أبحث عن موضوع للحديث بينما اكتفت هي بالابتسام:

«شكراً».

نزعت معطفها الصوفي الثقيل، فرُحت أنظر إليها مبهوتة.

«... أأحضّر لك شاياً؟».

«شريطة أن تكوني أنت أيضاً راغبة في شربه. جئت لأسأل عن أحوالك». قلت في نفسي لماذا لم تأتي لزيارتي في المتجر، لكنني أعرف معنى أن يستقرّ المرء في مكان لأوّل مرّة.

جالت ببصرها في البيت، وتوقّفت عن الكلام وهي تحدّق في الصالون الفارغ من الأثاث، والذي ظلَّ على حاله منذ جاء بي ليستين لزيارة البيت لأوّل مرّة.

فقلت بارتباك:

«لا أملك أثاثاً كثيراً كما ترين».

فعلّقت بهمة:

«هذه حالنا جميعاً هنا. ما دمت تشعرين بالدفء، وتحسّين بأنّك في بيتك، فهذا هو المهمّ».

بينما استرسلت في الحديث، قمت أنا إلى المطبخ لأحضّر الشاي ممتنّة لأنّني وجدت شيئاً أشغل به يدي، ثمّ جلسنا ونحن نحمل فنجانينا حول مائدة الصنوبر.

«كيف وجدت بلين سيدي؟».

«ممتازة. هذا ما كنت أبحث عنه تماماً».

فقالت بيثان وهي تهتزّ من الضحك حتّى أنها أراقت الشاي على سروالها:

«تقصدين صغيرة وباردة؟».

مضت تفرك القماش بلا جدوى. وانتشر السائل مشكِّلاً بقعة داكنة على فخذها.

فأجبت وأنا أبتسم:

«لستُ بحاجة إلى بيت واسع. أمّا البرد، فالنار تقيني شرّه. لقد أحببت هذا المكان حقّاً».

«ما قصتك إذاً يا جينا؟ كيف حططت الرحال في بينفاتش؟».

فقلت ببساطة وأنا أخفض بصري وأنظر إلى الفنجان الذي طوقتُه براحتي حتّى لا تلتقي عيناي بعينَي بيثان الثاقبتَين:

«المكان رائع».

فلم تلحّ في السؤال.

«أنت محقّة. هناك أماكن أسوأ من هذا رغم أنّه يبدو كئيباً في هذا الفصل من السنة».

«متى ستشرعين في تأجير البيوت المتنقلة؟»

«نبدأ في عيد الفصح، ونستمرّ طوال الصيف إلى عطلة أكتوبر. يتغيّر المكان كثيراً بحيث لن تتعرّفي إليه. إن كان سيزورك أفراد من العائلة وكنت بحاجة إلى منزل متنقّل، أخبريني. هذا البيت ضيّق، لن يسعهم».

«هذا لطف منك، لكنّني لا أنتظر زيارة أحد».

«أليست لديك عائلة؟».

راحت بيثان تتفرّسني، ولم يعد بوسعي أن أخفض بصري.

«لدي أخت، لكننا تقاطعنا».

«ماذا وقع بينكما؟».

فأجبت بكياسة:

«ما يحدث بين الأخوات من مشاحنات».

وتراءى لي من جديد وجه إيف الغاضب وهي تناشدني أن أنصت إليها. أدرك الآن كم كنت متغطرسة، كم أعماني الحبّ. لو أنني أنصتّ لكلامها، لكانت الأمور الآن مختلفة ربما.

«أشكرك على الفطيرة. هذا لطف منك».

فردّت بيثان بينما مضت ترتدي معطفها، وتطوق عنقها بالوشاح دون أن يربكها تغيير موضوع الحديث:

«دعك من هذا الكلام. لِمَ يصلح الجيران؟ مُرّي إذاً إلى المتجر لتشربي فنجان شاي».

ورغم أن الأمر لم يتعلق بسؤال، رحت أحرّك رأسي، فحدقت فيّ بعينَيها البنيتَين الغامقتَين، فشعرت كما لو أنني صرت طفلة من جديد وأنا أقول:

«أعدك بأن أمرّ».

وكنت صادقة.

بعد انصراف بيثان، سحبت بطاقة الذاكرة من آلة التصوير، ونقلت الصور إلى الحاسوب. وإذا كان معظمها لا يصلح إلا للقمامة، فإن بعضها تظهر فيها الكلمات المخطوطة على الرمل على خلفية البحر الهائج. أضع الغلاية على النار لأحضر الشاي من جديد، لكنني لم أشعر بمرور الزمن، بحيث لم أنتبه إلى أن الماء ظلّ بارداً إلا بعد نصف ساعة. لقد انطفأ موقد المطبخ مرة أخرى. كنت مستغرقة في مشاهدة الصور بحيث لم ألحظ انخفاض درجة الحرارة. شرعت أسناني تصطك من البرد، ولم أستطع إيقافها. أنظر إلى الفطيرة التي أتتني بها بيثان، فتشرع معدتي تتضوّر جوعاً. آخر مرّة انطفأ فيها الموقد، تطلّب منّي إصلاحه يومين كاملين، وشعرت

بالإحباط وأنا أفكر في أنّ المشكلة قد تكون هي نفس ما حدث في المرّة السابقة.

شحذت همّتي وأنا أقول في نفسي: متى صار حالي يدعو إلى الشفقة؟ متى فقدت ملكة اتخاذ القرار وحلّ المشاكل؟ لا يمكن أن أرضى بهذه الحال.

وقلت بصوت عالٍ تردّد على نحو غريب في المطبخ:

«حسناً، فلأتصرّف إذاً!».

طلعت الشمس على بينفاتش قبل أن أعيد الدفء إلى البيت. شعري ملطّخ بالشحم، وركبتاي متصلّبتان من طول ما بقيت مُقرفصة على أرضية المطبخ. وبينما كنت أدخل فطيرة بيثان إلى الفرن لتسخينها شعرت بأنّني أدّيت واجبي، وهو إحساس لم يساورني منذ فترة طويلة. ورغم أنّ الوقت لم يعد وقت عشاء بل وقت إفطار، وأنّ معدتي هدأت، هيّأت المائدة وجلست للأكل مستمتعة بكلّ لقمة أضعها في فمي.

7

صاح راي في توم ولوسي وهو ينزل السلَّم وينظر إلى ساعته للمرّة الخامسة خلال بضع دقائق:

«هيّا أسرعا! سنتأخّر!».

كما لو أنّ ما يلاقيه راي من إجهاد صباح الاثنين غير كافٍ، ها هي ماغس تقضي الليلة عند أختها ولن تعود إلى البيت إلا عند الزوال. عليه إذاً الاعتماد على نفسه طوال أربع وعشرين ساعة. هو يدرك الآن تبِعات السماح للطفلين بمشاهدة فيلم قبل الخلود إلى النوم. فقد وجد صعوبة كبيرة في إيقاظ حتى لوسي التي عادة ما تصحو على السابعة والنصف وهي تفيض حيوية. حلّت الساعة الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة وهما ما زالا غير جاهزين. محافظة الشرطة تنتظره على الساعة التاسعة والنصف، وإذا ما استمر الطفلان بهذه الوتيرة، ستصل التاسعة والنصف وهو لا يزال يصرخ أسفل السلَّم.

«هيّا تحرّكا!».

خرج راي بخطى مصمّمة وقصد السيارة. شغّل المحرّك تاركاً باب المدخل مشرعاً، فخرجت لوسي جارية وشعرها المنفوش يتطاير حول وجهها، وتسلّلت إلى المقعد الأمامي إلى جانب أبيها. كانت

تنورتها المدرسية الزرقاء الغامقة مكمّشة وأحد جوربيها منسحب بحيث يلامس كعبها. ولم تكد تمضي دقيقة حتّى خرج توم وقصد السيارة بخطى بطيئة وذيل قميصه يصفقه الريح. كان يحمل ربطة عنقه في يده، غير عازم فيما يظهر على ارتدائها. لقد طالت قامته كثيراً في الفترة الأخيرة، وصار يقف على نحو غريب: برأس مخفوض طول الوقت وكتفين منحنيين.

أنزل راي زجاج نافذة السيارة، وقال:

«الباب يا توم!».

«ماذا؟».

مضى توم يحدّق في أبيه.

«باب المدخل؟».

شدّ راي قبضته، وتساءل كيف تتحمّل ماغس كلّ هذا يومياً دون أن تتبرّم. كانت قائمة الأمور التي عليه القيام بها تشغل كل فكره، وكان حرياً به ألا يرافقهما إلى المدرسة هذا اليوم.

تجرجر توم إلى أن بلغ باب المدخل، فصفقه ثمّ عاد ليجلس في المقعد الخلفي، وقال:

«لماذا تجلس لوسي في المقعد الأمامي بينما أجلس أنا هنا؟».

«إنّه دوري».

«كلا ليس دورك».

«بلى دوري».

فصاح بهما راي:

«هذا يكفي!».

صمتا معاً، وخلال الطريق إلى مدرسة لوسي الابتدائية، استعاد راي هدوءه. ركن سيارته في مكان يُمنع فيه التوقف، ورافق ابنته

بخطى حثيثة إلى أن بلغت الصفّ. قبّلها على جبينها وعاد جارياً ليجد امرأة تسجّل رقم سيّارته.

لما رآته يعود جارياً ويقف أمام السيارة قالت وهي تحرّك إصبعها وتشير إليه:

«أأنت من فعل هذا؟ حسبتك خبيراً بالقانون أيّها الضابط».

فردّ راي:

«آسف، إنّه أمر مستعجل».

تركها وهي تربت بالقلم على مفكرتها وامتطى سيارته. وقال في نفسه: يا لها من جمعية آباء لعينة! مافيا حقيقية. مشكلتهم أنّهم يملكون من الوقت ما لا يعرفون كيف يبدّدونه.

قال راي وهو يسترق النظر إلى المقعد بجواره:

«كيف أحوال الدراسة؟».

كان توم قد تسلّل إلى المقعد الأمامي بمجرّد ما تركته لوسي، لكنّه كان يحدّق بعناد من النافذة.

«حسناً».

قال أستاذ توم إن كانت أموره لم تسوء، فهي لم تتحسّن بكلّ تأكيد. لقد زار راي المدرسة بصحبة ماغس، فقيل له إنّ طفله لا أصدقاء له، ولا يبذل أيّ جهد في الصف. كما أنّه لا يسعى البتة إلى التقدّم والارتقاء.

«قالت السيدة هيكسون إن ثمّة نادياً لكرة القدم يوم الأربعاء بعد الفراغ من الدروس. ألا ترغب في الانضمام إليه؟».

«كلا».

«لمّا كنت في سنّك كنت لاعباً جيّداً. قد يكون ذلك مودَعاً في الجينات، ما رأيك؟».

كان راي يعرف، دون أن ينظر إلى توم، أنّه يرفع عينَيه إلى السماء، ويكشّر ويغمغم مثلما يفعل أبوه.

وغرز السماعتين في أذنيه.

تنهّد راي. لقد حوَّل البلوغ ابنه إلى مراهق منغلق على نفسه ودائم التبرّم، وتوجّس من اليوم الذي ستصبح فيه البنت مثله. ورغم أنّه لم يكن يميّز بينهما، إلا أنّه كان يشعر بميل أكبر إلى لوسي التي لا تزال، وهي في التاسعة من عمرها، تطلب منه أن يضمّها، وتلح عليه أن يروي لها حكاية قبل أن تنام. وقد كانا، حتى قبل مراهقة توم، دائمي الشجار والتشاحن. ورغم أنّ ماغس تقول إنّ الشبه بينهما كبير، فهو لا يرى لهذا الشبه وجهاً.

قال توم وهو يزيل حزام الأمان والسيارة ما زالت لم تتوقّف:

«يمكنك أن تتركني هنا».

«لكن ما زال بيننا وبين الإعدادية شارعان».

«كفى يا بابا. أريد أن أتمشّى».

أمسك بمقبض الباب حتّى خال راي أنه سيفتحه ويرتمي.

ركن السيارة على جانب الطريق، متجاهلاً لثاني مرّة هذا الصباح علامات منع الوقوف الظاهرة على الأرض، وقال:

«أتعرف أنّك ستصل متأخّراً؟».

«إلى اللقاء».

ما كاد توم يترجّل ويصفق الباب حتى عبر الطريق متسلّلاً بين السيارات. لكن ماذا أصاب ابنه؟ فقد كان بالغ اللطف. ألا تكون قلّة الكلام هذه طقساً من طقوس العبور بالنسبة إلى المراهق؟ أم أنّ الأمر يتعلّق بشيء آخر؟ هزّ راي رأسه. قد يبدو الحديث مع الأطفال كنزهة في الهواء الطلق مقارنة بتحقيق جنائي معقّد، لكنّه الآن يفضّل

استجواب مشتبه به على الحديث مع توم. وشكر الله على أنّ ماغس هي من ستتكفل بجلب الأطفال من المدرسة.

لمّا وصل إلى محافظة الأمن، كان قد نسي موضوع توم. لم يكن بحاجة إلى عبقرية خاصة لكي يخمّن سبب استدعائه من لدن المحافِظة. فقد مضت ستة أشهر على وقوع جريمة الاصطدام والهروب دون أن يراوح التحقيق مكانه. جلس راي ينتظر على مقعد خارج مكتب المحافظة الملبّس بخشب البلوط. وقالت له الكاتبة وقد علت وجهها ابتسامة رقيقة:

«ستنتهي من المكالمة حالاً. لن تتأخّر كثيراً».

كانت محافظة الأمن أوليفيا ريبون امرأة لامعة، لكنّها رهيبة. بعد أن ارتقت الدرجات بسرعة، صارت تدير شرطة إيفون وساميرسيت منذ سبع سنوات. طوال سنوات وهي تأمل أن تصير محافظة أمن مدينة لندن، إلا أنّها اختارت «لأسباب شخصية» أن تظلّ في منطقتها الأصلية، تمارس هوايتها المفضلة المتمثلة في السعي إلى تقليص إمكانات الضبّاط السامين خلال الاجتماعات الشهرية. كانت من أولئك النساء اللواتي خُلقن لارتداء البدلة، بشعرها الكستنائي الغامق، المشدود بكعكة قاسية، وساقيها القويتين المتواريتين خلف السروال الأسود اللاصق السميك.

فرك راي راحتَي يده بسرواله ليتأكّد من أنهما جافّتان تماماً، إذ يروج أنّ المحافظة أوقفت ترقية ضابط إلى رتبة القيادة لأنّها قدّرت أنّ يديه النديتين «لا تحملان على الثقة». لا يعلم ما إذا كانت هذه الإشاعة صحيحة، لكنّه لا يرغب في المجازفة. إنّ راتبه كنقيب بالكاد يكفي لسدّ نفقاته. كثيراً ما تُردّد ماغس بأنّها ترغب في أن تعمل في التدريس، لكن راي قدّر الأمر جيّداً: إن تمكّن من الترقّي

درجة أو درجتين، سيحصل على ما يحتاجان من مال دون أن تضطرّ هي للعمل. وتذكّر معاناته هذا الصباح، وقال في نفسه كان الله في عون ماغس، فهي تتعب أكثر ممّا يلزم، ولا ينبغي أن تفكّر في العمل. فراتبه يوفّر للأسرة الضروريات.

خاطبته الكاتبة:

«بإمكانك أن تدخل».

التقط راي نفساً عميقاً، وفتح الباب.

«صباح الخير سيدتي».

عمَّ الصمت. كانت المحافظة منهمكة في تدوين ملاحظات طويلة بخطّها المستغلق المميّز. توقّف راي قرب الباب وتظاهر بأنّه يتأمّل بإعجاب ما علِّق على الجدران من صور وأوسمة. كان السجاد الأزرق الداكن أسمك ممّا هو عليه في بقية البناية، ومائدة اجتماعات ضخمة تشغل نصف الحجرة. في الجانب الآخر كانت أوليفيا ريبون تجلس خلف مكتب ضخم مستدير. وما لبثت أن توقّفت عن الكتابة ورفعت عينيها.

«أريدك أن تحفظ قضية جريمة الاصطدام والهروب التي وقعت في فيشبوندس».

الظاهر أنّها لن تطلب منه الجلوس، لذلك اختار المقعد الأقرب منها، وجلس رغم كلّ شيء. قطّب دون أن ينطق.

«أظنّ لو أنّه توفّر لنا قليل من الوقت...».

فقاطعته:

«توفّر لكم ما يكفي من الوقت ويزيد. خمسة أشهر ونصف بالضبط. هذا يخلق لنا الحرج يا راي. في كلّ مرة تنشر فيها **بوست** ما تسمّيه آخر تطورات التحقيق، لا يعمل ذلك إلا على التذكير

بإخفاق عمل الشرطة. اتّصل بي مساء أمس عضو المجلس البلدي لويس: يريد إقبار هذه القضية، وهذا ما أريده أنا أيضاً».

شعر راي بالغضب يضطرم بداخله.

«أليس لويس هو من اعترض على طلب السكان بتحديد السرعة في الحي في ثلاثين ميلاً في الساعة؟».

عمّ الصمت، ومضت أوليفيا تنظر إليه بفتور.

«احفظ القضية يا راي».

مضى كلّ منهما يحدّق في الآخر وهما جالسان إلى المكتب المصنوع من خشب الجوز المصقول. وبخلاف ما كان منتظراً، كانت أوليفيا هي أوّل من يتنازل. استوت في جلستها على المقعد، وشبكت يديها أمامها.

«أنت شرطي ممتاز يا راي، وتصميمك دليل على علوّ همّتك، لكن إن شئت أن تترقّى، عليك أن تسلّم بأن السياسة هي جزء لا يتجزّأ من مهنتنا، وأنّها لا تقلّ أهمية عن التحقيقات».

«أدرك ذلك يا سيدتي».

أجهد راي نفسه حتّى لا يفضح صوتُه ما يشعر به من إحباط.

قالت أوليفيا بينما أزاحت غطاء قلمها وتناولت المذكّرة الموضوعة فوق مكتبها:

«اتّفقنا إذاً. ستحفظ القضية ابتداء من اليوم».

شعر راي هذه المرّة بالرضا من زحمة المرور وهو عائد إلى مقرّ عمله. لم يكن مستعجلاً لنقل الخبر إلى كايت، وتساءل لماذا فكّر فيها من دون الآخرين. وقال في نفسه ربّما لأنّها حديثة العهد بقسم الشرطة الجنائية. لم تجرّب بعد الإحباط الذي يشعر به المرء حين

يضطر إلى حفظ قضية يكون قد أنفق فيها كثيراً من الجهد. أمّا ستامبي، فمعتاد على هذا.

استدعاهما بمجرّد ما وصل إلى مكتبه. كانت كايت أوّل من حضر، حاملة في يدها فنجان قهوة وضعته قرب الحاسوب، بجانب الفناجين الثلاثة الأخرى نصف المملوءة الموضوعة بإهمال هناك.

«أهي فناجين الأسبوع الفارط؟».

«نعم. المنظّفة لم تعد ترغب في غسل الفناجين».

«شيء عادي. تستطيع أن تغسلها بنفسك».

جلست كايت في الوقت الذي دخل فيه ستامبي وحيّا راي بإشارة من رأسه.

ما كاد ستامبي يجلس حتى سألت كايت:

«أتذكران السيارة التي فرّت، وتعرّف إليها برايان وبات على تسجيلات الكاميرات؟ تلك السيارة التي بدت متعجّلة؟».

هزّ راي رأسه.

«لم تسمح لهما الصور بتحديد نوعها، لذلك أنوي عرضها على ويسلي. سيمكننا، في أسوأ الأحوال، من استبعاد هذا الخيط».

ويسلي بارتون رجل نحيل شاحب استطاع أن يجد لنفسه عملاً مع الشرطة باعتباره متخصّصاً في كاميرات المراقبة. ففي قبو منزل خانق بلا نوافذ يقع في ريدلاند رود، يستعين بترسانة من المعدات الإلكترونية لتوضيح الصور حتّى تتمكّن الشرطة من استعمالها كأدلة إثبات. وبما أنّ ويسلي كان يتعاون مع الشرطة، لم يمانع راي في الاستعانة به. لكنّ ثمّة شيئاً غريباً في كلّ هذا جعله يشعر بالقشعريرة. وقال:

«آسف يا كايت. لا أستطيع السماح بهذا الإنفاق».

تمالك نفسه من أن يقول لها إنّ كلّ جهودها لم تفد في شيء وأنّ خدمات ويسلي مكلِّفة رغم أنّه يقوم بعمل جيّد. ورغم أنّ راي كان معجباً بمقاربة كايت التي تنمّ عن ذكائها، فقد أبى الاعتراف بذلك حتّى بينه وبين نفسه. ثم إن باله مشغول بشيء آخر هذه الأيام. فقصة توم تشوّشه. وما لبث أن ألفى نفسه يلقي باللائمة على ابنه. لن يغفر أن يترك حياته العائلية تؤثّر على عمله، لا سيما في قضية كهذه تداولتها وسائل الإعلام على نطاق واسع. وتذكّر بمرارة أنّ كلّ هذا لم تعد له أهمية الآن بعد أن اتّخذت المحافظة قرارها.

ردّت كايت معترضة:

«هو لا يكلّف باهظاً. لقد تحدّثت إليه...».

فقاطعها راي بحدّة:

«لا أستطيع أن أسمح بأيّ إنفاق».

حدّق ستامبي في راي. كان خبيراً بشؤون القسم بحيث لم يصعب عليه التنبؤ بما سيأتي لاحقاً.

وأعلن راي من دون أن يحوّل عينَيه عن كايت:

«طلبت منّي المحافظة أن أطوي هذه القضية».

خيّم صمت قصير.

«أتمنّى أن تكون أجبتها بأنّك تهزأ بها وبقرارها!».

وراحت كايت تضحك، لكنّها تنبّهت إلى أنّ لا أحد يشاركها الضحك، فنظرت إلى راي ثمّ إلى ستامبي وقد امتقع لونها.

«أتتكلّم بجد؟ نُعرِض عن التحقيق هكذا؟».

فأجاب راي:

«لن نُعرِض عنه. لم يعد بإمكاننا أن نفعل أكثر ممّا فعلنا.

أضواء الضباب التي عُثر عليها في مكان الحادثة لم تُفضِ إلى شيء. . . ».

«لا تزال تنقصنا اثنتا عشرة لوحة ترقيم على الأقلّ. لا يمكن أن تعرف عدد أصحاب الورش الميكانيكية الذين لا يحتفظون بأثر مكتوب عن الإصلاحات التي يقومون بها. هذا لا يعني أنّني لن أعثر عليهم. كلّ ما في الأمر أنا بحاجة إلى مزيد من الوقت».

فقال راي بلطف:

«إنّه تبديد للجهد. ينبغي على المرء أحياناً أن يعرف متى عليه أن يتوقف».

وتدخّل ستامبي قائلاً:

«لقد قمنا بكلّ ما نستطيع، لكن الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش. نحن لا نعرف رقم تسجيل السيارة ولا لونها ولا نوعها ولا طرازها: ينبغي أن نتوفّر على شيء واحد على الأقل يا كايت».

سُرّ راي بمساندة ستامبي، وأضاف:

«نحن لا نتوفّر على شيء حقّاً، وبذلك سنضطرّ إلى حفظ القضية في الوقت الراهن. وبطبيعة الحال إن ظهر خيط يمكن أن يقودنا إلى الجاني، فلن نتردّد في اقتفائه، وإلا. . . ».

لم يكمل الجملة. لقد شعر بأنّ كلامه صار أشبه ببلاغ صحفي أصدرته المحافِظة.

فبادرته كايت:

«مبعث كلّ هذا هو السياسة، أليس كذلك؟ لو طلبت منك المحافِظة أن تلقي بنفسك من النافذة، لفعلت».

وأدرك راي مدى الجديّة التي تأخذ بها هذه القضية.

«تعقّلي يا كايت! لقد قضيت وقتاً كافياً في البيت لكي تعلمي أن

ثمّة اختيارات صعبة ينبغي اتّخاذها على مضض أحياناً». وصمت فجأة حتى لا يبدو واعظاً. «اسمعي، لقد مضت ستة أشهر تقريباً ونحن ما زلنا لم نحصل على شيء ملموس. لم نعثر على شهود ولا دلائل ولا غيرها. حتّى لو توفّرت لنا كلّ الإمكانات التي قد تخطر على بال، لن يقودنا التحقيق إلى شيء. أنا آسف، تنتظرنا تحريات أخرى وضحايا آخرون علينا أن نعمل من أجلهم».

فسألته كايت وقد امتقعت من الغضب:

«وهل حاولت على الأقلّ؟ أم أنّك اكتفيت بالاستكانة؟».

فنبّهها ستامبي قائلاً:

«اهدئي يا كايت».

لم تلتفت إلى كلامه، وراحت تنظر إلى راي بتحدٍّ.

«أظنّك تفكّر في ترقيتك. ليس من مصلحتك إثارة المشاكل مع المحافِظة».

«الأمر لا صلة له بهذا».

حاول راي أن يحافظ على هدوئه، لكنّه كان يتكلم بصوت أعلى ممّا قصد. راحا يتفرّسان بعضهما بعضاً، وبطرف عينه رأى ستامبي يتابعه بترقّب. همَّ راي بأن يأمر كايت بالانصراف، وأن يذكّرها بأنّ ثمّة عملاً ينتظرها باعتبارها مفتشة في الشرطة الجنائية، وأنّ رئيسها إن أمرها بحفظ قضية من القضايا، عليها أن تمتثل من دون جدال. فتح فمه، لكنّه لم يقوَ على الكلام.

المشكلة هي أنّها على حقّ، وراي في قرارة نفسه لا يرغب مثلها في حفظ القضية، ولو أنّ هذا وقع في الماضي، لكان وقف في وجه المحافِظة وتحدّاها، ولكان دافع عن موقفه مثلما تفعل كايت

الآن. لعلّه فقد سجيّته، أو لعلّ كايت لم تجانب الصواب حين قالت إنّه لم يعد يفكّر إلا في الترقية.

وقال بلطف:

«أدرك أنّ الأمر صعب، لا سيما بعد أن نكون أنفقنا كلّ هذا الوقت في التحرّي».

أومأت كايت إلى صورة جاكوب المعلّقة على الجدار وردّت:

«ليس هذا هو المهمّ. المهمّ هو هذا الصبي. ليس من العدل أن نتخلّى عنه».

تذكّر راي من جديد أمّ جاكوب وهي جالسة على الأريكة والألم بادٍ على محيّاها. وشعر بنفسه غير قادر على الاعتراض على كايت.

«أنا آسف حقّاً».

ثم تنحنح وسأل ستامبي محاولاً تغيير مجرى الحديث:

«هل من جديد حول الملفات الأخرى؟».

«سيقضي مالكوم الأسبوع كلّه في المحكمة من أجل قضية غرايسون، كما أنّ عليه أن ينهي ملف تبادل الضرب والجرح بكوينز ستريت. ذلك أنّ النائب العام قرّر متابعة المتّهمين أمام القضاء. أمّا أنا فسأتكفّل بسرقات أسواق كاو-أوب الممتازة بينما عُهد لدايف بخطّة محاربة الأسلحة البيضاء. وقد ذهب اليوم إلى الجامعة للقيام بحملة «تحسيس»».

نطق كلمة «تحسيس» هذه كما لو كانت كلمة بذيئة، فضحك راي.

«على المرء أن يتكيّف مع زمانه، يا ستامبي».

«يمكن أن تتحدّث إليهم ما شاء لك أن تتحدّث، فذلك لن يمنع هؤلاء الصبية من حمل السكاكين».

«قد يكون ما تقوله صحيحاً، لكنّ علينا أن نحاول على الأقلّ».

دوّن راي شيئاً في مفكّرته، ثمّ أضاف:

«حرّر لي تقريراً قبل اجتماع صباح غد، مفهوم؟ وأريد أن آخذ رأيك في حملة ننوي القيام بها لحجز الأسلحة البيضاء خلال العطلة المدرسية. نحاول أن نحجز أكبر عدد ممكن منها. هذا سيخفّض من وجودها في الشوارع».

«حسناً».

كانت كايت مطأطأة الرأس تقضم أظافرها. ربتَ ستامبي على ساعدها فالتفتت نحوه.

اقترح عليها بلطف:

«ما رأيك في أن نتناول ساندويتش لحم خنزير مقدّد؟».

فغمغمت:

«ليس هذا هو ما سيروّق مزاجي».

«كلا، لكن مزاجي أنا سيكون أفضل إن تخلّصتِ من هذا الوجوم الذي علاك طوال هذه الصبيحة».

افترّ ثغرها عن ابتسامة مغتصبة، وقالت:

«سألحق بك».

خيّم الصمت، ولاحظ راي أنّها تنتظر انصراف ستامبي. أغلق الباب وعاد ليجلس إلى مكتبه وقد شبك يديه.

«أأنتِ بخير؟».

هزّت رأسها وقالت:

«وددت أن أعتذر لك. ما كان عليّ أن أخاطبك بتلك النبرة».

فردّ راي وقد لاحت على وجهه ابتسامة عريضة:
«تعرّضتُ لما هو أدهى».
لكن كايت ظلّت واجمة فأدرك أنّها معكرة المزاج، ولا تحتمل المزاح.
ثمّ أضاف:
«أدرك أنّك تولين أهمية بالغة لهذه القضية».
تطلّعت ثانية إلى صورة جاكوب.
«أشعر بأنّني تخليت عنه».
وأحسّ راي بدِفاعاته تنهار. كايت محقّة فيما تقول: لقد تخلّوا عن جاكوب، لكن ما فائدة الاعتراف لها بذلك؟ وقال:
«لقد قمتِ بكلّ ما يلزم. لا يسعك أن تفعلي أكثر ممّا فعلت».
«لكنّه غير كافٍ، أليس كذلك؟».
والتفتت إلى راي ثمّ قالت وهي تهزّ رأسها:
«كلا، إنّه غير كافٍ».
غادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفها، وأهوى راي بضربة قوية على مكتبه جعلت قلمه يتدحرج ويسقط على الأرض. استرخى على مقعده وشبك يديه خلف رأسه، وبدا له شعره متناثراً تحت أصابعه. أغلق عينَيه، وأحسّ بنفسه فجأة طاعناً في السنّ ومنهكاً. تذكّر راي الضباط السامين الذين يلتقي بهم كلّ يوم: معظمهم يكبرونه سنّاً وإن كان بعضهم يصغرونه. كلّهم يرتقون الدرجات بسرعة فائقة. وتساءل: هل يملك من القوة ما يمكّنه من مجاراتهم؟ بل هل يملك الرغبة في ذلك؟
يوم التحق بالشرطة، كان كلّ شيء يبدو سهلاً: إلقاء القبض على المجرمين وحماية الناس الطيّبين، مساعدة ضحايا العنف

والاعتداءات بالأسلحة البيضاء والاغتصاب، كلّ ذلك من أجل بناء عالم أفضل. لكن، أهذا ما كان يفعل حقّاً؟ كان يقضي نهاره من الثامنة صباحاً إلى الثامنة مساء محبوساً في مكتبه، لا يبرحه من أجل قضية إلا إذا أمكن تأجيل العمل المكتبي. كان مُجبراً على الانصياع لنزوات رؤسائه وطلباتهم حتّى عندما تتناقض مع مبادئه.

مضى راي ينظر إلى ملفّ جاكوب الذي يتلخّص في سلسلة من المسارات الخاطئة والتحريات العقيمة. وتذكّر المرارة البادية على محيّا كايت وما ظهر عليه من إحباط لما اكتشفت أنّه لم يقوَ على معارضة قرار المحافِظة. وشقّت عليه فكرة أنّه لم يعد يحظى بإعجابها. لكنّ كلمات المحافِظة كانت لا تزال تتردّد في رأسه، وأقنع نفسه بأنّه من الأجدر ألا يعصي أوامرها مهما كان موقف كايت منه. تناول ملفّ جاكوب وحفظه بحركة مصمّمة في أسفل درج بمكتبه.

8

منذ أن نزلتُ إلى الشاطئ عند الفجر والسماء توشك أن تمطر. وضعتُ غطاء الرأس لأحتمي من قطرات المطر الأولى. التقطتُ ما أريد من صور بينما كان الشاطئ لا يزال مكسوّاً بالكلمات. لقد صرت خبيرة بكيفية الحفاظ على الرمل ناعماً ومستوياً حول ما أكتبه من حروف، كما أنّني صرت قادرة على استعمال الكاميرا على نحو أفضل. ذلك أنني سبق أن تلقيت دروساً في التصوير الفوتوغرافي في إطار دراستي للفن، إلا أنّ ميلي إلى النحت كان أكبر. هكذا اكتشفتُ من جديد وباستمتاعٍ كاميرتي ورحت أتسلّى بتغيير ضبط الضوء. إنّها تلازمني حيثما ذهبت، بل صارت قطعة منّي تماماً مثل كتل الطين التي كنت أشتغل عليها في السابق. ورغم أنّ يدي كانت لا تزال تؤلمني بعد أن قضيت يوماً وأنا أحمل الكاميرا، فإنّني أستطيع أن أحرّكها بما يكفي لالتقاط بعض الصور. وقد اعتدت على المجيء إلى هنا كلّ صباح حين يكون الرمل لا يزال مبللاً وطيّعاً، وأعود إلى البيت عند الزوال لما تتوسّط الشمس كبد السماء. صرت أعرف ساعات المدّ والجزر، ولأوّل مرّة منذ الحادثة، بدأت أفكّر في المستقبل وأنا أنتظر مجيء الصيف بلهفة لكي أرى الشمس تغمر الشاطئ. المخيّم مفتوح الآن في وجه السيّاح، والناس بدأوا يفدون

على بينفاتش. إنّ السرعة التي بدأت أتكيّف بها تثير الدهشة: أتذمّر على غرار سكان المنطقة من سيل المصطافين الوافدين عليها، رافضة أن يشاركني أحد شاطئي الهادئ.

تكسو قطرات المطر رمل الشاطئ بالثقوب، والمدّ الصاعد يمحو شيئاً فشيئاً ما أرسمه من أشكال قرب الماء، مدمِّراً المُتقَن منها والأخرَق. كلّ يوم أشرع بكتابة اسمي قرب الماء على الرمل، وها أنذا أرتعش من رؤية الماء يغمره. ورغم أنّ صورته مسجّلة في الكاميرا، فإنّ طابع الزوال هذا يشوّشني. حين كنت أشتغل بالطين، كان بوسعي أن أعالجه مرّات عديدة إلى أن يُفصح عن شكله الحقيقي وأبلغ به درجة الكمال. أمّا هنا، فأنا مضطرّة إلى إنجاز العمل بسرعة، وهي عملية أجدها مثيرة ومرهقة في آن.

سقط المطر غزيراً وتسرّب تحت معطفي وإلى حذائي. وبينما استدرت لكي أغادر الشاطئ، رأيت رجلاً يسير باتّجاهي، وكلب كبير يتقافز بجواره. حبست أنفاسي. ما زال بعيداً، لكنّني أجهل ما إذا كان يقصدني أم يتّجه إلى البحر على نحو عفوي. شعرت بطعم معدني في فمي. لحست شفتَي لكي أبلّلهما، لكنّني لم أجد سوى الملح. سبق أن رأيت هذا الرجل وكلبه: راقبتهما صباح الأمس من أعلى المرتفع الصخري منتظرة أن ينصرفا، ويعود الشاطئ مقفراً كما كان. ورغم الفضاء الواسع من حولي، أحسست كما لو أنّني وقعت في فخّ. واصلت المشي بمحاذاة الضفة كما لو أنني كنت أنوي السير في هذا الاتجاه.

«صباح الخير!».

انزاح قليلاً عن طريقه لكي يسير بالموازاة معي.

لم أستطع الكلام.

قال وهو يرفع رأسه إلى السماء:

«إنّه يوم جميل مناسب للنزهة».

في حوالي الخمسين من العمر، يلوح من تحت قبعته شعر أشيب، وتكسو نصف وجهه تقريباً لحية قصيرة.

تنهّدت ببطء، وغمغمت:

«ينبغي أن أعود إلى البيت. ينبغي...».

«طاب نهارك!».

أومأ لي الرجل برأسه ونادى كلبه، فانعطفتُ وعدت أدراجي وأنا أركض بخطوات بطيئة باتجاه المنحدر الصخري. ولما وصلت منتصف الشاطئ التفتّ: ما زال الرجل بجانب الضفة يقذف قطعة خشب إلى البحر. ولمّا استعاد خفقان قلبي إيقاعه الطبيعي، شعرت بنفسي سخيفة.

ولم أبلغ أعلى المنحدر حتّى كنت مبلّلة بالكامل. قررت أن أزور بيثان فحثثت الخطو حتّى أصل إلى المخيّم قبل أن أغيّر رأيي.

استقبلتني بيثان بابتسامة عريضة.

«سأسخّن الماء».

انهمكتْ في إعداد الشاي وهي تتحدّث بنبرة مرحة عن توقعات الأحوال الجوية، وعن خطوط الحافلات المهدّدة بالإلغاء، وتكسير سياج ليستين، وفرار سبعين عنزة خلال الليل.

«صدّقيني، هذا لم يرق ألوين ريز».

ضحكتُ ليس من القصة في حدّ ذاتها، بل من كيفية سرد بيثان لها، إذ ترفق كلامها بإيماءات مفخّمة أشبه بإيماءات الممثلات. وبينما كانت تهيّئ الشاي، تجوّلتُ في المتجر: أرضيته من الخرسانة

وجدرانه مبيّضة بالجير. توجد به رفوف على الجانبَين، كانت فارغة حين زرت المتجر للمرّة الأولى، لكنّها الآن مليئة بالحبوب والمصبّرات والخضر والفواكه التي تنتظر وصول المصطافين. وفي واجهة زجاجية مبرّدة توجد بعض علب الحليب وكذا منتوجات أخرى طرية، تناولت منها قطعة جبن.

قالت بيثان معلِّقة:

«إنّه جبن ماعز ليستين. أحسنت صنعاً بأخذه الآن. سينفُذ بمجرّد ما يمتلئ المخيّم. هيّا، تعالي اجلسي قرب المدفأة وحدثيني عن الحياة هناك في الأعلى». أخذ هرّ ذو لون أبيض وأسود يموء عند قدميها، فتناولته ووضعته على كتفها. «ألا ترغبين في هرّ؟ عندي ثلاثة أبحث عمّن يرغب فيهم. ولدت قطتي منذ بضعة أسابيع. لا نعرف من هو الأب!».

«كلا، شكراً».

الهُرير فاتن على نحو لا يصدّق: كُرَة من الشعر ذات ذنب لا يتوقّف عن الحركة مثل رقاص ساعة. هذا المشهد يعيد إلى ذهني ذكرى منسية تجعلني أجفل وأتراجع إلى الوراء.

«ألا تحبّين القطط؟».

«لست ممّن يحسن الاعتناء بها. لا أنجح في العناية حتّى بأصيص من العشب. لا شيء يعيش طويلاً بين يدي».

مضت بيثان تضحك رغم أنّني لم أكن أمزح.

سحبتْ كرسيّاً ووضعت فنجانها على المشرب وجلست بجانبي. وقالت وهي تشير إلى آلة التصوير المعلّقة في عنقي.

«هل التقطت صوراً؟».

«نعم، صوّرت الخليج».

«هل أستطيع أن أراها؟».

تردّدت، لكنني سحبت الحزام حول عنقي، وشغّلت الآلة ورحت أشرح لبيثان كيف تستعرض الصور على الشاشة.

«إنّها رائعة!».

تورّدتُ. فأنا عادة ما أرتبك عندما يُثني الناس عليّ. لمّا كنت صغيرة، كان الأساتذة يطرون على أعمالي ويعرضونها في باحة المدرسة. على أنّ وعيي بأنّني أملك موهبة لم يظهر إلا في سنّ الثانية عشرة، موهبة كانت لا تزال غير مكتملة وتحتاج إلى صقل. وقد نظّمت المدرسة تظاهرة صغيرة استدعت لها الآباء وسكان الحيّ، حضرها والداي معاً، وهو أمر كان نادراً حتى في تلك الحقبة. ظلّ أبي مشدوهاً أمام المكان الذي عرضت فيه لوحاتي، وكذا تمثال طائر صنعته من المعدن. حبست أنفاسي لفترة طويلة شابكة أصابعي في ثنايا تنورتي، وانتهى به الأمر أن قال وهو ينظر إليّ كما لو أنّه يراني لأوّل مرّة:

«شيء لا يصدّق، أنت مدهشة يا جينا».

شعرت بالفخر وكدت أطير من الفرح. وضعت يدي في يده لكي آخذه إلى لقاء السيدة بيتشين التي حدّثته عن الفنون الجميلة وعن المنحة الدراسية. بقيت جالسة هناك أحدّق في أبي الذي يحسبني فتاة مدهشة.

وشعرت بالرضا على كونه فارق الحياة. فأنا لا أطيق رؤية الخيبة في عينَيه.

كانت بيثان لا تزال تشاهد الصور التي التقطتها للخليج.

«صورك رائعة حقّاً يا جينا. هل تنوين بيعها؟».

رحت أضحك، لكنّها لم تبتسم، فأدركت أنّها تتحدث بجدّ.

وتساءلت عمّا إذا كان ذلك ممكناً. ربّما ليست هذه، فأنا ما زلت لم أتقن بعد التحكم في الضوء، لكن بالعمل قد...

وقلت على نحو أدهشني:

«ربّما».

واصلت بيثان استعراض الصور الأخيرة، ومضت تضحك حين عثرت على اسمها مكتوباً على الرمل.

«أهذا اسمي؟».

توردْتُ وقلت:

«كنت أجرّب».

«لقد أعجبني كثيراً. هل يمكن أن أشتريه منك؟».

ورفعت بيثان آلة التصوير إلى أعلى لكي تشاهد الصورة على نحو أوضح.

«كفاك غباء! سأطبعها لك. هذا أقل ما يمكن أن أسديه لك، فقد كنتِ بالغة اللطف معي».

فقالت بيثان:

«توجد في مصلحة البريد آلة تستطيعين بها طبع الصور بنفسك. أعجبتني كثيراً هذه التي عليها اسمي، وهذه أيضاً حيث يظهر الجَزْر».

اختارت إحدى الصور الأثيرة لدي، التقطتها بينما كانت الشمس تختفي في الأفق، يظهر فيها البحر مستوياً تقريباً، وأشعة الشمس الوردية والبرتقالية منعكسة عليه. أمّا المنحدرات الصخرية المحيطة فلم تعد سوى كتلة غامضة ملساء.

«سأطبعها بعد زوال اليوم».

فقالت بيثان وهي تضع آلة التصوير وتلتفت نحوي ناظرة إلي نظرة ثاقبة صارت مألوفة لدي:

«شكراً لك، والآن اتركيني أسدي لك خدمة».

«لا داعي لذلك، فأنت قدّمت...».

وبإيماءة واحدة، كبحت بيثان اعتراضي.

«لقد أعدتُ ترتيب البيوت المتنقلة، ويلزم أن أتخلّص من بعض الأغراض...».

وأشارت إلى حقيبتين سوداوين موضوعتين بعناية عند باب المدخل.

«ليست أشياء ذات بال، مجرّد وسائد وأغطية سرير كانت موجودة في غرف المخيّم قبل أن نقوم بتجديد أثاثها، وأيضاً بعض الملابس التي لم تعد على مقاسي ولن تعود حتّى لو توقفت عن أكل الشوكولاتة إلى آخر أيامي. ستجدين بينها فساتين سهرة، وهي لا تصلح لشيء هنا في بينفاتش، وقمصان وسراويل جينز وفستانين ما كان عليّ أن أشتريها».

«لا ينبغي أن تعطيني ملابسك يا بيثان!».

«ولم لا؟».

«لأنّ...».

مضت تحدّق في عيني، فتراجعت عن إتمام جملتي. كانت بالغة الصراحة بحيث بدا لي من غير اللائق أن أظهر انزعاجي. ثمّ لا يمكنني أن أستمرّ في ارتداء الملابس نفسها كلّ يوم.

وانتهى بها الأمر أن قالت:

«اسمعي، مهما يكن، فأنا سأتخلّص من هذه الأشياء. إلقي عليها نظرة، واحتفظي بما أنت في حاجة إليه. هذا هو عين الصواب، أليس كذلك؟».

غادرتُ المتجر محملة بملابس دافئة وبحقيبة مليئة بما سمّته

بيثان «لوازم الراحة». ولمّا وصلت إلى البيت الريفي، نشرت كلّ تلك الأشياء على الأرض كما لو أنّ الأمر يتعلق بهدايا أعياد الميلاد. كانت سراويل الجينز واسعة قليلاً، لكنّني أستطيع ارتداءها باستعمال حزام. وكدت أبكي لمّا اكتشفت نعومة المعطف السميك الذي احتفظتْ به من أجلي. ذلك أنّ البيت الريفي شديد البرودة، وهو يجعلني دائمة الشعور بالبرد. وبالنظر إلى الأشياء القليلة التي استقدمتها من بريستول -وتنبّهت إلى أنّني لم أعد أقول من بيتي- بليت وخشنت بفعل الملح ومن فرط ما غسلتها بيدي في حوض الحمّام.

ولعلّ ما أثارني أكثر هي «لوازم الراحة» التي تكرّمت بها عليّ بيثان. كسوت الأريكة المهترئة بغطاء سرير ملوّن بالأحمر والأخضر، وهو ما جعل الغرفة تبدو فجأة أكثر دفئاً وحفاوة. وعلى المدفأة وضعت أحجاراً صقلها البحر عثرت عليها في الشاطئ. أضفت لها كيساً ضخماً وجدته مع أغراض بيثان وقرّرت أن أملأه بعيدان صفصاف سأجمعها بعد الزوال. أمّا الوسائد فقد وجدت لها المكان المناسب على الأرض قرب المدفأة، حيث اعتدت أن أجلس للقراءة أو انتقاء الصور التي التقطتها. وفي قعر الحقيبة، عثرت على منشفتَي مراحيض وسجّاد حمام وغطاء سرير آخر.

لم يخطر في بالي قط أنّ بيثان يمكن أن تتخلّص من كلّ هذه الأغراض، لكنّني صرت أعرفها بما فيه الكفاية، بحيث تجنّبت أن أسألها.

سمعت طرقاً على الباب، فتجمّدت في مكاني. كانت بيثان قد أخبرتني بأنّ ليستين سيزورني هذا اليوم. تريّثت قليلاً إلى أن سمعته يقول:

«أأنت هنا؟».

سحبت المزلاج لأفتح الباب، فحيّاني باقتضابه المعهود، لكنّني استقبلته بمرح. ما حسبته أول الأمر عدم اكتراث لديه وفظاظة، هو في الواقع علامة رجل غير متحفّظ وغير ميّال إلى مخالطة الآخرين، شغوف برعاية عنزاته أكثر من احتفاله بمشاعر من يحيطون به.

قال وهو يشير إلى ركام من الحطب محمول على مقطورة مشدودة إلى دراجته الرباعية:

«لقد أتيتك بشيء من خشب التدفئة ستحتاجينه. سأدخله إلى البيت».

«أأحضّر لكَ شاياً؟».

فصاح بنبرة لا مبالية وقد استدار وانطلق باتجاه المقطورة بخطوات واسعة:

«ضعي فيه قطعتَي سكر».

وحين شرع يحمل قطع الحطب في سلّة ويدخلها إلى البيت، وضعتُ الماء على النار.

بينما كنّا نشرب الشاي على مائدة المطبخ، قلت له:

«بكم أنا مدينة لك نظير الحطب؟».

حرّك رأسه:

«ما أتيتك به مجرّد بقايا، لا قيمة له حتّى يُباع».

تكفيني كومة الحطب الموضوعة بجانب المدفأة لشهر على الأقل. وارتَبْتُ في أن تكون بيثان خلف كلّ هذا، لكنه ليس من اللائق أن أرفض هديّة سخية كهذه. عليّ أن أجد وسيلة لأردّ له هذا الجميل، ولبيثان أيضاً.

هزّ ليستين كتفيه حين شكرته، وعلّق وهو ينظر إلى غطاء السرير الملون وإلى الأصداف والكنوز التي جمعتها من هنا وهناك:

«لا أكاد أتعرّف إلى المكان! وكيف تتدبّرين أمرك مع موقد المطبخ؟».

ثمّ أضاف وهو يشير إلى الموقد القديم:

«يصير مقرفاً أحياناً».

«لم أواجه مشكلة في تشغيله. شكراً».

وكبتُّ الابتسامة، ذلك أنَّني اكتسبت خبرة في تشغيله، وصرت قادرة على إشعاله في بضع دقائق. إنه انتصار صغير أضفته إلى انتصاراتي الأخرى التي أحرص على مراكمتها كما لو أنها تستطيع القضاء على إخفاقاتي في يوم من الأيام.

وقال ليستين:

«حسناً، ينبغي أن أنصرف. سأستقبل ضيوفاً من العائلة في عطلة نهاية الأسبوع. وغلينيس من التوتر والإجهاد كما لو أنها تنتظر زيارة الملكة. رغم أنّني لا أتوقّف عن ترديد أنّهم لا يعبؤون بما إذا كان المنزل نظيفاً، ولا بما إذا وضعتْ وروداً على مائدة المطبخ أم لم تضعها، فهي تحرص على أن يكون كلّ شيء على ما يرام».

رفع عينَيه إلى السماء وهو مستاء وإن كانت نبرة صوته الهادئة تشي بعكس ذلك.

«سيزورك أبناؤك؟».

«بنتانا مع زوجيهما وأبنائهما. البيت بالكاد يسعنا، ولكن كلّ ذلك يهون إذا اجتمعت العائلة، أليس كذلك؟».

ودّعني، وبقيت أنظر إلى درّاجته وهي تبتعد مترنّحة على الأرض الوعرة.

أغلقت الباب وبقيت متسمّرة في مكاني أتأمّل البيت الريفي. فالصالون الذي بدا دافئاً وحفيّاً قبل لحظات، صار يبدو الآن فارغاً. وتخيّلت طفلاً -طفلي- يلعب على السجاد قرب المدفأة. تذكّرتُ إيف وابنها وابنتها اللذين يكبران بعيداً عني. من المؤكّد أنّني فقدت ابني، لكنّني ما زلت أملك عائلة رغم كلّ ما وقع بيننا.

رغم فارق أربع سنوات الذي يفصل بيني وبين إيف، كنّا متفاهمتين في صغرنا. كنت معجبة بها، وكانت هي تعتني بي، ولا تنزعج من أن تتبعها أختها حيثما ذهبت. وقد كنا مختلفتين تماماً: أنا بشعري الكثّ المجعّد وهي بشعرها الكستنائي الفاتح البالغ النعومة. وقد كنّا نحصل معاً على علامات جيّدة في المدرسة، على أنّ إيف كانت أكثر اجتهاداً منّي. وبينما كانت هي تقضي مدّة طويلة مستغرقة في كتبها المدرسية، كنت أنا أتخلّص منها بسرعة وأغادر غرفتي. كنت أوثر إنفاق ساعات في ورشة الفنون بالمدرسة، أو على الأرض بالقبو، المكان الوحيد الذي كانت أمّي تسمح لي فيه بمعالجة الطين والألوان. وكانت أختي المرهفة تمقت هوايتي هذه، وتطلق صرخات حادّة لما ترى ذراعَي ممدودتين وقد كساهما الطين. وقد أطلقتُ عليها ذات يوم لقب «ليدي إيف»، وهو لقب لازمها بعد أن تزوّجنا. لطالما كنت مقتنعة في قرارة نفسي أنّ إيف تحبّ هذا اللقب، لا سيما لـمّا لاحظت بمرور السنوات كيف تستقبل الإطراء حين تُعِدّ عشاء ناجحاً، أو تتوفّق في تلفيف هديّة من الهدايا.

وبعد مغادرة والدنا، لم نعد قريبتين كما كنّا. لم أغفر لأمّي قطّ طرده من البيت، ولم أكن أعرف كيف تقبّلت إيف ذلك. مهما يكن، فأنا مشتاقة لأختي شوقاً شديداً، وأشعر بأنّ مدّة فراقنا التي دامت خمس سنوات بسبب ملاحظة تافهة، طالت أكثر من اللزوم.

أبحث في حاسوبي عن الصور التي طلبتها منّي بيثان، وأضفت إليها ثلاثاً وددت تعليقها على جدران البيت بعد أن أصنع لها إطارات من خشب عثرت عليه في الشاطئ. وهي كلّها صور تمثل الخليج، التُقِطت جميعها من المكان نفسه، لكنّ كل واحدة منها لا تشبه الأخرى. فزرقة المياه الفاتحة التي تنعكس عليها أشعة الشمس في الصورة الأولى تترك مكانها في الصورة الثانية للون رمادي معتّم بالكاد يترك الشمس تظهر في السماء. أمّا الصورة الثالثة وهي الأثيرة لديّ، فالتقطتها في لحظة كان فيها الريح من الشدّة بحيث تحتّم عليّ أن أركِّز حتّى لا أفقد توازني في أعلى المرتفع الصخري، وحيث أعرضتْ حتى النوارس عن التحليق في السماء. وبينما تبدو سحب سوداء منحدرة نحو الماء، يلوح البحر كما لو أنّه يرسل أمواجه للقائها. كان الخليج مفعماً بالحياة حقّاً ذلك اليوم. وكنت أشعر بقلبي يخفق بسرعة وأنا أشتغل.

أضيف لقطة أخرى إلى بطاقة الذاكرة، التقطتها يوم شرعت أكتب على الرمل، لمّا كسوت الشاطئ بأسماء استمددتها من ماضيّ.

ليدي إيف.

لا أستطيع المجازفة بإخبار أختي بالمكان الذي أوجد فيه، لكنّني أستطيع أن أخبرها بأنّني بخير، وأن أعبّر لها عن أسفي.

9

«سأذهب إلى هاريس لجلب الطعام، هل ترغب في شيء؟».

لاحت كايت من فتحة باب مكتب راي وقد ارتدت سروالاً رمادياً ضيّقاً وقميصاً ملتصقاً بجسدها، لبست فوقه سترة خفيفة وهي تهمّ بالخروج.

قام راي واقفاً، وتناول سترته التي كانت موضوعة على مسند المقعد، وقال:

«سأرافقك. أنا بحاجة إلى أخذ نفس».

هو معتاد على الأكل في المقصف أو في مكتبه، لكن دعوة من كايت لا يمكن أن يردّها. ثمّ إنّ الشمس أشرقت أخيراً، وهو لم يرفع رأسه عن الملفات منذ أن حلّ بالمكتب على الساعة الثامنة صباحاً، وبذلك فهي استراحة مستحقّة.

كان هاريس حاشداً كعادته. يقف الزبائن في صفّ طويل متعرّج يبلغ حتّى الرصيف. وهو مكان أثير لدى العاملين بالشرطة، لا لأنه شديد القرب من المخفر فحسب، بل لأنّ ثمن الساندويتشات معقول والخدمة سريعة. فلا شيء أبغض عند شرطي جائع من تلقّي مكالمة عاجلة لحظة تلبية طلبيّته.

كان الصفّ بطيئاً، فقالت له:

«أستطيع أن آتيك بالطعام إلى المكتب إن كنت مستعجلاً».

هزّ راي رأسه:

«لست مستعجلاً. أنا منهمك في الإعداد لعملية بريك، ولحظة استراحة لا يمكن إلا أن تعود عليّ بالنفع. لنأكل هنا».

«فكرة حسنة. عملية بريك هي التي تتعلّق بتبييض الأموال، أليس كذلك؟».

كانت كايت تتحدّث بصوت خافت، محترسة من الزبائن من حولهما. وحرّك راي رأسه مؤمّناً على كلامها.

«تماماً. أستطيع أن أطلعك على الملف إن أردت. يمكن أن تنظري كيف أحكمتُ حبكه».

«سأكون ممتنّة لك، شكراً».

طلبا الطعام، وعثرا على كرسيَّين عاليين قرب الواجهة الزجاجية، وراحا ينظران إلى زبائن هاريس الذين لم تكد تمضي بضع دقائق حتى مضوا يلوحون بساندويتشاتهم في الهواء. ومرّ شرطيان بمحاذاة المطعم، فحيّاهما راي بإشارة من يده. وقال لكايت وهو يضحك:

«ضُبطنا متلبّسين! سيقولون مرّة أخرى إنّ موظفي الشرطة الجنائية لا يفعلون شيئاً، يقضون وقتهم في المطاعم».

فردّت كايت وهي تزيل قطعة طماطم من الساندويتش لتأكلها معزولة:

«ليتهم يعرفون الحقيقة. لم أعمل قطّ مثلما عملت على قضية جاكوب جوردان. وكلّ جهدي ذهب سدى».

لمس راي المرارة في صوتها.

«أنت تعرفين جيّداً أنه لم يذهب سدى. سينتهي الأمر بأحدهم يوماً إلى الإسرار بأنّه هو من فعلها، فيفضحه الناس. عندئذ سنقبض عليه».

«لكن ليس هذا هو ما أسميه عملاً بوليسياً جيّداً».

«ماذا تقصدين؟».

لم يعد راي يعرف ما إذا كان عليه أن يضحك أم يستاء من صراحتها.

وضعت كايت الساندويتش، وقالت:

«أن ننتظر تصرّف الآخر عوض أن نأخذ نحن المبادرة ونتصرّف. لا ينبغي أن نجلس هنا وننتظر أن تصلنا المعلومات: كان من المفروض أن نكون منهمكين في البحث عنها».

وتهيّأ له كما لو أنّه يسمع ما كان يقوله في بداية مشواره، أو ربّما ما كانت تقوله ماغس، رغم أنّها، حسبما يذكر، لم تكن في مثل ثقة كايت بنفسها. عادت كايت للأكل. أمّا راي فكبت الابتسامة. هي تقول من دون رقابة ولا تحفّظ ما كان يدور في رأسه تماماً. لم ينزعج من صراحتها بقدر ما وجد كلامها مهدّئاً.

وقال معلّقاً:

«لقد أغضبتك حقّاً هذه القضية».

أمّنتْ على كلامه.

«لا أطيق فكرة أن يظل السائق حرّاً طليقاً، معتقداً أنه خرج من الورطة، كما لا أطيق اختفاء أمّ جاكوب من بريستول لظنّها أنّنا لم نفعل المطلوب من أجل إلقاء القبض على الجاني».

فتحت فمها لتواصل الكلام، لكنّها حوّلت بصرها كما لو أنّها غيّرت رأيها.

«ماذا؟».

تورّدت وجنتاها قليلاً، لكنّها رفعت ذقنها بحركة تحدٍّ.

«ما زلت أشتغل على هذه القضية».

كثيراً ما اكتشفَ راي خلال سنوات عمله أوراق قضايا تركت تتعفّن في الزوايا، أهملها الزملاء كسلاً أو لكثرة انشغالاتهم. وهذه أوّل مرّة يصادف فيها من يعمل واجبه ويزيد عليه.

«صدّقني، فأنا أشتغل خلال وقت فراغي. لن أثير لك مشاكل مع المحافِظة. أشاهد تسجيلات كاميرات المراقبة، وأعيد فحص المكالمات التي تلقيناها بعد بثّ برنامج **كرايمواتش** حتّى أتأكّد من أنّ شيئاً لم يفُتنا».

تخيّل راي كايت جالسة في بيتها وأوراق الملفّ متناثرة حولها على الأرض وهي تقضي الساعات تشاهد الصور على الشاشة.

«تقومين بكلّ هذا لإيمانك بأنّنا يمكن أن نلقي القبض على السائق؟».

«لأنني لا أستطيع التغاضي عن جريمة كهذه».

ابتسم راي، فقالت وهي تعضّ على شفتها:

«ستطلب منّي أن أتوقّف؟».

هذا ما كان سيقوم به بالضبط، لكنّه لاحظ حماسها وعنادها الشديدَين. مهما يكن، وحتّى إن لم يُضف هذا شيئاً للتحقيق، ففيمَ سيضيره؟ كان من الممكن أن يتصرّف مثلها في وقت سابق.

«كلا، لن أطلب منك التوقّف، لأنّني بالمقام الأول لست مقتنعاً بأنّ هذا قد يفيد في شيء».

وراحا يضحكان.

«لكنّني أريدك أن تطلعيني على المستجدات وألا تخصّصي للأمر كثيراً من الوقت أو تقديمه على القضايا الراهنة. اتّفقنا؟».

تفرّسته كايت، وأجابت:

«موافقة، شكراً يا راي».

كمّشت ورق تلفيف الساندويتشات. وقال راي:

«يحسن بنا أن نعود. سأطلعك على ملفّ عملية بريك ثمّ أرجع إلى البيت، وإلا سأواجه مزيداً من المشاكل».

ورفع عينَيه إلى السماء.

وبينما كانا متّجهين نحو المخفر، قالت:

«كنت أظنّ أنّ ماغس لا تنزعج من تأخّرك في العودة إلى البيت».

«أعتقد أنّ الأمور ليست على ما يرام بيننا هذه الأيام».

وسرعان ما شعر كما لو أنّه يخون ماغس.

قلّما كان يخوض في أموره الشخصية مع الزملاء باستثناء ستامبي الذي يعرف ماغس منذ فترة طويلة. لكن مهما يكن، فهو لم يصرخ بذلك في الشوارع: لم يبُح بهذا إلا لكايت.

فقالت وهي تضحك:

«تعتقد؟ أمّا كان عليك أن تعرف يقيناً؟».

فلاحت على وجه راي ابتسامة ساخرة.

«لا أخالني أعرف الشيء الكثير هذه الأيام. لا شيء واضح ومضبوط... لدينا مشاكل مع توم، الابن البكر. يجد صعوبة في الاندماج في مدرسته الجديدة، ثمّ إنّه صار متقلّباً ميّالاً إلى العزلة».

«كم عمره؟».

«اثنتا عشرة سنة».

«أمر طبيعي في هذا السن. حسبما تحكي أمّي، أنا نفسي كنت طفلة لا تطاق».

«وددت لو أصدق هذا. أدرك ما تقصدين، لكنّ أمر توم غريب حقّاً. فقد تغيّر بين عشيّة وضحاها».

«أتظنّه يتعرض للمضايقة في المدرسة؟».

«هذا ما تبادر إلى ذهني، لكنني لا أرغب في إرهاقه بالأسئلة. فماغس أكثر موهبة مني في هذه الأشياء، لكنها لم تستطع أن تتوصل إلى شيء».

ثمّ تنهّد وأضاف:

«هذا ما يمكن أن تجنيه إن أنجبتِ أطفالاً!».

فقالت كايت بينما وصلا إلى المخفر وأخرجت بطاقتها لتفتح باب المصلحة:

«لن أنجب بالطبع، على الأقل في الوقت الراهن. أريد أن أستمتع بحياتي ما وسعني ذلك».

ومضت تضحك، فشعر راي بالغيرة من حياتها البسيطة.

صعدا السلَّم، ولما بلغا الطابق الثالث حيث يوجد مقرّ الشرطة الجنائية، توقّف راي وهو يضع يده على الباب.

«فيما يتعلق بقضية جوردان...».

«... الأمر سرّ بيننا. أعرف».

ابتسمت، فتنفّس الصعداء. إن علمت المحافِظة بأن ثمّة من يحقّق في القضية التي أمرت صراحة بحفظها، حتّى لو كان ذلك من باب التطوّع، فلن تتردّد في مواجهته بذلك. سيجد نفسه يرتدي البزة من جديد حتى قبل أن تنتهي المكالمة.

لمّا عاد راي إلى المكتب، انهمك في الاستعداد لعملية بريك.

ذلك أنّ المحافِظة طلبت منه أن يقود تحقيقاً حول عملية تبييض أموال مفترضة. ثمّة ناديان ليليان في وسط المدينة يُستعملان لأنشطة غير مشروعة، وقد جُمِعت كميّة كبيرة من المعلومات حولهما ينبغي تحليلها. وبما أنّ مالكي الناديَين هما من أبرز وجوه عالم الأعمال، كان يدرك أنّ المحافِظة تختبره، ومن ثمّة فهو مصمّم على أن يثبت لها بأنّه جدير بالثقة.

قضى فترة ما بعد الزوال في تفحّص ملفّات الفرقة الثالثة. فالملازمة كيلي بروكتور كانت في إجازة أمومة، وقد كان راي طلب من المفتش الأكثر خبرة في الفرقة تعويضها. فشون يتقن عمله، لكن راي يحرص على أن يتمّ كلّ شيء بصورة دقيقة ومضبوطة رغم غياب كيلي.

وقال في نفسه إنّه يستطيع بعد مدّة قصيرة أن يعهد لكايت بمزيد من المسؤوليات. فهي متألّقة، وتستطيع أن تفيد حتّى أكثر مفتّشيه خبرة، وتستطيع أن ترفع التحدّي بسعادة غامرة. وتذكّر من جديد نظرتها لمّا أخبرته بأنّها لا تزال تحقّق في جريمة الاصطدام والهروب: كان تفانيها واضحاً بشكل لا يقبل الجدل.

وتساءل عمّا يحفّزها. ألأنها ترفض الاعتراف بالهزيمة؟ أم لإيمانها الصادق بقدرتها على حلّ لغز هذه القضية؟ أتراه تسرّع في قبول إغلاق الملف؟ فكّر لحظة وهو ينقر بأصابعه على المكتب. كان قد أنهى عمله، وسبق أن وعد ماغس بعدم التأخّر في العودة إلى البيت. لكنّه يستطيع أن يخصّص له نصف ساعة دون أن يتأخّر. وقبل أن يغيّر رأيه فتح الدرج الأخير من مكتبه وأخرج ملفّ جاكوب.

استغرق فيه ولم ينتبه إلى الوقت إلا بعد مضي ساعة كاملة.

10

لحقت بي بيثان في طريق بينفاتش الضيّق وقد انقطعت أنفاسها، وذيل معطفها يصفقه الريح خلفها، وبادرتني:

«كنت أقول في نفسي لا بدَّ أن تكون هي! أنا ذاهبة إلى البريد، وإنّها لفرصة طيبة أن لقيتك! لديّ خبر سارّ لك. مرّ بالأمس ممثّل شركة بطاقات التهاني، عرضت عليه صورك فقال إنّها ستكون رائعة على البطاقات البريدية».

«صحيح؟».

ضحكت بيثان.

«صحيح بالطبع. يريدك أن تطبعي بعضها. سيأخذها المرّة القادمة حين يمرّ».

لم أستطع تمالك نفسي من الابتسام.

«شيء لا يصدّق، شكراً لك».

«سأبيعها لك في المتجر. حبّذا لو تمكّنت من إنشاء موقع إلكتروني تعرضي فيه بعض الصور. سأبعث عنوانه إلى قائمة العناوين التي بحوزتي. لا بدَّ أن يوجد أشخاص يرغبون في الحصول على صور جميلة للمكان الذي قضوا فيه عطلتهم».

«سأفعل».

لم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية إنشاء المواقع الإلكترونية.

«بإمكانك أن ترسمي على الرمل عبارات من قبيل: «حظّ سعيد»، «تهانينا» فضلاً عن الأسماء».

«فكرة جيّدة فعلاً».

تخيّلت مجموعة كاملة من الصور المعروضة، ممهورة بحرف جيم الذي سأتّخذه علامة دالّة عليّ. لن أكتب اسمي كاملاً. سأكتفي بالحرف الأوّل منه. هكذا لن يتعرّف إليّ أحد. يتحتّم عليّ أن أكسب المال. صحيح أنّني لا أنفق كثيراً. فأنا أكاد لا آكل شيئاً، لكنّ مدخراتي لن تصمد طويلاً، وأنا لا أتوفّر على مورد آخر. يضاف إلى هذا أنني اشتقت إلى العمل. وتردّد في رأسي صوت يسخر منّي، لكنّني جاهدت لكي أسكته. ما المانع من أن أنجح في هذا العمل؟ ولماذا لا يشتري الناس صوري؟ ألم يكونوا يقبِلون على منحوتاتي؟ ورحت أردّد:

«سأفعل ذلك».

فقالت بيثان مسرورة:

«حسناً، اتفقنا إذاً!».

وتنبّهت إلى أنّنا بلغنا بينفاتش.

«كنت أنوي استكشاف الساحل وتصوير شواطئ أخرى».

فردّت بيثان وهي تنظر إلى ساعتها:

«لن تعثري على ما هو أجمل من بينفاتش، لكنّ ثمّة حافلة تتوجّه إلى بورت إيليس بعد عشر دقائق. إنّها نقطة انطلاق جيّدة».

امتطيت الحافلة لما جاءت وقد غمرني الفرح. كانت فارغة، فجلست في مكان بعيد عن السائق حتّى لا أضطرّ إلى الحديث معه.

توغّلت المركبة في البرّ عبر طرق ضيّقة، فرأيت البحر يختفي، ثمّ مضيت أبحث عنه بينما اقتربنا من المكان الذي نقصده.

تحفّ بالشارع الهادئ الذي توقّفت فيه الحافلة أسوار من الحجر يبدو أنّها تمتدّ على طول بورت إيليس. لا وجود للأرصفة، لذلك مشيت على حافّة الطريق نحو ما كنت آمل أن يكون وسط القرية. سأكتشف مركزها ثمّ أتوجه إلى الشاطئ إثر ذلك.

لاح لي كيس بالكاد يظهر بين شجيرات السياج. كيس بلاستيكي أسود مغلق بعقدة، مرميّ في حفرة غير عميقة على جانب الطريق. تخيّلته في بادئ الأمر كيس قمامة رماه هناك أحد المصطافين.

لكنّه كان يتحرّك حركة خفيفة بحيث قلت في نفسي إنّها مجرّد تخيّلات، وأنّ الريح هي بالتأكيد ما يسبِّب خشخشة البلاستيك. أحنيت على الحفرة لكي ألتقطه، فتهيّأ لي على نحو واضح أنّ بداخله شيء حيّ.

جثوت على ركبتَي، ومزّقت البلاستيك، فزكمتني رائحة براز نفّاذة. اشمأززت وأنا أرى حيوانَين بداخله. جرو بلا حراك نهشت ظهره أظافر كلب مذعور يتلوّى بجواره وهو يئنُّ أنيناً لا يكاد يُسمع. تنهّدت والتقطت الكلب الذي ما زال حيّاً وأخفيته تحت معطفي. نهضت على نحو أخرق ونظرت حولي ثمّ ناديت رجلاً كان يعبر الطريق على بعد مئة متر منّي.

«المعذرة، هل يمكن أن تساعدني من فضلك؟».

التفت إليّ الرجل، وقصدني دون أن يحثّ الخطو، كما لو أنّ

ذعري لم يثر اهتمامه. رجل مسنّ، مقوّس الظهر حتّى أن ذقنه يكاد يلامس صدره.

بادرته حين اقترب:

«أيوجد بيطري هنا؟».

نظر إلى الجرو الهادئ الصامت تحت معطفي، وألقى نظرة على الحقيبة السوداء المرمية على الأرض. وحرّك رأسه قليلاً وأجاب:

«ابن آلن ماثيوز».

لعلّه أومأ برأسه من جديد لكي يدلني على المكان الذي أجد فيه البيطري، ثمّ التقط الكيس الأسود بما فيه، وتبعته وأنا أشعر بحرارة الجرو على صدري.

تقع العيادة في بناية صغيرة بيضاء موجودة أقصى أحد الأزقة، عُلِّقت على بابها لوحة كُتب عليها: «عيادة بورت إيليس البيطرية». في قاعة الانتظار الضيّقة، جلستْ امرأة على كرسيّ بلاستيكيّ وقد وضعت على ركبتيها سلّة قطط. تفوح في الهواء رائحة كلاب ومُطهِّرات.

رفعتْ المكلَّفة بالاستقبال عينَيها عن الحاسوب.

«مرحباً، أنا السيدة م. توماس، هل أستطيع مساعدتك؟».

حيّاها مرافقي بإيماءة من رأسه ووضع الحقيبة السوداء على المنضدة وهو يقول:

«لقد عثرت هذه السيدة على كلبين في حفرة بين شجيرات السياج. يا إلهي، يا له من أمر شنيع!».

مال نحوي وربت على ساعدي بلطف ثمّ أضاف:

«سيحسنون العناية بك هنا».

وبينما كان يغادر العيادة، دقّ بمرح الجرس الموجود فوق الباب.

«شكراً على إتيانكِ بهما».

تضع موظفة الاستقبال على سترتها القصيرة الزرقاء الفاتحة شارة كُتب عليها بالأسود اسم ميغَن.

«قلّة قليلة من الناس من يتطوعون للقيام بمثل هذا العمل».

يتدلّى على صدرها حبل قصير علِّقت فيه بطاقات حيوانات ملونة وأقلام الجمعيات الخيرية وكذا حزمةُ مفاتيح شبيهة بتلك التي تحملها ممرضات مستشفيات الأطفال. وما كادت تفتح الكيس حتّى شحب لونها، فحملته وابتعدت دون أن تنبس.

لم تكد تمضي ثوانٍ حتى انفتح باب ظهرت منه ميغَن وهي تبتسم.

«هل يمكن أن تأتي به إلى هنا من فضلك؟ لحظة ويستقبلك باتريك».

«شكراً».

تبعتُ ميغَن إلى غرفة غريبة الشكل، تحتلّ زواياها خِزاناتٌ، وفي الواجهة المقابلة توجد مصطبة مطبخ ومغسل صغير من الفولاذ المقاوم للصدأ يقف عنده رجل يغسل يديه بالصابون الأخضر وقد علت الرغوة مرفقيه. بادرني وهو يبتسم:

«مرحباً، اسمي باتريك. أنا البيطري».

رجل فارع -أطول منّي، وهو أمر نادر- ذو شعر غامق الشقرة، لم يُقصَّ وفق أسلوب محدد. يرتدي سروال جينز ووزرة زرقاء وقميصاً بمربعات شمّر كُمّيه. يفترّ فمه عن ابتسامة تكشف أسناناً

بيضاء مرصوصة. يبدو أنّه في الخامسة والثلاثين من عمره أو أكثر من ذلك قليلاً.

«اسمي جينا».

فتحتُ معطفي لكي أُخرج الجرو ذي اللونين الأبيض والأسود وهو يغطُّ في النوم، غير عابئ بموت أخيه.

سأل البيطري وهو يتناوله بلطف:

«من يكون هذا؟».

فاستيقظ مذعوراً وراح يرتعش، فأعاده لي باتريك وقال:

«هل يمكن أن تضعيه على الطاولة وتمسكيه؟ لا أريد إخافته أكثر. إذا كان رجلٌ هو من وضعه في الكيس، يلزمه وقت لكي يستعيد الثقة في الرجال!».

مضى يتحسّسه بيديه، بينما قرفصت ورحت أهمس في أذنه بعض الكلمات المطمئنة دون أن آبه بما يمكن أن يقوله باتريك في نفسه عنّي.

وقلت له:

«أي نوع من الكلاب هو؟».

«من نوع بيتزا».

«بيتزا؟».

قمت واقفة وأنا لا أزال أضع يدي على الجرو الذي هدأ قليلاً بينما كانت يدا البيطري الخبيرتان تفحصانه.

وبدت ابتسامة عريضة على محيّاه.

«كلب خلاسي. بالنظر إلى أذنيه، أظنّ أن نصفه كلب صيد سبنيلي، لكن من الصعب تحديد نصفه الآخر. قد يكون كلب كولي

أو كلب ترير. لا أعتقد أنّهم كانوا سيتخلصون منه لو كان كلباً أصيلاً. هذا شيء مؤكّد».

تناول الجرو ومدّه لي كي أحضنه.

فقلت وأنا أشعر بحرارته بينما حشر أنفه في عنقي.

«يا له من عمل مروع! من يجرؤ على فعل شيء كهذا؟».

«سنخبر الشرطة، لكن من المستبعد أن يكتشفوا من قام بهذه الفعلة. فالناس هنا يصونون ألسنتهم».

«والجرو؟ ماذا سيكون مصيره؟».

حشر باتريك يديه في جيبيه، واستند إلى المغسل.

«تستطيعين الاحتفاظ به إن شئت».

جوانب عينيه فاتحة اللون كما لو أنّه كان يُجعّدها بسبب نور الشمس. لا بدَّ أنه يقضي وقتاً طويلاً في الخارج.

ثمّ أضاف:

«بالنظر إلى الحالة التي عثرت عليه فيها، من المستبعد أن يأتي أحدهم للبحث عنه. ومأوى الكلاب لن يوافق على استقباله بسبب الاكتظاظ. لو تطوعت واحتفظت به، سيكون أفضل. الظاهر أنّه سيكون كلباً رائعاً».

«يا إلهي! أنا أعتني بكلب؟ لا أستطيع».

وراودني شعور بأنّ كل هذا إنّما وقع بسبب زيارتي لبورت إيليس هذا اليوم.

«ولِمَ لا؟».

ارتبكت. كيف أشرح له أنّ المصائب تتكالب عليّ؟ بمقدار ما أنا شغوفة بالعناية بحيوان من الحيوانات، فإنّ ذلك يخيفني: ماذا لو قصّرت في حقّه؟ وإذا مرض؟

وانتهيتُ بأن قلت:

«لست أدري ما إذا كان صاحب البيت سيوافق».

«أين تقطنين؟ في بورت إيليس؟».

«في بينفاتش. في بيت ريفي قرب المخيّم».

تألّقت عيناه.

«أتستأجرين منزل ليستين؟».

أومأت برأسي موافقة. لم أعد أستغرب أن يكون الجميع هنا يعرفون ليستين.

فاسترسل باتريك يقول:

«لا عليك، فليستين جونز كان زميل أبي في المدرسة لمّا كانا طفلَين، وأنا أعرفه حقّ المعرفة. يمكنك أن تربّي قطيع فيلة إن شئت».

ابتسمتُ. لم يعد أمامي إلا أن أوافق. فقلت وأنا أشعر بوجهي يتورّد:

«لا أظنّني قادرة على الذهاب إلى حدّ تربية الفيلة».

«كلاب السبنيلي تتفاهم مع الأطفال جيّداً. هل لديك أطفال؟».

وخيّم صمت ثقيل.

«كلا، ليس لدي أطفال».

مضى الكلب يتخبّط لكي يتحرّر من يدي، وبدأ يلحس ذقني خلسة، وشعرت بقلبه يخفق على قلبي. فقلت له:

«حسناً. سأحتفظ به».

11

تسلّل راي بلطف من السرير حريصاً على عدم إزعاج ماغس. كان قد وعدها بعطلة نهاية أسبوع لا يكدّرها العمل، لكن إن هو قام في هذا الوقت، سيغتنم ساعة يردّ فيها على الرسائل الإلكترونية، ويتقدّم قليلاً في عمله على ملفّ بريك قبل أن تستيقظ. كان ينوي القيام بعمليتَي تفتيش متزامنتَين للناديَين الليليَّين. وإذا صحّ ما بلغه من معلومات، سيعثر على كميات كبيرة من الكوكايين وعلى وثائق تكشف عن حركة أموال مشبوهة داخل هاتين المؤسستين اللتين يشاع أنّهما نزيهتان.

ارتدى سرواله، ومضى لإعداد القهوة. وبينما كان الماء يسخن، سمع وقع خطوات متكتّمة تدخل إلى المطبخ، فالتفت إلى الخلف فإذا به يرى لوسي وهي ترتمي عليه وتطوّق خصره بيديها وتقول:

«أهذا أنت يا بابا؟ لم أكن أعلم أنك استيقظت!».

فبادرها وهو يتحرّر من قبضتها لكي يحني عليها ويقبّلها:

«هل استيقظت منذ وقت طويل؟ آسف، لم أرَك ليلة أمس قبل أن تخلدي إلى النوم. كيف قضيت نهارك في المدرسة؟».

«جيّد، وأنت، كيف أمضيت نهارك في العمل؟».

«ممتاز».

وتبادلا الابتسامة.

«هل أستطيع مشاهدة التلفاز؟».

حبست لوسي أنفاسها ورفعت رأسها وتطلّعت إليه بنظرة متوسّلة. ذلك أن ماغس كانت تفرض قواعد صارمة بشأن مشاهدة التلفاز في الصباح، لكن اليوم يوم عطلة، وهذا سيسمح لراي بأن يعمل قليلاً.

«لا مانع لدي. بإمكانك أن تشاهدي».

انطلقت جارية إلى الصالون قبل أن يغيّر راي رأيه. وسمع الجهاز يُشغّل، وأصوات شخصيات رسوم متحرّكة تتعالى. جلس إلى مائدة المطبخ، وأشعل هاتفه البلاك بيري.

لم تكد تبلغ الساعة الثامنة حتّى كان قد أجاب على معظم الرسائل الإلكترونية. وبينما كان يحضّر فنجان قهوة آخر، عادت لوسي إلى المطبخ وهي تشكو من الجوع، وتسأل عن الإفطار.

فقال راي:

«أما زال توم نائماً؟».

«نعم. يا له من خمول!».

فأجاب صوت ساخط من أعلى السلَّم:

«لست خمولاً».

فصاحت لوسي:

«بل خمول».

تردّد وقع خطوات ثقيلة في الطابق العلوي، ونزل توم السلَّم مندفعاً، بوجه عابس وشعر منفوش وجبين طافح بالبثور.

صاح في أخته وهو يدفعها:

«لست خمولاً!».
صرخت لوسي:
«آي!».
وسرعان ما اغرورقت عيناها بالدموع.
«ألم تكن قاسياً مع أختك؟».
«بلى».
غمغم راي وتساءل عمّا إذا كان كلّ الإخوة يتخاصمون هكذا. وحين همّ بالتدخل من أجل التفريق بينهما بالقوة، ظهرت ماغس وهي تنزل السلَّم، وقالت بلطف:
«القيام على الساعة الثامنة صباحاً ليس خمولاً يا لوسي. لا تضرب أختك يا توم».
وتناولت فنجان القهوة من يد راي، وقالت:
«أأعددته لي؟».
«نعم».
وضع راي الماء على النار من جديد، ومضى ينظر إلى ابنه وابنته جالسَين إلى المائدة وهما يتحدّثان عمّا سيفعلانه في العطلة الصيفية وقد نسيا خصومتهما مؤقتاً على الأقل. فماغس بخلافه تتوفّق دائماً في تهدئة الوضع على نحو لا عهد له به.
سألها:
«كيف تفعلين لتهدئتهما؟».
فردّت:
«هذا هو ما يُسمّى فنَّ أن تكون والداً. عليك أن تجرّبه بين الفينة والأخرى».
لم يجب راي. فهما يقضيان معظم وقتهما في تبادل اللوم،

ومزاجه لم يكن مناسباً للدخول في هذا الجدل حول العمل وتربية الأبناء.

سارعت ماغس إلى تحضير الفطور، ووضعته على المائدة: خبز محمّص وعصير برتقال وقهوة.

قالت وهي ترتشف القهوة:

«متى عدت ليلة أمس؟ لم أسمعك».

لبستْ وزرة فوق منامتها، وبدأتْ في تكسير البيض. كان راي قد أهداها هذه الوزرة في أعياد الميلاد قبل بسنوات. فعل ذلك على سبيل المزاح كما يفعل أولئك الأزواج الأفظاظ الذين يشترون لزوجاتهم أواني المطبخ. لكنّ ماغس لبستها توّاً، متمثلة صورة ربّة بيت تقليديّة، رافعة شعار: «أعشق تحضير وصفات المطبخ بالنبيذ. . . بل لا أتوانى في إضافته إلى الأطباق». وتراءى لراي نفسه وهو يعود من العمل، ويضمّ زوجته بين ذراعيه وهي لا تزال أمام الموقد، ويشعر بالوزرة تتكمش بين أصابعه. لم يفعل هذا منذ مدّة طويلة.

«حوالي الواحدة صباحاً فيما أظنّ».

تعرّضت إحدى محطات الوقود لسرقة مسلّحة في ضواحي بريستول. وقد نجحتْ فرقة الشرطة في توقيف الجناة الأربعة في غضون ساعات قليلة، وراي لزم مكتبه لا لضرورة، بل تضامناً مع فريقه.

رغم أنّ القهوة كانت لا تزال ملتهبة، شرب منها جرعة أحرقت لسانه. اهتزّ هاتفه المحمول، فألقى نظرة على الشاشة. بعث له ستامبي رسالة نصّية ليخبره بأن الجانحين الأربعة أدينوا وأنّهم سيقدَّمون إلى جلسة صباح يوم السبت حيث أمر القضاة بوضعهم

رهن الحراسة النظرية، فأرسل راي رسالة إلى قائد الشرطة يخبره بذلك.

بادرته ماغس:

«ألم تعدني بأن تترك العمل هذا اليوم؟».

«آسف. وصلتني أخبار عن قضية ليلة أمس».

«انسَ العمل ليومَين فقط يا راي. عليهم أن يتدبّروا أمورهم من دونك».

وضعت مقلاة فيها بيض على المائدة وجلست. قالت للوسي:

«احذري، إنّه ساخن جدّاً».

رفعت عينَيها إلى راي:

«ألا تفطر؟»

«كلا، شكراً. سآكل شيئاً خفيفاً لاحقاً. أنا ذاهب لأستحم».

استند لحظة على جانب الباب، ومضى ينظر إليهم وهم يأكلون.

قالت ماغس:

«علينا أن نترك باب المدخل مفتوحاً لمنظّف النوافذ يوم الاثنين. لا تنسَ أن تفتحه حين تُخرج القمامة ليلة غد. آه، هناك أمر آخر. لقد زرت الجيران بخصوص الأشجار. قالوا إنّهم سيبحثون قريباً عمّن سيقوم بتشذيبها، لكنّني ما زلت أنتظر».

وتساءل راي في قرارة نفسه عمّا إذا كانت بوست ستتحدّث عن قضية السرقة المسلّحة. على كلّ حال فهم لا يتقاعسون عندما تخفق الشرطة في حلّ قضية من القضايا.

وقال:

«تبدو العمليّة رائعة».

وضعت ماغس الشوكة وحدّقت فيه، فسألها:

«ماذا؟».

صعد ليستحمّ، وأخرج هاتفه المحمول ليبعث رسالة إلى الملحق الصحفي التابع للمصلحة. سيكون من المؤسف عدم الاستفادة من عمل أُنجز بإتقان.

قالت ماغس:

«شكراً على هذا اليوم».

كانا جالسَين على الأريكة. لم يكلّف أيّ منهما نفسه تشغيل التلفاز.

«لماذا؟».

«لأنّك تركت العمل جانباً لمرّة واحدة في حياتك على الأقل».

أمالت رأسها إلى الخلف، وأغمضت جفنيها.

تطلّقت التجاعيد عند زاوية عينيها، فبدت أصغر من سنّها، وتنبّه راي إلى أنّها تقطب حاجبيها كثيراً هذه الأيام، وتساءل عمّا إذا كان هو أيضاً يفعل ذلك مثلها.

تملك ماغس، كما كانت تقول والدة راي، ابتسامة «سخيّة».

قالت ضاحكة لمّا سمعت هذا النعت لأول مرة:

«كلّ ما في الأمر هو أنني أملك فماً واسعاً».

ارتسمت ابتسامة على وجه راي وهو يتذكّر هذه اللحظة.

لعلّها فقدت شيئاً من مرحها هذه الأيام، لكنّها ظلّت دائماً ماغس التي عرفها طوال هذه السنوات. دائمة الشكوى من أنّها سمنت بعد إنجاب الطفلَين، لكنّ راي يحبّها كما هي، ببطنها المدوّر

المترهّل، وصدرها المكتنز المتدلّي. كانت تتظاهر بعدم سماع إطرائه، ممّا جعله يقلع منذ مدّة طويلة عن الثناء عليها.

«كان يوماً رائعاً. علينا أن نداوم على فعل هذا».

قضى اليوم في التجوّل في البيت ولعب الكريكيت في الحديقة، مستمتعاً بالشمس ما وسعه ذلك. أخرج لوازم الكريكيت من مخبئها، وقضى الأطفال بقية النهار يستمتعون باللعب رغم حكم توم بـ«أنّ اللعب كان رديئاً».

علّقت ماغس:

«رؤية توم يضحك كان أمراً جيداً».

«أجل، هو لا يضحك هذه الأيام».

«أنا قلقة بشأنه».

«أتريدين أن نعود إلى المدرسة؟».

«لا أظنّ ذلك سيجدي نفعاً. السنة الدراسية على وشك النهاية. أتمنى أن يكون لتغيير الأستاذ السنة المقبلة وقع إيجابي عليه. ثمّ إنّه لن يعود أصغر تلميذ في الصف، وهذا سيكسبه لا محالة ثقة في نفسه».

كان راي يحاول أن يفهم لماذا قضى ابنه الدورة الثالثة بالفتور نفسه الذي اشتكى منه أستاذه في بداية السنة.

وأضافت ماغس:

«ليته يتحدّث على الأقل!».

قال راي:

«أقسم بأنّ كلّ شيء على ما يرام. كل ما في الأمر أنه مراهق، لكن ينبغي أن يُرجَّ. إن لم يثابر هذه السنة -وهي سنة الشهادة الإعدادية- سيُضيّع كلّ شيء».

«بدوتما اليوم متفاهمَين على نحو أفضل».

كان ذلك صحيحاً، فهما لم يتخاصما. لم يجب راي على ملاحظات توم الوقحة، وتوم لم يرفع عينَيه إلى السماء كما دأب أن يفعل. وبذلك لم يكن اليوم سيّئاً.

وعلّقت ماغس:

«لا أظنّ إغلاق هاتفك النقال شقّ عليك؟ لم يتسارع خفقان قلبك، ولم تتعرّق ولم تعتريك الرعشة!».

«لا تبالغي! لم يكن الأمر بالصعوبة التي تتصوّرين».

هو لم يغلقه بطبيعة الحال، بل ظلّ يهتز في جيبه طوال النهار. وقد انتهى به الأمر أن انتحى في المرحاض، وقرأ الرسائل الإلكترونية لكي يتأكّد من أن لا شيء مستعجلاً فاته. أجاب عن أسئلة المحافِظة حول عملية بريك، وألقى نظرة خاطفة على رسالة وصلته من كايت بخصوص جريمة الاصطدام والهروب. وقد قرأها بلهفة وتمعّن. ما لا تفهمه ماغس هو أنّه إن أغلق هاتفه المحمول طوال عطلة الأسبوع، سيتراكم عليه العمل يوم الاثنين، وسيقضي الأسبوع بكامله في الكدح لكي يستدرك التأخّر ولن يكون بوسعه الاهتمام بشيء آخر.

نهض وقال:

«حسناً، لا بدَّ أن أذهب إلى المكتب الآن، وأشتغل لساعة».

«ماذا تقول يا راي؟ ألم تعدني بأن تُعرض عن العمل؟».

أجاب بارتباك:

«ولكن الطفلَين خلدا إلى النوم».

«صحيح، ولكنّني. . .».

صمتت وهزّت رأسها بلطف، كما لو أنّ شيئاً يشغل بالها.

«ماذا؟».

«حسناً، لا شيء، افعل ما كنت تهمّ بفعله».

«سأنزل من المكتب بعد ساعة، أعدك».

بعد ساعتين، دفعت ماغس باب المكتب.

«حضّرت لك الشاي».

«شكراً».

تمطّى وتأوّه وهو يسمع فقرات ظهره تفرقع.

وضعت ماغس الفنجان على المكتب، ومن فوق كتف راي ألقت نظرة على حزمة الأوراق السميكة التي كان مستغرقاً في قراءتها.

سألت وهي تتطلّع إلى الصفحة الأولى:

«أهي قضية النادي الليلي؟ جاكوب جوردان؟ أليس هو الطفل الذي صدمته سيارة السنة الماضية؟».

«بلى».

بدا عليها الذهول.

«كنت أظنّ القضية حُفظت».

«حُفظت بالفعل».

جلست ماغس على مسند أريكة الصالون التي جلبها راي إلى المكتب لأنّها لا تناسب سجاد الطابق الأرضي. ورغم أنّها لا تناسب أثاث المكتب أيضاً، فهو يعتبرها أريح مقاعد البيت، ويرفض التخلّص منها.

«ولماذا تواصل الشرطة الجنائية التحقيق فيها؟».

تنهّد وقال:

«توقّف التحقيق رسمياً، لكنني احتفظت بالملف. نحاول تفحّصه من زوايا جديدة للتأكد من أنّنا لم نغفل شيئاً».

«من يحاول؟».

صمت راي قليلاً، ثمّ أجاب:

«الفرقة».

هو لا يعرف لماذا لم يحدّثها عن كايت في وقت سابق، وهو إن ذكرها الآن، سيبدو الأمر غريباً. من الأفضل أن يتركها بعيدة عن كلّ هذا حتّى لا تتأذّى إن علمت المحافِظة بالأمر يوماً. لا داعي لتلطيخ سمعتها وهي لا تزال في بداية مشوارها المهني.

فقالت ماغس بصوت هادئ:

«ولكن يا راي، ألا يكفيك انشغالك بالملفات الراهنة حتّى تعود لتلك المحفوظة؟».

«هذه القضية ما زالت راهنة. وأنا مقتنع بأنّهم تسرّعوا في حفظها. ربّما قد تسمح العودة إليها بالعثور على شيء جديد يساعد على فكّ خيوطها».

وخيّم الصمت قبل أن تقول ماغس:

«أنت تعلم أنّ هذه القضية ليست كقضية أنابيل».

«كفى!».

«لا ينبغي أن تستمرّ في تعذيب نفسك هكذا كلّما أخفقت في حلّ قضية».

ثمّ أحنت عليه وضغطت على ركبته وأضافت:

«سيصيبك الجنون».

رشف جرعة من فنجانه. كانت أنابيل سناودن أوّل قضية عُهد إليه بها حين ترقّى إلى رتبة نقيب. ذلك أنّ الطفلة الصغيرة كانت قد

اختفت عند خروجها من المدرسة ممّا أصاب والديها بالذعر والقلق، أو هذا ما بدا عليهما على الأقل. وبعد مضي أسبوعَين، اتّهم راي الأب بعد اكتشاف جثة الطفلة مخفيّة تحت السرير في إحدى الشقق. وقد ظلّت حيّة هناك لما يزيد عن الأسبوع قبل أن تلفظ أنفاسها.

صمت راي ثمّ قال أخيراً وهو ينظر إلى ماغس:

«كنت أعلم أنّ ثمّة شيئاً مريباً لدى تيري سناودن. بذلت كلّ ما في وسعي لكي أتمكّن من اعتقاله منذ بداية التحقيق».

«لم تملك دليلاً. شيء جميل أن تكون للمحقّق قدرة على الحدس، لكنّها غير كافية ليبني عليها تحقيقه».

أغلقت ماغس ملفّ جاكوب بلطف وأضافت:

«لكنّك الآن أمام قضية أخرى وأناس آخرين».

«أمام طفل آخر».

تناولت ماغس يديه وقالت:

«لكنّه رحل يا راي. مهما عملت واشتغلت، لن تعيده إلى الحياة. ينبغي أن تنتقل إلى شيء آخر».

لزم راي الصمت. التفت إلى مكتبه، وأعاد فتح الملف دون أن ينتبه إلى ماغس وهي تغادر المكتب لتخلد إلى النوم. فتح بريده الإلكتروني، فوجد رسالة جديدة من كايت، وصلته قبل دقائق. سارع إلى إجابتها.

«ألم تنامي بعد؟».

ووصله الجواب بعد ثوانٍ:

«أبحث عمّا إذا كانت أم جاكوب على فايس بوك، وأتابع مزاداً على إي باي. وأنت؟».

«أبحث عن السيارات التي أُحرقت في المناطق المجاورة».
«ممتاز، ستتركني سهرانة إذاً!».

تخيّلها راي متكوِّمة على أريكتها، واضعة حاسوبها في جانب، وطبق حلويات في الجانب الآخر.

وكتب: «بين أند جيريز؟».

«كيف حزرت؟!».

ابتسم راي. نقل نافذة البريد الإلكتروني إلى زاوية من الشاشة، بحيث يستطيع متابعة الرسائل التي تفد، وراح يتصفّح تقارير المستشفيات المبعوثة عبر الفاكس.

«ألم تعِد ماغس بالاستراحة من العمل خلال عطلة الأسبوع؟».
«هذا ما فعلت! لم أجلس للعمل قليلاً إلا بعد أن نام الأطفال. قدّرت أنّك بحاجة إلى أنيس...».
«هذا يشرّفني. ما هي أفضل طريقة تمضي بها ليلة السبت؟».

ضحك راي وكتب لها:

«هل عثرت على شيء على الفايس بوك؟».
«احتمالية أو احتماليتَين، لكن من دون صور هويّة. انتظر، هاتفي يرن. سأعود إليك».

أغلق راي بريده الإلكتروني على مضض لكي يركّز ذهنه على حزمة أوراق الملف. لقد مات جاكوب منذ أشهر، وهناك صوت

يتردّد في رأسه يخبره بأنّ كل هذا لا طائل من ورائه. فقطعة مصباح سيارة الفولفو تبيّن أنّها من سيارة ربّة بيت زلقت على الصقيع واصطدمت بشجرة على جانب الطريق. وبذلك فإن الوقت الذي أُنفِق في البحث ذهب هباء، وها هو يواصل التحقيق رغم كلّ ذلك. هذا فضلاً عن أنّ مخالفة أوامر المحافِظة لعبٌ بالنار، والأدهى هو أنّه لا يفعل ذلك بمفرده، بل يسمح لكايت أن تفعل مثله. على أنّه كان قد توغّل في هذا الطريق، ولا سبيل إلى التراجع.

12

سترتفع الحرارة خلال النهار، لكنّ الهواء ما زال الآن بارداً. حشرتُ رأسي بين كتفيّ وقلت بصوت عالٍ:

«الجوّ بارد اليوم».

مضيت أتحدّث بمفردي كما كانت تفعل المرأة العجوز التي تتنزّه على جسر كليفتون المعلّق، وهي تحمل في يديها أكياس بلاستيكية مليئة بالجرائد. تساءلت ما إذا كانت لا تزال هناك، وما إذا كانت لا تزال تداوم على عبور الجسر صباح مساء. حين يترك المرء مكاناً، يتصوّر بسرعة أنّ الحياة تستمرّ فيه كالسابق رغم أنّ لا شيء يثبت على حاله لفترة طويلة. كان من الممكن أن تكون حياتي في بريستول حياة شخص آخر.

طردت هذه الأفكار من ذهني، وانتعلت حذائي الطويل، ولويت وشاحاً حول رقبتي. تصارعت كدأبي كلّ يوم مع القفل، ونجحت أخيراً في فتح الباب، ثمّ وضعت المفتاح في جيبي. مضى بو يركض عند قدمي، يتبعني كظلّي ولا يفارقني. أوّل يوم أتيت به إلى البيت الريفي، قضى الليلة بكاملها يعوي لكي ينام معي في السرير. شقّ عليّ، لكنّني أخفيت رأسي تحت الوسادة حتّى لا أسمعه. كنت أدرك أنّني سأندم إن أنا لِنْت وحقّقتُ رغبته. وظلّ على تلك الحال لأيّام

قبل أن يستسلم. تعوّد على النوم أسفل السلّم، وهو يستيقظ بمجرّد ما يسمع وقع خطواتي على أرضية الغرفة.

تحقّقت من أنّني لم أنسَ شيئاً من قائمة حاجيات اليوم. رغم أنني أذكرها جميعاً، فضّلت أن أدوّنها حتّى لا أنسى. لا تزال بيثان تُشهر صوري بين المصطافين، وهو ما حفّزني على العمل. صحيح أنّني لا أشتغل بالوتيرة نفسها التي كنت أعمل بها في السابق، حين كنت أتعامل مع المعارض وأتلقى طلبات النحت، لكنّني وجدت شيئاً يشغلني. فقد زوّدت المتجر مرتين بالبطائق البريدية، وتلقّيت بعض الطلبيات على الموقع الإلكتروني الذي أنشأته. موقع رغم أنّه لم يكن في جمال ذاك الذي كنت أملكه، إلا أنّني أشعر بالفخر كلّما شاهدته؛ فأنا أنشأته بمفردي. قد لا يكون شيئاً ذا بال، إلا أنّه أثبت لي بأنّني قادرة على إنجاز أشياء مهمّة، وأنّني لست بالعجز الذي أتصوّر.

لم أضع عليه اسمي، واكتفيت برواقٍ للصور، ونظامٍ بدائي للطلبيات واسم النشاط الذي أمارسه: «النحت على الرمل». وهو اسم ساعدتني بيثان في العثور عليه بينما كنّا جالستين معاً في البيت الريفي نشرب النبيذ. كانت تتحدث عن مشروعي بحماس، ولا تكفّ تسألني عن رأيي، وهو ما لم يحدث لي منذ زمن بعيد.

شهر أغسطس هو الفترة من السنة التي يكون فيها المخيم أشدّ ازدحاماً. ورغم أنّني ما زلت ألقى بيثان مرّة في الأسبوع على الأقل، فإنني آسَفُ على هدوء الشتاء، حيث كان بإمكاننا أن نقضي ساعة أو أكثر بأحد زوايا المتجر نتبادل أطراف الحديث وأقدامنا ملتصقة بالمدفأة. الشاطئ أيضاً ازدحم بالروّاد، وهو ما فرض عليّ الاستيقاظ فجراً حتّى أضمن العثور على مكان يكسوه رمل ناعم ألتقط فيه صوري.

يصرخ نورس، فيركض بو على الرمل في إثره، يطير ويشرع في معاكسته. ألتقِطُ عوداً طويلاً من فوق الرمل الذي بدأ يجف بمجرد ما انحسر عنه المدّ. سأخطّ الرسائل اليوم قرب الماء. أُخرج قطعة ورق من جيبي لكي أتذكّر الطلبية الأولى. كتب عليها اسم جوليا. قلت في نفسي: هذا أمر سهل.

مضى بو يتطلّع إليّ بفضول: يظنّ أنّني أخاطبه. لعلّه على حقّ، وإن كان عليّ أن أحرص على عدم التعلّق به. ينبغي أن أعتبره مثلما يعتبر ليستين الكلاب التي تحرس قطيعه: مجرّد أداة تملك وظيفة محدّدة. فهو حارسي رغم أنّني ما زلت في غير حاجة إلى حماية، لكنّني قد أحتاجها يوماً.

أنحني وأخطّ حرف جيم ضخم، ثمّ أتراجع إلى الوراء لكي أتأكّد من حجم الحرف قبل أن أكتب بقية الكلمة. أجده مناسباً، فأتخلّص من العود وأخرج آلة التصوير. كانت الشمس قد تجاوزت الأفق، وأشعّتها المائلة تضفي على الرمل بريقاً وردياً. التقطت اثنتي عشرة صورة تقريباً ثمّ قرفصت وصوّبت منظار الكاميرا في انتظار أن يغمر الزبد الكلمة المكتوبة.

أمّا بالنسبة إلى الطلبية اللاحقة، فبحثت عن مكان نظيف من الشاطئ، ورحت أشتغل بسرعة. التقطت حزمة عصيٍّ من بين ما قذفت به أمواج البحر. وما كدت أضع آخر عود في مكانه على الرمل حتّى مضيت أتأمّل ما أبدعت بعينٍ ناقدة. جدائل من الطحالب تلطّف من انعكاس الضوء على الأعواد والأحجار التي استعملتها لتأطير الرسالة. يبلغ قطر القلب الذي رسمته من الأعواد الطافية مترَين: مساحة كافية لاستيعاب الحروف المزيّنة بالأرابسك التي كتبتُ بها: «سامحيني يا أليس!». وبينما مددتُ يدي لتغيير مكان

قطعة من الخشب، خرج بو من الماء بسرعة فائقة وهو ينبح، فقلت له:

«رويدك!».

حميت آلة التصوير بيدي مخافة أن يقفز عليها، لكنّه تجاهلني ومرّ بجانبي مثيراً زوبعة من الرمل المبلل، قاصداً الجانب الآخر من الشاطئ وارتمى على رجل كان يهمّ بالاقتراب منّي. ظننت في البداية أنّ الأمر يتعلّق بصاحب الكلب الذي كلّمني ذات مرّة، إلا أنّه لم يكن هو. كان يحشر يديه في جيبي سترته، فحبست أنفاسي. أيُعقل هذا؟ فأنا لا أعرف أحداً هنا باستثناء بيثان وليستين، ومع ذلك فهذا الرجل الذي لم يعد يفصل بيني وبينه سوى بضع عشرات من الأمتار، وهو يقصدني بخطى واثقة. تطلّعت إلى وجهه، فوجدته ليس غريباً عنّي. أعرفه لكنني لا أستطيع أن أتذكر من يكون. أشعر بغصّة في حلقي من الخوف، فأنادي بو.

«أنت جينا، أليس كذلك؟».

وددت لو أهرب، لكنّني ظللت متسمّرة في مكاني. استعرضت في ذهني وجوه كلّ من أعرفهم في بريستول. أنا متأكّدة من أنّني رأيته في مكان ما. بادرني قائلاً:

«المعذرة، لم أقصد إخافتك».

لاحظ أنني أرتعش. مظهره يدلّ فعلاً على أنه آسف، وعلت محيّاه ابتسامة عريضة كما لو أنه أراد طمأنتي والتكفير عمّا بدر منه. ثمّ استرسل:

«اسمي باتريك ماثيوز، بيطري بورت إيليس».

تذكّرته فوراً، وتذكرت الكيفية التي كان يحشر بها يديه في جيبَي وزرته.

أجبته وقد استعدت القدرة على الكلام، وإن ظلّ صوتي خافتاً وغير واثق:

«لم أتعرّف إليك لأوّل وهلة».

رفعت عيني نحو الطريق الساحلي الضيق. لن يتأخر المصطافون في الوصول إلى الشاطئ لقضاء يومهم، حاملين المراهم الشمسية والمظلات وما يقيهم من الريح، مستعدّين لمواجهة أيّ تقلُّب في الجو. ولأوّل مرّة شعرت بالسرور من وجود الناس في بينفاتش: ابتسامة باتريك ودودة، وإن كنت انخدعت بمثلها في السابق مرّة.

انحنى على بو، وراح يحكّ أذنيه.

«يبدو أنك أحسنت معاملته. ما الاسم الذي اخترت له؟».

«بو».

تراجعت خطوتين صغيرتين إلى الخلف بلا قصد مني، وشعرت بالغصة في حلقي تزول. حاولت أن أرخي ذراعي وأمدهما إلى الأسفل، لكنّهما كانا يصعدان فوراً، ويستقران على خصري.

جثا باتريك على ركبتيه وراح يداعب بو الذي استلقى على ظهره حتّى يحكّ بطنه، مبتهجاً بهذا الحنان الذي لم يعتد عليه.

«لقد زال توتّره تماماً».

بعث استرخاء بو الطمأنينة في نفسي. يبدو أنّ الكلاب نادراً ما تخطئ في تعرّف سرائر الناس.

قلت:

«إنه على أحسن ما يرام».

«هذا واضح».

نهض باتريك، ونفض الرمل عن ركبتيه، أما أنا فظللت حذرة.

«لا أظنّك واجهتِ مشاكل مع ليستين؟».

«بتاتاً. ربّما هو يؤمن بأنّ الكلب شيء ضروري في البيت».

«أتفق معه إلى حدّ ما. وددت لو أستطيع الاحتفاظ بواحد، إلا أنني منشغل بالعمل، ومن غير المعقول أن أفكّر في ذلك. ثمّ إنني أعاشر ما يكفي من الحيوانات خلال النهار بحيث لا يسعني أن أشتكي من هذا الجانب».

يبدو مرتاحاً في الشاطئ، بحذائه المكسوّ بالرمل وسترته التي أكلها الملح. أومأ برأسه إلى القلب المرسوم بالخشب الطافي، وسأل:

«من تكون أليس؟ لماذا تطلبين منها المعذرة؟».

«لست أنا من أطلب المعذرة!».

لا بدَّ أنه وجدني غريبة الأطوار بهذه الرسوم على الرمل. واسترسلت أقول:

«أو بالأحرى فلست أنا من تشعر بالأسف. هذه عبارة أحدهم طلب منّي أن أصورها له».

وبدت الحيرة على باتريك.

«هذه مهنتي. أنا مصوّرة». ورفعت آلة التصوير كما لو أنني خشيت ألا يُصدّقني. «يبعث لي الناس رسائل يريدونها مخطوطة على الرمل. آتي إلى هنا وأكتبها ثمّ أبعث لهم بالصور».

صمتّ، وبدا على وجهه أن الموضوع أثار اهتمامه حقّاً.

«أيّ نوع من الرسائل؟».

«كلمات دالة على الحب بخاصة، أو طلبات زواج. تصلني

طلبيات شديدة التنوع والتبايُن. الأمر كما ترى هنا يتعلق باعتذار، لكن الناس يطلبون منّي أحياناً أن أصوّر لهم أقوالاً مأثورة أو كلمات أغنيات يؤثرونها. الطلبيات تختلف من شخص إلى آخر».

شعرت بوجهي يتورّد، فتوقفت عن الكلام.

«تكسبين قوتك إذاً من هذا، يا له من شغل رائع!».

حاولت أن أبحث عمّا يشي بالاستهزاء في صوته، فلم أعثر عليه. وسمحتُ لنفسي بأن أشعر بشيء من الفخر. إن كان هذا شغلاً رائعاً، فقد ابتكرته من عدم.

«أبيع أيضاً صوراً أخرى، لا سيما صور هذا الخليج. إنّه مكان باهر، وكثير من السيّاح يريدون الاحتفاظ بذكرى منه».

«هذا صحيح. وأنا أعشق هذا المكان».

خيّم الصمت لحظة، ورحنا نتأمّل الأمواج تتكون ثمّ تنكسر على الرمل. بدأ التوتر يتملّكني، فأخذت أبحث عمّا أقول.

«ما الذي جاء بك إلى الشاطئ؟ قليل من الناس يأتون إلى هنا في مثل هذه الساعة، باستثناء من يخرجون كلابهم».

«جئت لأطلق طائراً مائياً أتتني به امرأة مكسور الجناح. احتفظنا به في العيادة لبضعة أسابيع حتّى شُفي. فأتيت به هذا الصباح وأطلقت سراحه من أعلى المنحدر. نحاول أن نحرِّر الطيور في المكان الذي عُثر عليها فيه لكي نرفع حظوظها في الحياة. ولمّا رأيت رسالتك على الرمل لم أستطع مقاومة الرغبة في النزول إليك، وسؤالك لمن توجّهينها، ولم أتعرف إليك إلا حين استويت في الأسفل».

«وهل نجح الطائر في الطيران؟».

أومأ باتريك برأسه وهو يقول:

«نعم، نجح. هذا شيء معهود. هل أنتِ من هنا؟ إذا كنت أذكر جيّداً، فقد أخبرتني حين أتيت بالكلب إلى العيادة بأنك مستقرّة في بينفاتش منذ مدّة قصيرة. أين كنت تقطنين من قبل؟».

بينما كنت أفكر في الجواب، سُمع رنين الهاتف، لحنٌ حادٌّ غير مناسب لِجَوِّ الشاطئ. وتنفّست الصعداء رغم أنّ الحكاية التي هيّأت صارت سَلِسة من كثرة ما حكيتها لليستين وبيثان وبعض من سألوني من المصطافين. أنا نحاتة، لكن بعدما أصيبت يدي في حادثة، لم أعد قادرة على العمل. لذلك تحوّلت إلى التصوير، وهي قصّة لا تجانب الحقيقة كثيراً على كلّ حال. لم يسألني أحد عمّا إذا كان لديّ أطفال، ربّما لأنّ الجواب كان واضحاً على ملامح وجهي.

فتّش باتريك في جيبه وأخرج جهاز اتصال صغير مدفون بين حبيبات دواء وقشّ سقط على الرمل:

«المعذرة، ينبغي أن أرفع الصوت إلى الحدّ الأقصى، وإلا لن أسمع شيئاً».

وبعد أن ألقى نظرة على الشاشة، قال:

«آسف، ينبغي أن أنصرف. أنا عضو في مركز إنقاذ بورت إيليس البحري. أضع نفسي رهن إشارتهم مرّة أو مرّتين في الشهر، ويبدو أنّهم يحتاجونني الآن».

وأعاد الجهاز إلى جيبه ثمّ أضاف:

«سعدت بالتعرف إليك يا جينا، سعدت كثيراً».

أومأ لي مودّعاً، ثمّ عبر الشاطئ مسرعاً. اتّجه إلى الطريق الرملي الضيق واختفى قبل أن أتمكّن من التعبير له أنا أيضاً عن سعادتي بمعرفته.

عند العودة إلى البيت، خلد بو إلى سلّته متعباً. أمّا أنا، فوضعت الماء على الموقد، وبينما كنت أنتظر أن يسخن، انشغلت بنقل الصور التي التقطتها هذا الصباح من الكاميرا إلى الحاسوب. لم تكن الصور سيّئة بالنظر إلى أنّني قوطِعت خلال التصوير. الحروف بارزة على الرمل، وإطار الخشب الطافي ممتاز. تركت أحسن صورة ظاهرة على الشاشة لكي ألقي عليها نظرة فيما بعد، وصعدت إلى الطابق العلوي حاملة قهوتي. كنت أعلم أنّني سأندم على ما أنا مُقدِمة عليه، لكني لم أستطع المقاومة.

جلست على الأرضية العارية ووضعت فنجاني بجانبي، ومددت ذراعي تحت السرير نحو الصندوق الصغير الذي لم أمسّه منذ وصولي إلى بينفاتش. سحبته وقرفصت لكي أرفع غطاءه، فأثرتُ سحابة من الغبار والذكريات في الآن نفسه. بدأت أشعر بأنني لست على ما يرام، وأدركت بأن عليّ أن أُغلقه وأُعرِض عن التفتيش فيه، إلا أنني أحسست بنفسي مثل مدمنة متلهّفة إلى المخدّر، لا يمكن أن يوقفها شيء.

أخرجت ألبوم الصور الصغير الموضوع فوق حزمة من الوثائق الرسمية، ومضيت أداعب هذه الصور الملتقطة في زمن بدا من فرط بُعدِه كما لو أنّه يتعلّق بشخص آخر. ها أنا ذي في الحديقة، وها أنا ذي في المطبخ أحضّر الطعام. وها أنا ذي حبلى أشير بفخر إلى بطني. أحسّ بغصّة في حلقي وأشعر بوخز خفيف خلف عيني. أرمش لأحبس دموعي. كنت في منتهى السعادة في ذلك الصيف، وواثقة من أن هذا المخلوق القادم سيغيّر كلّ شيء، وأنّنا يمكن أن نبدأ من جديد. كنت أظنّ أنّ ذلك سيشكّل انطلاقة جديدة بالنسبة إلينا. داعبت الصورة وأنا ألمس محيط بطني متخيلة المكان الذي يوجد فيه رأسه وأطرافه المضمومة وأصابع رجليه التي بالكاد بدأت تنمو.

أغلقت الألبوم بلطف كما لو أنّني كنت أحرص على عدم إزعاج الطفل الذي سيولد، وأعدته إلى الصندوق. عليّ الآن أن أنزل بما أنني لا أزال قادرة على ذلك. لكن الأمر أشبه بمعالجة ضرس مؤلم أو كشط قشرة جرح. أواصل التفتيش إلى أن تلامس أصابعي الثوب الناعم الذي كنت أنام فيه خلال فترة حملي، كما لو أنّني كنت أسعى إلى أن أشبِعَه برائحتي لكي أسلِّمه لابني عند ولادته. أضعه على وجهي وأروح أتشمّمه استجابة لهذه الحاجة الماسّة إلى ذكراه. وأنخرط في نحيب مخنوق، فيصعد بو بلا حسّ، ويلحق بي في غرفة النوم.

أصرخ به:

«انزل يا بو!».

يتجاهلني.

«اخرج من هنا!».

أصرخ في وجهه كمجنونة تحمل في يدها لعبة أطفال. أصرخ وأصرخ دون أن أستطيع التوقّف، لأنّني لم أعد أرى بو بل الرجل الذي غصب طفلي، الرجل الذي وضع حدّاً لحياتي لمّا قتل ابني.

«اخرج! اخرج! اخرج!».

يتجمّد بو في مكانه وهو جاثٍ على الأرض، متوتّر وباسط أذنيه، لكنّه لا يتحرك. وببطء شديد يتقدّم مني دون أن يحوّل عنّي بصره.

يتبدّد غضبي بالسرعة نفسها التي انتابني بها.

يقف بو بقربي، ويضع رأسه على ركبتَيّ. يغلق عينيه فأحس بثقله ودفئه من خلال سروال الجينز. وبحركة تلقائية، تشرع يداي في مداعبته، وتأخذ دموعي في التدفق.

13

كان راي قد شكّل فرقته لمباشرة عملية بريك. عيّن كايت مسؤولة عن وثائق الإثبات، وهي مهمّة صعبة بالنسبة إلى من لم يقضِ في فرقة مكافحة الجريمة سوى ثمانية عشر شهراً. لكن راي كان واثقاً من أنّها ستنجح في تدبّر أمرها.

ردّت حين أفصح لها عن مخاوفه:

«سأنجح بالطبع! ثمّ إنّني سأعود إليك كلما اعترضتني مشكلة، أليس كذلك؟».

«لا تتردّدي في ذلك. ما رأيك في أن نشرب كأساً بعد العمل؟».

«بكلّ سرور».

دأبا على الالتقاء مرتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع بعد الفراغ من العمل للتداول في جريمة الاصطدام والهروب. وبينما كانا يوشكان على إنهاء التحريات المعلّقة، لم يعودا يقضيان في مناقشة القضية سوى وقت قصير مقارنة بما يمضيانه في الحديث عن حياتهما الشخصية. تفاجأ راي بمعرفة أنّ كايت أيضاً من أنصار فريق بريستول، وأكثرهم حماساً. وقد أنفقا أمسيات كثيرة في الشكوى من تراجع ترتيب النادي. ولأوّل مرّة منذ مدة طويلة لم يشعر بنفسه مجرّد زوج أو أب أو حتّى شرطي، بل شعر بأنّه راي.

كان حريصاً على عدم الاشتغال على جريمة الاصطدام والهروب في المكتب، لأنّ ذلك يعدّ عصياناً صريحاً لأوامر المحافِظة. لكنّه طالما يشتغل عليها خارج أوقات العمل، فلن يستطيع أحد أن يلومه. فإذا ما قادت التحريات إلى توقيف الجاني، فلا مراء في أنّ المحافِظة ستغيّر خطابها.

لقد حتّم التكتّم على راي وكايت عقد لقاءاتهما في نادٍ بعيد عن الأماكن التي يرتادها زملاؤهما من العاملين بالشرطة. كان هورس آند جوكي مكاناً هادئاً، يحتوي على مقصورات تسمح لهما بنشر الوثائق من دون خشية أن يبصرهما أحد. كما أنّ صاحب النادي لم يكن يرفع عينيه عن الكلمات المتقاطعة. وكانت اللقاءات طريقة لطيفة لإنهاء اليوم والاستراحة قبل العودة إلى البيت. وكثيراً ما فاجأ راي نفسه يراقب عقارب الساعة منتظراً نهاية العمل.

أخّرته بطبيعة الحال إحدى المكالمات. ولمّا وصل إلى النادي، وجد كايت قد شربت نصف كأسها. وكان قد جرى بينهما عرفٌ يتمثل في أن من يصل أوّلاً يطلب لنفسه وللآخر، وبذلك كان الكأس بانتظاره على المائدة.

سألته كايت وهي تدفع بالكأس أمامه:

«ما الذي أخّرك؟».

شرب راي جرعة من الجعة:

«معلومات قد تُفيدنا. بائع مخدرات من حيّ كريستون يدير شبكة من ستة موزعين أو سبعة، يعملون في ناديه الليلي، ويقومون بالعمل القذر... وهذا يَعِدُ بعمليّة مُغرية».

استغلّ نائبٌ عُمّاليٌّ من مجلس الشيوخ يحبُّ الظهور قضيّةَ المخدرات لكي يشير إلى ما تمثّله «المناطق الهامشية الخارجة عن

السيطرة» من خطر على المجتمع، وراي يدرك مقدار حرص المحافِظة على أن تكون الشرطة حاضرة هناك. وهو يأمل، إن مرّت عملية بريك على أحسن ما يرام، أن يترك لدى رئيسته انطباعاً جيّداً، فتعهد له بهذا التحقيق أيضاً.

قال موضّحاً لكايت:

«فرقة حماية الأُسر أجرت اتصالات مع دومينيكا ليتس، وهي عشيقة أحد موزّعي المخدرات الصغار. وهم يحاولون إقناعها بتقديم شكاية ضدّه. على أنّهم يتجنّبون إرعاب صاحبنا بإقحام الشرطة في الأمر، لا سيما أنّهم ما زالوا يجمعون وثائق الإثبات، لكنّ الواجب يحتّم علينا حماية العشيقة».

«أهي في خطر؟».

صمت قليلاً قبل أن يسترسل:

«لست أدري. فرقة حماية الأُسر قدّرت أنّها في خطر كبير مع أنّها ترفض على نحو قاطع الشهادة ضدّه. ولحدود اللحظة فهي غير متعاونة بتاتاً».

«متى نستطيع التدخل؟».

«بعد أسابيع ربّما. العملية بطيئة للغاية. ينبغي التفكير في إيداع العشيقة لدى إحدى الأُسر -إن هي وافقت- وترك تهمة العنف جانباً إلى أن نضبطه متلبّساً بترويج المخدرات».

فقالت كايت وهي مستغرقة:

«عملية حسابية خاطئة. أيّهما أخطر: تجارة المخدرات أم العنف ضدّ النساء؟».

«الأمر ليس بهذه البساطة. ما قولك في العنف الناجم عن استهلاك المخدرات؟ وما يقترفه المدمنون من سرقات؟ قد لا تكون

نتائج المخدرات مباشرة مثل لكمة عنيفة، لكنّها لا تقلّ عنها خطورة وإيلاماً».

وتنبّه راي إلى أنّه يتحدّث بصوت أعلى من المعتاد، وصمت فجأة، فوضعت كايت يدها على يده لمواساته.

«لا عليك. أنا واعية بأنّني أدافع عن قضية خاسرة. القرار ليس سهلاً».

ابتسم راي وقد بدا عليه الارتباك.

«آسف، نسيت أنني أستشيط غضباً بسرعة كلّما خضت في مثل هذه الأمور».

الواقع أنّ مدّة طويلة مضت دون أن يفكر في كلّ هذا. هو يزاول هذه المهنة منذ زمن بعيد حتى أن الأسباب التي انخرط من أجلها في سلك الشرطة طمسها العمل المكتبي ومشاكل الموظفين. ومن ثمّة فإنّ تذكيراً كهذا لن يضير.

وتقاطعت نظرته بنظرتها، فشعر للحظة خاطفة بحرارة بشرتها. سحب يده وهو يضحك وقد علاه الارتباك. وقال:

«أنشرب آخر كأس قبل أن ننصرف؟».

لمّا عاد إلى المائدة كانت اللحظة قد مرّت، وتساءل عمّا إذا لم تكن مجرّد خيال. وضع الكأسَين. فتح كيس رقائق البطاطس، ووضعه بينهما، ثم أعلن:

«لا جديد لدي بخصوص قضية جاكوب».

فردّت وهي تتنهد:

«أنا أيضاً. ربّما سنضطر إلى التخلي عن القضية».

فأمّن على كلامها.

«فعلاً، وهو أمر يدعو للأسف».

«شكراً على سماحك لي بالاستمرار في التحقيق كلّ هذه المدّة».

«كنتِ مُحقّة حين رفضتِ الاستسلام، وأنا سعيد بكوني ساعدتك».

«حتّى إن لم نتقدم؟».

«أجل، لأن الأمر مختلف الآن. بذلنا كل ما بوسعنا».

هزّت كايت رأسها ببطء.

«هذا صحيح».

حدّقت في راي.

«ماذا؟».

«مهما يكن، فأنت لست من المتملّقين للمحافِظة».

وابتسمت بينما مضى راي يضحك مسروراً بهذا الإطراء.

راحا يأكلان الرقائق في صمت، وألقى نظرة على هاتفه ليرى ما إذا كان قد توصّل برسالة من ماغس.

«كيف هي الأمور في البيت؟».

ردّ راي وهو يعيد الهاتف إلى جيبه:

«كالعادة. ما زال توم سيّئ المزاج خلال الوجبات، وأنا دائم الخصام مع ماغس حول الكيفيّة التي ينبغي التعامل بها معه».

وضحك ضحكة صغيرة لكن ملامح كايت ظلّت واجمة.

«متى ستلتقون بأستاذه؟».

«زرنا الثانوية أمس. الظاهر أن توم بدأ يتغيّب عن الدروس رغم أن الدخول المدرسي بالكاد مضى عليه شهر ونصف. لم أعد أفهم هذا الولد. كل شيء كان على ما يرام خلال الصيف، لكن بمجرد ما

عاد إلى المدرسة، رجع إلى سيرته الأولى: الانطواء والحدّة والعناد».

«أما زلت تظنّ أنّه يتعرّض للمضايقة؟».

«إدارة المدرسة تنفي ذلك، ولكنّهم لن يقولوا العكس، أليس كذلك؟».

لم يكن راي يُكنّ تقديراً خاصاً لمديرة مدرسة توم التي لامتهما، هو وماغس، على عدم ظهورهما كجبهة موحّدة خلال اجتماعات آباء وأولياء التلاميذ. فقد هدّدته ماغس بأن تلتحق به إلى العمل، وتجبره بالقوة على مرافقتها إلى الاجتماعات القادمة. وبلغ به الخوف من نسيان الموعد أن اشتغل طوال اليوم في البيت حتّى يتسنّى له حضور الاجتماع معها. إلا أنّ ذلك لم يغيّر من الأمر شيئاً.

صمت قليلاً ثم استرسل يقول:

«قال الأستاذ إنّ لتوم تأثيراً سيئاً على بقية تلاميذ الصف. وذهب إلى أنه «مشاغب»، هذا وهو لا يزال في هذا السن! أمر فظيع يا إلهي! إن كانوا عاجزين عن ضبط الأطفال المزعجين، فلِمَ اختاروا مهنة التعليم؟ توم ليس «مشاغباً»، كل ما في الأمر أنه عنيد».

فقالت كايت وهي تكبت الابتسامة:

«لست أدري ممن ورث هذا؟».

فردّ راي هازلاً:

«حذار يا مفتِّشة إيفانس! أظنك ترغبين في العودة إلى ارتداء البزّة!».

واستحال ضحك كايت إلى تثاؤب.

«آسفة، أشعر بالإنهاك. أظن أنّ عليّ العودة إلى البيت. سيارتي لا تزال عند الميكانيكي. ينبغي أن أسأل عن موعد مرور الحافلة».

«أستطيع أن أوصلك إن شئت».

«أأنت واثق ممّا تقول؟ فأنا لا أقطن حيّاً واقعاً في طريقك...».

«لا بأس، هيّا بنا... ستكون مناسبة لأتعرف إلى حيّك الراقي».

توجد شقة كايت في عمارة أنيقة وسط كليفتون، حيث ثمن العقار مرتفع على نحو مبالغ فيه في نظر راي.

قالت كايت موضّحة:

«ساعدني والدي في أداء الدفعة الأولى، ومن دون ذلك ما كان بوسعي أبداً أن أشتري الشقة. ثمّ إنّها ضيّقة: نظرياً تضمّ غرفتَين شريطة ألا تضع السرير في إحداهما».

«كان بإمكانك أن تقتني أوسع منها في حي آخر».

«صحيح، لكن في كليفتون يوجد كل ما يحتاج المرء. هل تستطيع إن كنت في حي آخر تناول طبق الفلافل في الثالثة صباحاً؟».

هو لا يرى لذلك فائدة. فالشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله في الثالثة صباحاً هو أن يتبوّل.

فكّت كايت حزام السلامة، وأمسكت بمقبض باب السيارة ثمّ قالت:

«ألا تصعد لترى الشقة؟».

كانت نبرتها عفوية، لكن الجوّ تكهرب فجأة، وأدرك راي في هذه اللحظة أنّه يقوم بتجاوز خطّ مضت شهور وهو يداعبه.

فأجاب:

«بكلّ سرور».

تقع شقّة كايت في الطابق الأخير، والعمارة مجهّزة بمصعد فاخر يرتقي الطوابق في بضع ثوانٍ. ولمّا انفتح باب المصعد، ألفيا نفسيهما في بسطةٍ مكسوّة بالسجاد، ينتصب أمامهما باب شقة قشديّ اللون. خرج راي بعد كايت، وظلّا متسمّرين هناك بصمت بينما انغلق باب المصعد. مضت تحدّق في عينَيه، رافعة ذقنها قليلاً، وسقطت جديلة من الشعر على جبينها. وتنبّه راي فجأة إلى أنّه لم يعُد يستعجل العودة إلى بيته.

قالت كايت دون أن تحوّل عينَيها عنه:

«ها نحن وصلنا».

حرّك رأسه ومدّ يده لكي يعيد الجديلة الشاردة خلف أذنها، ثمّ، ودون أن يُمعِن في التفكير، قبّلها.

14

يحشر بو خطمه في تجويف ركبتَي، فأمدّ ذراعي لكي أحكّ أذنيه. لم أستطع مقاومة تعلّقي به، ومن ثمّة رضخت لإرادته وصار ينام على سريري. فإذا ما أيقظتني الكوابيس صارخة، يروح يلحس يدي ويواسيني. وشيئاً فشيئاً، ودون أن أنتبه، غيّر حزني شكلَه. لم يعد ألماً حادّاً غير منتظم، يتعذّر التحكم فيه، بل صار معاناة غير حادّة متواصلة أستطيع أن أحاصرها في زاوية من دماغي. يكفي أن أتحاشى إيقاظها لكي أتوهّم بأنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنسى حياتي السابقة وكأنني لم أعشها قط.

«هيّا، لننطلق!».

أطفأت مصباح السرير الذي حجبت ضوءَه أشعة الشمس القادمة من النافذة. صرت أعرف الآن فصول الخليج. فقد مضت الآن سنة تقريباً على استقراري هنا. إن وجهه يتغيّر من يوم إلى آخر. المدّ والجزر والجوّ المتقلّب، بل حتى النفايات التي يقذف بها البحر، كلّها أشياء تجعله دائم التحوّل. البحر اليوم ضخّمته ليلة ماطرة، والرمل الرمادي يبدو مبلّلاً تحت غيوم كثيفة داكنة. أمّا المخيم فخلا من الخيام تماماً، ولم تعد تشغله سوى بيوت بيثان المتنقّلة، وحفنة من سيارات التخييم جلبها مصطافون جاؤوا للاستفادة من تخفيضات

آخر الموسم، ولن يلبثوا أن يرحلوا، فأستأثِرُ بالخليج من جديد.

تقدّمني بو، ونزل بأقصى سرعة إلى الشاطئ. لم يمنعه المدّ من الاندفاع إلى الماء. أضحكتني مطاردته للأمواج الباردة، ونباحه عليها. هو الآن أشبه بكلب صيد، بقوائم أطول بقليل من قوائم جرو. وهو يتمتّع بطاقة فيّاضة جعلتني أتساءل عمّا إذا كان يستطيع تبديدها كاملة في يوم من الأيام.

أمعنت النظر في أعلى المرتفع الصخري، فلم أرَ أحداً، وشعرت بخيبة سرعان ما تخلّصتُ منها. من العبث الطمع في لقاء باتريك على الشاطئ ونحن لم نلتقِ إلا مرّة واحدة، لكنّني لم أستطع منع نفسي من التفكير فيه.

عثرت على ركن مناسب للكتابة. سيأتي وقت في الشتاء تكسد بضاعتي، إلا أن الأمور الآن تسير على أحسن ما يرام. أبتهج كلما وصلتني طلبيّة، وأسلّي نفسي بتخمين الحكايات التي تختفي خلف الرسائل. فمعظم زبائني لهم علاقة بالبحر، وكثير منهم يبعث لي رسائل إلكترونية عندما يتوصّلون بطلبياتهم، يعبِّرون لي فيها عن مدى إعجابهم بالصورة، ويخبرونني بأنّهم قضوا طفولتهم بجانب البحر أو أنهم يدّخرون المال من أجل السفر مع أُسرهم إلى الساحل. ومنهم من يسألني أحياناً عن اسم الشاطئ الذي التُقِطت فيه الصورة، لكنني لا أجيبهم أبداً.

وبينما كنت أهمُّ بالشروع في العمل، بدأ بو ينبح. رفعت بصري، فإذا بي أرى رجلاً يقصدني. حبستُ أنفاسي، لكنه بدأ يلوّح بيده محيِّياً، فأدركت أنه هو: باتريك. لم أستطع إخفاء الابتسامة. ورغم تسارع دقات قلبي، لم أكن واثقة من أنّ سبب ذلك هو الخوف.

بادرني قبل أن يصل إليّ:

«كنت آمل أن أجدك هنا. هل تقبلين أن يكون لك تلميذ؟».

لا ينتعل حذاء طويلاً، وسرواله المخملي القصير مبلّل وملطّخ بالرمل، وأحد جوانب طوق سترته مرفوع. قاومت الرغبة في مدّ ذراعي وتسويته. وقلت له:

«صباح الخير. تلميذ؟».

أشار بذراعه الأيسر إشارة مفخّمة، عيّنَ بها الشاطئ بكامله تقريباً.

«فكرت في أن أساعدك فيما تصنعين».

لم أعرف ما إذا كان يتهكّم منّي، فلزمت الصمت.

تناول باتريك العود من يدي وراح ينتظر مُنتصباً فوق هذه المساحة المترامية من الرمل. وشعرت بنفسي متوترة فجأة.

قلت بنبرة حرصتُ على أن تكون جادّة حتّى أخفي ارتباكي:

«الأمر أصعب ممّا قد يبدو لك. ينبغي الحرص على ألا تظهر آثار الأقدام في الصورة، والاشتغال بسرعة، وإلا فإنّ المدّ سيصعد».

لا أذكر أنّ أحداً سعى إلى مشاركتي هذا الجانب من حياتي: كان الفن دائماً شيئاً أمارسه بمعزل عن الناس، بمفردي، كما لو أنّ العالم الواقعي لا يفسح له مكاناً.

«مفهوم!».

أشفقت من جديته البالغة. مهما يكن، فالأمر لا يعدو أن يكون رسالة على الرمل.

أقرأ الطلبيّة بصوت مرتفع.

«تجمع بين القوة والبساطة: «شكراً ديفيد»».

قال باتريك ساخراً وهو ينحني ليكتب الكلمة الأولى:

«شكراً على ماذا بالتحديد؟ شكراً على أنّكَ قدّمتَ الطعام إلى القط؟ شكراً على أنكَ أنقذتَ حياتي؟ شكراً على أنّكَ رضيت بالزواج منّي رغم تلك المغامرة التافهة مع ساعي البريد؟».

أقاوم الابتسامة وأقول بنبرة اجتهدت في أن تبدو جادّة:

«شكراً على أنّك علمتني رقصة الفلامينكو».

«شكراً على عُلبة السيغار الكوبي».

«شكراً على أنّكَ أودعت المال في حسابي البنكي».

«شكراً على...».

مدّ باتريك يده ليُتِمّ كتابة الكلمة الأخيرة، فقد التوازن، ترنّح إلى الأمام واضطرّ إلى أن يغرس قدمه وسط الكتابة ليتلافى السقوط، وقال:

«تبّاً!».

تراجع خطوة إلى الوراء ليلاحظ الخسائر، والتفت إليّ وقد علاه الارتباك، فانفجرت ضاحكة.

«لهذا قلت لك إنّ الأمر أصعب ممّا يبدو».

أعاد لي العود.

«أنحني أمام موهبتك الفنية. حتّى من دون أثر قدمي، فعملي لا قيمة له. الحروف ليست كلّها من الحجم نفسه».

«لا تقلّل من شأنك».

جلت ببصري باحثة عن بو، وناديته لكي أحوّل انتباهه عن سلطعون يهمُّ بأن يلعب به.

سأل باتريك:

«وهذا؟».

ألقي نظرة على الرسالة التي كتبها من توّه على الرمل، متوقعة أن أجد كلمة «شكراً» من جديد.

«هل نلتقي؟».

«هذا أفضل، لكنه غير وارد في...».

وسرعان ما أدركت بلاهتي.

«نلتقي في كروس أوك هذا المساء؟».

كان باتريك يتحدّث بصوت غير واثق، فأتنبّه إلى أنّه متوتّر هو أيضاً، وأستعيد الثقة في نفسي.

تردّدت للحظة خاطفة. أخذ قلبي يخفق حتّى ظننت أنه سيتوقّف، وأجبت:

«بكلّ سرور».

قضيت بقية ذلك اليوم وأنا نادمة على اندفاعي. ولمّا عدت إلى البيت في المساء تملّكني قلق شديد حتّى رحت أرتعش. فكّرت في كلّ المشاكل التي قد تحدث، وفي كلّ ما قاله لي باتريك باحثة عن علامات منذرة. أهو بالاستقامة نفسها التي يُظهر؟ أهذا ممكن؟ فكّرت في الذهاب إلى بينفاتش والاتصال بالعيادة البيطرية لكي أطلب إلغاء الموعد، لكنني كنت أعلم أنّني لا أملك الشجاعة لذلك. ولتزجية الوقت، استحممت بماء بالغ السخونة جعل بشرتي تتورّد، ثمّ جلست على سريري وأنا أتساءل عمّا سأرتدي. فآخر عهدي بمثل هذه المواعيد يرجع إلى عشر سنوات خلت، وهو ما جعلني أخشى الخروج عن الأعراف والمواضعات. كانت بيثان لا تزال تتخلّص من الملابس التي لم تعد تناسبها، ومعظمها يكبرني بكثير، لكنّني جرّبت تنّورة بنفسجية داكنة فألفيتها لا بأس بها، وإن

لزمني لفّ خصري بوشاح حتّى أثبّتها. خطوت بضع خطوات في الغرفة، ووجدت التلامس بين ساقَي -وهو شيء لم أعتد عليه- لطيفاً، والأمر نفسه بالنسبة إلى تأرجح الثوب على فخذيّ. وشعرت فجأة بأنّني استرجعت شبابي، لكن حين نظرت إلى نفسي في المرآة، لاحظت أنّ حاشية الثوب لا تبلغ ركبتَي، وتكشف عن جزء كبير من ساقَي، فنزعتها وكوّرتها ورميت بها داخل الدولاب، ثمّ التقطت سروال الجينز الذي نزعت. عثرت على قميص نظيف ومشطت شعري، واستعدت مظهري السابق، المظهر نفسه الذي أبدو به كلّ يوم. وتذكرت تلك الفتاة التي كانت تنفق الساعات في الاستعداد للخروج: موسيقى صاخبة وماكياج متناثر في الحمام، وعطر يملأ الأرجاء. لم أكن أعرف حينئذ حقيقة الحياة.

توجّهت إلى المخيم حيث سألتقي باتريك، وفي آخر لحظة قرّرت أن آخذ معي بو. فوجوده يمنحني الشجاعة تماماً كما حدث هذا الصباح. حين وصلت، وجدت باتريك مستغرقاً في الحديث مع بيثان عند باب المتجر وهما يضحكان، فتساءلت عمّا إذا كانا يضحكان منّي.

لمحتني بيثان، وبينما كنت أقترب التفت إليّ باتريك وابتسم. ظننت في البداية أنّه سيقبّلني على خدي، لكنه اكتفى بأن لمس يدي لمساً خفيفاً وهو يحيّيني. وخشيت أن ينعكس ما أشعر به من خوف على وجهي.

قالت بيثان وقد لاحت على محيّاها ابتسامة عريضة:

«كونا عاقلَين!».

ضحك باتريك، واتجهنا نحو القرية. لم يكن يجد صعوبة في العثور على مواضيع للحديث. ورغم أنني كنت واثقة من مغالاته في

سرد سخافات بعض مرضاه، فإن الإنصات لحكاياته خفّف من توتري قليلاً خلال الطريق.

صاحب مطعم كروس أوك هو دايف بيشوب، إنجليزي ينحدر من يوركشاير. لم يفد على بينفاتش إلا بضع سنوات قبلي. وقد استطاع بمعية زوجته إيما أن يندمجا تماماً في القرية، وهما يعرفان، شأن كلّ من في القرية، أسماء جميع سكانها ومِهَنهم. لم يسبق لي أن دخلت إلى المطعم، لكنني حيّيتُ دايف ذات يوم بينما كنت ذاهبة إلى البريد مع بو.

بمجرد ما تجاوزنا عتبة الباب، تبدّد أملي في قضاء السهرة بمكان هادئ.

«هل ستدفع ثمن الكأس يا باتريك؟».

«ينبغي أن تزور روزي. فحالها لم تتحسن».

«كيف حال أبيك؟ ألا يحنّ إلى طقس ويلز؟».

صخب المحادثات في هذا المكان المغلق وتّر أعصابي. أطبقت على رباط بو فشعرت بجلده ينزلق من راحتي النديّة. يجد باتريك ما يقوله لكلّ واحد من رواد المطعم، لكنّه لم يتوقف للحديث مع أي منهم. وضع يده على ظهري وقادني بلطف في الزحمة إلى أن بلغنا الحانة. شعرت بحرارة راحته أسفل ظهري، بثت في نفسي ارتياحاً ما لبث أن تحوّل إلى خيبة حين أزاحها وشبك يديه على البار.

«ماذا تشربين؟».

وددت لو يطلب أوّلاً. كنت متلهّفة لشرب زجاجة جعة باردة. وجُلْتُ بعينَي في المكان لعلّي أرى نساء يشربنها.

سعل دايف بأدب، فقلت بارتباك:

«جين ممزوج بالصودا».

لم يسبق لي أن شربت جين. ولم يكن هذا العجز عن اتخاذ القرارات جديداً علي. فأنا لا أذكر متى بدأ.

طلب باتريك جعة، فرحت أنظر إلى البخار المكثّف على الزجاجة.

«لعلّك المصوِّرة التي تقطن في بلين سيدي؟ الجميع يتساءل أين تختفين».

كان الرجل الذي يتحدّث إليّ في سنّ ليستين تقريباً، يرسل سالفيه ويضع بيريه على رأسه.

قال باتريك:

«أقدّم لك جينا. هي بصدد تأسيس عملها الخاص، لذلك هي لا تملك الوقت للمجيء إلى هنا كي تشرب جعة مع أمثالك».

يضحك الرجل فأتورّد وقد راقتني الكيفية التي برّر بها باتريك عُزلتي. اخترنا مائدة في الزاوية، وشعرت بالأنظار مصوّبة علينا، وخمّنت الإشاعات التي بدأت تنسج حولنا. إلا أنّهم سرعان ما عادوا إلى شرابهم.

حرصت على عدم الإغراق في الحديث، ومن حسن حظّي أن باتريك كان يعرف كثيراً من حكايات المنطقة وطرائفها.

علّقت:

«الحياة طيّبة هنا».

بسط ساقيه الطويلتين أمامه وقال:

«هذا صحيح، رغم أنّني كنت أرى عكس ذلك في مراهقتي. الشباب لا يعرفون كيف يقدّرون حفاوة العيش في البادية. كنت أرهق والدَي لكي ينتقلا إلى سوينسي ظانّاً أن ذلك سيغيّر حياتي ويجعلني

ألاقي كثيراً من النجاح: حياة اجتماعية رائعة وحشد من العشيقات. إلا أنهما لم يوافقا يوماً على الرحيل من هنا، وبذلك درست في ثانوية القرية».

«أأنت من اخترت مهنة البيطرة؟».

«أحببتها منذ طفولتي المبكّرة. الظاهر أنني كنت أصفّف الدمى في مدخل البيت، وأطلب من والدتي أن تأتيني بها واحدة تلو الأخرى إلى المطبخ لكي أجري لها عملية جراحية».

لمّا يتحدّث، تتحرّك كلّ عضلات وجهه، وتتغضّن زاويتا عينيه للحظة خاطفة قبل أن يبتسم.

واسترسل يقول:

«حصلت على البكالوريا بشقّ الأنفس، فرحلت لدراسة الطب البيطري في جامعة ليدز حيث وجدت أخيراً الحياة الاجتماعية التي كنت أحلم بها».

«وحشد العشيقات؟».

ابتسم باتريك.

«ربّما واحدة أو اثنتين. لكن بعد لهفتي على مغادرة البلدة، شعرت بالحنين إليها. بعد إنهاء دراستي، عثرت على عمل قرب ليدز، إلا أنه حين بلغني أنهم يبحثون عن بيطري لعيادة بورت إيليس، اغتنمت الفرصة. كانت الشيخوخة قد بدأت تنال من أبي وأمي، وأحسست بالحنين إلى البحر».

«هل كان والداك مستقرين في بورت إيليس؟».

الناس الذين تربطهم علاقات وثيقة بآبائهم يثيرون فضولي. لست أغبطهم، كل ما في الأمر أنني أجد صعوبة في تمثّل ذلك. لو لم يمت أبي لكان الأمر مختلفاً على الأرجح.

«أمّي وُلدت هنا، أمّا أبي فاستقر هنا مع عائلته منذ كان مراهقاً. وقد تزوّجا وهما لم يجاوزا التاسعة عشرة».

«أكان أبوك بيطرياً أيضاً؟».

تنبّهت إلى أنّني بالغت في السؤال، لكنني خفت إن أنا توقّفت، سأضطر إلى الإجابة عن أسئلته. على أن باتريك لم يبدُ عليه الانزعاج، بل تطلّقت أسارير وجهه وهو يتحدّث عن عائلته.

«كان مهندساً، وهو الآن متقاعد. اشتغل طوال حياته لدى شركة غاز في سوينسي. كما كان مُنقِذاً متطوعاً لسنوات طويلة، لذلك فعلت مثله. كان ينسحب بغتة خلال وجبات الطعام أيام الآحاد، فتدعونا أمّي للصلاة لكي يعود الجميع بالسلامة. كنت أنظر إلى أبي كبطل عظيم. وارتشفَ من زجاجته. كان ذلك في عهد مركز الإنقاذ القديم في بحر بينفاتش، قبل بناء المركز الجديد ببورت إيليس».

«يستدعونك دائماً؟».

«حسب الحالات. تكون التدخلات أكثر في الصيف، حين تمتلئ المخيمات. رغم وضع لافتات التحذير، وإخبار الناس بأن المنحدرات الصخرية خطيرة، وتنبيههم إلى خطورة السباحة خلال المد، لا يأبهون بكل ذلك».

ثمّ أضاف بنبرة جادة:

«عديني بأن تكوني حذرة في الخليج».

«نادراً ما أستحم. أكتفي الآن بتبليل قدمي».

فقال باتريك:

«اكتفي بهذا».

جعلتني حدّة نظراته أشعر بشيء من الضيق، فغيّرت من وضع

جلستي على المقعد. خفض عينيه وشرب جرعة كبيرة من الجعة. واسترسل يقول بنبرة هادئة:

«أناس كُثر باغتهم المدّ».

أمّنت على كلامه، ووعدته بتجنّب الاستحمام.

«قد يبدو غريباً أنّ السباحة داخل البحر أسهل من الشاطئ. في الصيف، ليس ثمّة أفضل من أن يستقيل المرء مركباً ويدخل إلى البحر ليستحمّ. سآخذك يوماً إن شئت.

رغم أنّ الأمر كان مجرّد وعد، انتابتني الرعشة. أن أجد نفسي في عرض البحر رأساً لرأس مع باتريك أو مع أيّ كان، فكرة ترعبني».

وأضاف موضّحاً وقد أخطأ تأويل انزعاجي:

«الماء ليس بالبرودة التي تعتقدين».

خيّم صمت ثقيل.

انحنيت لأداعب بو الذي ينام تحت المائدة، وحاولت أن أبحث عن شيء آخر أقوله.

«أما زال والداك يعيشان هنا؟».

أتراني كنت دائماً مملّة هكذا؟ أتذكر عهد الجامعة لما كنت حيوية وفكهة، أيّام كان زملائي ينفجرون ضاحكين بمجرّد ما أفتح فمي. أمّا الآن فينبغي أن أجهد نفسي لكي أتجاذب أطراف الحديث.

«هما محظوظان. استقرّا في إسبانيا قبل بضع سنوات. أمّي مصابة بالتهاب المفاصل، وأظنّ أنّ الدفء يهدئ آلامها. هذا ما تتذرّع به على الأقل. وأنت، أما زال والداك على قيد الحياة؟».

«كلا، بمعنى من المعاني».

بدت الحيرة على وجه باتريك، وتنبّهت إلى أنّه كان عليّ أن أجيب ببساطة «كلا». التقطت نفساً عميقاً، وقلت:

«لم أتفاهم يوماً مع أمّي. طَرَدتْ أبي من البيت لما كنت في الخامسة عشرة من عمري، ومنذئذ لم أرَه. وهو أمر لم أغفره لها قطّ».

«لا بدَّ أن لها مبرّراتها».

بدا من نبرته أنه يسأل، لكنني لزمت موقفي الدفاعي.

«كان أبي شخصاً استثنائياً. لم تكن تستحقّه».

«إذاً أنت لا تلتقين بأمك».

«ظللت على صلة بها لفترة طويلة، لكن العلاقة تشوّشت بعد ذلك...».

صمتّ، ثم أضفت:

«وقعت خصومة بيننا. بعثت لي أختي منذ سنوات رسالة تخبرني برحيلها».

ألاحظ التعاطف في عينَي باتريك، لكنني لا أعيره انتباهاً. أُفسِدُ كلّ شيء كعادتي. لا بدَّ أنّ حياتي بدت له فوضوية، ولا بدَّ أنه ندم على استدعائي. ستصير هذه السهرة مرهقة لنا معاً. استنفذنا كل المواضيع ولم أعد أعرف ما أقول. أخشى الأسئلة التي أراها تتزاحم في ذهن باتريك: لماذا أتيتُ إلى بينفاتش؟ ما الذي دعاني إلى ترك بريستول؟ لماذا أعيش هنا وحيدة؟ سيسأل من باب اللباقة دون أن يتنبه إلى أنه لا يسعى إلى معرفة الحقيقة. دون أن يتنبه إلى أنّني لا أريد أن أبوح له بالحقيقة.

وقلت:

«لقد حان وقت العودة إلى البيت».

لا بدّ أنه شعر بالارتياح.

«تعودين الآن؟ ما زال الوقت مبكّراً. لنشرب شيئاً آخر أو لنأكل».

«كلا، ينبغي أن أنصرف، شكراً على الدعوة».

قمت واقفة قبل أن يشعر بنفسه مجبراً على أن يقترح عليّ اللقاء ثانية، لكنه سحب كرسيه في الوقت نفسه.

«سأرافقك».

دقّ ناقوس خطر في ذهني. لماذا يريد أن يرافقني؟ فالجو دافئ في المطعم، وهو حافل بأصدقائه، وزجاجتُه لم تنتصف بعد. أشعر برأسي على وشك الانفجار. أفكر في البيت الريفي المنعزل: لن يسمعني أحد إن هو رفض الانصراف. فباتريك يبدو لطيفاً وصادقاً الآن، لكنني أعرف كيف يمكن أن يتغير الرجل في رمشة عين.

شققت طريقي بين الجماعة دون أن آبه بما قد يقولون عنّي. تمالكت نفسي حتى لا أركض قبل مغادرة المطعم وبلوغ ركن الشارع، ثم انطلقت جارية على طريق المخيم ثم عرّجت على الطريق الساحلي الضيق الذي يقود إلى البيت وبو يعدو عند رجلي، مندهشاً. ورغم ما شعرت به من ألم في رئتي بسبب الهواء المتجمد، لم أتوقف حتى بلغت المنزل. ثابرت من أجل إدارة المفتاح في القفل، وما إن دخلت حتى سحبت المزلاج بعنف وأسندت ظهري على الباب.

أخذ قلبي يخفق بشدة، وبذلت ما في وسعي لأستعيد أنفاسي. لم أعد متأكّدة حتّى ممّا إذا كنت خائفة من باتريك أم هو الخوف الذي يستبدّ بي كلّ يوم. لم أعد أطمئنّ إلى حدسي الذي أخطأ مرات كثيرة. لذلك كنت أرى أنّ من الحكمة لزوم التحفّظ.

15

انقلب راي، وحشر وجهه تحت الوسادة ليتجنّب ضوء النهار الذي بدأ ينفذ من خلال الستائر. لم يستطع للوهلة الأولى أن يحدّد بدقة الشعور الذي يرهق ضميره، لكنّه ما لبث أن تعرّفه. إنّه الشعور بالذنب. ماذا أصابه يا ترى؟ لم يخطر على باله يوماً أن يخون ماغس. ظلّ وفيّاً لها طوال خمس عشرة سنة من الزواج. استعاد شريط أحداث اليوم السابق. أتراه استغلّ كايت؟ وعبرت ذهنه فجأة فكرة أن ترفع شكوى ضدّه، فراح يلوم نفسه. هي ليست من هذه الطينة، ومع ذلك أنساه القلق الشعور بالذنب.

أدرك من انتظام تنفس ماغس أنّها لا تزال نائمة. خرج من السرير بلطف وهو يحدّق في الهيئة المستلقية بجواره وقد غطت رأسها. لو علمت ماغس... من الأفضل عدم التفكير في هذا.

وبينما همّ بالوقوف، تحرّك الغطاء فتسمّر في مكانه. كان يأمل أن ينسحب بجبن دون أن يضطرّ إلى التحدّث إليها. هو يدرك أنّ مواجهتها أمر لا مفرّ منه، لكنه بحاجة إلى بضع ساعات ليفهم ما جرى.

غمغمت ماغس:

«كم الساعة؟».

فهمس:

«السادسة وبضع دقائق. سألتحق بالعمل مبكّراً اليوم. ينبغي أن أنجز بعض الأعمال المكتبية المتراكمة».

غمغمت بشيء وعادت إلى النوم، فتنفّس الصعداء. استحمّ بسرعة، ولم تكد تمضي نصف ساعة حتّى كان يغلق على نفسه في المكتب، مستغرقاً في ملفاته كما لو أن ذلك قمين بأن يمحو ما حدث. من حسن حظه أن كايت لم تشتغل في المكتب هذا اليوم. وعند الغداء جازف بالذهاب إلى المقصف مع ستامبي. عثرا على مائدة غير مشغولة، فأتى راي بصحنَين من لازانيا لا تملك من اللازانيا إلا الاسم. كانت الطبّاخة موارا منهمكة في رسم علم إيطالي بالطباشير بجانب طبق اليوم، ووجّهت لهما ابتسامة مشرقة لما قدّما لها الطلبيّة. هكذا وجد راي نفسه أمام قطعة ضخمة من هذا الطبق الإيطالي ألزم نفسه بالتهامها متجاهلاً الغثيان الذي يلح عليه منذ الصباح. كانت موارا امرأة قوية، من الصعب تخمين سنّها، دائمة المرح رغم معاناتها من مشكلة جلدية تتسبّب في تناثر سحابة من القشور كلّما نزعت سترتها الصوفية.

قال ستامبي وهو يمسح الصحن بشوكته:

«أأنت بخير يا راي؟ أراك منزعجاً؟».

يتمتّع ستامبي بمعدة لا تقهر، ومن ثمّة فهو لا يستحمل طبخ موارا فحسب، بل يبدو كما لو أنه يستطيبه.

أجاب راي وقد سرّه عدم إلحاحه عليه:

«كلّ شيء على ما يرام».

وحين رفع رأسه ولمح كايت وهي داخلة إلى المقصف، شعر

بالندم من أنه لم يسارع إلى مغادرة المكان. قام ستامبي وسحب الكرسي.

«نلتقي في المكتب».

وبما أنّه لم يعثر على مبرِّر معقول لكي يستبقي ستامبي، أو يغادر قبل أن تجلس كايت، اغتصب ابتسامة وقال:

«مرحباً كايت».

شعر بامتقاع وجهه، وبجفاف في فمه حتّى أنّه واجه صعوبة في بلع ريقه.

«مرحباً».

جلست والتهمت ساندويتشاتها دون أن يبدو عليها أنها لاحظت ضيقه.

لم يستطع راي أن يقرأ شيئاً على صفحة وجهها، وزاد شعوره بالغثيان. أزاح الصحن من أمامه، مقدّراً أن غضب موارا أهون عليه، ونظر حواليه ليتأكّد من أن لا أحد ينصت.

بادرها بنبرة فتى مراهق يجدُ حرجاً في الكلام:

«بخصوص ليلة أمس...».

قاطعته كايت:

«أنا آسفة حقّاً. لست أدري ماذا أصابني. هل أنت بخير؟».

همس راي:

«إلى حدٍّ ما، وأنت؟».

هزّت كايت رأسها وهي تقول:

«الحقيقة أنّني متضايقة قليلاً».

«لا داعي لأن تشعري بالضيق. ما كان عليّ...».

فقاطعته:

«ما كان لذلك أن يحدث. لكن لا بأس، لم نزد على أنّنا تبادلنا القُبل».

ابتسمت له وعادت لالتهام الساندويتش، واسترسلت وفمها ممتلئ بالجبن والمخللات:

«كان ذلك ممتعاً، لكن علينا أن نتوقّف عند هذا الحدّ».

تنهّد راي بعمق. ستعود الأمور إلى نصابها. ما وقع كان رهيباً. لو تعلم به ماغس يوماً ستنفجر، لكن الأمر على ما يرام الآن. فهما عاقلان، يستطيعان أن يتواعدا على عدم العودة إلى ذلك أبداً، ويستمرّا كما لو أنّ شيئاً لم يقع. ولأوّل مرّة منذ اثنتي عشرة ساعة، يتذكّر راي الإحساس الرائع الذي وجده في تقبيل إنسان بمثل هذه الحيوية والطاقة. وشعر بوجهه يتورّد من جديد فسعل لكي يطرد من ذهنه هذه الذكرى، وقال:

«إذا كان ذلك لا يطرح لك مشكلة».

«كفى يا راي. إذا كنت تخشى من أن أرفع شكاية ضدّك، فنم ملء جفنيك. لن أفعل ذلك قطّ».

امتقع راي.

«لا أشك في ذلك يا كايت! لم يخطر لي هذا على بال. كلّ ما في الأمر هو أنّني متزوّج كما تعرفين و...».

فقاطعته كايت قائلة بلا مواربة:

«واضح. نحن نعرف معاً هذه الأغنية. فلننسَ إذاً، موافق؟».

«موافق».

ثمّ استأنفت فجأة:

«حسناً، لقد جئتك لكي أقترح عليك إذاعة نداء نوجّهه لشهود محتملين بمناسبة مرور سنة على جريمة الاصطدام والهروب».

«مضت سنة؟».

«ستكتمل الشهر القادم. لن تكون الاستجابات كثيرة على الأرجح، ولكن إن باح أحدهم بشيء، ستتوفّر لنا بعض المعلومات على الأقل. ومن يدري، فقد تخلّص الاستجابة ضميراً يتعذّب. لا بدَّ أن يوجد أحد يعرف من كان يقود تلك السيارة».

تألّقت عينا كايت، ورأى فيهما ذلك التصميم الذي يعرفه جيّداً. وقال:

«موافق».

تخيّلَ ردّ فعل المحافِظة، وأدرك أنّ ذلك لن يعود بخير على مسيرته المهنية، لكن إرسال نداء من أجل الشهود في ذكرى مرور سنة على الحادثة فكرة جيّدة. وهو أمر كان يقوم به بين الفينة والأخرى بالنسبة إلى القضايا التي لم تحلّ، وذلك حتى يُثبت للأُسر على الأقلّ أنّ توقّف الشرطة عن التحقيق لا يعني أنّها نسيت القضية تماماً. فلا بأس في أن يجرّب إذاً.

«حسناً، لديّ عمل مكتبي يخصّ قضية هذا الصباح ينبغي أن أنهيه، ولكن بالإمكان أن نلتقي بعد الزوال لكي نهيّئ النداء».

وبينما كانت خارجة من المقصف، حيّت موارا بإشارة من يدها.

غبطها راي على قدرتها على نسيان ما وقع. كان يجد صعوبة في النظر إليها دون أن يتذكّر ذراعيها وهما يطوقان رقبته. أخفى ما بقي في صحنه تحت منديل ورقي، ووضعه على العربة قرب الباب.

فصاحت به موارا:

«أكان الطبق لذيذاً؟».

فأجابها:

«حضّري طبقاً يونانياً غداً!».
لا ينبغي أن ينسى إحضار ساندويتشات.

حين فتحت كايت الباب دون أن تطرق، كان راي مستغرقاً في مكالمة هاتفية، فلمّا لاحظت أنّه مشغول، همست ببعض عبارات الاعتذار وهمّت بالمغادرة، لكنّه أومأ لها بالجلوس. أغلقت الباب بحذر، وجلست في انتظار أن يفرغ. رآها تنظر إلى صورة ماغس وابنه وابنته الموضوعة على المكتب، فشعر بموجة من الندم تجتاحه من جديد، وأجهد نفسه من أجل أن يحافظ على تركيزه على المحادثة التي يجريها مع المحافِظة.

قالت أوليفيا:

«هل للأمر لزوم حقّاً يا راي؟ إمكانية تلبية أحد الشهود النداء ضئيلة للغاية، وأخشى ألا يفيد هذا إلا في التذكير بعجزنا عن توقيف الجاني في قضية موت هذا الطفل».

قال راي في نفسه وهو يتذكر الكلمات التي نطقت بها أمّ الطفل قبل ما يقارب السنة: اسمه جاكوب. وتساءل عمّا إذا كانت رئيسته عديمة الإحساس حقّاً كما تبدو.

«وبما أنه لا أحد يطالب بالقصاص، فلا داعي لِنَكْأ الجرح. أظنّ أنّ لك من المشاغل ما يغنيك عن هذا، لا سيما مع اقتراب لِجان التقويم».

كانت الرسالة الضمنية واضحة. واسترسلت تقول:

«كنت أنوي تكليفك بقضية حيّ كريستون إلا إذا كنت تصرّ على الانشغال بملفّ قديم...».

كانت عملية بريك ناجحة، وهذه ليست المرّة الوحيدة التي

تحاول إغراءه فيها خلال الأسابيع الأخيرة بقضية أهمّ. تردّد لحظة ثمّ التقت عيناه بعيني كايت. كانت تراقبه باهتمام. فالعمل مع كايت ذكّره بالسبب الذي حذا به إلى الانخراط في سلك الشرطة قبل ذلك بسنوات، وأعاد له الشغف بالمهنة، وبذلك صمّم من الآن فصاعداً على أن يفعل ما يراه صائباً لا ما يوافق هوى الإدارة.

فقال مؤكّداً:

«أستطيع القيام بهما معاً. سأصدر النداء من أجل الشهادة. أعتقد أنّ هذا هو القرار الصحيح».

خيّم الصمت قبل أن تعود أوليفيا إلى الكلام:

«تكفي مقالة في بوست وبعض الملصقات في جنبات الطريق لا أقلّ ولا أكثر. وأريدك أن تزيل كلّ ذلك بعد أسبوع».

وأغلقت الخط.

انتظرته كايت أن يتكلّم وهي تطقطق بنفاد صبر على مسند مقعدها.

قال:

«حسناً».

وافترّ ثغر كايت عن ابتسامة عريضة.

«أحسنت صنعاً! أأغضبتها؟».

«حالة عابرة. كلّ ما في الأمر أنها أرادت أن تُفهِمنا بأنها غير موافقة لكي يتسنّى لها أن تلقّننا درساً في الأخلاق إذا انقلب الأمر علينا وأثرنا سخط الرأي العام».

«يا لها من نظرة متشائمة!».

«هكذا تجري الأمور في الدوائر العليا».

«وهل تأمل في الترقية؟».

وشعّت عينا كايت بنظرة ماكرة، فضحك راي.

«لا يمكن أن أقضي حياتي بكاملها هنا».

«ولمَ لا؟».

قال راي في نفسه كم سيكون مفيداً لو أنّه يستطيع نسيان الترقية والتركيز على عمله فحسب، العمل الذي يحبّه. وانتهى به الأمر أن أجاب:

«لأن لديّ أبناء ينبغي أن أموّل دراستهم. مهما يكن فلا ينبغي أن أنسى معطيات الواقع».

ابتسمت وقالت:

«بإمكانك أن تعوّل عليّ لكي أذكِّرك لمّا تصير محافِظاً وتمنعني من إصدار نداء للشهادة».

«لقد تحدّثتُ إلى بوست، لا تمانع سوزي فرانش في أن نستغل المقالة التي سيخصصونها لذكرى الحادثة لنشر النداء في المجلة. سيذكّرون بالوقائع، لكنّني أفضّل أن تتّصلي بسوزي، وتقدّمي لها تفاصيل النداء مع رقم الهاتف وتصريح رسمي من الشرطة يضمن سريّة الشهادات».

«لا مشكلة. وماذا نفعل بخصوص الأم؟».

هزّ راي كتفيه.

«نوجه النداء من دونها. اتّصلي بمديرة مدرسة جاكوب واطلبي منها إن كانت توافق على التحدث مع الصحافة. سيكون من المفيد تسليط ضوء جديد على القضية. لربما كان لديهم شيء قام به في المدرسة، رسمٌ مثلاً. سننتظر لنرى النتيجة قبل الشروع في البحث عن الأم. تبدو كما لو أنها اختفت من سطح الأرض».

يلقي راي باللائمة على الموظف المكلّف بالعلاقة مع الأُسر

لأنّه لم يحسن مراقبتها. وهو شخصياً لم يفاجئه اختفاؤها. كان يعرف ذلك بحكم خبرته. معظم الناس يظهرون نوعَين من ردود الأفعال عند فقدان شخص عزيز: إما يُقسِمون على ألا يغيروا مسكنهم أبداً، ويحتفظون بمنازلهم كما هي، ليجعلوا منها ما يُشبه المزار، وإما يقطعون كلّ صلة تربطهم بالماضي، بعد أن يعجزوا عن الاستمرار في العيش والتظاهر بأنّ لا شيء تغيّر، هذا في الوقت الذي انقلبت فيه حياتهم رأساً على عقب.

لمّا غادرت كايت مكتبه، مضى يتأمل صورة جاكوب التي لا تزال معلّقة على الجدار. كانت جنباتها قد تقوّست، فنزعها وحاول أن يسويها ثم أسندها على صورة ماغس والطفلين المؤطَّرة، حيث يستطيع أن يراها بوضوح.

كان نداء الشهادة هو أملهما الأخير، واحتمال أن يثمر شيئاً ضئيل للغاية، لكن عليهما أن يحاولا مع ذلك. وإذا لم يُسفر عن شيء، سيحفظ الملف، وينتقل إلى غيره.

16

جلستُ إلى مائدة المطبخ أمام حاسوبي وقد حشرتُ ركبتَي تحت الكنزة السميكة التي أرتديها في معملي شتاءً. ورغم وجودي قرب موقد المطبخ، كنت أرتعد من البرد. أدخلت يدي في كمّي. رغم أن وقت الغداء لم يكن قد حان بعد، سكبت لنفسي كأس نبيذ كبيرة. كتبت ما أبحث عنه في محرك البحث ثمّ توقفت. مضت شهور لم أعذب فيها نفسي بهذا. لن يجدي التفكير فيه شيئاً، ولكن كيف لي أن أنساه؟ لا سيما في هذا اليوم.

ارتشفت من كأس النبيذ وضغطت على زرّ الحاسوب.

وما هي إلا ثوانٍ حتى امتلأت الشاشة بربورتاجات حول الحادثة، وبمنتديات مهداة إلى روح جاكوب. يشير لون الروابط إلى أنّني سبق أن زرت كل تلك المواقع.

لكن اليوم، أي بعد سنة على انقلاب حياتي رأساً على عقب، ها هي مقالة جديدة تُنشر على طبعة **بريستول بوست** الإلكترونية.

ندّت عنّي شهقة مخنوقة، وشددت قبضتَي بقوّة حتى ابيضّت مفاصلهما. وبعد التهام المقالة القصيرة، أعدت قراءتها ثانية. لا تتضّمن أيّ عنصر جديد: لا تشير إلى أيّ خيوط رسمية، لا معلومات عن السيارة، كل ما فيها بضعة أسطر تُذكّر بأنّ الشرطة لا

تزال تبحث عن السائق بتهمة السياقة الخطرة المفضية إلى القتل. أصابتني العبارة بالاشمئزاز فأغلقت المتصفّح. لم تنجح حتى صورة الخليج التي وضعتها في خلفية الشاشة في تهدئتي. لم أنزل إلى الشاطئ منذ أن لقيت باتريك. لدي طلبيات ينبغي أن أحضّرها، لكن شعوري بالخزي من الطريقة التي تصرفت بها معه كان من الحدّة بحيث جعلني لا أطيق فكرة ملاقاته. لمّا استيقظت صباح اليوم الموالي للقائنا، بدا لي الشعور بالخوف منه سخيفاً، وكدت أتغلّب على خجلي وأتصل به هاتفياً لكي أعتذر له. على أنه بمرور الأيام، تبدّدت شجاعتي. مرّ الآن أسبوعان لم يحاول فيهما الاتّصال بي. وشعرت بالغثيان فجأة، فأفرغت كأسي في حوض المطبخ وقرّرت الخروج إلى الطريق الساحلي للنزهة مع بو.

سرنا بضعة كيلومترات بمحاذاة المنحدر الصخري الذي يقود إلى بورت إيليس. لمحت بناية رمادية في الأسفل، فخمّنت أنّها مركز الإنقاذ البحري لا محالة. توقّفت لحظة، وفكّرت في الأرواح التي أنقذها المتطوّعون. وبينما استأنفت سيري بخطوات حثيثة في الطريق إلى بورت إيليس، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في باتريك. لم أكن أقصد وجهة محددة، بل أسير على نحو آلي إلى أن بلغت القرية، فتوجّهت إلى العيادة البيطرية. ولم أفكّر فيما سأقوله إلا حين فُتح الباب وقُرع الجرس الصغير.

«هل من خدمة؟».

إنّها موظفة الاستقبال نفسها، ولولا الشارات الملوّنة، ما كنت لأتعرّف إليها.

«هل يمكن أن أتحدّث إلى باتريك؟».

كان عليّ ربما أن أقدِّم ذريعة، لكنّها لم تطلب منّي شيئاً.

«لحظة من فضلك».

شعرت بالضيق وأنا أنتظر في قاعة الانتظار حيث جلست امرأة شابة مع طفل صغير وحيوان في سلّة قصب، وأحكمْتُ شدّ بو الذي مضى يجذب الحبل في كلّ اتجاه.

بعد دقائق سمعت وقع خطوات ثمّ ظهر باتريك وقد ارتدى سروال مخمل بنّياً وقميصاً بمربعات، بشعرٍ أشعث كما لو أنّه خلله بأصابعه.

«هل ثمّة مشكلة مع بو؟».

بدا مهذّباً، لكنّه لا يبتسم، ففترت همّتي قليلاً.

«هل يمكن أن نتحدث لحظة على انفراد؟».

تردّد، فأيقنت بأنّه سيرفض. أحسست بوجنتَي ملتهبتَين، وشعرت بنظرات موظّفة الاستقبال مصوّبة علينا.

«ادخلي».

وجدت نفسي في الغرفة التي فحص فيها بو لأوّل مرة. استند على الحوض ولزم الصمت. يبدو أنه لن يسهّل عليّ المهمة.

«جئت... جئت لأعتذر».

شعرتُ بوخز في عيني، وأجهدت نفسي لكي لا أبكي.

ولاحت على وجهه ابتسامة هازئة.

«صُرِفتُ مراراً، لكن لم تصرفني امرأة قبلك بمثل تلك السرعة قطّ».

«آسفة».

«هل بدر منّي تصرف مشين؟ هل قلت شيئاً غير لائق؟».

«إطلاقاً، كنت...» حاولت أن أعثر على اللفظة المناسبة، إلا

أنني سرعان ما تخلّيتُ. «الخطأ خطئي. فأنا لست موهوبة في مثل هذه الأشياء».

خيّم الصمت، وابتسم باتريك.

«لعلّك بحاجة إلى الممارسة».

لم أستطع مقاومة الضحك.

«ربّما».

«أنصتي، ما زال ينتظرني مريضان وأنهي عملي هذا اليوم. ما رأيك في أن نتعشى في البيت هذا المساء؟ وضعت على النار شيئاً من لحم الخنزير لينضج ببطء، يكفي لشخصَين، بل حتى بو يمكن أن يحصل على حظّه منه».

إن رفضتُ، فلن أراه ثانية.

«بكل سرور».

نظر باتريك إلى ساعته.

«عودي بعد ساعة. سأكون قد فرغت».

«حاضر. على كل حال أنا أرغب في التقاط بعض الصور للقرية».

«ممتاز، نلتقي بعد ساعة إذاً».

ابتسامته الآن أعرض، ترسم تجعّدات عند زاويتَي عينَيه. رافقني إلى باب المدخل، والتقت عيناي بعينَي موظفة الاستقبال.

«كل شيء على ما يرام؟».

تساءلت عمّا دعاني لزيارة باتريك. ثمّ قلت في نفسي هذا لا يهمّ. المهمّ هو أنّني استعدت شجاعتي: قد أكون هربت، لكنّني عدت، وهذا المساء سأتعشى مع رجل لو لم يكن يُقدِّرُني لما دعاني إلى بيته.

لم يعمل نظري المتكرر إلى ساعتي على التسريع من حركة عقاربها. فقد طُفت أنا وبو بالقرية مراراً قبل أن يحين وقت الموعد. لم أكن أرغب في الدخول، وتنفّست الصعداء لما خرج باتريك وهو يرتدي سترته وقد علت محيّاه ابتسامة عريضة. حكّ أذني بو، ثمّ انطلقنا نمشي إلى أن وصلنا منزلاً صغيراً يقع في الزقاق المجاور. دخلنا وقادنا باتريك إلى الصالون حيث ارتمى بو فوراً أمام المدفأة.

«تشربين كأساً؟»

«بكلّ سرور».

جلست وكنت من التوتر بحيث أنّني سرعان ما وقفت. الغرفة صغيرة، لكنّها حفيّة، كُسِيَتْ معظم أرضيتها بالسجاد، ومدفأتها يحيط بها مقعدان. تساءلت أيّهما مقعده. لا شيء يشير إلى أنّ أحدهما أكثر استعمالاً من الآخر. تنتصب بجانبهما في التجاويف الموجودة في الجدار خزانتا كتب ضخمتان. ولعلّ النشاز الوحيد في الغرفة هو التلفاز الصغير.

بينما كنت أحاول قراءة بعض العناوين، قال باتريك وهو يعود بكأسَي نبيذ أحمر:

«أملك عدداً كبيراً من الكتب». تناولت أحد الكأسَين وأنا سعيدة بالإمساك بشيء يشغل يدَي. «ينبغي أن أتبرّع ببعضها، لكنّني لا أقوى على مفارقتها».

«أنا أيضاً أعشق القراءة وإن كنت لم أفتح كتاباً منذ استقراري هنا».

جلس باتريك في أحد المقعدَين، فجلستُ على المقعد الآخر وأنا أنقر على قاعدة كأسي.

«منذ متى وأنت تمارسين فنّ التصوير؟».

أجبت وقد تملّكني العجب من صراحتي:

«أنا لست فنانة تصوير في الواقع. أنا نحّاتة». وتذكّرت ورشتي في الحديقة: الفخار المكسور، والمنحوتات الجاهزة للتسليم التي تحولت إلى حطام. «أو قُل كنت نحاتة».

«توقّفت عن النحت؟».

«لم أعد قادرة».

تردّدت ثمّ بسطت يدي اليسرى حيث تظهر ندوب خطيرة على راحتي ورسغي، وأضفت:

«تعرّضت لحادثة. ما زلت أستطيع استعمال يدي، لكنني لم أعد أتحكم في أطراف أصابعي».

«مسكينة! ماذا جرى لك؟».

تذكّرت فجأة ما وقع ذلك المساء قبل سنة، فكبَتّ تلك الذكرى في أعمق أعماقي.

«يبدو الأمر أهول ممّا هو في الحقيقة. لم أكن أتوخّى كثيراً من الحذر».

شعرت بنفسي عاجزة عن النظر في عينَي باتريك، لكنه سارع بذكاء إلى تغيير الموضوع.

«أأنت جائعة؟».

«أموت جوعاً».

تفوح من موقد المطبخ رائحة شهية جعلت بطني يتضوّر. تبعتُه إلى حجرة كبيرة تشغل أحد جدرانها بالكامل خزنة.

قال موضّحاً:

«تعود إلى جدّتي، وقد احتفظ بها والداي بعد موتها. وقد ورثتها عنهما عند سفرهما إلى الخارج قبل بضع سنوات. إنّها بالغة

الضخامة، أليس كذلك؟ أشياء كثيرة مكدّسة داخلها. احرصي كلّ الحرص على عدم فتح الأبواب».

نظرت إلى باتريك وهو يصبّ الكسرولة بحذر في صحنَين، ثمّ تناول قطعة قماش ليمسح قطرة مرق، لكنّه لم يعمل إلا على نشرها.

جلبَ الصحنَين الساخنَين إلى المائدة، ووضع أحدهما أمامي، وقال معتذراً:

«هذا هو الشيء الوحيد الذي أتقن طبخه تقريباً. آمل أن يكون لذيذاً».

وبينما كان يصبّ قليلاً في إناء معدني، حضر بو إلى المطبخ في الحين، وراح ينتظر بنفاد صبر أن يضع له باتريك الإناء على الأرض.

«انتظر لحظة يا رجل».

تناول شوكة وحرّك اللحم في القدر لكي يبرد.

طأطأت رأسي لأخفي الابتسامة. إن الطريقة التي يتعامل بها المرء مع الحيوان تكشف الشيء الكثير عن طباعه، وشعرت بأن باتريك بدأ ينال إعجابي.

«يبدو لذيذاً. شكراً».

لست أذكر آخر مرّة لقيت فيها مثل هذه العناية. فأنا من كنت دائماً أحضِّر له الطعام وأرتِّبُ البيت وأعتني به. أنفقت سنوات وأنا أجتهد لبناء أُسرة سعيدة، لكن كلّ شيء تهدّم من حولي.

علّق باتريك:

«إنّها وصفة أمّي. كلما زارتني، تحاول أن تغني رصيدي. لا بدَّ أنها تظنّ أنني أعيش على البيتزا والبطاطس المقلية في غيابها، مثلما يفعل أبي».

ضحكت، فاسترسل:

«في الخريف القادم سيمضي على زواجهما أربعون سنة. أجد صعوبة في تصور هذا. وأنت؟».

«أنا أيضاً».

وسألته:

«هل سبق أن تزوّجت؟».

أجاب وقد علاه الوجوم:

«كلا. كنت على وشك الزواج مرّة، لكن الأمور اتخذت منحى آخر».

خيّم صمت قصير، وتهيّأ لي أنني رأيته يتنفّس الصعداء حين فهم أنّني لن أسأله عن السبب.

«وأنت؟».

التقطتُّ نفساً عميقاً.

«تزوّجت لفترة، لكنّنا لم نكن نحبّ الأشياء نفسها».

أثار هذا التلميح ابتسامتي.

علّق باتريك:

«ألا تزعجك الحياة المنعزلة في بلين سيدي؟».

«أستطيب العيش هناك. إنّه مكان رائع، ثمّ إنّ بو يؤنسني».

«ألا تشعرين بالوحدة من دون جيران؟».

تذكّرت لياليّ المضطربة لمّا استيقظت صارخة دون أن أجد من يواسيني.

«ألتقي بيثان كلّ يوم تقريباً».

«امرأة طيبة. أعرفها منذ سنين».

تساءلت عن مدى التقارب بين باتريك وبيثان. وحكى لي كيف أنّهما استقلّا ذات يوم مركب أبيه من دون استئذانه، ليذهبا إلى الخليج.

«لم تكد تمضي دقائق حتّى رُصِدنا. رأيت أبي واقفاً على الشاطئ وقد شبك يديه بجانب أب بيثان. أدركنا بأننا سنواجه مشكلة كبيرة، فظللنا على المركب بينما بقيا هما ينتظران على الشاطئ. وقد استغرق ذلك ساعات».

«وماذا وقع؟».

ضحك باتريك.

«انتهى بنا الأمر إلى الاستسلام طبعاً. عدنا إلى البيت وواجهنا العاصفة. كانت بيثان تكبرني ببضع سنوات، ومن ثمّة هي من تحملت المسؤولية. لكنّني حرمت من الخروج لمدّة أسبوعين أنا أيضاً».

ابتسمتُ بينما كان يهز رأسه كما لو أنّ العقوبة كانت محنة. لم أجد صعوبة في تخيّله مراهقاً بشعر أشعث مثلما هو حاله الآن، مستعدّاً للعبث بالأعراف والتقاليد.

أزاح باتريك صحني الفارغ، ووضع بدله صحناً آخر مليئاً بتفاح مُفتّت ممزوج بالقشدة الإنجليزية. أثارت رائحة القرفة الساخنة لعابي. أزلت القشدة لكي آكل الحلوى بطرف أسناني ولا أبدو غير مهذبة.

سألني:

«ألم تعجبك؟».

«لذيذة، كلّ ما في الأمر أنّني أتجنّب الحلوى».

من الصعب التخلص من العادات التي يكتسبها المرء حين يتّبع الحمية.

أنهى باتريك قطعته بسرعة وقال:

«ستفوِّتين فرصة لا تعوّض. لست أنا من صنعتها. أتتني بها فتاة تعمل معي».

«آسفة».

«سأتركها تبرد قليلاً وأقدّمها لبو».

رفع الكلب أذنيه حين سمع اسمه، فقال باتريك:

«إنّه كلب لطيف حقّاً، وهو محظوظ».

حرّكت رأسي مؤمِّنة على كلامه رغم أن حاجتي إليه صارت أكبر من حاجته هو إليّ. أنا هي المحظوظة. استند باتريك بكوعه على المائدة ووضع ذقنه على يده بينما راح يداعب بو. رجل هادئ وراضٍ عن نفسه، بلا أسرار ولا عذابات.

رفع عينيه وباغتني أتفرّسه، فحوّلت بصري وأنا متضايقة، فانتبهت إلى وجود رفوف في أحد أركان المطبخ.

«كُتُب هناك أيضاً؟».

أجاب باتريك وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة:

«ماذا عساني أفعل؟ هنا توجد على الخصوص كُتُب طبخ سلّمتها لي أمّي، لكن بينها أيضاً بعض الروايات البوليسية. أقرأ أيّ شيء، يكفي أن تكون الحبكة محكمة».

شرع في تخليص المائدة من الأواني فسوّيت جلستي ورحت أراقبه.

ماذا لو أقص عليك حكاية يا باتريك؟

حكاية جاكوب والحادثة، حكاية امرأة لم تجد حلاً أفضل من

أن تهرب وتبدأ من الصفر لكي تستمرّ في الحياة، امرأة تستيقظ كل ليلة وهي تصرخ، عاجزة عن نسيان ما وقع.

ماذا لو قصصتُ هذه الحكاية؟

يتراءى لي وهو ينصت إليّ ويحدّق فيّ بعينَين واسعتَين بينما أحكي له عن صرير الفرامل، وفرقعة رأس جاكوب وهو يصطدم بالزجاج الأمامي للسيارة. وددت لو يمسك بيدي، لكنه لن يفعل، حتى في خيالي. وددت لو أسمعه يقول لي إنّه يفهمني، وأنني لست مسؤولة عمّا وقع، وأنّ ذلك يمكن أن يحدث لأيٍّ كان. . لكنه سيحرّك رأسه، وينهض واقفاً من المائدة، ويدفعني وقد علاه الاشمئزاز والقرف.

لن أستطيع أن أُطلعه على الحكاية أبداً.

ينظر إليّ على نحو غريب، فينتابني شعور خاطف بأنه قادر على قراءة ما يجول في ذهني، فأقول:

«لذيذ جداً».

هناك إمكانيّتان: إما أن تنقطع العلاقة بيني وبين باتريك، وإمّا أن أخفي عنه الحقيقة. ليست لدي أيّ رغبة في أن أكذب عليه، لكنّني لا أحتمل فكرة فقدانه. أنظر إلى الساعة المعلّقة على الجدار: ينبغي أن أنصرف.

«لا ينبغي أن تختفي هذه المرّة مثل ساندريلا».

أتورّد، لكن باتريك يبتسم.

«ليس هذه المرّة».

«أليست لديك سيّارة؟».

«لا أحبّ السياقة».

«سأرافقك على متن سيارتي. لم أشرب غير كأس واحدة. لا يزعجني ذلك».

«في الحقيقة أفضّل أن أعود بمفردي».

وخيّل إليّ أنني لاحظت التذمّر في عينَيه. فقلت:

«ربّما نلتقي غداً صباحاً على الشاطئ؟».

تطلّقت أساريره وابتسم:

«سيكون ذلك رائعاً. سعدت حقّاً بلقائك من جديد. سُررت بعودتك».

«أنا أيضاً».

ذهب لإحضار أغراضي، ووقفنا معاً عند المدخل الصغير بينما كنت ألبس معطفي. المكان ضيّق بحيث بالكاد أجد الحيّز لتحريك مرفقي، وهذا التقارب جعلني أبدو خرقاء، بحيث وجدت صعوبة في إغلاق السحّاب.

فقال لي:

«انتظري، دعيني أغلقه».

أراقب يديه يجمعان طرفَي السحّاب بعناية، ثمّ سحبه. شلَّني التوتّر، لكنّه توقّف بالضبط عند ذقني، وسوّى وشاحي حول رقبتي.

«لا تنسي الاتصال بي حين تبلغين البيت. سأعطيك رقم هاتفي».

أربكتني عنايته.

«وددت لو أستطيع ذلك، لكنّني لا أملك هاتفاً».

«لا تملكين محمولاً؟».

«كلا. هناك خطّ يصل البيت بشبكة الإنترنت، أمّا الهاتف فغير موجود. لا تقلق، كُن واثقاً من أنني سأصل بخير».

وضع باتريك يديه على كتفي قبل أن أجد الوقت لكي أتصرّف، ومال علي لكي يقبّلني بحنان على خدي. وحين شعرت بأنفاسه على وجهي، تهاديت، وقلت:

«شكراً».

ورغم أنّ ردّ فعلي لم يكن مناسباً ويعدم الأصالة، ابتسم كما لو أنّني قلت شيئاً بالغ الأهميّة، فأدركت كم هو لطيف المعاشرة.

حزمت الحبل بطوق بو. كنت أعلم أنّ باتريك سيشيّعنا ونحن ننصرف، وحين انعطفت في طرف الزقاق، رأيته لا يزال واقفاً أمام باب البيت.

17

بينما جلس راي إلى مائدة الإفطار، رنّ هاتفه. كانت لوسي تحاول البرهنة على مواهبها في الطبخ وهي تضع على المائدة بيضاً مع لحم خنزير مقدّد. أمّا توم فقضى الليلة عند أحد أصدقائه، ولن يعود قبل الزوال. وحين استحسنت ماغس أن يكون لتوم أصدقاء، حرّك راي رأسه موافقاً، لكنه في الحقيقة إنّما فعل ذلك لِما شعر به من راحة في البيت من دون صراخ ولا صفق أبواب.

«يبدو شهيّاً يا حبيبتي».

أخرج هاتفه من جيبه، وألقى نظرة على الشاشة. ونظر إلى ماغس.

«العمل».

تساءل عمّا إذا كان الأمر يتعلّق بعملية فالكون، وهو الاسم الذي أُطلق على التحقيق في الإتجار بالمخدرات في حيّ كريستون. أغرته المحافِظة بهذه القضية قبل أسبوع وعهدت له بها في الأخير آمرةً إيّاه أن يولّيها الأسبقيّة ويركّز عليها. لم تُشر إلى النداء الموجّه للشهود لأنها لم ترَ له من داعٍ.

ألقت ماغس نظرة نحو لوسي التي كانت منهمكة في وضع الطعام في الصحون.

«افطري أوّلاً من فضلك».

ضغط راي الزرّ الأحمر على مضض لكي يرفض المكالمة، ويحوّلها نحو علبته الصوتية. وما كاد يرفع بشوكته قطعة بيض باللحم المقدّد حتى رنّ هاتف البيت، فرفعت ماغس السماعة.

«صباح الخير كايت، هل الأمر مستعجل؟ نحن على مائدة الإفطار».

شعر راي فجأة بالضيق، وراح يستعرض بريده الإلكتروني على هاتفه المحمول لكي يشغل يديه مسترقاً النظر إلى ماغس التي دلّ كتفاها المرفوعتان على امتعاضها من هذا الإزعاج. لماذا تتصل به كايت على هاتف البيت؟ وفي يوم أحد؟ وأرهف السمع لعلّه يلتقط شيئاً ممّا تقول، لكن عبثاً. شعر من جديد بالغثيان الذي أخذ ينتابه هذه الأيام، ومضى يحدّق في البيض باللحم المقدد بفتور.

مدّت له ماغس السماعة دون أن تنبس.

«مرحباً راي». كانت كايت مبتهجة ولم تلحظ ارتباكه. «ماذا تُراك تفعل؟».

«أنا مع الأسرة. ماذا جرى؟».

شعر بنظرات ماغس مصوّبة عليه، وتنبّه إلى أن هذه الإجابات المقتضبة ليست من عادته.

فقالت كايت بنبرة جافّة:

«آسفة على إزعاجك، لكنّني قدّرت أنّك ترغب في الحصول على الأخبار فوراً».

«ماذا هناك؟».

«استجابة للنداء الذي أطلقناه بمناسبة مرور سنة على جريمة الاصطدام والهروب. لدينا شاهد».

لم تكد تمضي نصف ساعة حتّى كان راي في مكتبه.

«حسناً، ماذا في جعبتك؟».

ألقت كايت نظرة على الرسالة الإلكترونية التي تلقّتها من الوحدة المركزية وطبعتها على الورق، وقالت:

«شخص يؤكّد أنّ سيارة حمراء كانت تسير بشكل عشوائي تجاوزته على نحو خطر وقت وقوع الحادثة تقريباً. كان ينوي التبليغ عن ذلك، لكنّه لم يفعل».

شعر راي بدفق من الأدرينالين.

«لماذا لم يتّصل بالشرطة لحظة إعلان نداء البحث عن شهود؟».

فردّت موضّحة:

«هو لا يقطن هنا. جاء لزيارة أخته بمناسبة عيد ميلادها، وهذا هو سبب وثوقه من التاريخ، لكنّه عاد إلى بورنموث في اليوم نفسه، ولم يسمع البتة بجريمة الاصطدام والهروب. باختصار لم يربط بين الأمرَين إلا لمّا حدّثته أخته عن النداء مساء أمس في الهاتف».

سأل راي:

«هل لكلامه مصداقية؟».

الشهود طائفة يصعب التنبؤ بتصرّفاتهم. بعضهم يتذكّر أبسط التفاصيل، بينما لا يستطيع آخرون إخبارك بلون القمصان التي كانوا يرتدونها دون أن يتثبّتوا، ومع ذلك يظلّ احتمال خطئهم وارداً.

«لست أدري، لم تُؤخذ إفادته بعد».

«لم تستجوبوه بعد، يا إلهي؟».

فأجابته بنبرة جافة:

«الساعة الآن التاسعة والنصف، ونحن لم نتوصّل بالمعلومة إلا

خمس دقائق قبل الاتصال بك. ثمّ إنّني قلت في نفسي لربّما تريد أن تستجوبه بنفسك».

«آسف».

هزّت كايت كتفيها.

«أنا آسفة أيضاً على الاتصال بك هذا الصباح. وجدت نفسي في موقف حرج. هل الأمور بخير؟».

رغم أنّ السؤال بدا مبيّتاً، هزّ راي رأسه وقال:

«نعم، كلّ ما في الأمر هو أنّني أحسست ببعض الضيق».

حدّق كلّ منهما في الآخر قبل أن يحوّل راي عينَيه، ثمّ استأنف:

«حسناً، ليس أمامنا إلا أن نستدعيه. أريد الحصول على كلّ ما يعرفه عن تلك السيارة: النوع واللون ورقم تسجيلها، وكلّ ما يتعلّق بالسائق. إنّها فرصة ثانية تُتاح لنا، علينا أن نتصرّف بحكمة هذه المرّة».

كان راي يذرع مكتبه أمام النافذة جيئة وذهاباً غير قادر على إخفاء إحباطه:

«وماذا يعرف هذا اللعين؟ لم يخبرنا عن سنّ السائق، ولا عن لونه... تبّاً! هو لا يعرف حتى ما إذا كان رجلاً أم امرأة!».

راح يحكّ رأسه بهمّة كما لو أنه يجهد نفسه ليقدح أفكاره.

فقالت كايت مذكّرة:

«كانت الرؤية سيئة، وهو كان مركّزاً على الطريق».

فردّ راي بفظاظة:

«ما كان عليه أن يسوق إن كان غير قادر على السياقة بسبب بضع قطرات من المطر».

ترك نفسه يهوي على الكرسي، وارتشف من فنجان القهوة ثم قطّب حين لاحظ أنها باردة، واسترسل يقول:

«متى سيأتي صباحٌ أشرب فيه قهوتي كاملة!».

قالت كايت ملخّصة وهي تقرأ ما دوّنته من ملاحظات:

«سيارة فورد ذات زجاج أمامي مشقوق، رقم تسجيلها يبدأ بحرف «ج». ستكون على الأرجح من طراز فييستا أو فوكِس».

«حسناً، هذا أفضل من لا شيء. إلى العمل إذاً! أريدكِ أن تركّزي أبحاثك الآن على أمّ جاكوب. أريدها أن تعلم، إذا نحن ألقينا القبض على الجاني، بأنّنا لم نهمل قضية ابنها».

«مفهوم. كان التواصل جيّداً مع مديرة المدرسة لمّا اتصلت بها هاتفياً بخصوص النداء. سأعيد الاتصال بها لتعميق البحث في هذا الجانب. لا بدَّ أن يوجد أحد ظلّ على علاقة بالأمّ».

«سأكلّف مالكوم بالتحقيق في أمر السيارة. بحثنا في الحاسوب المركزي عن كلّ سيارات فييستا وفوكِس المسجّلة في بريستول. هلمّ إلى المقصف لنتغدى الآن، سأدفع الفاتورة. وهناك سندقّق في اللائحة التي توصلت بها».

بعد أن أزاحا من فوق المائدة بقايا ما سمّته موارا بكثير من التفاؤل «بايلا»، التقط راي حزمة الملفات الموضوعة أمامه وقال:

«تسعمئة وأربعون صفحة».

«هذا يخصُّ فقط سيارات المنطقة، ولكن ماذا إذا كانت السيارة عابرة، قدِمَت من مكان آخر؟».

«لنرَ أولاً ما إذا كان بالإمكان تقليص الاحتمالات» طوى اللائحة ومدّها إلى كايت. «قارني بين هذه الأرقام والأرقام التي سجّلها جهاز قراءة صفائح السيارات الآلي: لنقل من نصف ساعة قبل الحادثة إلى ساعة بعدها. ولنرَ كم منها كان على الطريق ساعة الاصطدام، ونشرع في الإقصاء انطلاقاً من هنا».

قالت كايت وقد تألّقت عيناها:

«بدأنا نقترب، لديّ إحساس بذلك».

ابتسم راي.

«لا ينبغي أن نستبق الأحداث. على أيّ شيء تشتغلين الآن؟».

راحت تُحصي القضايا على أطراف أصابعها.

«سرقة السوق الممتاز لانديس، سلسلة هجمات تعرّض لها بعض سائقي سيارات الأجرة الآسيويين، اشتباه في اعتداء جنسي، قد تسلِّم لنا الدورية الظنين. ثمّ هناك يومان تكوينيان حول التنوّع في الأسبوع القادم».

اغتصب راي ابتسامة.

«انسي التكوين، وسلّميني الملفات الموكولة إليك لكي أعهد بها إلى شخص آخر. أريدك أن تخصّصي وقتك كاملاً لجريمة الاصطدام والهروب».

سألت وهي ترفع حاجبيها:

«بشكل رسمي هذه المرّة؟».

فأجاب وقد ارتسمت على محيّاه ابتسامة عريضة:

«قطعاً. لكن رفقاً بالساعات الإضافية».

18

لمّا بلغت الحافلة إلى بورت إيليس، كان باتريك في الانتظار. صرنا نلتقي كلّ صباح على الشاطئ منذ أسبوعين، وحين اقترح أن نلتقي يوم عطلته، لم أتردّد طويلاً في القبول. لا يمكن أن أقضي حياتي خائفة.

قلت وأنا أبحث عن قرائن من حولي لعلّي أخمن إلى أين نذهب:

«إلى أين نحن ذاهبان؟».

سرنا في الاتجاه المعاكس لبيته، ومررنا أمام مطعم القرية دون أن نتوقّف.

«سترين».

غادرنا القرية، وسرنا في الطريق الذي ينزل إلى الشاطئ. وبينما كنّا نمشي، كانت أيدينا تتلامس، وتسللت أصابعه بين أصابعي، فأحسست بما يشبه الصعقة الكهربائية، وتركت يدي تسترخي في يده.

انتشرت إشاعة لقاءاتي المتكرّرة بباتريك في بينفاتش كالنار في الهشيم. التقيت أمس بليستين في المتجر، فبادرني وقد ارتسمت على محيّاه ابتسامة هازئة:

«يبدو أنّك تلتقين بابن آلن ماثيوز. باتريك ولد طيب، كان من الممكن أن تقعي على أسوأ منه».

وشعرت بنفسي أمتقع، وقلت له لأغيّر مجرى الحديث:

«متى ستأتي لإصلاح الباب؟ ما زال القفل يعلق فتتعذّرُ إدارة المفتاح أحياناً».

«لا تأبهي بهذا. لا وجود للصوص هنا».

«لكن هذا لا يمنع من أنني سأشعر بالأمان أكثر لو أصلحته».

وعد ليستين مرّة أخرى بأن يأتي إلى البيت لتسوية هذه المشكلة، لكنّني لما عدت عند الزوال، لم يكن قد مرّ بعد، واستغرق منّي إغلاق الباب ما يزيد عن عشر دقائق.

كان الطريق يضيق أكثر فأكثر، ولمحت البحر في أقصاه. الماء رماديّ وبالغ الهيجان يعلوه زبدُ الأمواج الهادرة. وفي السماء ترسم النوارسُ دوائرَ تصيب الناظر بالدوار، تتقاذفها الرياح المندفعة في الخليج. وأخيراً أدركت المكان الذي يأخذني إليه باتريك.

«مركز الإنقاذ! هل يُسمح لنا بالدخول؟».

«لهذا أتيت بك إلى هنا. لقد رأيتِ العيادة البيطرية، وقلت في نفسي لعلّك ترغبين في زيارة هذا المكان أيضاً. يُخيّل إليّ أنّني أقضي فيه من الوقت ما أقضيه في العيادة».

مركز الإنقاذ البحري في بورت إيليس بناية واطئة وغريبة، قد يحسبها الناظر مصنعاً لولا برج المراقبة المنتصب على السقف، ونوافذها الزجاجية الأربع الكبيرة الشبيهة بنوافذ أبراج المراقبة في المطارات.

مررنا بقرب بابَين جرّارَين ضخمَين وزرقاوين ينتصبان في مقدمة

البناية. نَقَرَ باتريك رقماً سرّيّاً على صندوق رمادي فانفتح بابٌ صغيرٌ يقع في الجانب.

«تعالي، سأرافقك لزيارة المكان».

يفوح مركز الإنقاذ من الداخل بالعرق ورائحة البحر. رائحة الملح النفّاذة التي تعلق بالملابس. يحتل معظم مساحة حظيرة المراكب قاربٌ مطاطي سريع، برتقالي اللون، يسميه باتريك «المركبة الفضائية».

«إنّه مشدود، لكن لا يستبعد أن تحمله الأمواج بعيداً عندما يكون البحر بالغ الاضطراب».

كنت أتجوّل في الحظيرة وأنا أقرأ ما كُتِبَ على الأبواب، وأنظر إلى قوائم التثبّت من التجهيزات المخطوطة بعناية. وعلى الجدار أثارت انتباهي لوحة تخلّد وفاة ثلاثة منقذين متطوّعين سنة 1916.

أقرأُ بصوت مرتفع:

«الريّس ب. غرانت والبحاران هاري إيليس وغلين باري. يا للفظاعة!».

لحق بي باتريك وطوّق كتفي بذراعه ومضى يحكي:

«استجابوا لنداء استغاثة صدر عن مركب بخاريّ كان يغرق في عرض بحر غوير».

ولعلّه لاحظ سحنتي، فأضاف:

«كان الأمر مختلفاً للغاية حينئذ. لم يكونوا يملكون حتى نصف التجهيزات التي نملك نحن اليوم».

تناول يدي وقادني إلى حُجرة صغيرة حيث يُعِدّ رجل يرتدي كنزة صوفية سميكة القهوة، لوّحت وجهه الشمس كما لو أنّه قضى حياته في الهواء الطلق.

بادره باتريك:

«أأنت بخير يا دايفد؟ أقدّم لك جينا».

غمزني دايفد، فابتسمت ممّا يبدو أنّها دعابة معهودة بينهما.

قلت:

«لم يسبق لي أن تساءلت عن كيفية اشتغال مراكز الإنقاذ. كنت دائماً أعتبرها شيئاً معهوداً لا يثير الانتباه».

فقال دايفد موضّحاً وهو يضع ملعقة كبيرة من السكر في فنجانه قبل أن يحرّكه:

«ما كانت لتعمّر طويلاً لولا نضالنا من أجلها. تكاليف التسيير لا تتكفّل بها الحكومة بل مؤسسة قوارب النجاة الوطنية الملكية. وهو ما يجعلنا في بحث مستمرّ عن التمويل، هذا عدا البحث عن المتطوّعين».

قال باتريك:

«دايفد هو المسؤول عن العمليات. هو من يسيّر المركز. دوره هو أن يراقبنا».

ضحك دايفد.

«هذا صحيح».

تعالى رنين حادّ من هاتف بقاعة التحكم الفارغة، فاعتذر دايفد. عاد بعد بضع ثوانٍ واتّجه مسرعاً إلى الحظيرة وهو يفك سحّاب كنزته. وصاح في باتريك:

«انقلب قارب في عرض خليج روسيلي. أب وابنه في عداد المفقودين، وقد اتّصلت هيلين بغاري وأليد».

فتح باتريك درجاً وأخرج منه بذلة مطاطية صفراء، وصِدار إنقاذ أحمر، ومعطفاً مشمّعاً أزرق داكناً.

قال وهو يلبس سترته فوق سروال الجينز والقميص:

«آسف يا جينا، ينبغي أن أذهب. خذي المفاتيح وانتظريني في البيت، لن أتأخّر كثيراً».

وقبل أن أجد الوقت للجواب، اندفع نحو الحظيرة بينما دخل رجلان جاريان من الباب المُشرع. وما هي إلا دقائق حتى راح الرجال الأربعة يسحبون الزورق على الشاطئ لكي يضعوه في الماء، ثم قفزوا بداخله، وشغّل أحدهم (لست أدري من هو) المحرّك لينطلقوا كالسهم وقاربهم يتقافز فوق الأمواج.

رحت أراقب النقطة البرتقالية وهي تتضاءل شيئاً فشيئاً إلى أن اختفت في الأفق الرمادي.

«يُبحرون بسرعة فائقة، أليس كذلك؟».

التفتُّ فوجدت امرأة مستندة على باب قاعة التحكم. تبدو في الخمسينات من عمرها، بشعرها البني الذي خطّه الشيب، ترتدي وزرة ملونة عُلّقت عليها شارةُ مؤسّسة قوارب الإنقاذ الوطنية الملكية. قالت:

«اسمي هيلين. أقوم بالردّ على الهاتف، وأرافق الضيوف لزيارة المكان وأتكلّف بأشياء أخرى. لعلّك صديقة باتريك؟».

تورّدت وأنا أجيب:

«اسمي جينا. عجبت من الكيفية التي انطلقوا بها. لم يلزمهم أكثر من ربع ساعة».

فقالت مدقّقة:

«اثنتا عشرة دقيقة وخمس ثوانٍ» وابتسمتْ من اندهاشي الواضح. «ينبغي أن نحتفظ بأثر كلّ نداء من النداءات والوقت الذي

استغرقناه للاستجابة. كلّ متطوّعينا يقطنون على بعد دقائق من هنا. غاري يسكن في الأعلى، وأليد يملك مجزرة في الشارع الرئيس».

«ماذا يفعل بمجزرته لمّا ينادون عليه؟».

«يترك كلمةً على الباب. سكان القرية معتادون على ذلك. هو يفعل هذا منذ عشرين سنة».

التفتُّ إلى البحر الخالي من المراكب باستثناء باخرة ضخمة، فلاحت لي غيوم كثيفة داكنة مطبقة على الأفق، بحيث لم تعد السماء والبحر سوى كتلة رمادية واحدة تغلي.

وهمست هيلين:

«كلّ شيء سيتمّ على ما يرام. شيء طبيعي أن يقلق المرء في البداية، لكنّه سرعان ما يتعوّد».

وتطلّعت إليها في حيرة، فقالت موضّحة:

«دايفد هو زوجي. لمّا تقاعد، صار يمضي من الوقت هنا أكثر ممّا يمضي في البيت، فانتهى بي المطاف أن انضممت إليه. لمّا رأيته يركب البحر للمرّة الأولى، لم أستطع تحمّل ذلك. هناك فرق بين توديعهم عندما يغادرون البيت وأن ترينهم يمتطون الزورق... ومع مرور الوقت، يصير الأمر سيّان». تتملّكها قشعريرة. «لكنّهم يعودون، يعودون دائماً».

ووضعت يدها على ذراعي، فاستطبتُ مساندة هذه المرأة التي تكبرني سنّاً. ثمّ قالت بلطف:

«هذه هي اللحظات التي نتنبّه فيها إلى أيّ مدى...».

توقّفتُ عن المشي غير قادرة على التسليم بذلك، حتّى في نفسي.

«... إلى أيّ مدى نحن بحاجة إليهم».

أهزّ رأسي موافقة.

«هل تودّين أن أرافقك لزيارة بقيّة المركز؟».

«كلا، شكراً. سأذهب إلى بيت باتريك. سأنتظره هناك».

«إنّه رجل طيّب».

وتساءلتُ عمّا إذا كانت على حقّ، وكيف عرفت ذلك. ارتقيت التلّ وأنا ألتفت بين الفينة والأخرى آملة أن أرى الزورق البرتقالي عائداً، لكنني لم أرَ شيئاً، وشعرت بغصّة في حلقي. كنتُ واثقة من أنّ شيئاً ما سيقع.

شيء غريب أن أجد نفسي في بيت باتريك خلال غيابه. قاومت الرغبة في الصعود إلى الطابق العلوي لألقي نظرة. ولكي أُلهي نفسي شغّلت المذياع على محطّة محلّية وشرعت في غسل الأواني المتراكمة في حوض المطبخ.

«اعتُبِر رجل وابنه في عداد المفقودين بعد أن انقلب قاربهم على بعد كيلومتر ونصف من خليج روسيلي».

تشوّش صوت المذياع فأدرت زرّ التردّدات عساني أعثر على تردّد أوضح.

«أطلق بعض السكان التحذير، فانطلق زورق إنقاذ من بورت إيليس للبحث عنهما. وإلى حدود الساعة لم يعثر المنقذون على أحد. سنوافيكم بمزيد من الأخبار في الساعات القادمة».

توشك الرياح القوية أن تقتلع الأشجار. وبما أنني لا أرى البحر من البيت، لم أعد أعرف أأمكث هنا أم أعود إلى مركز الإنقاذ لمراقبة عودة النقطة البرتقالية الصغيرة.

أنهيت غسل الأواني وجففّت يدي بواسطة قطعة قماش وأنا أذرع المطبخ جيئة وذهاباً. الخزنة مكسوّة بالورق، ووجدت تلك الفوضى مسلّية على نحو غريب. وضعت يدي على مقبض الخزانة فتردّدت في مسامعي كلمات باتريك.

احرصي كلّ الحرص على عدم فتح الأبواب.

أي شيء تحويه هذه الخزنة لا يريدني أن أراه؟ حاولت النظر خلسة في البداية كما لو أنني كنت خائفة من أن يباغتني، ثمّ فتحت الباب بتصميم، فإذا بشيء يسقط عليّ فحبست أنفاسي ومددت يدي بسرعة لألتقط مزهرية كانت توشك على أن تسقط على البلاطة وتتكسّر. أعدتها إلى مكانها وسط كمّ كبير من الأواني الزجاجية. كانت الخزنة تفوح من الداخل برائحة خزامى عفنة منبعثة من كومة قماش. لا شيء يثير الانتباه هنا: مجرّد تذكارات.

وبينما هممت بإغلاقها، لمحت حافّة إطارٍ مفضَّض يخرج من حزمة أغطية خاصّة بالمائدة. سحبته بحذر. إنّها صورة لباتريك، يطوّق بذراعه خصر امرأة ذات شعر مقصوص أشقر، تكشف شفتاها عن أسنان بيضاء متراصّة، وهما معاً يبتسمان، ليس لآلة التصوير بل لبعضهما بعض. تساءلت مَنْ تكون، ولماذا أخفى عنّي باتريك هذه الصورة. أهي المرأة التي كان ينوي الزواج منها؟ ومضيت أحدّق في الصورة محاولة العثور على إشارة تبيّن تاريخ التقاطها. لم تكن ملامح باتريك تختلف عن ملامحه اليوم، وتساءلت عمّا إذا كانت هذه المرأة تنتمي إلى الماضي أم أنّها لا تزال حاضرة في حياته. وقلت في نفسي إنّني لست الوحيدة ربّما التي تملك أسراراً. أعدت الإطار إلى مكانه بين أغطية الموائد وأغلقت باب الخزنة، تاركة محتوياتها كما وجدتها.

أخذت أذرع المطبخ وقد بدأ التعب يأخذ منّي مأخذه. هيّأت فنجان شاي، وجلست إلى المائدة لأشربه.

المطر يجلد وجهي، ويشوّش بصري ويجعلني أرى أشكالاً هلامية أمام عينَي. يكاد الريح يحجب أزيز المحرّك، لكنّه لم يحجب صوت اصطدامه المكتوم بغطاء المحرك قبل أن يسقط من جديد على الأسفلت.

ما شوّش بغتة نظري ليست قطرات المطر، بل ماء البحر، والمحرّك ليس محرّك سيارة، بل صوت قارب النجدة. ورغم أن الصراخ صراخي فإن الوجه الذي رفع عينيه نحوي -تلك العينان القاتمتان برموشهما المبلّلة-، ليس وجه جاكوب بل وجه باتريك.

قلت دون أن أعرف ما إذا كنت أتحدّث بصوت مرتفع:

«آسفة، لم أكن أريد...».

أشعر بيد تهزّ كتفي وتخرجني من سباتي. أرفع مذهولة رأسي من فوق يدي المشبوكتين فوق زاوية المائدة الذي لا يزال ساخناً، وأشعر بهواء المطبخ البارد يلسع وجهي. أرمش بعينَي بسبب ضوء المصباح الساطع، وأرفع ذراعي لأحمي نفسي.

«كلا!».

«استيقظي يا جينا، إنّك تحلمين».

خفضت ذراعي ببطء وفتحت عيني لأكتشف باتريك جاثياً أمام مقعدي. فتحت فمي لأقول شيئاً، لكنني لم أستطع النطق. كنت لا أزال تحت تأثير الكابوس، لكنني شعرت بالارتياح وأنا ألاحظ عودته.

«ماذا حلمت؟».

حاولت أن أجمع شتات الكلمات في ذهني.

«حلم. . . لست أدري. شعرت بالخوف».

فقال باتريك وهو يزيح شعري المبتلّ ويتناول وجهي بين يديه:

«لا تخافي، أنا بجانبك».

بدا شاحباً، بشعره المبتلّ وقطرات المطر الملتصقة برموشه. نظراته المتألّقة عادة، يطبعها السهوم والكآبة. بدا محطّماً، ودون أن أفكّر، ملت عليه وقبّلته، فاستجاب بلهفة دون أن يترك وجهي، ثمّ حرّرني لكي يضع جبهته على جبهتي.

«عُلِّقت الأبحاث».

«عُلِّقت؟ تقصد أنكم لم تعثروا عليهما؟».

هزّ باتريك رأسه ورأيت التأثر واضحاً في عينَيه. ثم قال بصوت منهك:

«سنعود إلى البحث مع طلوع النهار، لكن لا أحد يتوقّع أن نعثر عليهما حيَّين».

أغمض عينيه ووضع رأسه على ركبتي وراح يبكي على هذا الأب وابنه اللذين ركبا البحر بكل ثقة رغم الجوّ المنذر.

مضيت أداعب شعره وأنا أذرف الدمع. أبكي على طفل وحيد في البحر، أبكي لحال أمّه، أبكي من أجل الأحلام التي تأهل لياليّ، من أجل جاكوب، من أجل ابني.

19

لفظ البحر الجثتين ليلة أعياد الميلاد، بعد مرور أيام على توقّف البحث. كنت أتصوّر بسذاجة أنّهما سيظهران معاً، لكنني عرفت الآن أنّ المد لا يمكن التنبؤ باتجاه حركته. فقد عُثر على جثة الابن أولاً بعد أن رماها البحر بلطف في خليج روسيلي بخلاف جثّة الأب التي عُثر عليها على بعد كيلومتر ونصف، مصابة بجروح رهيبة.

كنّا على الشاطئ لمّا تلقّى باتريك المكالمة، وقد خمّنت من فكيه المشدودَين أنّه توصّل بأخبار ليست طيبة. ابتعد عنّي قليلاً كما لو أنّه قصد أن يجنّبني الصدمة، واستدار نحو البحر ومضى ينصت إلى ما يقوله دايفد بصمت. ولمّا أنهى المكالمة، ظلّ متسمّراً في مكانه يحدّق في الأفق كما لو أنه يأمل أن يجد فيه أجوبة. اقتربت منه ووضعت يدي على ذراعه، فجفل. كان قد نسي وجودي تماماً.

قلت وأنا أحاول يائسة أن أعثر على العبارة المناسبة:

«آسفة».

أجاب دون أن يحوّل بصره عن البحر:

«كنت على علاقة بفتاة تعرّفت إليها في الجامعة، وعشنا معاً في ليدز».

مضيت أصغي إليه دون أن أعرف وجهة كلامه.

«ولمّا عدت إلى المنطقة، تبعتني. لم تكن ترغب في المجيء، لكنّنا لم نكن نريد أن نفترق. هجرت عملها إذاً ولحقت بي لنعيش معاً في بورت إيليس. لم ترقها لأنها صغيرة وبالغة الهدوء، وأحست فيها بالملل».

شعرت بالضيق، كما لو أنّني اقتحمت عليه حياته الخاصة. وددت لو أطلب منه أن يصمت، وأن أنبّهه إلى أنّه ليس بحاجة إلى أن يحكي لي هذا، لكنني لم أستطع، كما لو أنّ إرادتي سُلبت.

«وذات يوم، في عزّ الصيف، تشاجرنا. دائماً الأسطوانة نفسها: تريد أن تعود إلى ليدز بينما أفضّل أنا المكوث هنا لتطوير العيادة. استشاطت غضباً، ونزلت إلى الشاطئ لكي تركب الأمواج، إلا أن التيار جرفها، واختفت إلى الأبد».

شعرت بغصّة في حلقي.

«يا إلهي! يا لها من قصّة مروعة!».

التفت إليّ.

«لفظ البحر اللوح الذي كانت تركبه في اليوم الموالي، لكن جثتها اختفت، ولم يُعثر عليها قط».

«وهل شاركت في البحث عنها؟».

لم أستطع أن أتصوّر كم كان ذلك صعباً.

هزّ كتفيه.

«شاركنا جميعاً. أليس هذا هو شغلنا؟».

«نعم، ولكن...».

لم أُتِمّ الجملة. فقد شارك في البحث طبعاً. كيف له أن يفعل غير ذلك؟

ضممت باتريك بين ذراعَي، فشدّني إليه حاشراً وجهه في رقبتي.

كنت أتصوّر حياته مثاليّة، يعكسها هذا الوجه المرح الذي يظهره. غير أن الأشباح التي يصارع لا تقلّ واقعية عن أشباحي. ولأوّل مرّة شعرت بأنّني مع شخص يحتاجني بمقدار ما أنا بحاجة إليه.

مشينا ببطء إلى أن بلغنا البيت الريفي، وطلب منّي أن أنتظره ريثما يعود، لأنه نسي شيئاً في السيارة.

فقلت له بحيرة:

«ماذا نسيت؟».

«سترين».

واستعادت نظرته ألَقها المألوف، وشُدِهتُ من شغفه بالحياة رغم ما يحمل من عبء. وتساءلت عمّا إذا كان الزمن هو الذي أكسبه هذه القدرة، وتمنّيت لو أكون مثله في يوم من الأيام.

لمّا عاد، كان يحمل شجرة تنّوب على كتفه، وشعرت بدفق من الحنين وأنا أتذكّر ما كنت أشعر به من إثارة عند اقتراب أعياد الميلاد. حين كنت طفلة، كان لنا أنا وإيف طقس خاص بتزيين شجرة عيد الميلاد: الأضواء في البداية وبعدها الأكاليل ثمّ أخيراً تعليق الكرات وتمثال الملاك بطريقة مهيبة أعلى الشجرة. أظنها لا تزال تحافظ على هذا التقليد مع أطفالها.

لم أكن أريد شجرة تنّوب في بيتي، ذلك أنّ تزيينها أمر خاص بالأطفال والأُسر. لكن باتريك ألحّ. قال بينما أدخلها من الباب وقد تناثر شوكها على الأرض:

«من المستحيل إرجاعها».

ثم أضاف وهو يضعها على دعامتها:

«كما أن أعياد الميلاد قد حلّت، وتلزمك شجرة تنّوب».

«لكنني لا أملك ما أزيّنها به!».

«انظري ما في داخل هذه الحقيبة».

فتحت حقيبة باتريك الزرقاء فعثرت على علبة أحذية مليئة ومحزومة بخيط مطاط. أزلت غطاءها فإذا بها تحوي ما يناهز عشر كريّات من الزجاج البرّاق.

«كم هي رائعة!».

رفعت إحداها، فدارت على نفسها، وبدت فيها صورتي منعكسة مئات المرّات.

«ورثتها عن جدّتي. سبق أن قلت لك إن خزانتها القديمة تحوي أغراضاً كثيرة».

تورّدت وأنا أتذكر نفسي أفتّش في خزانات باتريك، وأعثر على صورة المرأة التي لا بدَّ أن تكون -وهو أمر أدركه الآن- هي من غرقت.

«هي رائعة، شكراً».

زينّا الشجرة معاً. وقد أحضر باتريك إكليلاً كهربائياً، بينما عثرت أنا على شريط حشرته بين الأغصان. ورغم أنّ عدد الكرات لم يكن يجاوز الاثنتي عشرة، فإنّ الضوء حوّلها إلى نجوم ساطعة. ورحت أستنشق رائحة التنوب آملة أن أحتفظ بذكرى هذه اللحظة السعيدة إلى الأبد.

وما إن انتهينا حتى جلسنا، وأسندت رأسي على كتفه وأنا أتأمل الضوء المنعكس على الجدار بينما مضى هو يرسم دوائر على معصمي العاري. لقد انصرمت سنوات لم أعش فيها لحظة هناء كهذه. التفتُّ لكي أقبّله، وراح فمي يبحث عن فمه، ولمّا فتحت عينَي، اكتشفت أنّ عينَيه مفتوحتان أيضاً.

قلت له:

«تعال، لنصعد».

أجهل لماذا رغبت فيه الآن، في هذه اللحظة بالذات، لكنّني أشعر برغبة جسدية في أن أكون معه.

تراجع باتريك قليلاً، ونظر في عينَي، وقال:

«أأنت متأكّدة؟».

حرّكت رأسي موافقة، رغم أنّني لم أكن متأكّدة، أو ربّما غير متأكدة تماماً، لكنني كنت بحاجة إلى جواب، لأعرف ما إذا كان الأمر يمكن أن يكون مختلفاً.

مرّر يده في شعري وهو يقبّلني على رقبتي وخدي وشفتَي. ثمّ قام وقادني بلطف إلى أن بلغنا السلَّم، وإبهامه لا يزال يجس راحتي كما لو أنه لا يستطيع التوقّف عن مداعبتي، ولو للحظة. تبعني بينما كنت أصعد السلَّم الضيّق، ويداه تلمسان خصري برفق، وشعرت بقلبي يخفق بشدة.

كانت الغرفة البعيدة عن المدفأة وموقد المطبخ، باردة، لكن ما جعلني أرتعش هي الهواجس لا البرودة. جلس على السرير، وجعلني أستلقي بلطف إلى جواره. رفع يده ليزيح الشعر عن وجهي وهو يجيل إصبعه بجانب أذني، ثم على طول رقبتي. اجتاحتني موجة من القلق: فأنا امرأة غير مثيرة، فاترة ومرعوبة بحيث رحت أتساءل ما إذا كانت رغبته فيّ ستستمرّ بعد أن يكتشف ذلك.

توقّف. نظر في عينَي لحظة ثمّ خفض رأسه. وبينما أخذ ينزل على طول جسدي، تكوّمت واستسلمت لمداعباته.

كنت غافية وقد تشابكت أطرافنا حين شعرت بباتريك، دون أن أراه، يمدّ يده ليطفئ مصباح السرير، فقلت له:

«اتركه موقداً من فضلك!».

لم يسأل عن السبب، وعوض ذلك ضمّني إليه وقبّلني على جبيني.

لما استيقظت، تنبّهت فوراً إلى أن شيئاً ما تغيّر، لكنني كنت لا أزال بين النوم واليقظة، ولم أدرك في الحال فحوى هذا التغيُّر. لم يكن ذلك بسبب وجود شخص آخر في فراشي، رغم أنه شعور غريب عنّي، بل لأنني نمت جيّداً. وارتسمت ابتسامة على وجهي. لقد استيقظت على نحو طبيعي، لا بسبب صراخ ولا صرير فرامل ولا صوت جمجمة ترتطم بالزجاج الأمامي. لأوّل مرة بعد ما يزيد عن اثني عشر شهراً لم أرَ الحادثة في المنام.

هممتُ بالقيام لتحضير القهوة، لكن دفء السرير شدّني إلى الفراش، فآثرت احتضان باتريك. تحرّك ورفع رأسه قليلاً وبسم لي وعيناه لا تزالان مغمضتين.

«عيد ميلاد سعيد».

«أأحضّر لك قهوة؟».

قبّلت كتفه العاري، فأجاب وهو يسحبني تحت الغطاء:

«ليس الآن».

ظللنا في السرير حتّى الزوال، يستمتع أحدنا بالآخر، ونحن نتلذّذ بأكل لفافات خبز ناعمة مطلية بمربّى التوت الأسود الحلو اللزج. نزل باتريك إلى المطبخ ليحضّر القهوة ثانية، وعاد بالهدايا التي وضعناها بالأمس تحت شجرة التنّوب.

قلت وأنا أمزّق على نحو أخرق غلاف العلبة الملفوفة التي مدّها لي:

«معطف!».

فردّ بنبرة خجولة:

«أعلم أنّها هدية تنقصها الرومانسية، لكنني قلت في نفسي لا يمكن أن تستمرّي في ارتداء هذا المعطف القديم المتآكل وأنت تقضين معظم وقتك في الشاطئ. ستصابين بنزلة برد».

لبسته فوراً. معطف سميك ودافئ وغير نفاذ، بجيوب كبيرة وغطاء رأس. إنه أفضل ألف مرّة من ذاك الذي عثرت عليه في البيت الريفي لما حللت به.

فقلت:

«حرصك على حمايتي من الرطوبة والبرد أشدّ رومانسية. أحبّك كثيراً، شكراً».

وأضاف:

«هناك شيء في الجيب، وهو ليس هدية في الحقيقة، بل شيء بسيط أنت بحاجة إليه، في نظري».

حشرت يدي في الجيوب، فأخرجت هاتفاً جوالاً.

«إنّه هاتف قديم كان مرمياً في المنزل. لا شيء فيه استثنائياً، ولكنه يعمل. لن تضطري بعد الآن إلى الذهاب حتّى المخيم لكي تجري مكالمة».

وهممت بأن أقول له إنّه الشخص الوحيد الذي أتّصل به لولا أنّني فهمت أن هذا هو قصده على الأرجح! أو أنّه بالأحرى لا يحبّ أن يكون الاتّصال بي متعذّراً. لم أعرف أيّهما الأصحّ، لكنني شكرته

وقلت في نفسي سأقبله منه بما أنّني غير مضطرّة إلى تشغيله طول الوقت.

ومدّ لي هدية ثانية، ملفوفة على نحو بديع في ورق بنفسجي داكن، وشريط.

وقال:

«لست أنا صاحب هذه العلبة».

«نزعت ورق التلفيف بعناية وفتحت العلبة الصغيرة بالحذر المطلوب، فوجدت بداخلها مِشبك صدف على شكل محارة. حين ينعكس الضوء على سطحها، يتراقص ما يزيد عن عشرة ألوان».

«أكاد أطير من الفرح يا باتريك، إنّها رائعة!».

تناولتها وثبتّها على معطفي الجديد، وخجلت من الصورة التي هيّأتها لأهديها له، رسمٌ لبورت إيليس بقلم الرصاص، يُظهر قارب النجدة ليس موغلاً في البحر، بل عائداً بسلام إلى المرفأ.

صرخ وهو يرفع الرسم ليتأمّله:

«أنت صاحبة موهبة عظيمة يا جينا! إنّك تبدّدين وقتك هنا. كان عليك أن تقيمي المعارض ويسطع نجمك».

فقلت:

«لا أستطيع».

دون أن أشرح له السبب. اقترحت عليه أن نقوم بجولة لكي أدشّن معطفي الجديد، ونأخذ بو إلى الشاطئ.

كان الخليج مقفراً، والجزر في حدّه الأدنى، كاشفاً عن مساحة واسعة من الرمل الشاحب. وفي السماء، فوق المنحدرات الصخرية تراكمت غيوم محمّلة بالثلج، تبدو أنصع بياضاً مقابل زرقة البحر

الداكنة، بينما تحلّق في السماء نوارس يتردّد صدى صراخها الكئيب في الفراغ، والأمواج تنكسر بانتظام على الشاطئ.

«يكاد المرء يتحسّر على أثر الخطوات التي يتركها فوق الرمل».

وبينما رحنا نمشي على الشاطئ، حشرت يدي في يد باتريك. لأوّل مرّة آتي إلى الشاطئ من دون آلة التصوير. كنّا نمشي في الماء تاركين الزبد المثلج يغمر طرفي حذاءينا.

قال باتريك:

«كانت أمّي معتادة على السباحة يوم عيد الميلاد، وهو ما كان يجعل أبي يستشيط غضباً. كان يعرف أنّ حركة المدّ والجزر يمكن أن تكون خطيرة، وكان يقول إنّها غير مسؤولة. لكنّها كانت بمجرّد ما تفتح الهدايا، تتناول منشفتها، وتندفع نحو البحر لكي تسبح. كنّا نجد ذلك مبهجاً بالطبع، وكنّا نشجعها من بعيد».

«هذا جنون!».

تذكّرت الفتاة التي غرقت، وتساءلت كيف يحتمل الاقتراب من البحر بعد تلك المأساة. أمّا بو، فكان يطارد الأمواج المتكسّرة.

واستأنف باتريك:

«وأنتِ؟ هل كانت في أُسرتك عادات مجنونة كهذه؟».

فكّرت لحظة وابتسمت وأنا أتذكّر الإثارة التي كنت أشعر بها عند اقتراب عطلة أعياد الميلاد.

«لا أظنّ، ولكنني كنت أحبّ اجتماع العائلة في أعياد الميلاد. كان والداي يشرعان في الاستعدادات منذ شهر أكتوبر، وكان المنزل يمتلئ بالعلب المثيرة المخبّأة في الخزنات وتحت الأسرّة. وقد حافظنا على هذه العادة بعد رحيل والدي، لكن الأمر تغيّر مع ذلك».

«هل حاولت الاتّصال به؟».

وضغط على يدي.

«نعم، حين كنت في الجامعة. وقد انتهى بي المطاف أن عثرت عليه، واكتشفت أنه أنشأ أسرة أخرى. كاتبته فأجابني بأنّ علينا أن ننسى الماضي، وهو ما حطّم قلبي».

«هذا شيء مريع يا جينا!».

هززت كتفي كما لو أنّ الأمر عندي سيّان.

«هل أنت قريبة من أختك؟».

«كنا متفاهمتين من قبل. التقطتُ حصاة ملساء وقذفتها بحيث تتدحرج على سطح الماء. لمّا رحل أبي، انضمّت هي إلى أمّي. ورغم أنني حقدت على أمي لأنها طردت أبي من البيت، فإن ذلك لم يمنعنا، أنا وإيف، من التضامن. لكنني لم ألتقيها منذ سنوات عديدة. بعثت لها بطاقة منذ بضعة أسابيع، ولست أدري ما إذا كانت توصّلت بها. بل إنني لست واثقة من أنها ما زالت تقطن في العنوان نفسه».

«هل وقع بينكما شنآن؟».

«لم تكن تحبّ زوجي».

وبدا لي الجهر بهذا لا يخلو من جسارة، فشعرت بقشعريرة تعبر ظهري.

«وأنت، هل كنت تحبّينه؟».

إنه سؤال غريب، لذلك تريثت في الإجابة. قضيت وقتاً طويلاً وأنا أكره يان، وأخافه.

وقلت أخيراً:

«في البداية».

كان بالغ الوسامة، مختلفاً عن الطلبة الذين كانوا في منتهى الخرق والطيش.

«كم مضى على طلاقك؟».

«ردحٌ من الزمن». التقطتُ حفنة من الحصى، وشرعت أقذفها الواحدة تلو الأخرى في البحر. واحدة لكلّ سنة قضيتها من دون حبّ ولا حنان. أتساءل أحياناً عمّا إذا كان سيعود يوماً.

ارتسمت على محياي ضحكة خفيفة لا تناسب المقام، فنظر إليّ باتريك بسهوم وقال:

«هل لديك أطفال؟».

أحنيت وتظاهرت بالبحث عن الحصى.

«لم يكن يرغب فيهم».

لم أجانب الحقيقة كثيراً. مهما يكن، فيان لم يقبل قطّ أن أحدّثه عن ابنه.

طوّق باتريك كتفي.

«سامحيني، فأنا أرهقك بالأسئلة».

«هذا لا يزعجني».

وتنبّهت إلى أنّني صادقة، وأنّني أشعر بالأمان مع باتريك. صعدنا من الشاطئ ببطء. كان الطريق الضيق مكسوّاً بالصقيع، وسُررت بذراعه الذي يطوّقني. لم أخبره إلا بما كنت أتوقّع. فأنا لا أستطيع أن أحكي له كلّ شيء. إن فعلت، فسيهجرني لا محالة، ولن أجد أحداً يلتقطني من سقطتي.

20

استيقظ راي منشرحاً. فقد نال إجازة بمناسبة أعياد الميلاد. ورغم أنّه زار المكتب مرّة أو مرّتين ليجلب العمل إلى البيت، كان عليه أن يُقرّ بأن هذه الإجازة أراحته وخفّفت عنه. وتساءل عن مدى تقدّم كايت في تحقيقاتها حول جريمة الاصطدام والهروب.

فمن ضمن قائمة من تسعمئة ونيف سيارة فورد فييستا مسجّلة في بريستول، أربعون منها التقطها نظام قراءة لوحات السيارات الآلي. على أن الصور جرى محوها بعد تسعين يوماً، لكن كايت تزوّدت بلائحة أرقام التسجيل، وراحت تطوف على أصحابها لكي تستجوبهم عن الأماكن التي قصدوها يوم الحادثة. وقد تمكنت من التقدم في اللائحة خلال الشهر الأخير لولا أن الأمور بدأت تتعقد. ذلك أنّ سيارات بيعت من دون الوثائق اللازمة، وبعض المالكين غيّروا مقرّات سكنهم دون أن يتركوا عناوينهم الجديدة... على أن تمكّنها من استجواب هذا العدد من المالكين، يعدّ في حدّ ذاته معجزة، لا سيما في هذه الفترة من السنة. الآن وقد انتهى موسم العطلة، لربّما ستتمكّن من تجاوز تلك الصعوبات.

أطلّ راي برأسه في غرفة توم، فلم يرَ غير قُنّة رأسه بادية من

تحت اللحاف، فأغلق الباب من دون ضجّة. فالتفاؤل الذي شعر به مطلع السنة الجديدة لا يشمل ابنه الذي ساء سلوكه حتى أنه تلقى إنذارَين رسميَّين من مديرة المدرسة. وإذا تلقى إنذاراً ثالثاً، سيُطرد مؤقّتاً من المؤسسة، وهي عقوبة عبثية في نظر راي بالنسبة إلى طفل عدد الحصص التي يتغيّب فيها أكثر من تلك التي يحضرها. هذا فضلاً عن نفوره من الدروس.

ولمّا التحق بماغس في المطبخ، سألته:

«ألا تزال لوسي نائمة؟».

«الاثنان نائمان».

«ينبغي أن يأويا إلى الفراش باكراً هذا المساء. سيعودان إلى المدرسة بعد ثلاثة أيام».

«هل لدي قمصان نظيفة؟».

«تقصد أنني لم أغسل قمصانك؟».

واختفت ماغس في غرفة الغسيل وعادت بحزمة من القمصان النظيفة والمكويّة. وأضافت:

«من حسن حظك أن ثمّة من يقوم بهذا العمل. لا تنسَ سنشرب كأساً مع الجيران هذا المساء».

فغمغم راي:

«أهذا ضروري؟».

«نعم».

مدّت له ماغس القمصان.

فقال راي بضيق:

«من ذا الذي يفكر في دعوة الجيران في اليوم الأول من السنة؟ يا لها من سخافة!».

«قالت إيما إن التحضير لحفلات أعياد الميلاد شيء مرهق بحيث أن تنظيم سهرة بعدها مباشرة يُريح ويسلّي».

فردّ راي:

«هذا خطأ. سهراتهم دائماً مضجرة. يقضي الحاضرون وقتهم يردّدون على مسامعي أن الشرطة أوقفتهم وهم يسوقون سياراتهم بثلاثين كيلومتراً في الساعة بينما الإشارة تحدّد السرعة في ثلاثين كيلومتراً، ويقولون إنّ هذا ظلم. ولا يلبث الأمر أن يتحوّل إلى إدانة للشرطة».

فردّت ماغس بنفاد صبر:

«كلّ ما في الأمر يا راي هو أنّهم يحاولون العثور على موضوع للحديث معك. هم لا يلقَوْنَك كثيراً...».

«هذا مبرِّر معقول في نظرك».

«... الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتحدّثوا إليك فيه هو عملك. لا يضيق صدرك معهم. إذا أزعجك هذا الحديث، فغيّر الموضوع. تحدّث عن الطقس الممطر أو عن الجوّ الجميل...».

«ما عدت أطيق هذا».

وضعت ماغس مقلاة على طاولة المطبخ بعنف، وقالت:

«حسناً، لا داعي لأن تذهب إذاً! إذا كنت ستذهب لتجلس واجماً، فلا داعي».

لم يكن راي يحبّ أن تخاطبه كما لو كان طفلاً.

«لم أقل إنني لن أذهب، كلّ ما قلته هو أن السهرة ستكون مملة».

استدارت ماغس لكي تنظر إليه وقد بدت عليها الخيبة أكثر من الضيق.

«ليس كلّ ما في الحياة مسلّياً، يا راي».

دخل راي إلى مقرّ الشرطة الجنائية، ووضع علبة شوكولاتة فاخرة على مكتب ستامبي وهو يقول:

«أتمنّى لكما سنة سعيدة. قلت في نفسي لرّبما عوّضتكما هذه الهدية عن مشقّة العمل ليلة أعياد الميلاد وصباح أوّل يوم من السنة».

تشتغل الفرقة بعدد قليل من الموظفين خلال عطل الأعياد، ومن سوء حظ ستامبي أنه كان منهم.

«تلزم أكثر من علبة شوكولاتة لمن بدأ العمل على الساعة السابعة صباحاً في فاتح يناير».

ابتسم راي، وقال:

«على كلّ حال لقد تجاوزت سنّ السهر والاحتفال حتّى طلوع الشمس يا ستامبي. أنا وماغس أوينا إلى الفراش قبل منتصف الليل البارحة».

فتدخّلت كايت وهي تتثاءب:

«أظنني ما زلت لم أسترجع قواي حتّى الآن».

سألها راي:

«هل قضيت سهرة ممتعة؟».

«نعم، على الأقل ما أذكره منها».

ضحكت، فشعر راي بقلبه ينعصر من الغيرة. من المؤكّد أنّ سهرات كايت لا تقتصر على أحاديث تافهة حول مخالفات تجاوز السرعة، أو رمي قمامة في الطريق العام، بخلاف ما ينتظره هو هذا المساء.

وسأل:

«ماذا لدينا اليوم؟».

فردّت كايت:

«خبر سارّ. رقم تسجيل سيارة».

فبدت على وجه راي ابتسامة عريضة.

«جاء في أوانه. هل تظنّينه الرقم الذي نبحث عنه؟».

«نعم. لم يرصده نظام قراءة صفائح السيارات الإلكتروني منذ ليلة الحادثة، وملصق ضريبة السيارات فات أجلها، مع أنّ السيارة لم يُعلن عن خروجها من الاستعمال. فهي في نظري إما هُجِرت في مكان ما أو أُحرقت. وتشير بطاقتها الرمادية إلى عنوان يوجد في بوفور كريسنت، على بعد عشرة كيلومترات تقريباً من مكان حادثة جاكوب. ذهبنا إلى هناك بالأمس أنا وستامبي فوجدنا البيت خالياً. كان مؤجّراً، ومن ثمّة سيتّصل ستامبي بالمالك اليوم لعلّه يدلّنا على عنوان المستأجر».

فبادره راي وهو غير قادر على ضبط نفسه:

«ولكنّكما تتوفّران على اسم، أليس كذلك؟».

فأجابته كايت وقد علت الابتسامة محيّاها:

«صحيح أننا نتوفّر على اسم، ولكن لا أثر له في الحاسوب المركزي ولا في سجلات الناخبين. ولم أجد عنه شيئاً في الإنترنت، لكننا سنعثر عليه. فقد حصلتُ على إذن برفع الحماية عن المعطيات الشخصية، وبعثت بطلبات استخبار إلى شركات الخدمات العامة. الآن وقد مرّت الاحتفالات، سنتوصّل بالردود».

وقال ستامبي:

«كما أنّنا تقدمنا في البحث عن أمّ جاكوب».

فردّ راي:

«شيء رائع. علي إذاً أن أواظب على الاستفادة من الإجازات. هل تحدّثت إليها؟».

«لم نحصل على رقم هاتفها. لكنّ كايت عثرت على أستاذ زائر في سانت ماريز يعرفها. بعد الحادث شعرت كما لو أنّ الجميع حمّلها مسؤولية ما وقع. حطّمها الشعور بالذنب والغضب. اعتقدت أنّ ثمّة تواطؤاً على ترْكِ السائق يفلت من العقاب...».

««ترْكِ السائق يفلت من العقاب»؟ ألم نفعل شيئاً على الإطلاق؟ هذا ما تقصد؟».

فقال ستامبي مدافعاً عن نفسه:

«لم أردّد إلا ما قيل. باختصار، قطعتْ علاقاتها بالجميع، وغادرت بريستول لتبدأ حياتها من جديد» ومضى يربت بأصابعه على المسند الذي بدا كما لو أنه ازداد سمكاً بسنتمترات منذ أن رآه راي آخر مرة. «وأنا أنتظر رسالة من الشرطة المحليّة. من المفروض أن نحصل على العنوان خلال هذا اليوم».

«أحسنت. من المهمّ للغاية أن تكون الأمّ إلى جانبنا إذا نحن لجأنا إلى المحكمة. الشيء الأخير الذي نحن بحاجة إليه هو أن يكتب أحد المناضلين المعادين للشرطة مقالات في الصحافة حول الوقت الطويل الذي يُستغرَق في العثور على المتّهمين».

رنّ هاتف كايت.

«الفرقة الجنائية، المفتش إيفانز على الخط».

وبينما همّ راي بالتوجُّه إلى مكتبه، بدأت كايت تومئ بيدها في كلّ الاتجاهات لتثير انتباهه وانتباه ستامبي. وقالت:

«هذا رائع، شكراً لك».

خربشتْ بحركات عصبيّة شيئاً على مذكرتها وظلت تبتسم للحظة بعد أن وضعت الهاتف.

قالت وهي تلوّح بقصاصة الورق مبتهجة:

«انتهى الأمر، لقد حصلنا عليه!».

ولاحت على وجه ستامبي ابتسامة غير معهودة، فاسترسلت تقول وهي تترنّح على مقعدها:

«إنّها بريتيش تيليكوم. عادوا إلى سجلّ زبائنهم في اللائحة الحمراء، وعثروا على عنوان نبحث عنه!».

«أين؟».

نزعت كايت الورقة من مذكرتها ومدّتها لستامبي. فقال راي:

«هذا عمل ممتاز. هيّا بنا. تناولَ حزمتَي مفاتيح من الخزانة الجدارية، ورمى بإحداهما لستامبي الذي أمسكها بخفّة. خذْ الملف مع كل ما نتوفر عليه حول أمّ جاكوب يا ستامبي، واذهب إلى الشرطة المحليّة، وقل لهم إنّنا لا نستطيع أن ننتظر أكثر. هذا العنوان نريده فوراً. لا تعد قبل أن تعثر على الأمّ. وحين تعثر عليها طمئنها بألا أحد سيفلت من العقاب، وأنّنا نبذل قصارى جهدنا لكي نقدّم الجاني للعدالة. أمّا أنا وكايت، فسنتكفّل بعمليّة التوقيف». صمت قليلاً ثمّ رمى بالحزمة الثانية من المفاتيح لكايت. «الحقيقة سيكون من الأفضل أن تتولّي السياقة. ينبغي أن ألغي السهرة».

فسألته كايت:

«هل رتّبت سهرة بديعة؟».

ابتسم راي.

«صدّقيني، هذا هو أفضل مكان عندي».

21

طُرِق الباب، فانخلعتُ من مكاني. هل آن الأوان؟ لا أشعر بمرور الوقت حين أشتغل على صوري. رفع بو أذنيه دون أن ينبح. مسحتُ على رأسه وأنا أتّجه إلى الباب. سحبت المزلاج، فإذا بباتريك يقول لي بتذمّر:

«لعلّك الوحيدة في هذا الخليج من تقفل الباب بالمفتاح».

دخل وقبّلني، فقلت بلا مبالاة:

«لعلّها عادة من عادات المدينة».

أعدت المزلاج إلى مكانه، ورحت أصارع لكي أدير المفتاح في القفل.

«ألم يسوِّ ليستين هذه المشكلة بعد؟».

«أنت تعرفه، كلّ مرّة يعِد بأنّه سيصلحه، لكنه لا يجد الوقت لذلك أبداً. قال إنّه سيأتي هذا المساء، لكنني لم أعد أصدّق وعوده. فهمت أن إغلاق الباب بالمفتاح عبث بالنسبة إليه».

«هذا صحيح» ضغط باتريك على الباب، وأمسك بالمفتاح الضخم لكي يديره بالقوة. «أظن أن بينفاتش لم تعرف حادث سرقة منذ 1954».

ابتسم، لكنني تجاهلت سخريته. لا يعرف باتريك أنّني أفتّش

كلّ ركن من أركان البيت حين لا يكون معي، وأنّني أستيقظ مذعورة عند سماع أبسط ضجّة في الخارج. صحيح أنّ الكوابيس توقّفت، لكنّ الخوف ما زال يسكنني.

قلت له:

«تعال لتستدفئ قرب موقد المطبخ».

البرد قارص في الخارج، وباتريك يبدو متجمّداً.

«هذا الجوّ سيستمر لأيّام». أنصتَ لكلامي واستند إلى موقد المطبخ القديم. «هل لديكِ ما يكفي من الحطب؟ يمكن أن أزوّدك به غداً إن شئتِ».

«جاءني ليستين بكمّية تكفيني لبضعة أسابيع. حين يأتي لاستلام الإيجار بداية كل شهر، غالباً ما يحمل معه كومة من الحطب في مقطورته، ويرفض أن أدفع له مقابلها».

«إنّه رجل طيّب. هو وأبي يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد. كانا يقضيان الليالي في السهر بالحانة، ثمّ يعودان إلى البيت، ويحاولان إيهام أمّي بأنهما ليسا ثملَين. لا أظنه تغيّر كثيراً».

أضحك وأنا أتخيّل المشهد.

«أستلطفه كثيراً». جلبت زجاجتَي جعة من الثلاجة، ومددت واحدة لباتريك. «قُل لي، ما هذا الطبق العجيب؟».

كان قد اتّصل بي هذا الصباح وقال إنه سيتكلّف بالعشاء. كنت متلهّفة لمعرفة ما يوجد في الكيس العازل للحرارة الذي تركه بقرب باب المدخل.

«أتاني به أحد الزبائن على سبيل الشكر».

فتح باتريك الكيس وأدخل فيه يده، فأخرج، كما يُخرج الساحر أرنباً من قبعته، سلطعوناً أسود لا تزال كلاليبه تتحرّك بكسل.

«يا إلهي!» ساورني مزيج من الفرح والخوف من هذا الطبق. إذ لم يسبق لي أن طهوت شيئاً معقّداً كهذا. «أيدفع لك كثير من الزبائن السلطعونات عوض المال؟».

«أكثر ممّا تتصوّرين. وبعضهم يدفعون ديكة بريّة أو أرانب. يسلّمونها لي أحياناً يداً بيد، لكن في معظم الأحيان أعثر على شيء أمام الباب حين أصل إلى العمل» يبتسم. «وقد اعتدت على عدم السؤال عن المصدر. من الصعب أن يؤدّي المرء ضرائبه بالديكة البرّية، لكن من حسن الحظ ما زلنا نتوفّر على ما يكفي من الزبائن الذين يدفعون نقداً، وبذلك ينقذون العيادة من الإفلاس. وأنا لا أستطيع الامتناع عن معالجة حيوان لا لشيء إلا لأنّ صاحبه لا يملك المال».

فقلت وأنا أضمّه إليّ لأقبّله:

«أنت رجل حسّاس».

فردّ حين افترقنا:

«حذار! اصمتي وإلا ستدمّرين صورة الرجل الصلب التي أشيعها عن نفسي. ثمّ إن حساسيتي لا تمنعني من سلخ أرنب وديع أو سلق سلطعون».

وندّت عنه ضحكة مبالغ فيها، تماماً مثل الشخصية الشريرة في شريط رسومٍ متحركة.

فقلت مستهزئة:

«يا لك من أبله! أتمنى أن تكون عارفاً بكيفية طبخ هذا السلطعون. أما أنا فلم يسبق لي أن طهوته».

فردّ باتريك وهو يضع قطعة قماش على يده وينحني احتراماً:

«دعيني أتكفل بهذا يا سيدتي. أنا من سيحضّر لك العشاء».

أخرجتُ أكبر إناء أملكه، فأعاد باتريك السلطعون إلى الكيس بانتظار أن يغلي الماء بينما ملأت أنا حوض المطبخ لكي أغسل الخس. وانهمكنا في العمل متواطئين على الصمت، بينما مضى بو يتسلّل بين الفينة والأخرى بين أقدامنا لكي يذكّرنا بوجوده. كانت الوصفة بسيطة وهادئة، وارتسمت على وجهي ابتسامة وأنا أنظر خلسة إلى باتريك وهو يحضّر المرق.

تقاطعت نظراتنا بينما كان يضع الملعقة الخشبية على الإناء:

«كلّ شيء على ما يرام؟ فيمَ تفكّرين؟».

فأجبت وأنا أقلّب السلطة.

«لا شيء».

«هيّا، أخبريني».

«أفكّر فينا».

صاح باندهاش وهو يضحك:

«الآن ينبغي أن توضّحي كلامك».

بلّل يده في الحوض، ورشّني ببضع قطرات.

صرخت عالياً. كان ذلك خارج إرادتي. قبل أن يستوعب ذهني ما وقع، ويقول لي إنها دعابة من باتريك، جفلت وابتعدت منه وأنا أحمي رأسي. إنّه ردّ فعل غريزي جعل دقّات قلبي تتسارع وراحتَي تتعرّقان. ودار الهواء حولي كدوامة، وفي رمشة عين، وجدت نفسي أعود إلى زمن آخر، وإلى مكان آخر.

خيّم صمت ثقيل. قمت ببطء وقلبي يكاد يتوقّف. أمّا باتريك فتسمّر ينظر إليّ مرعوباً. حاولت أن أتكلّم، لكنّني شعرت بجفاف في فمي، وغصّة في حلقي. أحدّق فيه وقد علاني الارتباك، وأتنبّه إلى أن علي أن أعلّق على هذه الواقعة.

«أنا آسفة. . . ».

رفعتُ يدي إلى وجهي مفزوعة.

تقدّم باتريك خطوة إلى الأمام، وحاول أن يضمّني بين ذراعيه لكنني صددته. وشعرت فوراً بالخزي من ردّ فعلي هذا، وأدركت أنّ علي أن أقاوم هذه الرغبة المفاجئة في البوح بالقصة كاملة.

بادرني بلطف:

«جينا، ماذا جرى؟»

سُمِع طرقٌ على الباب، فتبادلنا النظرات. وقال باتريك:

«سأفتح».

حرّكت رأسي:

«لعلّه ليستين. ومسحتُ على وجهي وأنا سعيدة بمجيئه هذا الذي سيحوّل مجرى الحديث. سأعود بعد لحظة».

ما كدت أفتح الباب، حتّى أدركت ما يجري بالضبط.

كلّ ما كنت أرغب فيه هو أن أهرب: أتظاهر بأنّ الحياة التي عشتها قبل الحادثة كانت حياة شخص آخر، وأقنع نفسي بأنني يمكن أن أستعيد طعم السعادة من جديد. لطالما تساءلت عن ردّ فعلي حين سيعثرون عليّ، وكيف سيكون وقع عودتي إلى الواقع، وعمّا إذا كنت سأقاوم.

لكن حين نطق الشرطي باسمي، اكتفيت بأن هززت رأسي مقرّة بأنّه هو.

«نعم، أنا هي».

يكبرني سنّاً. حليق الشعر، يرتدي بدلة داكنة. يبدو لطيفاً، وتساءلت عن أيّ حياة يعيش، وما إذا كانت له زوجة وأبناء.

تقدّمت المرأة الواقفة بجانبه خطوة إلى الأمام. تبدو أصغر منه، بشعرها الكستنائي القاتم المتدلّية جدائله غير المرتبة على وجهها، وقالت وهي تفتح محفظة جلدية صغيرة لكي تريني شارتها:

«المفتشة كايت إيفانس من فرقة بريستول الجنائية. سنوقفك من أجل السياقة المتهوّرة المفضية إلى مقتل طفل، وجناية الاصطدام والهروب. بإمكانك التزام الصمت، لكن إذا ذكرت عنصراً ولم تذكريه لاحقاً، فقد يضرّ بدفاعك».

أغمضتُ عينَي، وتنهّدت بعمق. لقد آن أوان العودة إلى الواقع.

القسم الثاني

22

أوّل مرّة رأيتكِ، كنتِ جالسة في زاوية من زوايا مقصف الجامعة. لم تكوني قد لاحظتني بعد. كان عليّ أن ألفت انتباهك: كنت الرجل الوحيد الذي يرتدي بدلة بين حشد من الطلبة. كنتِ وسط صديقاتك تضحكين حتّى دمعت عيناك. جلستُ في المائدة المجاورة وأنا أحمل قهوتي، ورحت أتصفّح الجريدة متابعاً أحاديثكنّ الملغزة وأنتنّ تنتقلن من موضوع إلى آخر على غرار معظم ثرثرات النساء. وانتهى بي الأمر أن تركت الجريدة جانباً لأراقبَكُنّ. علمتُ أنكنّ جميعاً طالبات في السنة النهائية من شعبة الفنون التشكيلية. كان بإمكاني تخمين ذلك من الطريقة التي كنتُنّ تتصرّفن بها في المقصف: تُمضين معظم وقتكنّ في المناداة على زملائكنّ في الجانب الآخر من المقصف بصوت عالٍ، وفي الضحك، غير عابئات بمن حولكنّ. هذا هو السياق الذي سمعت فيه اسمك: جينا. وقد شعرت بشيء من الخيبة. فشعرُك الرائع وبشرتك البيضاء تعطيك مظهراً قبل رافائيلي جعلني أتصوّر اسماً أكثر كلاسيكية، أوريليا مثلاً، أو إيلينور. على أنّك كنت بلا شكّ أشدّهُنّ إغراء بينما كانت زميلاتك يبدين مغرورات ومتبجّحات، بل مبتذلات. كنتِ في

سنّهنّ -تصغرينني بخمس عشرة سنة على الأقل- لكنّ مخايل النضج كانت بادية على وجهك. نظرتِ حولك كما لو كنتِ تبحثين عن أحدهم، فابتسمت لك، إلا أنك لم تريني. ولم تكد تمضي لحظات حتّى غادرت.

كنت قد قبلت تقديم ستّ محاضرات باعتباري أستاذاً زائراً في إطار برنامج يتوخّى مدّ جسور بين الجامعة وعالم المقاولة. وقد كان الأمر في غاية البساطة: فالطلبة كانوا بين مهمِل غير محتفل، ومهتمّ يُرهف السمع حتّى لا يفوته شيء ممّا كنت أقوله عن الأعمال والمقاولات. وهو أمر لا بأس به بالنسبة إلى شخص لم يسبق أن وطأت قدمه أرض الجامعة. والشيء الغريب حقّاً بالنسبة إلى درس حول التجارة، هو وجود عدد لا بأس به من الفتيات بين الطلبة. وقد أثارت انتباهي النظرات التي تبادلنها يوم دخلتُ إلى المدرّج لأول مرّة. أظنّ أنني أثرت فضولهنّ: فأنا أكبر سنّاً من زملائهنّ الذكور، لكنني أصغر من الأساتذة والمحاضرين. وكانت بدلاتي مفصّلة على مقاسي تماماً، وقمصاني ضيّقة، بأزرار أكمام مفضّضة، ولم يكن الشيب قد ظهر في رأسي بعد، كما أنني لم أكن أملك بطناً منتفخاً أخفيه تحت سترتي.

خلال المحاضرات، كنت أتوقّف عمداً في وسط جملة من الجُمل، وأُنعمُ النظر في إحدى الطالبات طوال أسبوع، ثمّ أنتقل إلى غيرها. وقد كانت نظراتي تجعلهنّ يتورّدن، ويبتسمن لابتسامتي قبل أن يحوّلن بصرهنّ. كنت أجد متعة خبيثة في اكتشاف الذرائع التي يختلقنها لكي يتخلّفن في آخر المحاضرة، ويهرعن إليّ قبل أن أجمع أغراضي وأغادر. كنت أجلس على حافة الطاولة مستنداً على إحدى يدي، وأنحني لأنصت إلى سؤالهنّ، فأرى بصيص الأمل في عيونهنّ

يتلاشى حين يدركن أنّني لن أدعوهنّ إلى المقصف لشرب كأس. لم يكنّ يثرن اهتمامي مثلك.

وفي الأسبوع الموالي، كنت لا تزالين هناك مع زميلاتك لمّا مررت بجوار مائدتكنّ، فنظرت إليّ وابتسمت، ليس تأدُّباً، بل ابتسامة عريضة أضفت ألَقاً على وجهك. كنت تلبسين قميصاً خفيفاً، أزرق فاتحاً، يكشف عن شرائط حمالات صدر سوداء ذات حاشية مخرّمة، وسروالاً عسكرياً فضفاضاً يكشف عن وركيك. وبين القميص والسروال يظهر نتوء ناعم لوّحته الشمس، وتساءلت عمّا إذا كنتِ تنبّهت له. وقلت في نفسي إن كنت تنبّهت له، فَلِمَ لا يزعجك.

وانتقل بكنّ الحديث من الواجبات الدراسية إلى العلاقات الغراميّة وعن الأولاد فيما أحسب، رغم أنكنّ تتحدّثن عن «الرجال». راحت زميلاتك يتهامسن، وكان عليّ إصاخة السمع، وحبس أنفاسي منتظراً دورك في هذا السيل الطويل المملّ من المغامرات العابرة والعلاقات المؤقّتة. ولم يخب ظنّي فيك: كلّ ما سمعت منك قهقهاتٍ عاليةً، وملاحظاتٍ وديّةً ساخرة حول رفيقاتك. لم تكوني مثلهنّ.

قضيت الأسبوع بكامله وأنا أفكر فيك. وقد قمتُ بجولة في الحي الجامعي آملاً مصادفتك. وحين رأيت إحدى صديقاتك -تلك الطويلة ذات الشعر المصبوغ- تعقّبتها للحظة، لكنّها اختفت في المكتبة، ولم أجرؤ على الدخول لأرى ما إذا جاءت لتلحق بك.

ويوم محاضرتي الرابعة، وصلتُ باكراً، فلمّا رأيتك جالسة بمفردك في المكان نفسه الذي اعتدت الجلوس فيه خلال الحصتَين السابقتَين، أيقنت بأنّ جهودي لم تذهب سدى. كنت تقرئين رسالة، وتنبّهت إلى أنّك تبكين وقد جرى الكحل تحت عينيك. ما أظنّ أنك

كنت ستُصدّقيني لو قلت لك إنّك كنت أجمل هكذا. تناولت قهوتي، وجئت إلى مائدتك:

«ألا يزعجك أن أجلس إلى جانبك؟».

حشرتِ الرسالة في حقيبتك.

«تفضّل».

قلت وأنا أجلس قبالتك:

«يتهيّأ لي أنّنا رأينا بعضنا بعضاً هنا».

«صحيح؟ آسفة، لا أذكر».

شعرت بالحرج من أنّك نسيت بتلك السرعة، لكنّك كنت مضطربة، وكانت أفكارك ربّما مشوّشة.

«أنا أحاضر هنا في الوقت الراهن».

واكتشفتُ على الفور أنّ الانتماء إلى هيئة التدريس يجذب الطالبات. لم أكن أعرف أكان ذلك مرتبطاً بمعرفة شخص يمكن أن «يقول كلمة طيبة في حقهنّ» أم لأنّ الأساتذة يختلفون عن زملائهم الذين بالكاد غادروا المراهقة. لم تكن هذه الملاحظة مؤكّدة، لكن الوقائع تثبت وجاهتها.

«صحيح؟ وتألّقت نظرتكِ. أيّ مادة؟».

«التجارة».

«رائع».

زال الألق من عينيك، فشعرتُ بالاستياء من استخفافك بشيء مهمّ كهذا بهذه السرعة. ففنّك لن يعيل أسرة ولن يبعث الحياة في مدينة على كلّ حال.

ثمّ سألتِني:

«وماذا تفعل حين لا تحاضر؟».

ما كان ما تفكّرين به ليُثير اهتمامي لولا رغبتي المفاجئة في إثارة إعجابك.

«أملك شركة معلوميات. نبيع برامج في العالم بأسره».

لم أحدّثك عن دوغ الذي يملك ستين بالمئة، بينما لا أملك أنا سوى أربعين، ولم أوضّح لك أنّ العالم بأسره كان يقتصر إلى حدود تلك اللحظة على إيرلندا. كانت شركتنا في أوج تطوّرها ولم أزِدْ على ما قلته لوكيل البنك خلال آخر مرّة طلبنا فيها قرضاً.

وغيّرتُ موضوع الحديث.

«أنتِ في السنة النهائية، أليس كذلك؟».

وحرّكت رأسك مؤمِّنة على كلامي.

«أدرس...».

رفعت يدي.

«لا تقولي شيئاً، اتركيني أخمّن».

ضحكتِ. أعجبتكِ اللعبة. تظاهرت بالتفكير لحظة وأنا أجول بعيني في فستانك الملوّن، والوشاح المعقود حول شعرك. كنتِ أبدن حينئذ.

وقلتُ أخيراً:

«تدرسين الفنّ التشكيلي».

«نعم». بدت عليك الدهشة. «وكيف خمّنت؟».

أجبت كما لو أنني أقول حقيقة بديهية:

«لأنك تشبهين إحدى الفنانات».

لم تقولي شيئاً، لكن بقعتين ملوّنتين بدتا على وجنتيك، ولم تتمالكي نفسك من الابتسام.

«يان بيترسن».

مددت ذراعي لكي أشدّ على يدك، ظللت ممسكاً بها أطول من اللازم قليلاً شاعراً بطراوة بشرتك تحت أصابعي.

«جينا غراي».

فردّدتُ:

«جينا. اسم غير شائع. أليس تصغيراً لاسم آخر؟».

«تصغير جينيفر، لكن الجميع ينادونني جينا».

ضحكتِ بلا مبالاة. كانت آخر آثار الدموع على عينيك قد تلاشت، ومعها اختفى وهنُك الذي لا سبيل لمقاومته.

«لاحظت دون أن أقصد أنّك حزينة قليلاً. وأشرتُ إلى الرسالة في حقيبتك المفتوحة. هل تلقّيت أخباراً سيّئة؟».

وتجهّم وجهك على الفور.

«رسالة من والدي».

لم أقل شيئاً، واكتفيت بأن أملت رأسي إلى الجانب ورحت أنتظر. فالنساء نادراً ما يحتجن إلى التشجيع لكي يتحدّثن عن مشاكلهنّ، ولم تكوني الاستثناء.

«ترك البيت منذ أن كنت في الخامسة من عمري، ولم أرَه منذئذ. عثرت على عنوانه أخيراً في الشهر الماضي، فكاتبته، لكنّه لم يعد يرغب في أن يعلم شيئاً عنّي. أخبرني بأنّه أسّس أسرة جديدة، وأنّ «علينا أن ندَعَ الماضي في مكانه»».

أومأتِ بيديكِ تحاكين رسم المزدوجتَين، واتّخذت سُحنة هازئة لم تستطع إخفاء ما تشعرين به من مرارة.

«إنّه أمر فظيع. أجد صعوبة في تصوّر أن يرفض شخص رؤيتك».

ثم هدأت فجأة، وتورّدت، وقلتِ وأنت تحدّقين في المائدة وقد ترقرق الدمع في عينيك من جديد.

ملت نحوك وقلت:

«هل أجلبُ لك قهوة؟».

«بكلّ سرور».

لمّا عدت وجدتُ أنّ مجموعة من أصدقائك انضمّوا إليك. عرفت منهم فتاتين، لكن كانت معهما ثالثة وولد ذو شعر طويل، وأذنين مثقوبين. شغلوا كل الكراسي، فكان علي أن أحضر كرسيّاً من مائدة مجاورة. مددت لك فنجانك، وانتظرت أن تشرحي لهم بأنّهم قطعوا علينا حديثنا، لكنّك اكتفيت بشكري على القهوة وقدّمت لي أصدقائك الذين نسيت أسماءهم على الفور.

طرحتْ عليّ إحدى صديقاتك سؤالاً، لكنّني لم أستطع تحويل عيني عنك. كنتِ قد انخرطتِ في حديث جادّ مع الولد عن عمل ينبغي تحضيره لآخر السنة. وتدلّت جديلة من الشعر على وجهك، فأرجعتِها بنفاد صبر خلف أذنيك. لا بدَّ أنّك شعرت بنظراتي، لأنّك التفتِّ إليّ وابتسمت بارتباك، فسامحتك توّاً على عدم لباقة أصدقائك.

بردتْ قهوتي، ولم أشأ أن أكون أوّل من ينصرف، فأصير موضوع أحاديثكم، لكنّ محاضرتي كانت ستبدأ بعد دقائق. نهضت، وانتظرت أن تلاحظي نهوضي.

«شكراً على القهوة».

وددت لو أقترح عليك اللقاء لاحقاً، لكن كيف لي أن أفعل وكل أولئك الأصدقاء من حولك؟

وقلتُ بنبرة لا مبالية كما لو أنّ ذلك لا أهمية له على الإطلاق:

«إلى الأسبوع القادم ربّما؟».

لكنك كنت قد أدرتِ وجهك ناحية أصدقائك، فانصرفت وأنا أسمع ضحكاتك تتردّد في القاعة.

صدّني هذا الضحك عن العودة في الأسبوع الموالي، ولمّا التقينا بعد خمسة عشر يوماً، أثبتَ لي الارتياح البادي على وجهك بأنّني أحسنت صنعاً عندما لم أتعجّل البحث عنك. لم أسألك ما إذا كنت تسمحين لي بالجلوس إلى مائدتك هذه المرّة، بل اكتفيت بأن أحضرت قهوتين، إحداهما سوداء بالسكّر لك.

«تذكّرتَ كيف أحبُّ قهوتي؟».

هززت كتفي متظاهراً بعدم الاكتراث، لكنّني كنت قد سجّلتها في مفكرتي بتاريخ اليوم الذي التقينا فيه كما هي عادتي.

حرصتُ هذه المرّة على أن أطرح عليك مزيداً من الأسئلة، وانفتحتِ مثل ورقة تحت المطر. أطلعتني على رسوماتك، وتصفّحتُ العديد من تخطيطاتك التي تشهد لك بالكفاءة وإن كانتْ مبتذلة، وعلّقتُ بأنّها رائعة. ولمّا وصل أصدقاؤك هممت بالقيام لأحضر مزيداً من الكراسي، لكنّك قلت لهم إنّك مشغولة، وأنّك ستلحقين بهم لاحقاً. وفي هذه اللحظة تبدّدت كلّ شكوكي حولك، وحدّقت فيك إلى أن حوّلت عينيك وأنت تبتسمين متورّدة.

وقلت لك:

«لن نلتقي الأسبوع المقبل. سألقي آخر محاضرة هذا اليوم».

تأثّرتُ لملاحظة الخيبة على وجهك. فتحتِ فمك للكلام، لكنّك عدلت. وانتظرتُ وأنا أتلذّذ بلحظة الحيرة هذه. كان بإمكاني أن أعرض عليك اقتراحي، لكنّني فضّلت أن أسمعه منك.

وسألتِ:

«يمكن أن نشرب كأساً معاً في يوم من الأيام؟».

لم أجب على الفور، كما لو أنّ ذلك لم يتبادر إلى ذهني.

«ولِمَ لا نتعشّى معاً؟ لقد فتح مطعم فرنسي أبوابه مؤخّراً في وسط المدينة. ما رأيكِ في أن نجرّبه في عطلة نهاية الأسبوع؟».

كانت سعادتك التي لم تسعي إلى إخفائها مؤثّرة، وتذكرتُ ماري التي أرهقتها الحياة ولم تعد تبالي. لم يخطر على بالي قبل ذلك أن المسألة قد تكون مرتبطة بالسنّ، لكنني لمّا رأيت حماسك الطفولي للذهاب إلى مطعم فاخر، علمت أنّني أحسنت صنعاً ببحثي عن امرأة غِرّة أصغر سنّاً. لم أكن أعتبرك فتاة ساذجة بالطبع، لكن على الأقل لم يكن التشاؤم والريبة أصاباك بعد.

جئتُ لآخذك من الحي الجامعي، متجاهلاً نظرات الطلبة الفضولية وهم يمرّون أمام الباب، وقد سُرِرتُ لمّا رأيتك في ذلك الفستان الأسود الأنيق، ولمحت ساقيك الطويلتين في سروال ضيّق سميك داكن. وحين فتحت لك باب السيارة، قفزتِ من المفاجأة.

«لا تَدَعني أعتاد على هذا».

فقلت:

«أنت ساحرة يا جينيفر».

وضحكتِ.

«لا أحد يناديني جينيفر».

«أيُزعجك ذلك؟».

«كلا، لا أظنّ. كلّ ما في الأمر هو أنّني لم أعتد عليه».

لم يكن المطعم يستحقّ ما قرأت عنه من إطراء، لكنّه لم يزعجك فيما يبدو. طلبتِ بطاطس مقلية لمصاحبة لحم الدجاج، فعلّقت على اختيارك:

«من النادر العثور على امرأة لا تلقي بالاً لقوامها».

وابتسمتُ لكي أظهر لك بأنني لا أعير الأمر أيّ اهتمام.

«لا أتّبع حمية. الحياة قصيرة».

أنهيتِ المرق بالقشدة المصاحب لدجاجك، وتركت البطاطس. ولمّا عرض علينا النادل قائمة التحليات، رفضتُ بإيماءة من يدي.

«اثنان قهوة من فضلك».

لاحظت الخيبة على وجهك، لكنّك لم تكوني بحاجة إلى تحلية غنيّة بالكالوريز. وسألتكِ:

«ماذا ستفعلين بعد حصولك على الدبلوم؟».

تنهّدت، وقلت:

«لست أدري. أتمنى أن أنشئ رواقي الخاص في يوم من الأيّام، لكن كل ما أصبو إليه الآن هو الحصول على عمل».

«في مجال الفنّ؟».

«يا ريت لو يتحقّق ذلك! أنا متخصّصة في النحت، وبذلك سأحاول بيع أعمالي، لكن عليّ أن أقبل العمل في حانة أو سوق ممتاز لكي أعيل نفسي. سينتهي بي المطاف لا محالة بالعودة إلى بيت أمّي».

«تتفاهمين معها؟».

جعّدتِ أنفك كما يفعل الأطفال.

«ليس تماماً. فهي تتفاهم أكثر مع أختي. لم ننسجم أبداً. فهي المسؤولة عن اختفاء أبي المفاجئ».

وسكبتُ نبيذاً لكلينا.

«ماذا فعلت؟».

«طردَتْهُ من البيت. قالت لي إنّها آسفة، وعلّقت بأنّها هي أيضاً ترغب في أن تعيش حياتها، ولا يمكن أن تستمرّ في تلك الحياة. ثم

ضربت صفحاً عن هذا الموضوع، ولم تعد تسمح لي بالحديث فيه. أعتقد أنّه فعل ينمّ عن أنانية قاتلة. لم أرَ له مثيلاً قطّ».

كان الحزن بادياً في عينيكِ، فوضعت يدي على يدك.

«هل ستُجيبين على رسالة أبيك؟».

هززتِ رأسك بعنف.

«لقد أفهمني في رسالته بأنّ عليّ أن أتركه في حاله. لست أدري ماذا فعلت أمّي، إلا أنّ الأكيد هو أنّها قامت بشيء خطير جعله يرفض حتى أن يرانا».

أقحمتُ أصابعي بين أصابعك، ورحتُ أداعب البشرة الناعمة بين إبهامك وسبابتك. وعلّقت:

«ليس بوسع المرء أن يختار والديه، وهو أمر مؤسف».

«هل أنت قريب من والديك؟».

«لقد رحلا».

لفرط ما ردّدتُ هذه الكذبة صرت أوشك على تصديقها. بل لربّما كان ذلك صحيحاً... كيف لي أن أعلم؟ لم أبعث لهما بعنواني لمّا انتقلت إلى الجنوب، ولا أظن أنّ اختفائي قد يكون جعل النوم يجفو عيونهما.

«آسفة».

ضغطتِ على يدي وعيناك تشعّان بالتعاطف. فمضيت أحدّق في المائدة.

«كان ذلك منذ زمن بعيد؟».

«ألم تلاحظي أنّ هذا الأمر يوحّد بيننا؟»، لاحت على وجهك ابتسامة شجاعة، تشهد على اعتقادك بأنّك فهمتني. «الحسرة على والدينا».

كنتِ مخطئة، لكنّني تركتك تتوهّمين أنّك عرفتني حقّ المعرفة.

«انسيه يا جينيفر. أنت لا تستحقّين هذه المعاملة. لن يفيدك في شيء، حالك أفضل من دونه».

هززتِ رأسك مؤمِّنة على كلامي، لكنني كنت أرى جيداً أنّك لا تصدقين كلامي، أو بالأحرى ما زلت لا تصدقينه على كلّ حال.

كنت تنتظرين أن آتي إلى بيتك، لكنني لم أكن أرغب في قضاء ساعة من الزمن في غرفة طالبة، نشربُ قهوة رخيصة في فناجين مثلومة. وددت لو آخذك إلى بيتي، لكنّ ماري لم تكن قد أخذت كلّ أغراضها بعد، وكنت أعلم أن ذلك قد يضايقك. ثمّ إنّ الأمر كان مختلفاً. لم أكن أرغب في مغامرة ليلة واحدة: كنت أريدك أنتِ.

رافقتك إلى باب الحي الجامعي، فقلت مازحة:

«ما زال أمام الكياسة والتودّد للنساء مستقبلٌ زاهر».

انحنيتُ، ولمّا ضحكتِ شعرت برضا تافه من أنّني أسعدتك.

«أظنّها أوّل مرّة أقضي فيها سهرةً مع شخص مهذّب حقّاً».

فأجبتُ وأنا أتناول يدك وأرفعها إلى فمي:

«عليك إذاً أن تتعوّدي».

تورّدتِ، وعضضتِ على شفتك، ثمّ رفعتِ ذقنك قليلاً، منتظرة قُبلتي، فقلت:

«ليلة سعيدة».

عدتُ أدراجي نحو سيارتي. كان واضحاً أنك تشتهينني، لكن ليس بالقدر الكافي بعد.

23

لم تُبدِ جينا أيّ ردّ فعل، وهو ما حيّر راي. لم تُظهر سخطاً ولا إنكاراً ولا ندماً. راح يتفرّس وجهها بينما كانت كايت تُنجز مسطرة اعتقالها، فلم يرَ فيه إلا بارقة صغيرة لِما يمكن أن يكون ارتياحاً. كان يشعر باضطراب شديد كما لو أنّ الأرض هوت تحت قدميه. بعد أكثر من سنة أمضاها في البحث عمّن قتل جاكوب، لم يخطر بباله قط أن يقع على شخص مثل جينا غراي.

امرأة باهرة الجمال، بأنف دقيق مستطيل، وبشرة فاتحة تكسوها بقع نمش كبيرة أحياناً. عيناها الخضراوان منسحبتان قليلاً، أشبه بعيون القطط الكبيرة، وشعرها الكستنائي منسدل على كتفيها. لم تكن تضع مساحيق الزينة، ورغم أنّ ملابسها الفضفاضة تخفي قوامها، يستطيع المرء أن يخمّن من أصابعها المستدقة وعنقها الرفيع بأنّها رشيقة.

سألت ما إذا كان بإمكانهم أن يمهلوها لحظة حتّى تجمع بعض الأغراض.

«عندي صديق في البيت، ينبغي أن أشرح له الموقف. هل يمكن أن تسمحا لنا بدقيقة أو دقيقتين؟».

كانت تتحدّث بصوت خافت حتّى أنّ راي اضطر للانحناء لكي يسمع ما تقول. فأجابها:

«لا أظن».

عضّت على شفتها وتردّدت لحظة، ثمّ تراجعت لتترك راي وكايت يدخلان. وجدا في المطبخ رجلاً يحمل كأس نبيذ في يده، وظنّ راي أنّه عشيقها. وبخلاف جينا، كان الانفعال بادياً على وجهه.

قال راي في نفسه وهو يجول ببصره في الغرفة إنّ المكان من الضيق بحيث لم يستغرب السهولة التي تنصّت بها على الحديث الذي دار بينهما. غبارٌ كثير عالق في الأحجار المصفوفة أعلى المدفأة التي فُرش أمامها سجاد قاني الحمرة، تتخلله آثار النار، والأريكة تكسوها بطانية ملوّنة وضعت بلا شك لتضفي مسحة من المرح على الغرفة. على أنّ الإنارة كانت ضعيفة، وسقف البيت الريفي واطئ بحيث اضطر راي إلى الانحناء لتجنّب العارضة الممتدّة بين الصالون والمطبخ. يا له من مكان بغيض! بعيد وبالغ البرودة رغم النار في المدفأة. وتساءل لِمَ اختارت الاستقرار هنا. لعلّها اعتقدت أنّه مخبأ مثالي.

قالت جينا، كما لو أنّ الأمر يتعلق بلمّة أصدقاء:

«هذا باتريك ماثيوز».

لكنّها أدارت ظهرها لكايت وراي، فشعر الشرطي كما لو أنه غير مرغوب فيه.

«عليّ أن أرافق هذين الشرطيَّين». تحدّثت بنبرة جافة ولا مبالية. «لقد وقعت مشكلة رهيبة السنة الماضية، وعليّ أن أسوّيها».

«ماذا وقع؟ إلى أين يأخذانك؟».

وقال راي في نفسه وهو يتقدّم نحو باتريك ليريه بطاقته: إمّا أنّه لا يعرف شيئاً وإما أنّه كذّاب ماهر.

«إلى بريستول لاستجوابها».

«ألا يمكن تأجيل ذلك إلى الغد؟ أستطيع أن أوصلها إلى سوينسي صباحاً».

فبادره راي وقد نفد صبره:

«السيد باتريك»، كانا قد أمضيا ثلاث ساعات في الطريق إلى بينفاتش، وساعة أخرى للعثور على البيت الريفي. «في شهر نوفمبر من السنة الماضية، صدمت سيارةٌ طفلاً في الخامسة من عمره وقتلته دون أن تتوقّف. لا أظنّ أنّ الأمر يمكن أن يُرجأ إلى الغد».

«ولكن ما صلة جينا بهذا؟».

لم يجبه الشرطيان، فنظر باتريك إلى راي أولاً ثم إلى جينا، وحرّك رأسه ببطء.

«كلا، لا بدَّ أن في الأمر خطأ. أنت لا تسوقين».

نظرت إليه، وقالت:

«كلا، لا خطأ في الأمر».

فتور صوتها أشعر راي بالقشعريرة. قضى سنة وهو يتصوّر أيّ نوع من البشر يمكن أن يكون السائق، لا يمكن أن تكون في قلبه ذرة شفقة حتّى يفرّ دون أن يقدّم المساعدة لطفل يحتضر. الآن وهي أمامه، عليه أن يقاوم لكي يتعامل معها على نحو مهني بعيداً عن مشاعره. كان يدرك أنّه لن يكون الوحيد، بل سيجد زملاؤه هذا صعباً كذلك، مثلما يجدون صعوبة في التعامل بلياقة مع الشواذّ ومستغلّي الأطفال جنسياً. استرق نظرة إلى كايت، ولاحظ أنّها تشعر بالشيء نفسه. وفكّر بأنّ عليهما أن يسارعا بالعودة إلى بريستول.

وقال لكايت:

«ينبغي أن ننطلق. اتركي استجوابها حتّى نصل إلى المخفر. سيكون أمامها الوقت لكي تحكي لنا ما وقع. لا تثيري معها القضية الآن. مفهوم؟».

«نعم».

تناولت جينا حقيبة ظهر كانت معلّقة على مسند أحد الكراسي، ونظرت إلى باتريك.

«هل يمكن أن تتكفّل ببو؟ سأحاول أن أتصل بك حين ستتوضح لي القضية أكثر».

حرّك رأسه دون أن ينبس، وتساءل راي فيمَ يفكر، وأي وقع سيشعر به حين يكتشف أنه خدع من لدن إنسانة ظنَّ أنه يعرفها.

صفّد راي جينا، وتثبت من أنّ الأصفاد لا تضغط على معصميها. لم تبدِ أي ردّ فعل، ولاحظ ندوباً في راحة يدها قبل أن تشدّ قبضتها. وقال منبّهاً:

«ركنّا السيارة على مسافة من هنا. لم نستطع تجاوز المخيم».

فقالت جينا مؤكّدة:

«نعم الطريق يتوقف على بعد ثمانمئة متر من هنا».

فردّ راي باندهاش:

«فقط؟».

بدت له المسافة أطول وهو يقطع الطريق الضيق برفقة كايت. كان راي قد عثر على مصباح جيب مرمياً في صندوق السيارة، غير أن البطارية كانت فارغة تقريباً. وكان عليه أن يحرّكها كلّ ثلاثة أمتار أو أربعة لكي تشتغل.

وقال باتريك بينما كان يشيّع جينا:

«اتّصلي بي بمجرّد ما تواتيك الفرصة».

ثمّ أضاف بصوت عالٍ:

«ووكّلي عنك محامياً!».

لكن كلماته ضاعت في الظلام.

شكّلوا مجموعة غريبة تسير متعثّرة في الطريق الضيق الذي يقود إلى المخيم، وقد سُرّ راي بكون جينا متعاونة. كانت نحيفة، لكنّها في مثل طوله، وخبيرة بهذا الطريق. لم يعد راي يدري أيّ وجهة يتّجهون، ولا أيّ مسافة تفصلهم عن المرتفع. وقد كان ارتطام الأمواج بالصخور من الصخب بحيث يكاد يشعر بالرذاذ يتطاير على وجنتيه. ولمّا بلغو المخيم من دون عناء، أحسّ بالارتياح، وفتح الباب الخلفي للسيارة -وهي سيارة عادية لا تحمل شارة الشرطة- فركبت جينا بلا تردّد.

تركها راي وكايت في السيارة وابتعدا لكي يتحدّثا.

سألته كايت:

«هل تظنّها في كامل قواها العقلية؟ لم تقل شيئاً تقريباً».

«من يدري، لعلّها لا تزال تحت الصدمة».

«أظنّها توهّمت بأنها أفلتت من العقاب. كيف للمرء أن يظلّ عديم الإحساس إلى هذا الحد، بعد كل هذا الوقت».

هزّت كايت رأسها، فقال راي:

«لننتظر حتّى نرى ما بجعبتها قبل أن نبعث بها إلى المشنقة».

بعد فرحة العثور على السائق، بدت عملية الإيقاف محبطة.

قالت كايت:

«أتعرف أنّ الحسناوات يمكن أن يكنّ قاتلات أيضاً؟».

أرادت أن تمازحه، لكن قبل أن يجد الوقت ليجيب، كانت قد أخذت منه المفاتيح وتوجّهت إلى السيارة بخطى واسعة.

بدت طريق العودة لا نهاية لها. كان راي وكايت يتحدّثان بصوت هامس حول مواضيع مبتذلة: دسائس المكتب، السيارات الجديدة، عروض العمل التي نشرت في نشرة الأخبار الداخلية. كان راي يظنّ أن جينا نامت، لكنّها نطقت عند الاقتراب من نيوبورت.

«كيف عثرتما عليّ؟».

ردّت كايت بعد أن لاحظت أنّ راي لزم الصمت.

«لم يكن الأمر صعباً. هناك انخراط في شبكة الإنترنت باسمك. اتّصلنا بمالك البيت لكي نتأكّد من أن العنوان الذي بين أيدينا صحيح، فبدا مُتعاوناً».

استدار راي لكي يرى ردّ فعل جينا، لكنها كانت تنظر إلى حركة السير من خلال النافذة. الشيء الوحيد الذي كان يشي بأنّها متوتّرة هما قبضتاها المشدودتان على ركبتيها.

واسترسلت كايت:

«لا بدَّ أنّ حياتك كانت صعبة بسبب ما اقترفتِ».

فنبّهها راي:

«كايت!».

«أقلّ صعوبة من حياة أمّ جاكوب طبعاً...».

فقال راي:

«كفى يا كايت! انتظري إلى حين الاستجواب».

حدجها بنظرة غاضبة فمضت تتفرّسه بتحدٍّ. كان واضحاً أنّ السهرة ستكون طويلة.

24

في ظلمة سيارة الشرطة، استسلمتُ للبكاء. وبينما كانت المرأة تتحدّث إليّ، ولا تبذل أيّ جهد لإخفاء حقدها عليّ، شعرت بدموع ساخنة تنزل على قبضتَي المشدودتين. صحيح أنّني أستحقّ هذه المعاملة، ولكن من الصعب تقبّلها مع ذلك. لم أنسَ أمّ جاكوب قطّ، ولم أتوقّف لحظة عن التفكير في حزنها، وهو حزن لا يساوي حزني أمامه شيئاً. إنّ ما اقترفتُ يشعرني بالاشمئزاز.

لم أشأ أن أثير نظر الشرطيَّين، لذلك رحت أتنفّس بعمق لأخفي نحيبي. وتخيّلتُهما يطرقان باب ليستين، فتورّدت وجنتاي من الخزي. إشاعة خروجي مع باتريك تفشّت في القرية بسرعة فائقة، ولا شيء يمنع من أن تكون النمائم تناسلت حول هذه الفضيحة.

لم يكن شيء أدهى من نظرة باتريك لمّا عدت إلى المطبخ مع الشرطيَّين. قرأت الشعور بالخيانة واضحاً على صفحة وجهه كما لو أنّه كُتب بحروف بارزة. وكلّ ما ظنّ أنه عرفه عنّي اتّضح فجأة بأنّه كذبٌ تذرّعت به لأخفي جريمة شنعاء. لا أستطيع أن ألومه على تلك النظرة. ما كان عليّ البتّة أن أرتبط بأحد، ولا أن أترك أحداً يتعلّق بي.

لم تعد تفصلنا عن بريستول سوى مسافة قصيرة، وكان عليّ أن

أستعيد صفاء ذهني. أظنّهم سيأخذونني إلى قاعة التحقيقات، وسيطلبون منّي تعيين محامٍ يدافع عنّي، وسيطرحون عليّ أسئلة ينبغي أن أجيب عنها بأقصى ما يمكن من هدوء. لن أبكي ولن أبحث عن أعذار. سيُدينونَني وسيقدّمونني إلى المحكمة. حينئذ سينتهي كلّ شيء. سأنال عقابي. أتسير الأمور على هذا النحو؟ لست متأكّدة. كلّ ما أعرف عن الشرطة، استمددتهُ من الروايات البوليسية والصحافة، إذ لم يخطر ببالي يوماً أنّني سأجد نفسي في الجانب الآخر. وتخيّلت كومة من الجرائد تعرضُ صورتي في صفحاتها الأولى، مكبّرة بحيث تُظهر كلّ قسمات وجهي، وجه القاتلة.

ألقي القبض على امرأة في إطار التحقيق حول موت جاكوب جوردان.

لا أعلم ما إذا كانت الجرائد ستنشر اسمي، وحتى إن هي لم تفعل، فمن المؤكّد أنّها ستتحدّث عن عمليّة التوقيف. أضع يدي على صدري، فأشعر بدقات قلبي. أشعر بالحرارة، وبجسدي ينضح عرقاً كما لو أنني محمومة. كلّ شيء من حولي بدأ ينهار.

خفّفت السيارة من سرعتها، وانعطفت نحو موقف سيارات مجموعة من البنايات الرمادية المتواضعة. ذلك أنّ الشيء الوحيد الذي يسمح بتمييز عمارات المكاتب المحيطة هو شعار شرطة آفون وساميرسيت البارز فوق المدخل الرئيس. ورُكنت السيارة بمهارة في مكان ضيّق بين سيارتَي شرطة، وفتحت لي الشرطية الباب وهي تسألني:

«أأنت بخير؟».

بدا صوتها الآن ألطف، كما لو أنّها ندمت على الكلمات القاسية التي واجهتني بها قبل قليل.

هززت رأسي موافقة بأدب مثير للشفقة. لم يكن المكان الضيّق يسمح بفتح الباب مشرعاً، فوجدت صعوبة في النزول، لا سيما أن يدَي مصفّدتان. تضاعف جزعي وذهولي، فتساءلت عمّا إذا لم تكن هذه هي وظيفة الأصفاد الحقيقية. على كلّ حال، إلى أين سأذهب حتّى لو فررت؟ فالساحة مطوّقة بأسوار عالية، والمدخل يسدّه باب كهربائي. وحين وقفت على رجلَي أخيراً، أمسكت المفتّشة إيفانس بذراعي وأبعدتني عن السيارة. لم تشدّني بقوة، لكن هذه الحركة أشعرتني بالضيق، فقاومت الرغبة في التخلّص من قبضتها. قادتني إلى أن بلغنا باباً حديدياً فضغط الرجل على زرّ قبل أن يتحدّث في الأنترفون معلناً:

«النقيب ستيفنس، امرأة في الاعتقال الاحتياطي».

فُتح الباب الضخم بعد أن سُمعت له طقطقة، ودخلنا إلى قاعة واسعة ذات جدران بيضاء قذرة. وسُمع صرير الباب وهو يُغلق خلفنا، وتهيّأ لي أنّ هذا الصوت تردّد في رأسي لدقيقة كاملة. كانت البناية تفوح بالعطونة رغم المكيّف الصاخب في السقف، ويتردّد فيها طرق مستمر آتٍ من متاهة الممرّات التي تنطلق من البناية المركزية. كان ثمّة رجل في حوالي العشرين من عمره جالساً على مقعد حديدي رمادي في زاوية من القاعة، منشغلاً في قضم أظافره ولفظ القُلامة أرضاً. يرتدي سروالاً رياضياً أزرق، ذا حواش مسلولة، وحذاء رياضياً وقميصاً وكنزة صوفية رمادية قذرة، تحمل شعاراً غير مقروء. أشعرتني الرائحة المنبعثة منه بالغثيان، وأدرت وجهي خشية أن يلاحظ ما يثير في نفسي من خوف وشفقة.

قال بصوت حادّ أخنّ أشبه بصوت طفل صغير:

«حدّقي جيّداً يا عزيزتي! تعالي امسكي بي!».

ثمّ مضى يقهقه على نحو لا يناسب هذه الحجرة الكئيبة المقزّزة.

وقال النقيب ستيفنس:

«دعها عنك يا لي».

أسند الشاب ظهره على الجدار وهو يضحك هازئاً وقد بدا مسروراً بدُعابته.

أمسكت المفتشة إيفانس بذراعي من جديد، وانغرزت أظافرها في جلدي بينما كانت تقودني إلى الطرف الآخر من الغرفة حيث يعكف شرطي بالبدلة على حاسوبه، وقميصه الأبيض مشدود إلى كرشه الضخمة. أومأ برأسه إلى المفتشة، لكنّه لم يُعِرني غير نظرة خاطفة.

«هيّا تكلّمي، أنا في الاستماع».

فكّت المفتشة إيفانس الأصفاد عن يدَي، فشعرت بأنّني أستطيع التنفس على نحو أيسر. مسّدتُ الآثار الحمراء على معصمي، ووجدت في الألم الذي تُسبّبه لي لذّة غريبة.

«هذه هي جينا غراي أيّها العريف. في 12 نوفمبر 2012، صدمت سيارةٌ جاكوب في فيشبوندس، والسائق لم يتوقّف. وقد تمَّ تحديد السيارة بأنها من نوع فورد فييستا حمراء، رقم تسجيلها J634 OUP، في ملكيّة جينا غراي. وقد انتقلنا هذا اليوم إلى بلين سيدي، بيت ريفي قرب بينفاتش في بلاد الغال، حيث أوقفناها على الساعة السابعة وثلاث وثلاثين دقيقة مساء. وهي متّهمة بالسياقة المتهوّرة والتسبّب في مقتل طفل والفرار».

سُمع صفير خافت آتٍ من المقعد الموجود في أقصى الغرفة،

فالتفت النقيب ستيفنس لكي يرشق لي بنظرة قاسية، وسأل دون أن يتوجّه إلى مخاطب محدّد:

«ماذا يفعل هناك؟».

«ينتظر محاميه، سأتكفّل به». ودون أن يدير وجهه، صرخ العريف: «هل بإمكانك يا سيلي أن تأخذي روبيرت إلى الزنزانة رقم اثنين؟».

خرجت من المكتب الموجود خلف العريف حارسة قصيرة القامة وبدينة، تتدلّى من وسطها حزمة من المفاتيح. تمسح فمها المملوء بالفتات، وتمسك الشاب ثمّ تختفي به في أحشاء البناية. وبينما كانت تغادر الغرفة، رشقتني بنظرة مقرفة. لا شكّ أنّ الأمور ستسير على هذا النحو في السجن حين سيعلمون أنّني قتلت طفلاً. سيظهر الاشمئزاز أيضاً على وجوه بقية السجناء، وسيُشيح الناس عنّي حين يرونني. وعضضتُ فجأة على شفتي السفلى وأنا أدرك أنّ الأمر سيكون أسوأ من هنا. وأحسست بالخوف يعصر أحشائي، ولأوّل مرّة تساءلت عمّا إذا كنت سأستطيع التحمّل. ثمّ قلت في نفسي إنّني تحمّلت ما هو أدهى.

قال العريف وهو يمدّ لي كيساً بلاستيكياً شفافاً:

«الحزام».

«عفواً؟».

كان يتحدّث إليّ كما لو أنّني عارفة بالقواعد، لكنّني كنت في منتهى الارتباك.

«أزيلي حزامك، هل لديك مجوهرات؟».

بدا عليه نفاد الصبر وأنا أحاول نزع حزامي على نحو أخرق قبل أن أستلّه من عروات سروالي الجينز وأضعه في الكيس.

«كلا، لا أحمل مجوهرات».

«وهذا الذي في إصبعك، خاتم زواج؟».

هززت رأسي وأنا ألمس على نحو غريزي الأثر الذي بالكاد يظهر على بنصري. ومضت الشرطية إيفانس تفتّش حقيبتي. ليس فيها شيء من أغراضي الشخصية، لكنني شعرت مع ذلك وكأنّني أشهد سرقة بيتي. ورأيت خاتماً مطاطياً يتدحرج على المنضدة.

سألتني بلهجة محايدة:

«هل ستحتاجينه؟».

لم ينبس القائد ستيفنس ولا العريف، لكن لوني امتقع من الغضب.

«كلا».

وضَعَته في الكيس البلاستيكي قبل أن تفتح محفظة أوراقي وتفرغها. لمحت البطاقة الزرقاء الباهتة وسط الإيصالات والبطائق البنكية. وخيّم الصمت في الحُجرة حتّى أنني كنت قادرة على سماع دقات قلبي. وحين ألقيت نظرة على المفتشة إيفانس، تنبهت إلى أنّها توقفت عن الكتابة وراحت تحدّق فيّ. لم أشأ النظر إليها، لكنني لم أستطع غضّ بصري. **اتركيها، لا داعي لأخذها**. تناولتْ البطاقة ببطء وتفحّصتْها. توقّعت أن تسألني عنها، لكنها اكتفت بأن دوّنتها على الورقة، وحشرتها في الكيس مع بقية الأغراض، فتنفّست الصعداء.

حاولت التركيز على ما يقوله العريف، لكنّ سيلاً من القواعد والحقوق جرفني. كلا، لا أريد أن أخبر أحداً بوجودي هنا. ولا أريد محامياً. . .

قاطعني النقيب ستيفنس:

«أأنت متأكّدة؟ تعلمين أنّه بإمكانك الاستفادة من إرشادات أحد المحامين خلال إقامتك هنا».

فقلت:

«لست بحاجة إلى محامٍ. أنا من صدمت الطفل».

ساد الصمت، وتبادل الشرطيون الثلاثة النظرات. وقال العريف:

«امضي ها هنا، وهنا وهنا» تناولت القلم وخططت اسمي بجانب العلامات الكبيرة السوداء، والتفتّ نحو النقيب ستيفنس. «هل نمرّ مباشرة إلى الاستجواب؟».

القاعة خانقة، تفوح برائحة التبغ رغم اللافتة المعلّقة على الجدار التي تشير إلى منع التدخين. أشار لي النقيب ستيفنس بالمكان الذي أجلس فيه. حاولت أن أقرّب الكرسي من الطاولة، لكنّه كان مثبّتاً في الأرض. على الطاولة كتبَ أحدهم بقلم الحبر مجموعة من الشتائم. ضغط النقيب ستيفنس على زرّ في صندوق صغير على الجدار فسُمعت نقرة حادة. ثمّ تنحنح وقال:

«نحن اليوم في الثاني من يناير 2014 في قاعة الاستجواب رقم ثلاثة بمفوضية شرطة بريستول، الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً وخمس وأربعين دقيقة. أنا النقيب راي ستيفنس، رقمي 431، ترافقني المفتشة كايت إيفانس، رقمها 3908». ونظر إليّ، «هل يمكن أن تذكري اسمك الكامل وتاريخ ميلادك، من أجل تسجيلهما من فضلك؟».

بلعت ريقي وأنا أحرص على أن أنطق بوضوح:

«جينا أليس غراي، مولودة يوم 28 أغسطس 1976».

تركته يتحدّث عن خطورة الأفعال المنسوبة إليّ، وتداعيات جريمة الاصطدام والهروب على الأسرة، وعلى الساكنة بكاملها. لم يضف جديداً، ولا شيء ممّا قال يمكن أن يزيد من العبء الذي أحمله.

وجاء دوري أخيراً.

رحت أتحدّث بهدوء وعيناي مصوّبتان على الطاولة الموجودة بيننا، آملة ألا يقاطعني. أريد أن أقول ما لديّ دفعة واحدة.

«كان اليوم طويلاً. عرضت أعمالي الفنية في الطرف الآخر من بريستول، وكنت متعبة. كان الجوّ ماطراً، والرؤية غير واضحة».

حافظت على صوتي رصيناً هادئاً. أردت أن أشرح ما حصل دون أن أعطي الانطباع بأنّني أحاول أن أبرّر، وكيف لي أن أبرّر شيئاً كهذا؟ لطالما فكّرت فيما سأقول حين سأجد نفسي في هذا الموقف، لكنّني وأنا الآن هنا، بدت لي الكلمات خرقاء وزائفة. ثمّ استرسلت:

«ثمّ خرج من حيث لا أعلم. كان الطريق خالياً، وفي رمشة عين عبر جارياً. كان هذا الطفل الصغير يضع على رأسه قبعة صوفية زرقاء وقفازين حمراوين. كان الأوان قد فات لأتصرّف، لأفعل أيّ شيء».

أمسكت بحافة الطاولة بيدَي معاً لكي أثبّت نفسي في الحاضر بينما يهدّد الماضي بالانبعاث من جديد. أسمع صرير الفرامل، وأشمّ رائحة المطاط المحترق على الأسفلت المبلّل. لمّا ارتطم جاكوب بالزجاج الأمامي، ارتمى في رمشة عين بالقرب منّي، كان بإمكاني أن أمدَّ يدي وألمس وجهه من خلال الزجاج، لكنّه قُذف وهو يدور على نفسه قبل أن يسقط على أرضية الطريق. عندئذ فقط

رأيت أمّه وهي تنحني على جثته الهامدة، تجسّ نبضه. وحين اكتشفتْ أنّ قلبه توقّف، ندّت عنها صرخة منبعثة من أعماق أعماقها، ورأيت مرعوبةً، من خلال الزجاج الأمامي المضبّب، بركة دم تتجمّع تحت رأس الصبي، وتلطِّخ الطريق المبلّل ليستحيل لون الأسفلت أحمر تحت أشعة ضوء السيارة الساطعة.

«ولماذا لم تتوقّفي؟ لِمَ لمْ تترجّلي من السيارة؟ لِمَ لمْ تتّصلي بالنجدة؟».

أعادتني هذه الأسئلة إلى قاعة الاستجواب، وحدّقتُ في النقيب ستيفنس. كنت على وشك أن أنسى وجوده.

«لم أستطع».

25

هتفت كايت وهي تذرع المسافة القصيرة بين مكتبها والنافذة:

«كان بوسعها أن تتوقّف طبعاً! لا مبالاتها تصيبني بالقشعريرة».

خاطبها راي وهو ينهي قهوته، ويكبح التثاؤب:

«هلا جلست! إنّك تزيدينني إرهاقاً».

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل حين فرغ راي وكايت بشقّ الأنفس من استجواب جينا، وسمحا لها بالنوم قليلاً.

جلست كايت وقالت:

«ما الذي جعلها في رأيك تعترف بكلّ شيء بعد سنة من الصمت؟».

ردّ راي وهو يترك نفسه يهوي على المقعد ويضع رجلَيه على مكتب ستامبي:

«هناك شيء ما مريب في كلّ هذا».

«ما هو؟».

هزّ راي رأسه:

«مجرّد انطباع. أنا متعب بكلّ تأكيد. انفتح باب الحُجرة، ودخل ستامبي. عدتَ متأخّراً. كيف وجدت لندن؟».

«مرهِقة. لا أعرف ما يشدّ الناس إلى هذه المدينة».

«أنَجَحت في إقناع أمّ جاكوب بالانضمام إلينا؟».

«هي غير مستعدّة للأضواء والبهرجة، لكنّها وافقت على أن تساندنا. بعد وفاة ابنها، تعرّضت لكثير من الانتقادات. كانت تعاني من صعوبة في الاندماج باعتبارها أجنبية، ولم تعمل الحادثة إلا أن صبّت مزيداً من الزيت على النار».

سألت كايت:

«متى رحلت؟».

«مباشرة بعد الدفن. توجد جالية بولندية كبيرة في لندن، لذلك انتقلت آنيا للاستقرار في منزل مشترك. بتعميق البحث، اعتقدت بأنّها لا تملك رخصة للعمل، وهو ما عَسَّرَ مهمّة العثور عليها».

«قبلتْ التحدّث إليك بسهولة؟».

تمطّى راي وهو يفرقع أصابعه، فجفلت كايت. وقال ستامبي:

«نعم. الواقع أنّها بدت مرتاحة للحديث عن جاكوب. لم تخبر الأهل في البلد. قالت إنّها تشعر بالخزي».

فهتف راي:

«الخزي؟! ولماذا ستشعر بالخزي؟».

«إنّها قصة طويلة. وصلت آنيا إلى المملكة المتحدة وهي في الثامنة عشرة من عمرها. تحدّثت بتحفّظ عن كيفية وصولها إلى هنا. نجحت في العثور على عمل بطريقة غير قانونية كمنظّفة في مكاتب المنطقة الصناعية بغليتورن. وقع تقارب بينها وبين شخص يشتغل هناك، فحملت منه».

سألت كايت:

«لم تعد تعيش مع الأب؟».

«تماماً. الظاهر أنّ والدَي آنيا أُصيبا بالذعر حين علما أنّها

ولدت خارج الزواج، وطلبا منها العودة إلى بولندا لتكون تحت مراقبتهما، لكنّها رفضت. أرادت أن تثبت لهما أنّها قادرة على تدبُّر أمرها بنفسها».

فقال راي وهو يهزّ رأسه:

«وهي الآن نادمة. مسكينة. كم تبلغ من العمر؟».

«ستّ وعشرين سنة. لمّا تعرّض جاكوب للحادثة، شعرت كما لو أنّ موته عقاب حلّ بها بسبب عصيانها لأمرهما».

كانت كايت جالسة بهدوء وقد ألصقت ركبتيها بصدرها، وعلّقت:

«يا لها من حياة حزينة! لكن لماذا تلوم نفسها، ليست هي من كانت تسوق تلك السيارة اللعينة!».

«هذا ما قلته لها، لكنّ الشعور بالذنب ينهشها. باختصار، أخبرتها أنّنا ألقينا القبض على مشتبه بها، ونأمل أن نثبت التهمة الموجَّهة إليها، قلت ذلك طبعاً وأنا أفترض أنكما أنجزتما مهمّتكما».

ونظر إلى كايت بطرف عينه، فردّت:

«دعني عنك! مزاجي لا يحتمل المزاح في هذا الوقت. غراي اعترفت بكلّ شيء، إلا أنّ الوقت تأخّر، فتركناها تنام إلى الصباح».

فقال ستامبي:

«أظنّني سأفعل مثلها إذا سمح الرئيس؟».

وراح يفكّ ربطة عنقه.

«لا مانع. هذا ما سأفعل أنا أيضاً. هيّا يا كايت، هذا يكفي بالنسبة إلى هذا اليوم. سنحاول أن نجعلها تعترف بالمكان الذي أخفت فيه السيارة غداً صباحاً».

نزلوا إلى الساحة. حين تجاوز ستامبي البوابة الحديدية بسيارته، أومأ بيده، تاركاً راي وكايت بمفردهما في الظلمة.

لاحظت كايت:

«يا له من يوم طويل!».

ورغم التعب، ما عادت ترغب فجأة في العودة إلى بيتها.

«نعم».

كانا متقاربَين حتى أنّه تمكّن من شمّ عطرها، وشعر بدقات قلبه تتسارع. إن هو قبّلها الآن، لن يكون بإمكانه أن يتراجع.

قالت كايت دون أن تتحرّك:

«حسناً، طابت ليلتك».

تراجع راي خطوة إلى الخلف، وأخرج مفاتيح سيارته من جيبه.

«طابت ليلتك يا كايت. نامي جيّداً».

تنفّس الصعداء وهو يغادر موقف السيارات. فقد كاد يستسلم لشهوته.

كانت الساعة تجاوز الثانية صباحاً لمّا ارتمى في فراشه، وتهيّأ له أنه لم ينم سوى بضع ثوانٍ لمّا أيقظه المنبّه، وذكّره بالعمل. لم ينم جيّداً، إذ لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في كايت، وقاوم لكي يطردها من ذهنه خلال اجتماع الصباح.

وعند وقت الإفطار في العاشرة صادفها في المقصف، وتساءل ما إذا كانت قد أمضت الليلة تفكّر فيه، وأنّب نفسه على الفور. لقد صار الأمر سخيفاً، وسيكون حريّاً به أن يشطب على كلّ هذا في أقرب وقت.

وبينما كان ينتظر في الطابور لكي يتذوق «الجلطة»، وهو طبق من الأطباق التي تخصّصت فيها موارا، يسمونه هكذا لقدرته على سدّ الشرايين، قال:

«لم يعد سنّي المتقدّم يسمح لي أن أتأخر في النوم مثل الأمس».

كان يأمل أن تعترض عليه، لكنّه سرعان ما شعر بنفسه سخيفاً.

«أنا مسرورة لأنّني لم أعد أعمل وفق نظام الدوام على مدى أربع وعشرين ساعة. هل تذكر الإنهاك الذي ينتابك في الثالثة صباحاً؟».

«وكيف؟ أقاوم لكي أظلّ صاحياً أنتظر بيأس مطاردةً ترفع نسبة الأدرينالين في دمي. ما عدت قادراً على فعل هذا».

حملا صحنيهما المليئين بلحم الخنزير المقدّد والمقانق والبيض والسجق الأسود والخبز المقلي إلى مائدة شاغرة حيث راحت كايت تتصفّح أحد أعداد **بريستول بوست** وهي تأكل.

قالت ساخرة:

«أحداث مثيرة كالعادة: الانتخابات البلدية، احتفالات المدارس، الساكنة التي تشتكي من براز الكلاب».

طوت الجريدة وألقت بها جانباً، فبدا جاكوب في صورة الغلاف كما لو أنّه يحدّق فيهما.

سألها راي:

«هل نجحت في الظفر بشيء آخر من غراي؟».

«أعادت ما قالت بالأمس. كلامها متناسق على الأقل. لكنّها رفضت الجواب حين سألتها عن المكان الذي أخفت فيه السيارة، ولِمَ لَمْ تتوقّف».

فعلّق راي:

«من حسن حظّنا أنّ عملنا يتمثل في اكتشاف ما وقع، لا في البحث عن سبب وقوعه. لدينا ما يكفي من الأدلّة لكي ندينها. ابعثي بالملف إلى وكيل النيابة، وانظري ما إذا كان بإمكانه اتّخاذ قرارٍ خلال هذا اليوم».

وبدت كايت ساهمة.

«ماذا؟».

«عندما قلتَ بالأمس إنّ ثمّة شيئاً مريباً في هذه القضية...».

صمتتْ ولم تنهِ جملتها، فقال راي ملحّاً:

«نعم».

«عندي الإحساس نفسه».

ارتشفت من فنجان الشاي، ووضعته على المائدة بحذر، ثمّ مضت تحدّق فيه كما لو أنّها تأمل أن تعثر فيه على الحلّ.

«أتظنّ أنها اختلقت كلّ هذه الحكاية؟».

يحدث هذا أحياناً، لا سيما في القضايا التي تداولتها وسائل الإعلام كثيراً مثل هذه. قد يعترف أحدهم بارتكاب جريمة، وفي خضمّ التحقيق يتبيّن أنّه لا يمكن أن يكون هو الفاعل. يُغفِل واقعة جوهرية، من قبيل شيء أُخفي عن قصد عن الصحافة، فتنكشف كذبته.

«لا يمكن القول إنّها اختلقت كلّ شيء. مهما يكن، فالسيارة سيارتها، وتصريحاتها تتطابق مع شهادة آنيا جوردان. كلّ ما في الأمر...» واستوت على الكرسي وهي تنظر إلى راي. «هل تذكر كيف وصفت الحادثة خلال استجوابها؟».

أومأ لها راي بأن تواصل.

«قدّمت كثيراً من التفاصيل حول جاكوب: ملابسه، حقيبته. . . ».

«لعلّها تتمتّع بذاكرة جيّدة. ثمّ إنّ أمراً كهذا لا يُنسى فيما أظنّ».

قال هذا وهو يخمّن ما يمكن أن يعترض به رؤساؤه، لكن ما زال يساوره في قرارة نفسه الشعور ذاته الذي ساوره في الليلة السابقة: ثمّة شيء تخفيه جينا. وأضاف:

«تبعاً لأقوال أمّ جاكوب، السيارة لم تخفّف من سرعتها. وغراي قالت إنّه ''خرج من حيث لا تعلم''»، راسماً بيديه مزدوجَين في الهواء. «إذاً إذا كان كلّ شيء وقع بسرعة فائقة، فكيف تمكّنت من أن تلتقط كلّ تلك الأشياء؟ وإذا كانت الحادثة لم تقع بتلك السرعة، ووجدت الوقت لتلاحظه، وتنتبِه إلى لباسه، فكيف يُعقل أنّها صدمته مع ذلك؟».

مضى راي ينظر إلى كايت وهي صامتة. كانت عيناها متألّقتان رغم قلّة النوم، وتعرّف فيهما إلى نظرتها المصمّمة.

«ماذا تقترح؟».

«أن نتمهّل قبل أن ندينها».

حرّكت رأسها ببطء. إنّ إطلاق سراح مشتبه به بعد اعترافه سيجعل المحافِظة تستشيط غضباً.

«لا بدَّ من العثور على السيارة».

ردّ راي:

«لن يغيّر ذلك شيئاً. في أحسن الأحوال سنبحث عن حمض جاكوب النووي على غطاء المحرك وبصمات غراي على المقود. لن يأتينا ذلك بجديد. في نظري، ينبغي البحث عن هاتفها المحمول.

قالت إنّها تخلّصت منه قبل أن تغادر بريستول لأنها لم تكن تريد أن يتّصل بها أحد. وماذا لو أنها تخلّصت منه لتخفي دليلاً؟ أريد أن أعرف بمن اتّصلت بعد الحادثة مباشرة».

فقالت كايت وهي تحدجه بنظرة مستفهمة:

«نُطلق سراحها إذاً مع إلزامها بالعودة إلى المخفر بعد أسابيع».

بدا عليه التردّد، ذلك أنّ إدانة جينا ستكون هي الحلّ الأسهل الذي سيُستقبَل بالتصفيق في الاجتماع الصباحي، وبتهاني المحافِظة. لكن هل يُعقل أن يدينها وهو يعلم أنّ ثمّة أشياء لا تزال غامضة؟ فالدلائل ترجّح إحدى كفّتَي الميزان، بينما يرجّح حدسُه الكفّة الأخرى.

وتذكّر أنابيل سناودن التي كانت لا تزال حيّة في شقة أبيها، بينما كان الأب يتوسّل إلى الشرطة لكي تعثر على مختطفها. لم يخطئ حدسه في ذلك الوقت، لكنّه لم يتبعه.

إن هو أطلق سراحها لبضعة أسابيع، ستّتضح الرؤية أكثر، وسيحرص على ألا يهمل أيّ تفصيل قبل تقديمها إلى القضاء.

وأومأ إلى كايت بأن تطلق سراحها.

26

انتظرتُ مرور أسبوع تقريباً على أوّل موعد قبل أن أتّصل بك، ولمست التردّد في صوتك حين أجبتِ. كنتِ تتساءلين عمّا إذا أسأتُ فهم العلامات، أليس كذلك؟ وما إذا كنتِ قلتِ شيئاً ما كان ينبغي أن تقوليه، أو أنّك لم ترتدي الفستان المناسب. . .

سألتُك:

«أليست لديك التزامات هذا المساء؟ هل يمكن أن نخرج معاً؟».

وبينما كنت أتحدّث إليك، اكتشفتُ مدى لهفتي لرؤيتك. فقد كان تحمُّل أسبوع من الانتظار شاقّاً على نحو غريب.

«وددتُ لو أستطيع، لكن لديّ بعض الالتزامات».

كان صوتك يشي بالأسف، لكنني خبرتُ هذا التكتيك منذ مدّة طويلة. الألعاب الصغيرة التي تلجأ إليها النساء في بداية كلّ علاقة، ألعاب يسهل كشفها في الغالب. لا شكّ في أنّك شرّحتِ لقاءنا تشريحاً مع زميلاتك، فلم يبخلنَ عليك بالنصائح.

لا تتسرّعي في إظهار إعجابك به.

لا تستسلمي له بسهولة.

حين يتصل بك، قولي له إنّك مشغولة.

فأجبتك كما لو أنّ شيئاً لم يحصل:

«للأسف، حصلت على بطاقتين لحفلة فرقة بولب الموسيقية هذا المساء، وقلت في نفسي لعلّك ترغبين في حضورها».

تردّدتِ، فخُيِّل إليّ أنّني أقنعتك، لكنّك صمدت.

«آسفة، لا أستطيع. وعدْتُ سارة بالخروج إلى آيس بار. تخلّى عنها عشيقها مؤخّراً، ولا أستطيع أن أتخلّى عنها أنا أيضاً».

كان عذرك مقنِعاً، وتساءلت عمّا إذا كنت هيّأت هذه الكذبة مسبقاً. وتركت الصمت يخيّم. فقلتِ:

«سأكون متحرّرة غداً مساء؟».

حوّر تنغيمُك هذه الجملة من الخبر إلى الاستفهام.

«آسف، أنا مشغول غداً. لنترك هذا إلى مرّة قادمة. أتمنّى لك سهرة ممتعة!».

وضعت السماعة، ومكثت لحظة جالساً بجانب الهاتف. وشعرت بعِرْقٍ ينبض عند صدغي، فحككته بعصبية. لم أتوقّع منك أن تلعبي معي هذه اللعبة، وساورتني الخيبة من أنّك اضطُرِرتِ إليها.

لم أنجح في تهدئة نفسي طوال اليوم. رتّبت البيت، وجمعت كلّ أغراض ماري التي كانت متناثرة في كل مكان وكوّمتها في الغرفة. كانت أكثر ممّا توقعت، لكنّني لا أستطيع أن أعيدها لها الآن. ووضعتها في حقيبة لكي أتخلّص منها في القمامة.

وفي السابعة شربت زجاجة جعة، ثمّ أخرى. جلست على الأريكة واضعاً قدمي على المائدة الواطئة، ورحت ألعب لعبة تلفزية بليدة وأنا أفكر فيك. كدت أتّصل بالحي الجامعي لأترك لك رسالة،

والتظاهر بأنني فوجئت بالعثور عليك هناك، لكن بعد زجاجتي الثالثة، غيّرت رأيي.

ركبت السيارة إلى آيس بار. ومكثت في مقعدي أنظر إلى الروّاد الوافدين. كانت البنات يرتدين التنانير القصيرة، لكنّ ذلك لم يثر فيّ سوى الفضول. ورحتُ أفكّر فيك. شدهتني الطريقة التي كنتِ تستحوذين بها على فكري حينئذ، كما راعني ما أوليت من أهمية فجأة للتأكد ممّا إذا كنت تكذبين عليّ. ذهبت إلى هناك لكي أضبطك متلبّسة بالكذب: دخلت إلى الحانة المزدحمة، واكتشفت أنّك غير موجودة. وتخيلتك في غرفتك جالسة على سريرك ممسكة بقنينة نبيذ رخيص تتفرّجين على أحد أفلام ميغ رايان. لكنني تنبّهت إلى أنّ هذا لم يكن هو مرادي. ما كنت أريده هو أن أراك مارّة أمامي، مستعدّة لقضاء سهرة مع صديقاتك من أجل تسلية عزيزتك المتخلّى عنها. كنت أريد أن أُثبت أنّني مخطئ. وقد كان هذا الشعور جديداً عليّ إلى حدّ أنّه أثار ضحكي.

ترجّلت من السيارة ودخلت إلى الحانة. اشتريت زجاجات بيرة، ومضيت أشقّ طريقي في الزحمة. دفعني أحدهم فانسكب السائل على حذائي، لكنّ بالي كان مشغولاً بالبحث عنك، فلم أطلب منه الاعتذار.

ثمّ رأيتك. كنتِ في أقصى المشرب تلوّحين بورقة من فئة عشرة جنيهات بقرب أنف النادل المحاصر بحشد من الزبائن. وحين رأيتني، بدوتِ في أوّل الأمر مذهولة، كما لو أنّك لم تتعرّفي إليّ، ثمّ لاحت على وجهك ابتسامة أقلّ تحفّظاً من المرّة الأخيرة.

وسألتني أخيراً حين اقتربتُ منك:

«ماذا تفعل هنا؟ اعتقدت أنّك ذهبت إلى حفلة فرقة بولب».

كنتِ متوثبة. فالنساء يدّعين أنّهنّ مولعات بالمفاجآت، لكنهنّ يفضّلن في الواقع أن يُخطرن بها حتّى يتهيّأن لها.

«سلّمتُ البطاقتين إلى أحد الزملاء في العمل. لم أشأ أن أذهب بمفردي».

بدا عليكِ الضيق من أن تكوني سبباً في تغيير برنامجي.

«ولكن كيف أتيت إلى هنا؟ أسبق لك أن جئت؟».

فقلت وأنا أرفع في الهواء زجاجتَي البيرة اللتين اهتديت لحسن الحظ إلى شرائهما عند دخولي:

«التقيت بأحد الأصدقاء، تركته وذهبت لشراء الزجاجتين من البار، فلمّا عدت لم أعثر عليه في هذه الزحمة. لا بدَّ أنّه التقى بامرأة خلبت لبّه!».

ضحكتُ وناولتكِ إحدى الزجاجتَين.

«من غير المعقول أن أرميها في القمامة، أليس كذلك؟».

«ينبغي أن أعود، ما أتيت إلا لأقدّم الطلبيّة، هذا إذا حالفني الحظ واستجابوا لطلبيتي ذات يوم. سارة جالسة إلى المائدة هناك».

ونظرت إلى إحدى زوايا القاعة حيث تجلس إلى مائدة صغيرة فتاة فارعة الطول، مصبوغة الشعر، مستغرقةً في الحديث مع شخص في حوالي العشرين من عمره. وفي اللحظة التي كنّا ننظر إليهما، انحنى عليها وقبّلها.

وسألت:

«من يكون؟».

فكّرتِ قبل أن تحرّكي رأسك ببطء:

«لا علم لي».

فعلّقت:

«الظاهر أنّها تجد مشقّة في التغلّب على ألم الفراق».

وضحكتِ.

«حسناً. . .».

ناولتُك الزجاجة من جديد فابتسمت وأمسكتِ بها، وقرعنا الزجاجتَين قبل أن تشربي جرعة كبيرة، ثمّ لحستِ شفتك السفلى وأنت تبعدينها عن فمك. كانت حركتُك شهوانية مقصودة، فأثارت غريزتي. ومضيتِ تحدّقين بتحدٍّ ثمّ شربت جرعة كبيرة أخرى.

وقلتُ فجأة:

«لنذهب إلى البيت».

كانت سارة قد اختفت. لا شكّ أنّها رافقت عشيقها الجديد. وتساءلتُ عمّا إذا كان وقوعه على فتاة سهلة إلى هذا الحدّ لا يضايقه.

تردّدتِ لحظة، ودون أن تحوّلي عنّي عينَيك، هززتِ كتفيك، وحشرتِ يدك في يدي. كانت الحانة بالغة الازدحام، فشققتُ طريقي وأنا أمسك بيدكِ لكي لا أفقدك. وبمقدار ما زادني استعدادك لمرافقتي إثارة، فإنه شدهني: ولم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل عن عدد المرّات التي استجبت فيها لمثل هذه الدعوة، ومع من.

بعد الحرارة الخانقة في آيس بار، شعرتِ بالرعشة في هواء الشارع البارد.

«ألم تجلبي معطفاً؟».

هززت رأسك نافية، فنزعت سترتي لأضعها على كتفيك بينما كنّا نتجه إلى السيارة. ابتسمت لي شاكرة، فشعرتُ بالدفء.

«هل أنت قادر على القيادة؟».

فأجبت باقتضاب:

«طبعاً».

انطلقت السيارة، وخيّم الصمت لحظة. انحسرت تنورتك لمّا جلست، فوضعتُ يدي اليسرى فوق ركبتك، لكنّك حرّكت ساقك قليلاً بحيث أُبعِد يدي.

«أنت رائعة هذا المساء».

«صحيح؟ شكراً».

سحبت يدي لأبدّل السرعة، ولمّا وضعتها من جديد على ساقك، دفعتُها سنتيمتراً واحداً إلى الأعلى بينما راحت أصابعي تداعب بشرتك بلطف. وهذه المرّة لم تتحرّكي.

في البيت طُفتِ على الصالون ومضيتِ تلمسين كلّ ما فيه. كان الأمر مزعجاً، فحضّرت القهوة بأسرع ما يمكن. كان هذا الطقس عبثيّاً: فلا أحد منّا كان يرغب في شرب شيء، رغم أنّك قلت العكس. وضعتُ الفنجانَين على الصينية الزجاجية، فجلستِ بجواري على الأريكة وأنتِ مستديرة نحوي تقريباً. أعدت جدائل شعركِ خلف أذنيك، تاركاً يدي لحظة حول وجهك قبل أن أنحني إلى الأمام لأقبّلك، فاستجبت على الفور. ما أجمل أن يجد المرء نفسه مع أنثى بهذا الحماس والاستجابة. فقد كانت ماري فاترة بحيث كان يتهيأ لي أحياناً أنّها شاردة، كما لو أنّ جسدها يتحرك على نحو آلي بينما ذهنها في مكان آخر.

توقّفت فجأة عن تقبيلي ورحتِ تتلوّين على الأريكة لتتخلّصي من يدي.

وهمستِ:

«لا تتسرّع».

لكن ابتسامتك كانت تدلّ على أنك لا تقصدين ما تقولين.

«لا أستطيع، فأنت فائقة الجمال. هذا يتجاوزني».

«لا أ...».

فوشوشتُ وأنا أقبّلك:

«اصمتي، لا تفسدي هذه اللحظة. أنت رائعة يا جينيفر. إنّك مثيرة للغاية».

قبّلتِني بلهفة وتوقفتِ عن الادعاء. لم تكُن شهوتك تقلّ عن شهوتي.

27

يقضي القطار ساعتين ليربط بين بريستول وسوبنسي. ورغم أنّني كنت متلهّفة لرؤية البحر، ابتهجت لكوني بمفردي، ولتوفّري على الوقت الكافي لكي أفكّر. لم أنم طوال مدّة احتجازي. كانت الأفكار تتزاحم في ذهني بينما أنتظر طلوع النهار. كنت أخشى عودة الكوابيس إن أنا أغمضت عينَي. مكثت إذاً سهرانة وأنا جالسة على السرير البلاستيكي الضيّق أنصت إلى الضجيج والأصوات الآتية من الممر. وهذا الصباح اقترحتْ عليّ الحارسة أن أستحم مشيرةً إلى مخدع صغير من الأسمنت في إحدى زوايا الجناح المخصّص للنساء. كانت البلاطة مبلّلة، وكومة شعر تكسو ثقب المجرى كنسيج عنكبوت مستعدّة للانقضاض. رفضت الاقتراح، وملابسي لا تزال تفوح بعطونة المكان.

استجوبتني المفتّشة والمفتش الذي يكبرها سنّاً لثاني مرّة. رفضت أن أقدّم لهما مزيداً من التفاصيل، فضايقهما صمتي.

وكرّرتُ قولي:

«أنا من قتلتُه، ألا يكفيكما هذا؟».

وانتهى بهما المطاف أن استسلما وتركاني أنتظر على المقعد

الحديدي الموجود في المدخل بينما راحا يتداولان مع العريف بصوت خافت.

وقال النقيب ستيفنس أخيراً:

«سنُخلي سبيلك، لكن يتعيّن عليك أن تظلّي رهن إشارة الشرطة».

مضيت أنظر إليه مذهولة إلى أن شرح لي سبب ذلك. لم أكن أنتظر أن يُخلى سبيلي، وشعرت بالذنب لما أحسست به من انشراح وأنا أسمع أنّني سأستفيد من أسابيع أخرى من الحرية.

المرأتان الجالستان في الطرف الآخر من الممر نزلتا من القطار في كارديف وهما مثقلتان بأكياس التسوّق بحيث كادتا تنسيان معطفيهما، وتركتا خلفهما العدد الأخير من **بريستول بوست**، فمددت يدي والتقطته بلهفة.

يظهر في الصفحة الأولى عنوان بارز: **اعتقال السائقة المستهترة**. وانقطعت أنفاسي بينما كنت أجول بعينَي في المقالة بحثاً عن اسمي، وتنفّست الصعداء حين لاحظت أنّهم لم يذكروه.

اعتُقلت امرأة في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر في إطار التحقيق حول مقتل جاكوب جوردان، طفل في الخامسة قُتل في شهر نوفمبر من سنة 2012 بسبب حادثة في فيشبوندس. وقد أُطلق سراحها مع إلزامها بالعودة إلى مفوّضية شرطة بريستول في الشهر القادم.

تخيّلت هذه النسخة من الجريدة في كافة بيوت بريستول، والآباء يحرّكون رؤوسهم وهم يضمّون أطفالهم إلى صدورهم. أعدت قراءة المقالة لكي أتثبّت من أنّني لم أغفل منها شيئاً يمكن أن

يكشف عن مكان إقامتي، ثمّ طويت الجريدة بعناية حريصة على إخفاء صفحتها الأولى.

عثرت في محطة قطار سوينسي على برميل قمامة، فحشرت الجريدة تحت علب كولا وأوراق تلفيف الأكلات السريعة. وفركت يدَي عبثاً لعلّي أزيل الحبر الذي علق بهما.

تأخّر القطار المتوجّه إلى بينفاتش. ولم يصل أخيراً إلى القرية إلا عندما بدأ الليل يخيّم. كان المتجرُ الذي يُستعمل أيضاً كمكتب بريد ما زال مفتوحاً، فتناولت سلّة لكي أشتري بعض الأغراض. يحتوي هذا المتجر على منضدتَين متقابلتَين، تتولّى العمل فيهما معاً نيريز مادوك، تساعدها ابنتها البالغة من العمر السادسة عشرة بعد أن تعود من المدرسة. لذلك كان شراء أظرفة في منضدة البريد يستغرق من الوقت ما يستغرقه شراء علبة تونة وكيس تفاح في البقالة، إذ يلزم انتظار أن تغلق نيريز الصندوق وتعبر المتجر بخطى وئيدة. وهذا اليوم، ابنتها هي من توجد خلف منضدة البقالة. ملأت سلّتي بالبيض والحليب والفواكه، وتناولت كيساً من طعام الكلاب، ووضعت كلّ ذلك على المنضدة. ابتسمتُ للبنت التي طالما عاملتني بلطف، لكنّها رفعت عينيها عن المجلة دون أن تنبس. نظرت إليّ لحظة، ثم استأنفت القراءة. فقلت لها:

«مساء الخير!».

رنّ الناقوس الصغير المعلّق فوق الباب حين دخلت إلى المتجر امرأة مسنّة أعرفها. قامت البنت ونادت على أمها إلى الحُجرة المجاورة، وقالت شيئاً باللغة الويلزية، فلحقت بها نيريز بعد ثوانٍ خلف المنضدة.

فقلتُ لها:

«مساء الخير يا نيريز، سآخذ هذه الأشياء من فضلك».

بدا وجهها في وجوم وجه ابنتها نفسه، وتساءلتُ عمّا إذا كان قد وقع بينهما شنآن. تجاهلتني وخاطبت المرأة التي خلفي.

"Alla i eich helpu chi?".

وراحتا تتجاذبان أطراف الحديث. لم أكن أفهم اللغة الويلزية، لكنّ نظراتهما إليّ، وكذا الاشمئزاز الظاهر على وجه نيريز، لم يدَعا لي أيّ شكّ في أنّهما يتحدّثان عنّي.

مدّت المرأة يدها وهي تتجنّبني لدفع ثمن جريدتها، فتناولتْ منها نيريز المبلغ، ثمّ أخذت السلّة التي وضعت فيها أغراضي، ووضعتها عند قدميها خلف المنضدة، وأشاحت عنّي.

شعرت بوجنتَي تلتهبان، وأعدت حافظة نقودي إلى حقيبتي وعدت أدراجي مسرعة إلى مغادرة المتجر حتّى أنّني اصطدمت بإحدى اللوحات الإشهارية، وأسقطتُ أرضاً أكياس مرق. وقبل أن أفتح الباب، سمعت نيريز تصرخ من خلفي مستهجنة ما فعلت. عبرْتُ القرية بسرعة وأنا لا أنظر إلا أمامي مخافة أن يواجهني أحد بمثل ما ووجِهت به، وحين وصلت إلى المخيم، أجهشت بالبكاء. كان ستار المتجر مرفوعاً ممّا يدل على أن بيثان موجودة، لكنني تردّدت في زيارتها. تابعت سيري إلى أن بلغت البيت الريفي، عندئذ فقط تنبّهت إلى أنّ سيارة باتريك لم تكن موجودة في موقف السيارات بالمخيّم. لا أعرف لماذا كنت أتوقّع أن تكون هناك. فأنا لم أتّصل به من مفوضية الشرطة، ومن ثمّة لا يستطيع أن يعرف بأنني عدت، لكنّ غيابه تركني مشوّشة البال. وتساءلت عمّا إذا كان مكث قليلاً في البيت أم أنه غادر بمجرّد ما أخذني الشرطيان. لعلّه لم يعد

يرغب في أن تكون له علاقة بي، وواسيت نفسي بأن قلت مهما يكن فهو لم يتخلَّ عن بو.

كنت قد أخرجت المفتاح حين تنبّهت إلى أنّ اللون الأحمر على الباب لم يُخيَّل إليّ بسبب أشعة الشمس الغاربة، بل هو آثار طلاء دُهِن بواسطة حزمة عشب رأيتها مرمية عند قدمي. ولاحظتُ قطرات من الطلاء متطايرة على عتبة الباب الحجرية أثناء كتابة الكلمات على عجل:

«اغرُبي! ارحلي!».

نظرت حولي وقد ساورني شعور بأنّ أحداً يراقبني، لكنّ الظلام كان قد بدأ يخيّم بحيث لم أعد أرى أبعد من بضعة أمتار. أحسست بالقشعريرة، ورحت أصارع القفل من أجل فتح الباب، لكنني سرعان ما فقدت أعصابي، ووجّهت له ركلة، فانفصلت قشرة من الطلاء. واصلت الضرب في نوبة غضب عبثيّة آملة أن تُنفّس عمّا انتابني من إحباط. عدا أنّ ذلك لم ينل من القفل شيئاً. وانتهى بي المطاف أن توقّفت، وأسندت رأسي إلى الباب الخشبي لعلّني أهدأ قبل أن أجرّب المفتاح مرّة ثانية.

بدا البيت الريفي بارداً وقاسياً، كما لو أنّه ينضمّ إلى سكان القرية في مطالبتي بالرحيل. لم أكن بحاجة إلى النداء على بو لكي أتأكّد من عدم وجوده. وبينما كنت ذاهبة للتثبت من أنّ موقد الغاز غير مشتعل، رأيت كلمة موضوعة على المائدة.

بو في مأوى الكلاب، ابعثي لي رسالة بمجرّد ما تعودين.

ب.

كان ذلك كافياً لأفهم أنّ كلّ شيء قد انتهى. اغرورقت عيناي

بالدموع، وأغمضتهما بشدّة لأمنع تلك الدموع من أن تسيل على خدّي. وقلت في نفسي أنا من اخترت هذا الطريق، وعليّ الآن أن أتحمّل التّبعات.

وبالاقتضاب نفسه، كتبت له رسالة نصية من سطر واحد، فأجاب بأنّه سيأتيني ببو بعد الانتهاء من العمل. كنت أنتظر أن يبعث أحداً بدلاً منه، وبمقدار ما كنت متلهّفة لرؤيته، ساورني القلق.

كانت لا تزال أمامي ساعتان قبل أن يصل. الظلام دامس في الخارج، لكنّني لا أرغب في البقاء هناك. ارتديت معطفي وخرجت.

إنّه لأمر غريب أن يجد المرء نفسه في الشاطئ ليلاً. لا أحد يراقب من أعلى المنحدرات الصخرية. واقتربت من البحر لأسير على حافة الماء، وراح حذائي يختفي لبضع ثوان كلّما صعدت موجة. تقدّمت خطوة، فلامس الماء حاشية سروالي، وشعرت بالرطوبة تصعد ببطء على طول ساقي.

ثمّ تقدّمت.

قعر البحر في بينفاتش ينحدر ببطء على مدى مئة متر تقريباً من الشاطئ، ثم يهوي فجأة. حدّقت في الأفق، ومضيت أتقدّم خطوة تلو أخرى، شاعرة بحذائي يغوص في الرمل. يُجاوز الماء ركبتَي ويتطاير على يدَي، وتراءت لي تلك اللحظات التي قضيتها في اللعب على الشاطئ مع إيف، لمّا كنا نقفز على الأمواج التي يعلوها الزبد بسطولنا المليئة بالطحالب. الماء بارد، حين بلغ إلى فخذي، شعرت بأنفاسي تنقطع، لكنّني واصلت التقدّم. لم أعد أفكّر في شيء، أتقدم وأتقدّم نحو البحر. أسمع دمدمة، فلا أعرف أهي تحذير أم نداء. أجد صعوبة أكبر في التقدم الآن: الأمواج تصل إلى صدري، وعليّ

أن أقاوم ضغط الماء، وفجأة سقطتُ. هوت رجلي في الفراغ وانزلَقَت. أحاول أن أجبر نفسي على عدم العوم، لكنّ يداي راحتا تتحرّكان من دون إرادتي. فكّرت فجأة في باتريك وهو يبحث عن جثتي، فلا يعثر عليها إلا بعد أن يلفظها البحر وقد مزّقتها الصخور، وقضمتها الأسماك.

وكما لو تلقيت لطمة قويّة، حرّكت رأسي واستنشقت نفساً عميقاً. لا يمكن أن أفعل هذا. لا يمكن أن أقضي حياتي في الهرب من أخطائي. وفي غمرة الهلع الذي ركبني، اختفى الشاطئ من مجال بصري، درت على نفسي ولاحت لي الغيوم تتحرّك. أنار ضوء القمر المنحدرات الصخرية من جديد. وشرعت في العوم، ذلك أنّ التيار جرفني إلى داخل البحر بمجرّد ما لم تعد قدماي تلمسان القعر. ورغم أنّني مددت قدمي إلى الأسفل لعلّني أجد شيئاً أعتمد عليه، لم أعثر على شيء غير الماء البارد. ضربتني موجة، فنفذ الماء إلى حلقي ورحتُ أسعل. كدت أتقيّأ بينما حاولت التنفس. كانت ملابسي المبلّلة تثقلني في الماء، ولم أستطع التخلّص من حذائي الذي يسحبني إلى الأسفل.

شعرت بضيق في صدري وألم في ذراعي، غير أنّ فكري ما زال صافياً، فتنفّستُ بعمق قبل أن أغطس تحت الماء وأشقّ الأمواج. وحين رفعت رأسي لكي أتنفّس من جديد، شعرت كما لو أنّني دنوتُ من الشاطئ، فأعدت الكرّة مرات ومرات، ثمّ مددت قدمي من جديد نحوَ القعر، فأحسست بأطرافهما تلمسان شيئاً، فتشجّعت على الاستمرار إلى أن وضعت قدمي على الأرض. حينئذ شرعت أجري تارة وأسبح أخرى وأزحف ثالثة لكي أخرج من البحر. كنت أشعر بالماء المالح في رئتَي وأذنَي وعينَي. وحين بلغت الرمل الجاف،

اعتمدت على ركبتَي ويدَي لكي ألتقط أنفاسي قبل أن أنهض. كنت أرتجف من البرد وممّا كنت على وشك أن أفعله.

عدت إلى البيت، فنزعت ملابسي، وتركتها على الأرض في المطبخ ثم لبست أخرى جافة ودافئة. نزلت إلى الطابق الأرضي لكي أوقد النار، عندئذ سمعت نباح بو ففتحت الباب قبل أن يطرقه باتريك. قرفصت لكي أسلّم على بو ولأخفي ارتباكي بخصوص الكيفية التي سأتعامل بها مع باتريك.

وقفت أخيراً، وقلت له:

«ألا تدخل؟».

«ينبغي أن أنصرف».

«ادخل دقيقة من فضلك».

تردّد ثمّ دخل وأغلق الباب خلفه. لم يكن بادياً عليه أنّه ينوي الجلوس، بقينا واقفين وبو عند قدمينا. ألقى باتريك نظرة من خلفي داخل المطبخ حيث تجمّعت بركة ماء تحت ملابسي المبلّلة، فلاحت عليه الحيرة، لكنه لم ينبس. حينئذ أدركت أنّه لم يعد يشعر بشيء نحوي. لم يعد يعنيه أن يعرف سبب ابتلال ملابسي، ولماذا يقطر المعطف الذي أهداني إياه هكذا. كلّ ما يهمه هو السرّ الرهيب الذي أخفيته عنه. وقلت بنبرة صادقة رغم أنها لا تلائم المقام:

«آسفة».

«لماذا؟».

لم يكن جوابه هذا ليُيَسِّر عليّ المهمّة.

«على أنّني كذبت عليك. كان عليّ أن أخبرك بأنّني. . .».

لم أستطع إتمام الجملة، لكنّ باتريك أكملها بدلي.

«قتلتِ شخصاً؟».

أغمضت عينَي، ولمّا فتحتهما كان باتريك يهُمُّ بالمغادرة.

«لم أعرف كيف أخبرك بالأمر. تزاحمت الكلمات في فمي. خشيت من ردّة فعلك».

حرّك رأسه كما لو أنّه لم يعد يعرف كيف سيعاملني.

«قولي لي شيئاً واحداً: ألم تتوقّفي بعد الحادثة؟ أستطيع أن أتفهّم الحادثة، لكن هل واصلت طريقك دون أن تقدّمي المساعدة لذلك الطفل الصغير؟».

كانت عيناه تحدّقان في عينَي بحثاً عن جواب أنا عاجزة عن تقديمه. وقلت:

«نعم، لم أتوقّف».

فتح الباب بقوّة جعلتني أجفل، واختفى.

28

قضيتِ الليلة في البيت. كان ذلك لأوّل مرّة. سحبتُ اللحاف علينا، واستلقيتُ بجانبك لكي أراك نائمة. كان وجهك هادئاً ومطمئناً، ولم تكن تبدو على بشرة جفنيك الشفافة سوى حركات لا تكاد تلحظ. خلال نومك، لم أعد ملزماً بالتظاهر والتعامل معك بتحفّظ لكي لا تلاحظي مقدار تعلّقي بك. صار بإمكاني أن أتشمّم شعرك وأقبّل شفتيك، وأحسّ بأنفاسك العذبة. بدوتِ في منتهى الجمال وأنت نائمة.

وابتسمت حتّى قبل أن تفتحي عينيك. اقتربت منّي. ولأوّل مرّة شعرتُ بالابتهاج من أنّني عندما أستيقظ أجد شخصاً بجانبي في السرير. وقلت في نفسي لا ينبغي أن تنصرفي. لولا خوفي من أن أبدو سخيفاً، لكنت أعلنت لك عن هيامي بك على الفور، لكنني استعضت عن ذلك بتحضير الفطور، ثمّ أتيتك به إلى السرير لأبرهن لك عن مدى إعجابي بك.

وكم كانت فرحتي كبيرة حين اقترحتِ أن نلتقي ثانية. معنى ذلك أنني لن أقضي أسبوعاً آخر بمفردي متحيّناً الوقت المناسب لأتّصل بك. تركتك تتوهّمين أنك أنت صاحبة المبادرة. في مساء

ذلك اليوم، ذهبنا إلى حانة لكي نشرب كأساً معاً، وعدنا ثانية بعد يومين. وما لبثتِ أن بدأتِ تأتين إلى البيت كلّ يوم.

وقلتُ لك يوماً:

«ينبغي أن تتركي بعض الأغراض هنا».

بدا عليك الاستغراب، فأدركت أنّني خرقت القاعدة: حريّ بالرجل ألا يتسرّع في العلاقة. لكنني لمّا كنت أعود من العمل، أجد أنّ الأثر الوحيد الدال على زيارتك للبيت هو فنجان مقلوب موضوع على مجفّف الأواني، وقد كان عدم استقرارك هذا يثير هواجسي. لا يوجد في البيت ما يدعوك إلى العودة، لا شيء يشدّك إليه.

في ذلك المساء، جلبتِ معك حقيبة صغيرة: وضعتِ فرشاة أسنان في كأس الحمّام، وملابس داخلية في الدرج الذي هيّأت لك. وفي صباح اليوم الموالي، أتيتك بالشاي إلى السرير، وقبّلتك قبل أن أذهب للعمل. وحين ركبتُ السيارة، كنت ما أزال أشعر بطعمك على شفتي. وما إن وصلت إلى المكتب حتى سارعت إلى الاتّصال بك، وأدركت من رنة صوتك أنّك عدت للنوم.

وسألتني:

«ماذا هناك؟».

كيف لي أن أبوح لك بأنّ ما دعاني للاتصال هو رغبتي في سماع صوتك؟

فأجبت:

«هلا رتّبت السرير هذا اليوم، فأنت لا ترتبينه أبداً».

ضحكتِ، وندمتُ على الفور. وعند عودتي، اندفعتُ إلى الطابق العلوي دون أن أنزع حذائي، فوجدتُ كل شيء على ما يرام: كانت فرشاة أسنانك لا تزال في مكانها.

أفسحت لك مكاناً في خزنة الملابس، فأحضرت ملابسك شيئاً فشيئاً.

وقلتِ لي يوماً بينما جلستُ على السرير لكي أرتدي ربطة عنقي:

«لن أنام هنا هذه الليلة». كنتِ جالسة على الطرف الآخر من السرير وفي يدك فنجان شاي، وشعركِ مشعّث، والماكياج الذي وضعتِ في اليوم السابق ما زال يحيط بعينيك. «سأخرج مع بعض الطلبة من أصدقاء الكليّة».

لم أنبس وأنا مركّز على عقدة ربطة عنقي الزرقاء الغامقة التي كنت أحرص على أن تكون متقنة.

«قل لي، ألا يزعجك ذلك؟».

التفتّ إليكِ، وقلت:

«أنتِ تعلمين أنّ اليوم تمام ثلاثة أشهر على لقائنا في مقصف الجامعة».

«صحيح؟».

«حجزت مائدة في لوبوتي روج هذا المساء، المطعم الذي دعوتك إليه أوّل مرّة». قمت وارتديت سترتي. «كان بودّي أن أخبرك بذلك من قبل، لكنّني قلت في نفسي لا شيء يدعوك إلى تذكّر ذلك اليوم».

«كلا، فأنا أذكره!» وضعتِ فنجانك، وأزحت اللحاف ثمّ عبرتِ السرير لكي تجثي أمامي. ما زلت أذكر كلّ كبيرة وصغيرة من ذلك اليوم: كنتِ في منتهى التهذيب، وكنتُ متلهفاً لرؤيتك من جديد.

وقلتُ فجأة:

«لديّ شيء لكِ». وتمنّيت أن يكون ما زال في درج طاولة

السرير. حشرت يدي لأتلمّسه، فعثرت عليه تحت علبة واقيات طبّية. «ها هو».

«هذا بالضبط ما توقّعت».

ابتسمتِ ورميتِ المفتاح في الهواء، وتنبّهت إلى أنّني نسيت نزع حامل مفاتيح ماري، ومضى القلب الفضّي يدور متلألئاً.

«فأنتِ تأتين كلّ يوم. ينبغي أن تتوفّري على المفتاح».

«ممتنّة لك. هذا يعني الشيء الكثير بالنسبة إليّ».

«ينبغي أن أذهب إلى العمل. استمتعي جيداً هذا المساء».

وقبّلتك.

«كلا، سألغي الموعد. لقد تحمّلتَ عناءً كبيراً. يسرّني أن أرافقك إلى المطعم. الآن بعد أن أعطيتني هذا» ولوحتِ بالمفتاح.

«ستجدني هنا لمّا تعود من العمل».

حين ركبت السيارة، بدأ ما أشعر به من صداع يخفّ، لكنّه لم يختفِ تماماً إلا بعد أن اتّصلت بالمطعم لكي أحجز المائدة.

وفيتِ بوعدكِ إذ وجدتك عند عودتي من العمل في البيت. كنت تنتظرينني في فستان يكشف عن ساقيك المسفوعتين، ويُظهر قوامَك على نحو مثير.

«كيف تجدُني؟».

دُرْتِ على نفسك وأنت تبتسمين ويدك على وركك.

«ساحرة».

كان فتور حماسي واضحاً، فكففتِ عن هذه الحركات الاستعراضية. خفضتِ كتفيك قليلاً، ومسحتِ بيدك على الجانب الأمامي من الفستان.

«أهو بالغُ الضيق؟».

فأجبتُ:

«تبدين رائعة. هل لديك لباس آخر هنا؟».

«إنّه ضيق كثيراً، أليس كذلك؟ ليس معي هنا سوى سروال الجينز الذي لبسته بالأمس وقميص نظيف».

قلت وأنا أتقدّم منك لأقبّلك:

«ممتاز. ساقان مثل ساقيك تبدوان أفضل في السروال، وذلك الجينز يناسبك تماماً. غيّري ملابسك بسرعة، وهلمّ بنا لنشرب كأساً قبل العشاء».

خشيت من أن أكون أخطأت حين سلّمتكِ المفتاح، لكنّك كنت مولعة، فيما يبدو، بأشغال البيت. لما أعود في المساء أجد البيت يفوح في الغالب برائحة الحلوى أو الدجاج المشوي الخارجَين لتوّهما من الفرن. ورغم أن طبخك لم يكن استثنائياً، كنت تتعلّمين بسرعة. وحين كنت تطبخين شيئاً رديئاً، لم أكن أمسّه، فتثابرين أكثر في المرّة الموالية. وذات يوم وجدتك تقرئين كتاب وصفات مطبخية، وتسجّلين ملاحظات.

سألتني:

«ما هو الشُّقير؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

كان اليوم شاقاً، وكنت متعباً، ولم يبدُ أنّك لاحظت ذلك.

«سأُعِدُّ طبق لازانيا. لدي كلّ المكونات، لكن الوصفة تبدو كما لو أنّها كتبت بلغة أجنبية».

ألقيت نظرة على الطعام الموضوع على طاولة المطبخ: فلفل

أحمر يانع وطماطم وجزر ولحم عجل مفروم. أُحضِرَت الخضر من بائع الخضار، وحتى اللحم يبدو أنه آتٍ من مجزرة لا من سوق ممتاز. لا بدّ أنّك أنفقت فترة ما بعد الظهر كلّها في تحضير الطبق.

لست أدري ما الذي دفعني إلى إفساد متعتك. لعلّه الغرور الذي كان واضحاً على وجهك، أو ربّما ما كان ظاهراً عليك من راحة وهدوء مبالغ فيهما.

«الواقع أنّني لا أشعر بكثير من الجوع».

امتقع وجهك، وشعرت بنفسي فجأة في حال أفضل، كما لو أنّني أزلت ضمادة أو حككت قشرة جرح تزعجني.

وأضفتُ:

«آسف، أأنفقتِ جهداً كبيراً في إعداده؟».

أجبت رغم ما كان يظهر عليك من استياء:

«كلا. وأغلقتِ الكتاب. سأترك إعدادها إلى مرّة أخرى».

كنت آمل ألا تقضي الأمسية كلّها عابسة. تجاوزتِ ذلك بسرعة، وفتحتِ زجاجة نبيذ رخيص كان يعجبكِ كثيراً. سكبتُ لنفسي قليلاً من الويسكي، وجلست قبالتك.

قلتِ:

«لا أصدّق أنّ شهراً مضى على إنهاء دراستي. ما أسرع مرور الوقت!».

«هل فكّرت قليلاً فيما ستفعلين لاحقاً؟».

جعّدت أنفك وقلتِ:

«في الحقيقة ما زلت لم أفكّر. سآخذ عطلة هذا الصيف، وربما أسافر قليلاً».

كانت تلك أوّل مرّة سمعتك فيها تتحدّثين عن السفر، وتساءلت عمّن حشر هذه الفكرة في رأسك، ومع من تنوين السفر.

وقلت فجأة:

«يمكن أن نذهب إلى إيطاليا. أودّ أن آخذك إلى البندقية. أنا على يقين أنّ أشكالها الهندسية ستروقك. وهي تتوفّر على متاحف مدهشة».

«سيكون ذلك رائعاً! ستقضي سارة وإيزي شهراً في الهند، سأرافقهما ربّما لأسبوع أو أسبوعَين، أو سأقوم عوض ذلك بجولة في أرجاء أوروبا بواسطة القطار» وضحكتِ. «ما زلت لا أدري. أريد أن أفعل كلّ شيء دفعة واحدة، هذه هي المشكلة!».

«عليك أن تتريّثي قليلاً ربّما». حرّكتُ ما بقي من ويسكي في كأسي. «مهما يكن، الجميع سيسافرون خلال عطلة هذا الصيف، وحين ستعودون ستجدون أنفسكم جميعاً في سوق الشغل في الوقت نفسه. يتعيّن عليك ربّما اغتنام الفرصة خلال تشتّتهم في مختلف أصقاع العالم».

«ربّما».

كان واضحاً أنّ كلامي لم يقنعك.

«لقد فكّرتُ في الأمر حين أنهيت دراستك. أظن أنه يحسن بك أن تستقري هنا».

قطّبت كما لو أنّ في الأمر مكيدة. فأضفتُ:

«إنّها مسألة حسّ سليم: مهما يكن فأنت تعيشين هنا، ولن يكون لديك أبداً الإمكانات لتدفعي مبلغ الإيجار بمفردك بالنظر إلى العمل الذي تنوين امتهانه، ومن ثمّة ستجدين نفسك مجبرة على اقتسام الشقّة مع شخص آخر».

«فكّرتُ في العودة إلى بيت أمي، والمكوث معها قليلاً».

«أعجبُ من قولك هذا بعد كلّ ما فعلتْ مع أبيك».

فَرَددْتِ وقد بدأ وثوقك يهتزّ:

«ليستْ بهذا السوء الذي تظنّ».

فاستأنفت:

«ها نحن نعيش معاً هنا، فلِمَ ترغبين في تغيير هذا الوضع؟ أمّك تبعُدُ بأكثر من ساعة عن هنا، وذهابك عندها معناه أنّ فرص لقائنا ستنعدم تقريباً. ألم تعودي ترغبين في السكن معي؟».

«بلى طبعاً».

«إن استقريت هنا، لن تفكري في المال. سأتكفّل بالفواتير، وخلال ذلك حاولي أن تشتغلي وتبيعي منحوتاتك».

«سيكون هذا مجحفاً. عليّ أن أساهم بشكل أو بآخر».

«أظن أنّه بإمكانك أن تطبخي بين الفينة والأخرى، وتساعديني على ترتيب البيت، لكنك لست مجبرة على ذلك بالطبع. أن أقوم من الفراش صباحاً وأجدك بجانبي، ثم ألقاك في الشقة بعد عودتي مساء، هذا يكفيني وزيادة».

وارتسمت على وجهك ابتسامة.

«أأنت متأكّد؟».

«متأكّد تماماً».

نقلتِ أغراضك إلى البيت في آخر يوم من نصف السنة. نزعت من الجدران ملصقاتك، وحملت كلّ أغراضك في سيارة أعارتك سارة إيّاها.

«سأذهب خلال عطلة نهاية الأسبوع لإحضار بقية الأغراض من

بيت أمّي، ولكن تمهّل، هناك شيء أخير ما زال في السيارة. إنّها مفاجأة لك، بل لنا».

خرجتِ جارية وفتحتِ باب السيارة الخلفي حيث كانت علبة كرتون موضوعة أسفل المقعد. حملتها إلى البيت بكثير من الحذر حتّى قلت في نفسي لعلّها تحوي أشياء سهلة الكسر، ولكنّك حين ناولتنيها، وجدتها أخفّ من أن تحوي زجاجاً أو فخّاراً.

قلتِ وأنت غير قادرة على تمالك نفسك:

«افتحها».

أزحتِ غطاء العلبة، فرفعت كومة من الشعر عينَيها نحوي.

فقلتُ بفتور:

«هرّ».

لم أفهم يوماً الفائدة التي يجنيها الناس من تربية الحيوانات، ولا سيما الكلاب والقطط التي تنشر شعرها في كلّ مكان، وتتطلّب وقتاً وحناناً وعناية.

«هُرَير بالأحرى! أليس جميلاً؟». أخرجتِهِ من العلبة لكي تضعيه على صدرك. «هرّة إيف وضعت، وقد نجحت في توزيع جميع الصغار على معارفها، لكنها احتفظت لي بهذا. اسمه جيزمو».

«ألم يكن من الأفضل أن تطلبي رأيي قبل الإتيان بهرير إلى بيتي؟» لم أكلِّف نفسي التحدّث إليك بهدوء، فشرعتِ في البكاء توّاً، وهو تكتيك مفضوح وحقير لم يزدني إلا غضباً. «ألم تشاهدي تلك الوصلات الإشهارية التي تنصح بالتروّي قبل تبنّي حيوان من الحيوانات؟ لا ينبغي أن نستغرب هذا الكمّ الهائل من الحيوانات المتخَلّى عنها، كلّ ذلك بسبب أناس مثلك، يتصرّفون من دون تفكير ولا رويّة».

فأجبتِ وأنت لا تزالين تنتحبين:

«ظننتُه سيعجبك. قلت في نفسي إنّه سيؤنسني حين تكون في العمل، وسيمكث إلى جانبي وأنا أرسم».

وهدأ روعي. قلت في نفسي صحيح أنّ هذا الهر يمكن أن يسلّيك خلال النهار، ولا بأس أن أصرف النظر عن ذلك إن كان يسعدك. وقلت:

«حسناً، احرصي على ألا يقترب من ملابسي».

صعدتُ إلى الطابق العلوي، ولما عدت وجدتك قد وضعتِ سلّة وإناءين في المطبخ، إضافة إلى قمامة خاصة بالهر قرب باب المدخل. وعلّقتِ:

«سأضعها هنا في انتظار أن يكبر ويصبح قادراً على قضاء حاجته في الخارج».

رحت تنظرين إليّ بحذر، وأسفت على أنّني لم أكظم غيظي أمامك. وأجبرت نفسي على مداعبة الهرير، فتنفّستِ الصعداء. اقتربتِ منّي وطوّقتِ خصري بذراعيك.

«شكراً».

وقبّلتني بتلك الطريقة المتلهّفة التي تسبق دائماً الجماع، ولمّا ضغطت برفق على كتفك، جثوت على ركبتيك دون أن تنبسي.

صار الهرير هو شغلك الشاغل، تهتمّين بطعامه ولعبه، وحتى قمامته المقرفة صارت تهمّك أكثر ممّا يعنيك ترتيب البيت أو الطبخ، أو حتى التحدّث إلي. كنت تقضين أمسيات بكاملها تلاعبينه وأنت تسحبين على الأرض جرذاً من القطن مربوطاً في طرف خيط. وكنت تقولين لي إنّك تشتغلين على ملفّك الفني خلال النهار، لكنني عندما

أعود في المساء أجد أغراضك متناثرة في الصالون في المكان نفسه الذي رأيتها فيه في اليوم السابق.

وبعد أسبوعين على استقرارك في الشقة، عثرتُ على كلمة موضوعة على مائدة المطبخ:

لقد خرجت مع سارة، فلا تنتظرني!

كنّا قد تحدّثنا بالهاتف مرّتين أو ثلاثاً خلال النهار، لكنّك لم تكلّفي نفسك إخباري بذلك. لم تهيّئي شيئاً للعشاء. لعلّك كنت تنوين الأكل مع سارة، فلم تنشغلي بأمري. تناولت زجاجة جعة من الثلاجة. أخذ الهرير يموء ويتشبث بسروالي فنشب مخالبه في بطة رجلي. حرّكت قدمي فسقط على الأرض. أغلقت عليه باب المطبخ وشغّلت التلفاز، لكنني لم أستطع التركيز. لم أكن أتوقّف عن التفكير في آخر مرة خرجتِ فيها مع سارة، والسرعة التي اختفت بها مع شخص بالكاد تعرّفت إليه، والسهولة التي رافقتِني بها إلى المنزل.

لا تنتظرني.

لم أطلب منك العيش معي لكي أقضي لياليّ وحيداً على الأريكة. يكفيني أنّ امرأة استَغبَتني قبلك. لن أسمح لك باستبلادي أنتِ أيضاً. واستأنف الهرير مواءه، فقمتُ لأحضر زجاجة أخرى من المطبخ. كنت أسمعه خلف الباب، ففتحته باندفاع بحيث رميته إلى الطرف الآخر من الحُجرة. كان ذلك مضحكاً بحيث روّح عنّي قليلاً إلى أن عدت إلى الصالون وأبصرت أغراضك متناثرة على الأرض. حاولتِ تكويمها في أحد الأركان، لكنّني لاحظت كتلة طين موضوعة على قطعة من ورق الجرائد انطبع حبرها على البلاطة، وأوعية مربّى مملوءة بموادّ داكنة كُدّست في صناديق.

لم يكفّ الهرير عن المواء. شربت جرعة جعة، وكانت قناة

تلفازية تعرض وثائقياً حول الحيوانات ظهر فيه ثعلب يمزّق أرنباً. رفعت صوت التلفاز، لكنّ المواء ظلّ يصلني ويصمّ مسامعي، فاستشطت غضباً، غضبٌ سرعان ما استحال إلى غيظ لا سبيل للسيطرة عليه. فقمت وقصدت المطبخ.

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة ليلاً لمّا عدتِ إلى البيت. كنت جالساً في الظلام بالمطبخ وزجاجة جعة فارغة في يدي. سمعتك تغلقين باب المدخل بحذر شديد، وتنزعين حذاءك قبل أن تدخلي إلى المطبخ على أطراف أصابع رجليك.

«كانت السهرة ممتعة؟».

ندّت عنك صرخة. كنت سأجد تلك الصرخة غريبة لو لم أكن غاضباً منك.

«يا إلهي! لقد انخلع قلبي من الخوف يا يان، لماذا تجلس هكذا في الظلام؟».

ضغطت على الزر، فأومض مصباح النيون قبل أن يشتعل.

«أنتظرك».

«أخبرتك بأنّني لن أعود باكراً».

لم يكن نطقكِ جيّداً كالعادة، فتساءلت كم كأساً شربت.

«ذهبنا جميعاً إلى بيت سارة بعد الحانة و. . .» وتوقّفتِ حين لاحظت سحنتي. «ما خطبك؟».

«انتظرتك حتّى لا تكوني بمفردك حين تكتشفين. . .».

«أكتشف ماذا؟» وكأنما صحوتِ من السكر. «ماذا جرى؟».

أشرت بيدي إلى القمامة حيث كان الهرير ممدّداً بجوارها على بطنه بلا حراك. كان قد مضى على مقتله ساعة أو ساعتان، وقد بدأ يتصلّب، وإحدى قوائمه مرفوعة إلى أعلى.

«جيزمو». ووضعتِ يدك في فمك حتّى خيّل لي أنّك ستتقيّئين.

«يا إلهي! ماذا وقع؟»

نهضتُ واقفاً واقتربت منكِ لأواسيك.

«لست أدري. لما عدت من العمل، تقيّأ في الصالون. حاولت أن أعثر على إرشادات على الإنترنت، لكنه مات بعد نصف ساعة. آسف حقاً يا جينيفر. أنا أعلم مقدار تعلّقك به».

وبينما ضممتك إليّ، رحت تبكين حتى بللت قميصي.

«كان بأحسن حال حين غادرت البيت» قمتِ ومضيتِ تحدّقين بي بحثاً عن جواب. «لا أفهم ما وقع».

لا بدَّ أنكِ قرأت التردّد على صفحة وجهي، لأنّك ابتعدت منّي فوراً.

«ماذا؟ ماذا تخفي عني؟».

«لا أخفي عنك شيئاً. لا أريد أن أعقّد الأمور».

«قل لي».

تنهدت.

«لما عدت، وجدته في الصالون».

فأجبتِ وقد بدأ يداخلكِ الشك:

«لقد أدخلته إلى المطبخ وأغلقتَ الباب كالعادة».

هززت كتفي، وقلتُ:

«كان الباب مفتوحاً لمّا دخلت، ومضى جيزمو يلعب بكومة الجرائد قرب أغراضك. بدا كما لو أن ذلك أعجبه. لست أعلم ماذا يوجد في علبة المربى التي تحمل لاصقة حمراء. كانت مفتوحة ورأيت رأس جيزمو داخلها».

شحب لونك.

«إنّه ورنيش أستعمله لصباغة النماذج التي أنحت».

«أهو مسموم؟».

«نعم. يحتوي على كاربونات الباريوم. إنّه بالغ الخطورة وأنا أحتاط منه دائماً بحيث أضعه في مكان آمن. الخطأ خطئي يا إلهي! مسكين جيزمو».

«لا ينبغي أن تلومي نفسك يا حبيبتي». سحبتك إليّ لأضمّك بين ذراعَي وأقبّل شعرك، ففغمتني رائحة السجائر المنبعثة منك. «إنّها حادثة، ولا داعي لتهويلها. كان عليك أن تبقي في البيت حتّى تنهي نموذجك. أنا متيقّن من أنّ سارة كانت ستتفهّم الأمر». ضغطتِ نفسك إليّ، وبدأ نحيبك يخفّ. خلّصتك من معطفك ووضعتُ حقيبتك على المائدة. «تعالي، لنصعد إلى الطابق العلوي. سأستيقظ قبلك صباح غد، وسأتكفّل بجيزمو».

لزمتِ الصمت في الغرفة، وتركتكِ تغسلين أسنانك ووجهك. أطفأت النور لكي أخلد إلى السرير، فأتيت، واستلقيت بجانبي والتصقت بي كما يفعل الصبيان. وقد سرّتني حاجتك إليّ. شرعت أداعب ظهرك وأقبّل رقبتك.

وقلتِ:

«ألا يزعجك ألا نفعل شيئاً هذه الليلة؟».

فأجبت:

«سيحسّن مزاجك. أنا حريص على أن تشعري بنفسك أحسن».

لم تستجيبي لمّا داعبتك. أفسدتِ عليّ متعتي، فعاملتك بعنف لكي أجعلك تدفعين ثمن أنانيّتك.

29

«ما هذا؟».

كان راي واقفاً خلف كايت وهو ينظر إلى البطاقة التي تقلِّبها بين يديها.

«شيء كانت غراي تحمله في حافظة نقودها. لمّا تناولتُه، شحب لونها، كما لو أنّها لم تكن تنتظر أن نعثر عليه هناك. وأنا الآن أحاول أن أفهم ما هو».

كان حجم بطاقة الزيارة تلك عادياً، زرقاء فاتحة، والمعلومة الوحيدة التي تحملها عنوان يقع وسط بريستول. تناولها راي من بين يديها، وفركها بين إبهامه وسبابته.

وقال معلّقاً:

«ورقها من النوع الرخيص. هل لديك فكرة حول دلالة الشارة؟».

تحتل الجزء الأعلى من البطاقة، عبارة عن رقم ثمانية غير مكتمل، مكتوب مرتين، تتداخل أجزاؤه.

«ليست لديّ أدنى فكرة».

«أظنّ أن العنوان لا يُحيل على شيء في قاعدة معطياتنا؟».

«تماماً، كما لا يوجد عنه شيء في سجلّ الناخبين».

وقال راي وهو يتفحّص البطاقة ثانية:

«ألا تكون بطاقة زيارتها القديمة؟».

«لا أظن بالنظر إلى ردّ فعلها لمّا التقطتها. ذكّرتها بشيء، شيء تجتهد لإخفائه عنّا».

«حسناً، هيّا بنا إذاً. توجّه راي بخطى واسعة نحو الخزنة الحائطية وتناول مفاتيح إحدى السيارات. ليس ثمّة إلا وسيلة واحدة لمعرفة حقيقتها».

«إلى أين نذهب؟».

لوّح راي بالبطاقة الزرقاء الفاتحة، وتناولت كايت معطفها وانطلقت جارية خلفه.

تطلّب منهما العثور على المسكن 127، شارع غرانتام، مدّة غير يسيرة. وهو عبارة عن منزل عادي وسط صفّ لا نهاية له من المنازل المتجاورة المبنيّة بالقرميد الأحمر، حيث تبعد على نحو غير مفهوم تلك التي تحمل رقماً فردياً عن مثيلاتها التي تحمل رقماً زوجياً. توقّفا لحظة أمام المنزل، ومضيا يتأمّلان الحديقة المدغلة وستائر النوافذ الرمادية. لمحا في الحديقة المجاورة هرّاً متهالكاً على فِراشٍ. وحين عبرا الممشى الذي يقود إلى باب المنزل، أخذ يموء. وبخلاف المنازل المجاورة التي كانت أبوابها مصنوعة من بولي كلوريد الفاينيل الرخيص، كان باب المنزل 127 من الخشب المصبوغ بأناقة، مجهّزاً بعين زجاجية تسمح برؤية ما يوجد بالخارج. ولم تكن به فتحة للرسائل، بل هناك علبة بريد معدنية مثبّتة في الجدار إلى جانب الباب، ومغلقة بقفل.

ضغط راي على الجرس بينما مضت كايت تبحث في جيب سترتها عن بطاقتها المهنية. إلا أن راي أمسك بذراعها وقال:

«من الأفضل ألا تخرجيها. انتظري إلى أن نرى من يسكن هنا أولاً».

سمعا وقع أقدام على البلاطة ما لبثت أن توقفت، فحدّق راي في الثقب الصغير الموجود في وسط الباب. وما هي إلا ثوانٍ حتى سمع مفتاحاً يُدار في القفل، ثمّ مفتاحاً آخر، وانفتح الباب قليلاً لأنّه كان مثبّتاً بواسطة سلسلة. كان راي يتوقّع، تبعاً لهذه الإجراءات الاحترازية المبالغ فيها، أن يواجه شخصاً مسنّاً، لكن امرأة في مثل سنّه هي من أطلّت من شقّ الباب. كانت ترتدي فستاناً ملوّناً وسترة صوف محبوكة زرقاء غامقة، يحيط بعنقها وشاح أصفر باهت.

«هل من خدمة؟».

فردّ راي:

«أبحث عن صديقة تدعى جينا غراي. كانت تعيش في هذا الشارع، لكنّني لا أذكر منزلها. لا شكّ أنّك تعرفينها؟».

«كلا، آسفة».

ألقى راي نظرة إلى البيت من فوق كتف المرأة فعمدت إلى إغلاق الباب أقصى ما تستطيع وهي تحدّق في عينيه.

سألت كايت متجاهلة تكتّم المرأة:

«هل تسكنين هنا منذ مدة طويلة؟».

«منذ مدّة لا بأس بها. حسناً، آسفة، أنا مضطرة لاستئذانكما».

فقال راي وهو يمسك بذراع كايت:

«نأسف على إزعاجك. هيّا يا حبيبتي، لنذهب. سأجري بعض المكالمات لأرى ما إذا كان بالإمكان الحصول على عنوانها».

أخرج هاتفه.
«ولكن...».
وقال للمرأة وهو يلمز كايت:
«شكراً على كلّ حال».
فقالت كايت وهي تتبعه:
«سنجري بعض المكالمات، شكراً على مساعدتك».
أحكمت المرأة إغلاق الباب، وسمع راي مفتاحين يُداران، واحداً تلو الآخر. ظلَّ يمسك بذراع كايت إلى أن خرجا من مجال رؤية صاحبة المنزل، وهما واعيان تماماً بأهمية الخيط.
وبينما كانا يهمّان بالصعود إلى السيارة سألت كايت:
«ما رأيك؟ أهو مسكن غراي القديم؟ أم أنّ هذه المرأة تعرف أكثر ممّا صرحت به؟».
«من الأكيد أنّها تعرف شيئاً. لعلك لاحظت ماذا تلبس؟».
فكّرت كايت برهة.
«فستاناً وسترة صوف محبوكة غامقة».
«فقط؟».
وحرّكت كايت رأسها مصعوقة.
ضغط راي على زرّ من أزرار هاتفه، فاستنارت الشاشة، ثمّ مدّه لكايت.
«هل التقطت لها صورة؟».
وارتسمت على وجه راي ابتسامة عريضة. مدّ ذراعه وكبّر الصورة، مبرزاً عقدة وشاح المرأة الأصفر، حيث تظهر بقعة دائرية صغيرة. وقال:
«إنّها شارة».

كبّر الصورة من جديد، فلاحَ شكلان عبارة عن ثمانية غير مكتملة سوداء مكرّرة.

فقالت كايت متعجّبة:

«إنّها الشارة نفسها الموجودة على البطاقة! رائع!».

«لا شكّ في أنّ ثمّة علاقة بين جينا وهذا البيت، ولكن ما هي؟».

30

لم أفهم قطّ لماذا كنت تلحّين عليّ لكي أتعرّف إلى عائلتك. كنت تكرهين أمّك، وحتّى لمّا كانت إيف تتّصل بكِ مرّة في الأسبوع، لم تكلّف نفسها أبداً مشقّة السفر إلى بريستول، فلماذا كنت تذهبين إلى أكسفورد إذاً كلّما طلبت منك ذلك؟ كنت تهرعين إليها، كما تفعل أخت صغيرة وديعة تاركة إيّاي وحيداً ليلة كاملة، بل أكثر أحياناً. ولا شكّ في أنك كنت تغازلين زوجها الغني بينما كنت تتحدّثين بحماسة عن بطنها المكوّر.

قلتِ لي:

«سيظنّون أنني أكذب» وابتسمتِ لكي تُظهري لي أنّك إنّما تمزحين، لكنّ صوتك كان يشي بالإحباط. «وددت لو أقضي معك عيد الميلاد. لم يكن الأمر مشابهاً من دونك السنة الماضية».

«ما عليك إلا أن تبقي معي هنا».

لم يكن هذا اختياراً صعباً. لماذا لا تكتفين بوجودي معك؟

«ولكنني أرغب أيضاً في لقاء أهلي. لسنا مجبَريْن على قضاء الليلة هناك. يمكننا أن نتغدى معهم ونعود».

«ولا نشرب؟ ألست تتحدّثين عن وجبة عيد الميلاد!».

«أستطيع السياقة. أرجوك يا يان، أنا راغبة حقّاً في تقديمك إليهم».

ومضيت تتوسلين إليّ. لم تبالغي في الزينة هذا اليوم كما في السابق، لكنك وضعت أحمر شفاه، ولاحظتُ منحنى شفتك الأحمر بينما كنت تتضرّعين إليّ.

قلت وأنا أهزّ كتفي:

«حسناً، لكن السنة القادمة، سنحتفل هنا أنا وأنت فقط».

«شكراً!».

وتألّق وجهك بابتسامة مشرقة وارتميت بين ذراعَي.

«أظنّ أنّ علينا أن نشتري هدايا. يا لها من حماقة! كما لو أنّهم بحاجة إليها مع كلّ المال الذي يكسبون».

فقلتِ وأنتِ في منتهى السعادة بحيث لم تلاحظي القصد من تعليقي:

«لا تهتمّ بهذا، فإيف يعجبها العطر، وجيف تفرحه زجاجة سكوتش. سترى، ستمرّ الحفلة على أحسن ما يرام. ستُفتتن بهما».

لم أكن واثقاً من ذلك. فقد سمعت ما يكفي عن «الليدي إيف» لكي يتشكّل لدي رأي فيها، رغم أنّني كنت أتوق لمعرفة سبب افتتانك بها. لم آسف يوماً على أنّني لا أملك إخوة وأخوات، وكنت أشعر بالضيق من اتصالك الدائم مع إيف. وقد كنت أتعمّد اللحاق بك إلى المطبخ لمّا تتحدّثين مع إيف، وحين تتوقّفين عن الكلام فجأة، أعرف أنّكما تتحدّثان عنّي.

سألتك لكي أغيّر مجرى الحديث:

«ماذا فعلت اليوم؟».

«قضيت نهاراً رائعاً. حَضَرتُ مأدبة غداء مع الصنّاع نظّمتها ثري

بيلارز، وهي جمعية مهنيّي الصناعات الإبداعية. من المدهش أنّ كثيراً منّا يشتغلون بمفردهم في مكاتب أو على مائدة المطبخ. . .».

نظرت إليّ نظرة آسفة.

كان قد صار من المستحيل الأكل في المطبخ بسبب طبقة الطلاء وغبار الطين والرسوم المتناثرة على المائدة. كانت أغراضك في كلّ مكان، ولم يعد ثمّة ركن واحد أشعر فيه بأنّني في بيتي. لم يكن البيت يبدو لي بهذا الضيق حين اشتريته، وحتّى لمّا كانت ماري تعيش معي، كان المكان يسعنا معاً، لأنّها كانت أكثر تحفّظاً منك، وأقلّ اندفاعاً، وأطيب معاشرة لو لم تكن تكذب. لكنّني مع مرور الزمن تعلّمت كيف أتكيّف مع هذا الوضع.

كنتِ لا تزالين تتحدّثين عن غداءك، فحاولت أن أركّز ذهني على ما كنت تحكين.

«قلنا إنّنا نستطيع، نحن الستة، أن ندفع ثمن الإيجار».

«أيّ إيجار؟».

«إيجار ورشة. فأنا لا أملك ما يكفي من المال لأؤجّر ورشة بمفردي، لكنّي أربح من الدروس التي ألقن كفاية لكي أدفع نصيبي مع الجماعة. هكذا يمكن أن أوفّر فرن فخار حقيقي، وبذلك لن تبقى أغراضي مبعثرة في كلّ أرجاء البيت».

لم أنتبه إلى أنّ الدروس التي تلقّنين تدرّ عليك هذا القدر من المال. كنت قد اقترحت عليك أن تعطي دروساً في صناعة الفخار بعد أن بدا لي ذلك أكثر حكمة من قضاء وقتك في صناعة تماثيل صغيرة تبيعينها بثمن بخس. كنت أظن أنّك ستفكرين في مساعدتي على أداء أقساط قرض السكن عوض الانخراط في شراكة كهذه. مهما يكن، فأنت تعيشين في بيتي بالمجان طول هذه المدّة.

«من الناحية النظرية، هذا رائع، ولكن ماذا سيكون مصير هذه الشركة إن قرّر أحدكم الانسحاب؟ من سيدفع عوضه؟».

كان واضحاً أنّكِ لم تفكري في هذه الحالة.

«أنا بحاجة إلى مكان أشتغل فيه يا يان. إعطاء الدروس شيء جيّد، لكنني لا أريد أن أقضي حياتي كاملة أفعل هذا. منحوتاتي بدأت تجدُ من يشتريها. إن أمكنني أن أصنعها في مدّة أقل، وأن أحصل على الطلبيات، أعتقد أنّه سيكون بإمكاني تأسيس مشروع مربح».

وعلّقت:

«كم عدد هؤلاء النحّاتين والفنانين؟ كوني واقعية، لن يكون هذا العمل سوى عمل ثانوي تكسبين منه مصروف الجيب».

لم تكوني ترغبين في سماع الحقيقة.

«ولكن إن عملنا جماعة، سيكون بإمكاننا أن نتعاون. فسيفساء أفريل تتناسب جيّداً مع إبداعاتي، وغرانت ينجز لوحات زيتية مدهشة. وسيكون الأمر رائعاً إن نجحت في العثور على بعض أصدقائي من الجامعة. لكنّني لم أعد أعرف عنهم شيئاً. لم أرهم منذ فترة طويلة».

فقلت:

«سيكون وكراً لإنتاج المشاكل».

«ربّما. على كلّ حال، الأمر يحتاج إلى مزيد من التفكير».

كان واضحاً أنّك اتّخذت قرارك، وسينتهي بي الأمر إلى فقدانك بسبب هذا الحلم الجديد.

ثمّ استرسلتُ قائلاً وصوتي بالكاد يخفي قلقي:

«اسمعي. لقد مضى وقت وأنا أقول في نفسي علينا أن نغيّر هذا المسكن».

«صحيح؟».

وبدا الارتياب على محيّاك.

حرّكت رأسي وقلتُ:

«سنبحث عن منزل يتوفر على حديقة أبني لك فيها ورشة».

«ورشتي الخاصة؟».

«ومجهّزة بفرن فخار. تستطيعين أن تضعي فيه ما شئت من أغراضك».

«ستفعل هذا من أجلي أنا؟».

«أنت تعلمين أنّني مستعدّ للقيام بأيّ شيء من أجلك يا جينيفر».

وهذا صحيح. كنتُ مستعدّاً لفعل أيّ شيء حتّى لا أفقدك.

وبينما كنت تستحمّين، رنّ هاتفك.

«أنا سارة، هل جينا موجودة؟».

فقلت:

«مرحباً سارة. آسف، خرجت مع بعض أصدقائها. ألم تتّصل بك في المرّة السالفة؟ لقد نقلت لها رسالتك».

وخيّم الصمت.

«كلا».

«حسناً، سأخبرها بأنّك اتّصلت».

خلال وجودك في الطابق العلوي، فتّشت حقيبة يدك. لم يكن

فيها شيء يخرج عن المألوف، وصولاتك تتناسب مع الأماكن التي قلت لي إنّك ذهبت إليها، فأراحني ذلك. وجرياً على عادتي، ألقيت نظرة على المكان المخصّص للأوراق النقدية في حافظة أوراقك. كان فارغاً، لكنّني شعرت بشيء تحت أناملي. تفحّصته فإذا بي ألاحظ فتحة في بطانة الحقيبة الداخلية، أخفيتِ فيها حزمة صغيرة من النقود. وضعتُها في جيبي وأنا أقول في نفسي قد تكون نقود التسوّق أخفيتِها هناك احتياطاً، وأنّك لن تلبثي أن تسأليني عنها. فإن لم تسألي علمت أنّك تخفينها عنّي، وأنك سرقتها منّي.

لمّا تركتني، لزمني وقت لأدرك أنّك رحلت. انتظرت عودتك، ولم أنتبه إلى أنّ فرشاة أسنانك اختفت إلا لمّا هممت بالخلود إلى سريري. تفحّصت الحقائب فوجدتها لا تزال في البيت باستثناء حقيبة صغيرة. هل وعدك بأن يشتري لك كلّ ما أنت بحاجة إليه؟ وأن يوفّر لك كلّ ما تريدين؟ وماذا أعطيتِهِ في المقابل؟ إنّك تثيرين اشمئزازي، لكن تركتك ترحلين. قلت في نفسي إنّ حالي ستكون أفضل من دونك، وطالما أنّك لن تذهبي إلى الشرطة وتتهميني بما يسمّونه إساءة المعاملة، سأتركك تذهبين حيثما شئت. كان بإمكاني أن أبحث عنك، لكنّني لم أفعل. هل تفهمين لماذا؟ لأنني لم أعد أرغب فيك. وقد كان بإمكاني أن أتركك في حالك لولا صدور تلك المقالة الصغيرة في **بريستول بوست** هذا اليوم. لم يذكروا اسمك، لكن أتعتقدين حقّاً بأنّني لن أتفطن إلى أنك أنت المقصودة؟

تخيّلت الشرطة يستجوبونك عن حياتك وعلاقاتك. تراؤوا لي وهم يحاصرونك، ويجبرونك على الاعتراف. كنت واثقاً من أنّك ستنهارين، وأنّهم لن يتأخروا في طرق بابي لكي يستجوبوني حول

أمور لا تعنيهم، لكي يتّهمونني بكوني زوجاً غاشماً، جلاداً وعنيفاً، مع أنني لست كذلك. فأنا إنّما عاملتك بما تستحقّين.

خمّني أين ذهبت اليوم؟ هيّا، ألا تحاولين؟ ذهبتُ لزيارة أختك في أكسفورد. قلت في نفسي، إن كان ثمّة أحد يعرف أين اختفيت، ستكون هي لا محالة. لم يتغيّر المنزل كثيراً عمّا كان عليه قبل خمس سنوات. شجيرات الرند نفسها المشذّبة بعناية في جانبي باب المدخل، الجرس المزعج نفسه.

ما إن رأتني إيف حتى اختفت الابتسامة من محياها.

قالت بفتور:

«هذا أنت يا يان، يا لها من مفاجأة!».

فأجبتها:

«مضى وقت طويل لم نلتقِ. لم تملك الشجاعة قطّ لكي تجهر برأيها فيّ».

ثمّ أضفت وأنا أخطو إلى الأمام واضعاً قدمي على بلاطة المدخل الملونة بالأبيض والأسود:

«سيدخل البرد إلى البيت».

لم تجد إيف بدّاً من أن تتنحى وتتركني أدخل. وبينما كنت متوجّهاً إلى الصالون تعمّدت أن تلامس ذراعي ثدييها. هرولتْ خلفي وهي تحاول أن تثبت لي أنّها لا تزال هي سيدة المكان. كان حالها يدعو إلى الشفقة.

جلست في أريكة جيف وأنا أعلم يقيناً أنّ ذلك يضايقها، بينما جلست هي قبالتي. ولاحظت أنّها تجاهد من أجل ألا تسألني عن سبب الزيارة.

سألتها:

«أين جيف؟».

شيء ما في نظرتها أثار انتباهي. وأدركتُ أنّها خائفة منّي، وهي فكرة أثارتني. وتساءلت مرّة أخرى عن حال «الليدي إيف» في الفراش، وعمّا إذا كانت متشنّجة مثلكِ.

«ذهب إلى المدينة مع الأطفال».

تململت على الأريكة، وتركت الصمت يخيّم حتّى أرهقها.

«ماذا تفعل هنا؟».

قلت وأنا أجول ببصري في الصالون:

«كنت مارّاً من هنا. مضى وقت طويل على آخر لقاء بيننا يا إيف».

طلاء الصالون تغيّر عمّا كان عليه في آخر زيارة. كان سيروقك. اختارت له إيف ألواناً باهتة كتلك التي كنت تريدينها لمطبخنا.

اكتفت بأن حرّكت رأسها ولم تُجب.

واسترسلتُ قائلاً:

«أبحث عن جينيفر».

«كيف؟ لا تقل إنّها تركتك أخيراً!».

لفظتْ هذه الكلمات بحدّة لم أعهدها فيها. لكنّني حافظت على برودة أعصابي، وقلت:

«افترقنا».

«هل هي بخير؟ أين تعيش الآن؟».

كانت من الوقاحة بحيث أظهرت القلق عليكِ بعد كلّ ما قالت عنك. يا لها من فاجرة منافقة!

«تقصدين أنّها لم تلجأ إليك؟».

«لا أعلم أين هي».

فقلت وأنا لا أصدّق شيئاً ممّا تقول:

«حقّاً!».

لكن العلاقة بينكما كانت وطيدة، ومن ثمة لا بدَّ أن تكوني على علم بالمكان الذي لجأت إليه.

وشعرت بعِرْق ينبض عند صدغي، فمسدته.

«لم تكلّمني ولم أكلمها منذ خمس سنوات يا يان» ونهضتْ. «من الأفضل أن تغادر الآن».

«تقصدين أنك لم تتلقّي شيئاً من أخبارها طوال هذه المدّة؟».

سوّيت جلستي على الأريكة وبسطت ساقي. أنا من أقرّر متى أنصرف.

«تماماً». ورأيتها تلقي نظرة خاطفة على المدفأة. «هلا انصرفتَ الآن؟».

المدفأة عبارة عن كتلة تعدم الرونق، تشتغل بالغاز ويظهر بداخلها حطب مزيّف. وعلى رفّها المطلي بالأبيض، توجد مجموعة من البطاقات البريدية وبطاقات دعوات مرتّبة بعناية على جانبَي ساعة صغيرة.

أدركت على الفور ما كانتْ تسعى لإخفائه عني. كان عليك أن تفكّري قليلاً يا جينيفر قبل أن ترسلي شيئاً ظاهراً كهذا. كانت بارزة بين بطاقات الدعوات ذات الحواف المذهّبة: صورة شاطئ ملتقطة من أعلى منحدر صخري، تمثّل حروف اسم **ليدي إيف** مخطوطة على الرمل.

نهضت وتركت إيف تقودني إلى باب المدخل. أحنيت عليها لأقبّلها على خدّها، فتراجعت، وتمالكت نفسي من أن أشدّها إلى الجدار لأنّها كذبت عليّ.

فتَحَتِ الباب فتظاهرتُ بالبحث عن مفاتيحي، وقلت:

«نسيت المفاتيح في مكان ما في الصالون. هلا سمحت لي بإحضارها؟».

تركتها واقفة في المدخل وعدت إلى الصالون. تناولت البطاقة البريدية لأنظر ما كتب خلفها، إلا أنني لم أعثر على شيء. لا وجود لعنوان، كلّ ما فيها رسالة معسولة مكتوبة بخطّك المهمل الذي كنتُ خبيراً به. ذلك أنّك كنت تتركين لي كلمات تحت الوسادة أو في حقيبتي الصغيرة. لماذا توقّفت عن ذلك؟ وشعرتُ بانقباض في حلقي. تفحّصت الصورة. أين أنت؟ كنت على وشك أن أنفجر، فمزّقت البطاقة إلى نصفين، ثمّ إلى أربعة أجزاء ثمّ إلى ثمانية. عندئذ أحسست بحالي تحسّن. وفي اللحظة التي دخلتْ فيها إيف إلى الغرفة، أخفيتُ الأجزاء خلف الساعة الصغيرة.

بادرتها وأنا أربت على جيبي:

«عثرت عليها».

نظرت حولها وهي تتوقّع أن تلاحظ شيئاً ما تغيّر في الغرفة، فحدّثت نفسي: اتركها تبحث، دعها تعثر عليها. وقلت:

«لقد سعدت بلقائك يا إيف. سأعود لزيارتك إن واتتني الفرصة».

فتحت فمها لتقول شيئاً، لكنها لم تنطق، فقلت بدالها:

«إلى المرّة القادمة».

بمجرد ما عدت إلى البيت، بحثتُ على الإنترنت. تلك المنحدرات العالية المحيطة بالشاطئ، وهذه السماء الغائمة، بسحبها المنذرة، تملك طابعاً بريطانياً. كتبتُ «شواطئ المملكة المتحدة»،

وشرعت في تصفّح الصور. ضغطت على «الصفحة الموالية» مرّات ومرّات، لكنّني لم أرَ غير شواطئ رملية حاشدة بأطفال باسمين، مستمدّة من الدلائل السياحية. ثمّ كتبت «شواطئ المملكة المتحدة ذات المنحدرات»، وواصلت بحثي. سأعثر عليك يا جينيفر. أينما كنت سأعثر عليك.

سألحق بك لكي أعتني بك.

31

تتقدّم بيثان نحوي بخطى واسعة وقد أخفت رأسها في قبعة محبوكة باليد. شرعت تتحدّث وهي لا تزال بعيدة. حيلةٌ ذكيّة: لا أسمع ما تقول، لكنّني لا أستطيع الانصراف وهي تتوجّه إليّ بالكلام. توقّفت وانتظرت أن تلحق بي.

اعتدت أنا وبو على التنزّه في الحقول بعيداً عن المنحدر وعن البحر الهائج. صرت أخشى من أن أجد نفسي قريبة من البحر، رغم أنّ ما يرعبني ليس هو الماء بل الأفكار التي يمكن أن تخطر على بالي. حيثما ذهبت، أخذ يتهيّأ لي أنّني جننت، وهي فكرة لا أستطيع التخلّص منها.

«قلت في نفسي لا بدَّ أن تكوني أنت من بدوت لي في الأعلى».

بالكاد يظهر المخيّم من هنا: لا يمكن أن يراني الناظر من أعلى التلّ إلا كنقطة صغيرة. ابتسامة بيثان صادقة دائماً وودودة، كما لو أنّ شيئاً لم يتغيّر منذ آخر لقاء بيننا، لكنّها تعلم بلا شك أن عليّ أن أظلَّ رهن إشارة الشرطة. كلّ سكان القرية يعرفون.

قالت:

«كنت ذاهبة للنزهة. هل ترافقيني؟».

«أنت لا تتنزّهين أبداً؟».

لاحت على وجه بيثان ابتسامة.

«إذاً هي الرغبة في لقائك».

مشينا معاً وبو يتقدّمنا وهو يتشمّم الأرض. كان الجو مشرقاً والسماء صافية، وأنفاسنا تخرج في شكل بخار أمامنا ونحن نمشي. كان اليوم قد انتصف تقريباً، لكنّ الأرض لا تزال صلبة بسبب صقيع الصباح، والربيع ما زال يبدو بعيداً. كنت قد وضعت علامة بارزة في الرزنامة على اليوم الذي سأعود فيه إلى المفوضية، وشرعت أُعلِّم كلّ يوم يمضي. بقيت عشرة أيام. أعرف من خلال الورقة التي سلّموني إيّاها لمّا اعتقلت، أنّ المحاكمة لن تجري على الأرجح قريباً، لكنّ حظوظي في قضاء صيف آخر في بينفاتش ضئيلة. وتساءلت كم سيفوتني.

قلت وأنا غير قادرة على تحمّل الصمت لفترة أطول:

«لعلّك علمت بالخبر».

«من الصعب ألا أعلم به في بينفاتش».

أخذت بيثان تتنفّس بصعوبة، فخفّفت السير. ثمّ استرسلتْ:

«. . . رغم أنّني لا ألقي بالاً للنمائم. وددت لو أنني تلقّيته منك، لكنّني أشعر كما لو أنك تتفادينني في الأيام الأخيرة».

لا أنفي ذلك.

«ألا تمانعين في أن نتحدّث في الموضوع؟».

أجبت بارتباك أنّني لا أمانع، ثمّ تنبّهت إلى حاجتي إلى الحديث. التقطت نفساً عميقاً.

«قتلت طفلاً صغيراً، اسمه جاكوب».

سمعت بيثان تزفر، أو لعلّها حرّكت رأسها، لكن دون أن تنبس. وبينما اقتربنا من المنحدر، لمحت البحر.

«كان الليل مخيّماً، والجوّ ماطراً. لم أبصره إلا بعد فوات الأوان».

تنهّدت بيثان بعمق.

«كانت حادثة».

لم يكن سؤالاً، وقد أثّر فيّ إخلاصها.

«نعم».

«لم يقف الأمر عند هذا الحدّ، أليس كذلك؟».

قدرة سكان بينفاتش على حَبْك النمائم لا تضاهى.

«نعم، لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ».

بلغنا قمة المرتفع، ثمّ انعطفنا يساراً، واتّجهنا نحو الخليج. ووجدت صعوبة في الكلام.

«لم أتوقّف. انصرفت وتركته في وسط الطريق مع أمه».

لم أستطع النظر إلى بيثان. أما هي فظلّت صامتة لدقائق. ولمّا استأنفت الحديث، مضت إلى الهدف بلا مواربة.

«لماذا؟».

إنّه السؤال الذي تصعب عليّ الإجابة عنه، لكنّني أستطيع هنا على الأقل أن أقول الحقيقة.

«لأنّني كنت خائفة».

وانتهى بي المطاف أن نظرت خلسة إلى بيثان، لكنّني لم أستطع قراءة تعابير وجهها. كانت واقفة تنظر إلى البحر، فتوقّفت إلى جانبها.

«ألا تحقدين عليّ بسبب ما فعلت؟».

أشهرت في وجهي ابتسامة حزينة.

«لقد أتيتِ فعلاً رهيباً يا جينا ستؤدّين ثمنه في ما بقي من حياتك، وهي عقوبة كافية، أليس كذلك؟».

«رفضوا التعامل معي في المتجر».

شعرتُ بالخزي وأنا أتحدّث عن هذا. لقد جرحتني الإهانة على نحو لا أصدّقه.

هزّت بيثان كتفيها.

«إنّهم أناس غريبو الأطوار، يمقتون الوافدين الجدد، ويبحثون عن ذرائع للتحامل عليهم».

«لم أعد أدري ماذا أفعل».

«تجاهليهم. اشتري أغراضك من مكان آخر، وارفعي رأسك. هذه القضية لا تعنيك إلا أنت والعدالة. لا تعني أحداً آخر».

وجّهتُ لها ابتسامة عرفان. إنّ واقعية بيثان مطمئنة. واستأنفتْ تقول بمرح كما لو أنّها أرادت أن تغيّر الموضوع:

«اضطررت إلى أخذ قطّة إلى البيطري أمس».

«تحدّثت إلى باتريك؟».

توقفت بيثان عن السير والتفتت إليّ.

«هو حائر، لا يعرف ما يقول لك».

«لم يواجه صعوبة في الكلام حين التقيته آخر مرّة».

تذكرتُ فتور صوته وقساوة نظرته حين همَّ بالانصراف.

«إنّه إنسان يا جينا، واحد من هذه المخلوقات الضعيفة. تحدّثي إليه، تحدّثي إليه مثلما فعلت معي. قولي له إنّك خفت. سيتفهّم ندمك على ما صدر منك».

صحيح أن باتريك كان على علاقة ببيثان لمّا كانا شابَّين، وتساءلت للحظة عمّا إذا كانت على حقّ: ألا تزال ثمّة فرصة لعودة العلاقة بيني وبين باتريك؟ لكنّها لم ترَ الكيفية التي نظر إلي بها.

وقلت:

«كلا. انتهى ما بيني وبينه».

بلغنا الخليج. وباستثناء رجل وامرأة ينزّهان كلبهما في جانب الماء، لم يكن أحد في الشاطئ. كان المد صاعداً والأمواج تداعب الرمل. ولاح لي نورس ينقر سلطعوناً. وبينما كنت أهمّ بتوديع بيثان، رأيت شيئاً على الرمل قرب الماء. نظرت ملياً، لكنّ الأمواج سرعان ما أخفت الرمل بحيث لم أتمكن من قراءة ما كان مكتوباً. وما هي إلا موجة أخرى حتّى امّحت الكتابة تماماً، لكنّني على يقين من أنّني رأيت شيئاً. وشعرت فجأة بالبرد، فزرّرت معطفي، وسمعت جلبة على الطريق الضيّق خلفنا. التفتّ على بغتة، فلم أجد شيئاً. مضت عيناي تتفحّصان الطريق الساحلي الضيّق وأعلى المنحدر، ثمّ نظرت إلى البحر في الأسفل من جديد. هل يان في مكان ما هنا يراقبني؟

حدّقت في بيثان بقلق:

«ماذا بك؟ هل ثمّة مشكلة؟».

أنظر إليها لكنّني لا أراها، كلّ ما أراه هي الكتابة: الكتابة التي لم أعد أعرف أرأيتها على الشاطئ أم في رأسي. وبدا لي كما لو أنّ غيوماً بيضاء تحوم حولي، وشعرت بالدم يهدر في أذني حتى أنّه طمس صوت البحر. وقلت هامسة:

«جينيفر».

فسألتْ بيثان وهي تنظر إلى الشاطئ في الأسفل حيث كان البحر يغمر الرمل الناعم:

«جينيفر؟ من تكون جينيفر؟».

أحاول أن أبلع ريقي، لكنه ظلَّ عالقاً في حلقي.

«أنا. أنا هي جينيفر».

32

أعلن راي:

«آسف».

جلس على حافة مكتب كايت ومدَّ لها وثيقة وضعتها على الطاولة دون أن تنظر إليها.

«هل قرّر وكيل النيابة المتابعة؟».

هزّ رأسه مقرّاً.

«لا يوجد أيّ دليل يسند فرضية أنّ جينا تخفي شيئاً، ونحن لا نستطيع تأخير القضية أكثر. عليها أن تحضر إلى المخفر بعد هذا الزوال، وستوجّه لها التهم» ومضى يراقب تعابير وجه كايت. «لقد قمتِ بعمل جيّد. لم تتوقّفي عند المظاهر، وهذا بالضبط ما يقوم به المفتش الماهر. لكن المفتش الماهر أيضاً هو من يعرف متّى يضع نقطة نهاية لتحقيق من التحقيقات».

قام واقفاً وضغط على كتفها بلطف قبل أن يتركها تقرأ الوثيقة. كان الأمر محبِطاً، لكن هذا من المخاطر المترتّبة عن اتّباع الحدس. فالحدس لا يصيب دائماً.

وعند الثانية بعد الزوال، نادى مكتب الاستقبال ليخبر أنّ جينا وصلت. قادها راي إلى مكان الاحتجاز، وطلب منها أن تنتظر على

المقعد الحديدي المحاذي للجدار بينما كان يسهر على إعداد صكّ الاتهام. كانت تصفّف شعرها على شكل ذيل حصان، كاشفة عن وجنتيها البارزتين وبشرتها الفاتحة الناعمة.

مدَّ العريف الصكّ إلى راي الذي اتّجه نحو المقعد الحديدي.

«بناء على الفصل الأول من قانون السير والجولان الصادر سنة 1988، أنت متّهمة بالسياقة المتهوّرة المُفضية إلى مقتل جاكوب جوردان يوم 26 نوفمبر من سنة 2012؛ وبناء على الفصل 170(2) من قانون السير والجولان الصادر سنة 1988، أنت متّهمة أيضاً بجنحة الهرب. هل ترغبين في التصريح بشيء؟».

راح راي يراقبها بحثاً عن أبسط علامة خوف أو توجّس، لكنّها أغمضت عينيها وهزّت رأسها وهي تقول:

«كلا».

«ستوضعين رهن الاعتقال الاحتياطي، وستمثلين أمام محكمة بريستول الابتدائية يوم غد».

تقدّمت الحارسة التي كانت تنتظر، لكنّ راي تدخّل:

«سأتكفّل بها».

أمسك بذراع جينا بلطف وقادها إلى الجناح المخصّص للنساء. وبينما كانا يذرعان الممرّ، أثار وقع نعال أحذيتهما المطاطية سيلاً من المطالب:

«هل تسمح لي بالخروج لتدخين سيجارة؟».

«ألم يصل محاميّ بعد؟».

«هل بإمكاني الحصول على غطاء آخر؟».

تجاهلهنّ راي. فهو لا يرغب في التطاول على اختصاصات العريف المكلّف بجناح الاعتقال الاحتياطي. وشيئاً فشيئاً أخذت

تتحوّل هذه الأصوات إلى نداءات استنكار. وتوقّف أمام الزنزانة رقم سبعة.

«انزعي حذاءك من فضلك».

فكّت جينا الأربطة، ونزعت حذاءها، ووضعته أمام الباب فتساقطت منه بعض حبات الرمل على الأرضية الرمادية اللامعة. نظرت إلى راي، فأومأ برأسه إيماءة بالكاد تُلحظ إلى الزنزانة الفارغة، فدخلت وجلست على سرير من البلاستيك الأزرق.

استند راي على عِضادة الباب، وقال:

«ماذا تخفي عنّا يا جينا؟».

وأدارت وجهها فجأة لكي تنظر إليه.

«ماذا تقصد؟».

«لماذا لم تتوقّفي يوم الحادثة؟».

لزمت الصمت، وأزاحت الشعر عن وجهها، فلمح من جديد ذلك الندب البارز في راحة يدها. لعلّه ناتج عن حرق أو حادثة شغل.

أشار إلى الندب وسأل:

«ماذا أصابك هناك؟».

حوّلت بصرها وهي تتهرّب من الجواب.

«ماذا سيقع لي في المحكمة؟».

تنهّد راي. كان واضحاً أنّه لن يحصل منها على أكثر ممّا حصل.

«ستخصّص جلسة الغد للبحث التمهيدي. ستُسألين عن المنسوب إليك، وستُرفَع القضية إلى محكمة الجنايات».

«وبعد ذلك؟».

«ستُدانين».

وسألت وهي ترفع عينيها نحوه:

«وسأُسجَن؟».

«ربّما».

«كم؟»

«قد تبلغ العقوبة أربع عشرة سنة».

تفرّس راي وجهها الذي بدأت تبدو عليه معالم الخوف.

فكرّرت:

«أربع عشرة سنة؟».

بلعت ريقها.

حبس راي أنفاسه. واعتقد للحظة أنّها ستبوح له بالسبب الذي دعاها إلى عدم التوقّف بعد الحادثة، لكنّها أشاحت عنه واستلقَت على السرير، وقد أغمضت عينيها بشدّة.

«أريد أن أنام الآن قليلاً من فضلك».

نظر إليها راي برهة قبل أن ينصرف ويُغلق باب الزنزانة خلفه.

«برافو!» قبّلت ماغس راي على خدّه بينما كان يتخطّى عتبة الباب، «تابعتُ الأخبار. أحسنت بعدم تخلّيك عن تلك القضية».

كان ردّ فعله متحفّظاً، لا سيما أنّ سلوك جينا ما زال يشوّش ذهنه.

«هل المحافِظة راضية على النتيجة؟».

تبع راي ماغس إلى المطبخ حيث فتحت علبة جعة سكبتها له في كأس.

«مسرورة بالطبع. هي من راودتها فكرة إصدار نداء للشهود بمناسبة مرور سنة على الحادثة...».

وارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة.

«ألا يزعجك ذلك؟».

فأجاب وهو يرتشف جرعة صغيرة من الكأس ويتنهّد دلالة على الرضا:

«لا يهمّ من يجني الثمار بما أن التحقيق أُنجز بإتقان، وستكون له بنتيجة في المحكمة. ثمّ إنّ كايت هي من قامت بالعمل الشاقّ هذه المرّة».

ربّما كان ذلك نتاج مخيّلته، لكنّ ماغس بدت كما لو أنّها جفلت لسماع اسم كايت.

«وغراي، كم سيكون نصيبها؟».

«ستّ سنوات أو سبع. يتوقّف الأمر على ما إذا كان القاضي سيتّخذها عبرة. حين يتعلّق الأمر بطفل، غالباً ما تنطلق العواطف من عقالها».

«ستّ سنوات؟ لا شيء».

كان راي يدرك أنّها تفكّر في توم ولوسي.

فردّ ساهماً:

«وقد تكون مدّة طويلة لا تستحقّها».

«ماذا تقصد؟».

«هناك شيء ما غريب في هذه القضية».

«كيف».

«لدينا شعور بأنّها تخفي أمراً. لكن المسألة الآن حُسمت. لقد وُجّه لها صكّ الاتهام. أمهلتُ كايت أقصى مدّة ممكنة».

نظرت إليه ماغس بقسوة.

«كنت أعتقد أنّك أنت من يشرف على هذا التحقيق. كايت إذاً هي من خمّنت بأنّ غراي لم تقل كلّ ما لديها؟ لهذا أطلقت سراحها؟».

رفع راي عينَيه مستغرباً النبرة الفظّة التي تتحدّث بها ماغس. فأجاب ببطء:

«كلا. أطلقت سراحها لأنني قدّرت أن ثمّة سبباً مقبولاً لنتمهّل حتّى نتثبّت من الوقائع، ونُدين الشخص المناسب».

«شكراً يا نقيب ستيفنس. أعرف جيّداً كيف تجري الأمور. صحيح أنني أقضي نهاراتي أُقِلُّ الأطفال إلى المدرسة كسائقة تاكسي، وأهيّئ لهما الطعام، لكن لا تنسَ أنني أنا أيضاً كنت مفتشة. فلا تخاطبني كما لو كنت مغفّلة من فضلك».

«سامحيني. لم أقصد».

رفع راي يديه في الهواء دلالة على الاستسلام، لكن ماغس لم تضحك. دفعت خرقة تحت حنفية الماء الساخن، ومضت تنظّف طاولة المطبخ بهمّة.

«كلّ ما في الأمر أنني أستغرب. هذه المرأة هربت من مكان الحادث، وتخلّت عن سيارتها لكي تلجأ إلى جُحر في مكان قفر. وحين عثرنا عليها بعد سنة من الحادثة، اعترفت بكلّ شيء. الأمر في غاية الجلاء بالنسبة إلي».

أجهد راي نفسه لكي يخفي ما يشعر به من ضيق. كان النهار طويلاً، وكلّ ما كان يتوق إليه هو أن يشرب كأساً ويرتاح.

وقال:

«الأمر أعقد قليلاً ممّا قد تظنّين. وأنا أثق في كايت. فهي تملك حدساً نادراً ما يُخطئ».

وشعر بالدم يصعد إلى وجهه، وتساءل عمّا إذا لم يكن يدافع عن كايت أكثر من اللزوم.

فقالت ماغس بفتور:

«هذا صحيح. فطوبى لها».

التقط راي نفساً عميقاً.

«هل وقع شيء؟».

واصلت ماغس تنظيف طاولة المطبخ.

«توم؟».

وأجهشت بالبكاء.

«تبّاً! لماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟ ماذا وقع؟».

نهضَ وطوّقها بذراعيه وأبعدها من حوض المطبخ وهو يزيل بلطف الخرقة من بين يديها.

«أظنّ أنّه يسرق».

تملّك راي غضبٌ جعله عاجزاً عن النطق لبضع ثوانٍ.

«كيف عرفت هذا؟».

لقد طفح الكيل. أن يتغيّب عن الدروس وتنتابه نوبات غضب في البيت شيء، أمّا أن يسرق؟

وعلّقت ماغس:

«لست متأكّدة تماماً. ما زلت لم أفاتحه في الأمر...» لاحظت تعابير وجه راي، وأوقفته بحركة من يدها، «ولا أريد أن أفاتحه الآن. لن أفعل قبل أن أعرف الحقيقة».

تنهّد راي:

«لا تخفي عنّي شيئاً».

«بينما كنت أرتّب غرفته قبل قليل» أغمضت ماغس عينَيها للحظة، كما لو أنّها لا تطيق تذكّر ذلك، «فوقعتُ على علبة تحت سريره تحوي جهاز آيباد وأقراص دي في دي، وكميّة من الحلوى وحذاء رياضياً ما زال جديداً».

حرّك راي رأسه دون أن ينبس.

ثمّ أضافت:

«أعرف أنه لا يملك مالاً. فهو ما زال يغرِمُ النافذة التي كسر، ولا أرى كيف حصل على كلّ تلك الأشياء، إلا إذا كان سرقها».

فردّ راي ساخراً:

«ممتاز! سينتهي به الأمر أن يُكشَف. سيكون أمراً رائعاً! ابن النقيب ألقي عليه القبض متلبّساً بالسرقة من المتاجر».

تفرّستْه ماغس وقد علاها الفزع:

«هذا ما انصرف إليه ذهنك؟ ابنك يعاني من تعاسة شديدة منذ عام ونصف. هو من كان مرحاً، متوازناً، ذكياً، تحوّل إلى لصّ غبي، وأوّل شيء يتبادر إلى ذهنك هو «أيّ وقع سيكون لذلك على حياتي المهنية؟»» توقفت ورفعت يديها كما لو أنّها تهمّ بإبعاده، «دعني عنك الآن، لم تعد لي رغبة في الحديث في هذا الموضوع».

استدارت واتّجهت نحو الباب، ثمّ التفتت إلى راي وقالت:

«دعني أتكفّل بتوم. أمّا أنت إن تدخّلت، فلن تعمل إلا على تعويص المسألة. ثمّ إن لديك فيما يظهر ما هو أهمّ من هذا».

سمعها راي تصعد الأدراج رباعاً رباعاً، ثمّ وهي تصفق باب الغرفة. وأدرك أن اللحاق بها لن يفيد في شيء. الظاهر أن مزاجها

معكّر. لم تكن حياته المهنية هي الاعتبار الأهمّ، بل اعتبار من بين اعتبارات أخرى. وبما أنه الوحيد الذي يكسب المال في الأُسرة، فإنّ ماغس بالغت قليلاً حين أزاحت هذا الاعتبار بهذه السهولة. أمّا عن توم، فسيتركها تتكفّل به بما أنّها اختارت ذلك. ثم إنّه لم يعد في الواقع يعرف من أين يبدأ.

33

كان منزل بوفور كريسانت أوسع بكثير من المنزل السابق. لم أنجح في الحصول على قرض عقاري يغطّي ثمنه كاملاً، لذلك لجأت إلى سلف آملاً أن أتمكّن من تسديده. ورغم أنّ الأقساط باهظة، إلا أنه يستحقّ هذا العناء. فهو يتوفّر على حديقة كبيرة تستوعب ورشتك، وقد تألّقت عيناك ونحن نبحث عن المكان الذي نشيّدها فيه.

قلتِ:

«ممتاز! سأجد هنا كلّ ما كنت أبحث عنه».

حصلتُ على إجازة، وشرعت في بناء الورشة في الأسبوع نفسه الذي انتقلنا فيه إلى البيت الجديد. وقد بذلتِ أقصى ما تستطيعين لتُظهري لي امتنانك. كنتِ تأتينني بفناجين الشاي الساخنة إلى أقصى الحديقة، وفي المساء كنت تَدعينني لتناول حساء لذيذ مع خبز مصنوع في البيت. وددت لو تطول مدّة البناء، وبدأت أتهاون في العمل دون أن أنتبه إلى ذلك. فعوض الخروج إلى الحديقة في التاسعة صباحاً كلّ يوم، لم أكن أشرع في العمل إلا في العاشرة. وكنت أتوقّف طويلاً في أوقات الأكل، وفي فترة ما بعد الظهر، كنت أبقى جالساً في هيكل الورشة الخشبي، أتأمّل طيور السنونو وهي تعبر السماء إلى أن تناديني.

«لقد حلّ الظلام يا حبيبي، انظر إلى يديك كيف تجمّدتا من البرد! تعال إلى الداخل واتركني أدفئك».

كنتِ تقبّلينني وتقولين إنّك تشعرين بالإثارة كلّما فكّرت بأنّه سيصير لديك فضاء خاصّ بك تعملين فيه، وأنّك لم تلقي مثل هذه العناية قطّ، وأنّك تحبّينني.

استأنفت العمل، ووعدتك بأن يكون الفضاء الداخلي للورشة جاهزاً في عطلة نهاية الأسبوع. لكنّني لما عدت إلى البيت أوّل يوم، وجدتك سحبتِ إلى الورشة مكتباً قديماً وأخرجت أصباغك وأدواتك. وقد كان فرن السيراميك موضوعاً في أحد الأركان، بينما تتوسط الحُجرة عجلة الفخّار. كنت جالسة على كرسي صغير، مستغرقة في معالجة الطين وهو يدور بين يديك، تلامسانه بلطف لكي تعطيانه الشكل المطلوب. رحتُ أراقبك من النافذة مترقّباً أن تشعري بوجودي، لكنك لم ترفعي عينيك، وفتحت الباب:

«أليس هذا رائعاً؟».

لم تنظري إليّ.

«أحببت هذا المكان» أزحتِ قدمك عن عجلة الفخّار فتباطأ دورانها قبل أن تتوقّف، «سأذهب لتغيير ملابسي ثمّ أسخّن العشاء».

طبعت قبلة على خدّي محاذرة من أن تلطّخي ملابسي بيديك.

بقيتُ لحظة في الورشة أتأمّل الجدران التي نويتُ تزيينها بالرفوف، والركن الذي خطّطتُ لأن أضع فيه مكتباً أصنعه لك. قمت بخطوة ووضعت قدمي على عجلة آلتك، فتحرّكت لتدور بالكاد دورة واحدة. ومن دون وجود يديك لتوجّها الإناء الفخاري، مال على الجانب قبل أن ينهار على نفسه.

انطلاقاً من هذه اللحظة تهيّأ لي أنّني لم أعد أراك. ثبّتُّ مدفأة

كهربائية لكي تستطيعي قضاء وقت أطول في ورشتك، وحتى خلال عطلة الأسبوع، كنت ما إن يطلع النهار حتى ترتدي الملابس الملطّخة بالطين وتشرعين في النحت. وضعت لك رفوفاً، لكنّني لم أصنع المكتب الذي كنت أنوي صنعه، ولطالما ضايقتني رؤيتك تشتغلين على تلك الطاولة القديمة.

كان قد مضى على استقرارنا في البيت عام تقريباً لمّا اضطررتُ إلى الانتقال إلى باريس للعمل. كانت لدوغ علاقة بأحد الزبائن الجدد، وقرّرنا أن نعطيه انطباعاً جيّداً لعلّه يعهد لنا بطلبية برامج كبيرة. كانت حركة الأعمال متباطئة، ممّا جعل الأرباح تتضاءل شيئاً فشيئاً. وكنت قد حصلت على بطاقة ائتمان حتّى أستمر في أخذك إلى المطعم، وإهدائك الورود، لكن التسديدات صار من الصعب ضمانها. وقد كان كسبُ زبون باريس من شأنه أن يخرجنا من تلك الضائقة.

سألتني:

«هل يمكن أن ألحق بك؟» كانت تلك هي المرّة الأولى التي تبدين فيها اهتماماً بعملي، «أعشق باريس!».

كنت لا أزال أذكر النظرة الشهوانية التي نظر بها دوغ إلى ماري لمّا رافقتني ذات مرّة إلى المكتب، والكيفية التي تصرّفت هي بها، فلم أشأ من ثمّة أن أكرر الخطأ نفسه.

«أنا أعمل بلا توقف. لن أجد الوقت لكي نستمتع. سنعود إلى هناك لاحقاً حين يخفّ العمل. ثم إنّ لديك مزهريات ينبغي أن تُنهيها».

جُبتِ المدينة لأسابيع، وطفتِ على متاجر الهدايا وقاعات العرض حاملة عيّنات من أعمالك، ولم تعثري إلا على متجرين

اقترحا عليك أن يأخذ عنك كلّ منهما اثني عشر إناء ومزهرية تقريباً على سبيل البيع. وقد فرحتِ فرحاً عارماً كما لو أنّك ربحت في اليانصيب، وصرت تقضين من الوقت مع كلّ مزهرية ما يعادل مجموع الوقت الذي قضيتِه فيما قبل.

وعلّقتُ يوماً:

«كلّما طال الوقت الذي تقضينه في العمل عليها، تضاءل ربحها».

لكنّك بدوت كما لو أنّك ترفضين الاستفادة من تجربتي في عالم الأعمال، واستمررت في إنفاق الساعات في الصباغة والتلميع.

اتّصلت بك لمّا ترجّلت من الطائرة بباريس، وما إن سمعت صوتك حتّى شعرت فجأة بالحنين. أخذ دوغ الزبون للعشاء في أحد المطاعم بينما تظاهرت أنا بالمرض، ومكثت في غرفتي حيث بالكاد لمست الطعام الذي جلبوه لي. وندمت على أنّني لم أسمح لك بالمجيء معي. فقد بدا السرير المرتّب بعناية بالغ الشساعة، ولم يستهوني البتة. وعند الحادية عشرة، نزلت إلى حانة الفندق، وطلبت كأس ويسكي، وجلست إلى البار، ثمّ طلبت كأساً آخر. بعثت لك رسالة نصية، لكنّك لم تجيبي: لعلك كنت في ورشتك بعيداً عن الهاتف.

كانت ثمّة امرأة جالسة إلى مائدة بقرب البار. كانت ترتدي فستاناً رمادياً مخطّطاً من قطعتين، وتنتعل حذاء أسود ذا كعبين عاليين، وبجوارها، على الكرسي، حقيبة صغيرة مفتوحة. كانت تقلّب بعض الوثائق، ولمّا رفعت عينيها، وتقاطعت نظراتنا، وجّهتْ لي ابتسامة حزينة قابلتها بمثلها.

سألتني:

«أأنت إنجليزي؟».

«أهذا ظاهر عليّ إلى هذا الحدّ؟».

ضحكتْ.

«من يدمن على السفر مثلي، تصير عينه مدرّبة على مثل هذه الأمور». لمّتْ الوثائق التي كانت تشتغل عليها وأعادتها إلى الحقيبة، ثمّ أغلقتها بقوّة، «هذا يكفي اليوم».

لم يكن بادياً عليها أنّها تهمّ بالانصراف.

«هل أستطيع أن أنضمّ إليك؟».

«بكلّ سرور».

رغم أنّني لم أخطّط للأمر، فقد كان هذا هو ما أنا في حاجة إليه بالضبط. لم أسألها عن اسمها إلا صباح الغد لمّا خرجت من الحمام متدثرة في منشفة. أجابت:

«إيما».

لم تسأل عن اسمي، وتساءلت عمّا إذا كانت متعوّدة على هذا في غرف فنادق مجهولة تقع في مدن مجهولة أيضاً.

لما انصرفتْ، اتّصلتُ بك، فحكيتِ لي كيف قضيت نهارك، وكيف أنّ صاحب متجر الهدايا افتتن بمزهرياتك، وأنك متلهّفة للقائي. قلت لي إنك اشتقت إلي، وأنّكِ لا تطيقين بعدي، وهو ما طمأنني. فقلت لك:

«أحبّك».

كنت أعلم بحاجتك إلى سماعها، وأنّك لا تقنعين بكل ما أفعله من أجلك. تنهّدت وأنتِ تقولين:

«أنا أيضاً».

قام دوغ بعمل جيّد مع الزبون في المطعم. فحسب الدعابات التي كانا يتبادلانها خلال لقائنا الصباحي، أنهيا الليلة على الأرجح في أحد نوادي التعرّي. وما إن حلّت الثانية عشرة حتى كانت الصفقة قد تمّت، فهتف دوغ إلى البنك لكي يخبرهم بأنّنا صرنا قادرين على السداد من جديد.

طلبتُ من موظف الاستقبال في الفندق بأن ينادي على سيارة أجرة، ثمّ أضفت:

«أين يمكن أن أعثر على أشهر متاجر المجوهرات؟».

وجّه لي ابتسامة متواطئة شوّشتني.

«تريد أن تشتري شيئاً بسيطاً للسيّدة؟».

تجاهلته.

«أفضلُ متجر؟».

وصارت ابتسامته مغتصبة.

«ضاحية سان أونوري، يا سيدي».

وبينما كنت أنتظر سيارة الأجرة، ظلّ مهذّباً، لكن سؤاله الوقح جعلني أحرمه من البقشيش. ولم أستعد هدوئي إلا لمّا ترجلت من سيارة الأجرة.

جُبت ضاحية سان أونوري كاملة قبل أن أتوقّف عند صائغ صغير يحمل اسماً عادياً «ميشال»، يمتلئ متجره بالألماس المتلألئ. أردت أن أتريّث في اختيار ما يروقني، لكن العامل ببزّته السوداء راح يحوم حولي، ويعرض عليّ مساعدته، فلم أستطع أن أركّز. وانتهى بي المطاف بأن اخترت الأكبر: خاتم من البلاتين مزيّن بماسة مربعة لن تستطيعي رفضها. مددت له بطاقة ائتماني وأنا أقول في نفسي إنكِ تستحقينه.

وفي صباح اليوم الموالي، استقلت طائرة العودة والعلبة الجلدية الصغيرة تلهب أصابعي. فكّرت في أن آخذك إلى المطعم، لكنني حين فتحت الباب، ارتميتِ عليّ وضممتني إليك بقوة جعلتني لا أقوى على الانتظار.

«تزوّجيني».

ضحكتِ، لكن لا بدَّ أنّك لمستِ الصدق في عينَي، لأنّك توقّفت عن الضحك ووضعتِ يدك على فمك.

وأضفتُ:

«إنّني أحبّك، ولا أستطيع العيش من دونك».

لم تقولي شيئاً، فشعرت بنفسي أترنّح. لم أتوقّع هذا في مخطّطي. كنت أنتظر أن تقفزي عليّ وتتشبّثي بعنقي وتقبّليني، وربّما تبكين. لكن بالمقام الأوّل، أن تجيبي: نعم. تحسّست العلبة في جيب معطفي ووضعتها في يدك.

«أنا جاد يا جينيفر. أريدك أن تكوني زوجتي إلى الأبد. قولي نعم من فضلك، قولي».

هززتِ رأسك بلطف، لكنّك فتحت العلبة، فأصابك الشدوه.

«لا أعرف ما أقول».

«قولي نعم».

تردّدت طويلاً حتّى بدأ الشك يتسرّب إلى نفسي، ثمّ قلتِ:

نعم.

34

جعلني صوتٌ حادّ أنخلع من مكاني. بعد انصراف النقيب ستيفنس مساء الأمس، رحت أحملق في طلاء سقف زنزانتي المقشّر، وأنا أشعر بالبرودة صاعدة من مصطبة الخرسانة التي وضع عليها الفراش إلى أن باغتني النوم. وبينما سوّيت نفسي على السرير، أحسست بآلام في مفاصلي وصداع في رأسي.

سمعت صوت ارتطام حادّ، فأدركت أنّه آتٍ من الفتحة المربعة التي تتوسّط الباب والتي كانت تمتد منها يدٌ في تلك الأثناء، وتضع صينية من البلاستيك.

«هيّا، خذي، لن أنتظرك طوال اليوم!».

تناولت الصينية، وقلت:

«هل يمكن أن أحصل على الأسبرين؟».

كانت الحارسة تقف بجانب الفتحة، ولم أكن أرَ وجهها. كلّ ما أرى بزّةً سوداء وجديلة شعر أشقر.

«الطبيب غير موجود. انتظري ريثما تذهبين إلى المحكمة».

وما كادت تنهي الجملة حتّى انغلقت الفتحة مصدِرَة صوتاً حادّاً تردّد صداه في الممرّ، وتابعت وقع خطواتها الثقيلة وهو يبتعد.

جلست على السرير، ومضيت أشرب الشاي الذي طفح فبلّل

كلّ أرجاء الصينية. ورغم أنه حلو وبارد، احتسيته بشراهة وقد تنبّهت إلى أنّني لم آكل شيئاً منذ زوال اليوم السابق. يتألف الفطور من حبّة نقانق وفاصولياء في إناء ميكروويف. كان البلاستيك قد ذاب على الجنبات، فغطّى الفاصولياء مرق برتقالي فاتح. تركت هذا الخليط في الصينية مع الفنجان الفارغ، وقمت إلى المرحاض. لم يكن يتوفّر على مقعد، فقط حوض معدني، وقطع من الورق الخشن. حاولت أن أقضي حاجتي بسرعة قبل أن تعود الحارسة.

كان الطعام الذي تركت قد برد منذ مدّة طويلة. سمعت وقع الأقدام من جديد. توقّف عند زنزانتي، وتردّد صوت المفتاح يُدار في القفل ثمّ انفتح الباب الثقيل فظهرت أمامي فتاة متجهّمة بالكاد تبلغ العشرين من عمرها. فهمت من بزّتها السوداء وشعرها الأشقر أنّها الحارسة التي أتتني بالفطور، فأشرت إلى الصينية الموضوعة على فراشي.

«آسفة، لم أستطع التهام هذا».

فردّت وقد لاحت على وجهها ضحكة صغيرة:

«لا أستغرب ذلك. لو كنت مكانك لما لمسته حتّى لو متّ جوعاً».

حاولت أن أنتعل حذائي وأنا جالسة على المقعد المعدني. كنت برفقة ثلاثة أولاد يلبسون سراويل رياضية وقمصان بأغطية رأس متشابهة حتّى ليُخيَّل للناظر أنّهم يرتدون بزّة. جلسوا متهالكين على الجدار باسترخاء على نحو أثار انزعاجي. التفتّ فرأيت عدداً هائلاً من الملصقات فوق رؤوسنا لم أفهم منها شيئاً. معلومات حول المحامين والتراجمة والجُنح «المأخوذة بعين الاعتبار». هل من

المفروض أن أعرف ما يجري؟ كلّما اجتاحتني نوبة من القلق، أتذكّر ما فعلت، فأقول في نفسي لا حقَّ لي في الخوف.

انتظرنا نصف ساعة تقريباً قبل أن يرنّ جرس، ويرفع العريف بصره نحو شاشة المراقبة على الجدار، حيث ظهرت عربة كبيرة بيضاء.

فقال الأولاد:

«ها قد وصلت الليموزين».

تمطّق الشاب الجالس أمامي وغمغم بشيء لم أفهمه، ولم تكن لي رغبة في فهمه.

فتح العريف الباب لرجل وامرأة من أعوان الأمن، وقال للرجل:

«هذا اليوم لديكما أربعة يا آش. على فكرة، تلقّى سيتي ضربة قاضية بالأمس، أليس كذلك؟».

هزّ رأسه ببطء كما لو أنه يُظهر الشفقة، لكن ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، فربت الرجل المدعو آش على كتف العريف على نحو ودود.

«سنثأر» وألقى إلينا نظرة لأوّل مرّة. «حسناً، هل لديك الأوراق الخاصّة بهؤلاء؟».

واستأنف الرجلان حديثهما حول كرة القدم بينما اقتربت المرأة منّي.

«هل أنتِ بخير يا حسنائي؟».

امرأة أميل إلى السمنة، ذات ملامح أموميّة لا تتناسب مع البزّة التي ترتدي. وانتابتني فجأة رغبة بلهاء في البكاء. طلبتْ منّي أن أقوم، ثمّ مرّرتْ راحة يدها على ذراعي وظهري وساقي. وتحسّستْ

خصري، وتفحّصتْ حزام حمّالة صدري من فوق قميصي. شعرت بالغمز واللكز المتبادل بين الأولاد الجالسين على المقعد، وأحسست بنفسي وأنا تحت أنظارهم كما لو أنّني عارية. ثمّ صفّدت المرأة يدي اليمنى إلى يدها اليسرى وسحبتني إلى الخارج.

أُخِذنا إلى المحكمة في عربة مساجين ذكّرتني بعربة نقل الخيول التي كنت أراها في المعارض الفلاحية التي تأخذنا أمّي إليها أنا وإيف. معاصمنا مصفّدة ومشدودة إلى سلسلة تمتّد على عرض مقطورة السيارة. وقد أشعرني ضيق المكان بالاختناق، فمضيت أنظر إلى زجاج النافذة المصقول الذي تبدو منه عمارات بريستول في مختلف الألوان والأشكال. حاولت أن أخمّن الوجهة التي نقصد، لكنّ المنعطفات الكثيرة أصابتني بالغثيان، فأغمضت عينَي وأنا أسند جبيني إلى زجاج النافذة البارد.

وعند وصولنا إلى المحكمة الابتدائية، استُبدِلت زنزانتي المتحرّكة بزنزانة ثابتة. قدّموا لي شاياً، ساخناً هذه المرّة، وخُبزاً محمّصاً هشّاً. قيل لي إنّ محاميّ سيصل على الساعة العاشرة. ألم تحلّ العاشرة بعد؟ طال هذا الصباح أكثر من اللازم.

«السيدة غراي؟».

المحامي رجل شابّ وهادئ، يرتدي بذلة فاخرة مخطّطة.

«لم أطلب محامياً».

«ينبغي أن ينوب عنك محامٍ يا سيّدة غراي، وإلا عليك أن تتولّي الدفاع عن نفسك. هل ترغبين في أن تتولّي الدفاع عن نفسك؟».

كان حاجبه المرفوع يوحي بأنّ هذا الاختيار لا يُقدِم عليه إلا معتوه.

هززت رأسي.

«حسناً. يتهيّأ لي أنّك أقررت خلال استجوابك بارتكاب الجنح الآتية: السياقة المتهوّرة المفضية إلى القتل، وجريمة الاصطدام والهروب. هل هذا صحيح؟».

«نعم».

تصفّح بسرعة الملف الذي كان بحوزته. لم يكن قد نظر إليّ بعد.

«هل أنت ناوية على الثبات في الإقرار بالمنسوب إليك؟».

«نعم».

بدا كما لو أنّ هذه الكلمة بقيت معلّقة في الهواء. إنّها أوّل مرّة أنطق فيها بصوت عالٍ. أنا أقرّ بذنبي.

كان واضحاً أنه كتب أكثر من كلمة، ووددت لو ألقي نظرة على ما دوّن.

«سأطلب لك السراح المؤقت بكفالة، ولديك حظوظ كبيرة في الحصول عليه. لم يسبق لك أن اعتقلت، ولم تخرقي مقتضيات السراح المؤقت الذي استفدت منه سابقاً، وتقدّمت إلى مفوضيّة الشرطة في الوقت المحدّد. . . على أنّ الفرار بعد الحادثة لن يكون في صالحنا. هل تعانين من اضطراب عقلي؟».

«كلا».

«للأسف. سأبذل قصارى جهدي. حسناً، هل لديك أسئلة؟».

عندي العشرات منها، لكنّني قلت:

«كلا».

«قفي من فضلك».

كنت أتوقّع أن تكون قاعة المحكمة حاشدة، لكن باستثناء رجل يحمل كرّاسة، يبدو كما لو أنّه يشعر بالملل في ركن من القاعة مخصّص للصحافة، لم يكن ثمّة سوى عدد قليل من الناس. محاميّ جالس في وسط القاعة مديراً لي ظهره، وبجانبه امرأة شابة ترتدي تنورة زرقاء داكنة، تدوّن شيئاً على وثيقة. وإلى المائدة الطويلة نفسها، أبعد منهما قليلاً، يوجد مقعدان شبيهان بمقعديهما مخصّصان على الأرجح للاتّهام.

سحب حاجب المحكمة كُمّي، فتنبّهت إلى أنّني الوحيدة التي ما زلت واقفة. وصل القاضي، وهو رجل ذو ملامح متعبة، وَخَطَ شعرَه الشيب، فَفُتِحت الجلسة. تسارعت دقّات قلبي، وامتقع وجهي من الخزي. كان العدد القليل من الحاضرين الجالسين في المكان المخصّص للجمهور يتطلّعون إليّ بفضول كما لو أنّني معروضة في متحف. وتذكّرت شيئاً قرأته ذات يوم بخصوص عمليات الإعدام العامّة بفرنسا: كانت المقصلة تُنصب في الساحة العامة حتّى يتمكن الجميع من المشاهدة، وكانت النساء يطقطقن إبَر الحياكة بانتظار انطلاق الفرجة. وتملّكتني القشعريرة حين تنبّهت إلى أنّني محطّ كلّ الأنظار ذلك اليوم.

«قفي من فضلك أيّتها المتهمة».

وقفت، وقدّمت اسمي حين طلب منّي كاتب المحكمة ذلك.

«ما قولك في المنسوب إليك؟».

«أقرّ به».

بدا صوتي ضعيفاً فتنحنحت، لكنّهم لم يطلبوا منّي تكرار ما قلت.

أصابني الدوار من الحديث الطويل الذي جرى بين المحاميين حول إطلاق سراحي المؤقّت نظير كفالة.

في الأمر مجازفة. قد تلوذ المتّهمة بالفرار.

لقد احترمتْ مقتضيات إطلاق سراحها السابق، وليس ثمّة ما يدعو إلى ألا تحترمها هذه المرّة.

هي مهدّدة بالمؤبد، وهذا يجعل فرارها محتملاً.

حياتها متوقّفة على هذه المحاكمة، لذا على العدالة أن تقدّر الأمور حقّ قدرها.

لم يكونا يتحدّثان مباشرة بل عبر وساطة القاضي مثلما يتّخذ طفلان أحدَ والديهما وسيطاً لتصفية خلاف من الخلافات. كان كلامهما مشبعاً بالانفعالات، مصحوباً بإيماء وحركات مفخّمة تتلاشى في قاعة المحكمة الفارغة. طالب الادّعاء ببقائي رهن الاعتقال إلى أن تشرع محاكمتي أمام محكمة الجنايات بينما حاول محاميّ الحصول على إطلاق سراحي بكفالة حتّى أتمكن من انتظار المحاكمة في بيتي. وحدتني رغبة فجأة في أن أسحب كمّه وأقول له ليست هذه رغبتي. فباستثناء بو، لا أحد ينتظرني في البيت الريفي. بل لربّما كنت في مأمن داخل السجن. عدا أنّني مكثت جالسة بصمت، واضعة يدَي على ركبتَي، لا أعرف ماذا ينبغي أن أفعل لأصل إلى غايتي. مهما يكن، فلا أحد ينظر إليّ. لم أعد أُرى. ورحت أتابع المناظرة بين المحاميين متطلّعة لمن سينتصر في هذه الحرب الكلامية، إلا أنّ تمثيليّتهما هذه سرعان ما قادتني إلى الشرود.

خيّم الصمت في قاعة المحكمة، فحدّق فيّ القاضي بتجهّم. وراودتني رغبة عبثية في أن أقول له إنّني لست مثل بقيّة المتّهمين الذين دأبوا على التمثيل أمامه، وأنّني نشأتُ في بيت كبيته، وتردّدت

على الجامعة، وأقمتُ ولائم عشاء في بيتي، وأنني كان لديّ أصدقاء، وكنت في الماضي واثقة من نفسي ومبتهجة. أقول له إنّني لم أخرق القانون قطّ قبل واقعة السنة الماضية، وأنّ ذلك كان خطأً فادحاً. عدا أنّ نظرته كانت لا مبالية، وكنت أعلم أنّه لا يعنيه من أكون وكم وليمة عشاء نظّمت. لست في نظره سوى مجرمة كسائر المجرمين. وراودني الشعور من جديد بأنّني جُرِّدت من هويّتي.

قال القاضي:

«لقد دافع محاميك بهمّة عن حقّك في إطلاق السراح بكفالة يا سيدة غراي، وأكّد أنّ حظوظي في أن أراك تختفين تعادل حظوظي في النزول على سطح القمر» وتردّدت ضحكات في مدرج الجمهور، حيث جلست على نحو مريح في الصفّ امرأتان عجوزان، فلاحت على وجه القاضي ابتسامة. «وجَزَم بأنّ فرارك من مكان تلك الحادثة البغيضة يرجع إلى نوبة حُمق ليست من طبيعتك، وأنّها لن تتكرر. أتمنّى يا سيدة غراي، وهذا لمصلحتنا جميعاً، أن يكون محقّاً فيما قال».

توقّف عن الحديث لحظة، فحبست أنفاسي:

«أوافق إذاً على طلب السراح المؤقّت».

وتنفّست الصعداء.

تعالت جلبة في المكان المخصّص للصحافة، ورأيت الشاب يتسلّل من بين المقاعد حاملاً كاميرته، ومفكّرته محشورة على نحو مستعجل في جيب سترته. قام بانحناءة صغيرة نحو هيئة المحكمة قبل أن يخرج ويترك الباب تنغلق خلفه.

«انتظري من فضلك».

وبينما كان القاضي يغادر القاعة، أخذ صخب المحادثات

يتعالى شيئاً فشيئاً. رأيت محاميّ ينحني على الادّعاء ويقول له شيئاً فيضحكان. ثمّ اقترب من قفص الاتهام لكي يتحدّث إليّ. قال وهو يبتسم:

«نتيجة سارّة. رُفِعت القضيّة إلى محكمة الجنايات، وستُحكَم يوم 17 مارس. سيقدّمون لك معلومات حول المساعدة القضائية، والإمكانات المختلفة المتاحة فيما يتعلّق بتمثيلك أمام العدالة. أتمنّى لك عودة طيّبة يا سيدة غراي».

انتابني شعور غريب وأنا أغادر قاعة المحكمة بعد أربع وعشرين ساعة قضيتها في الزنزانة. ذهبت إلى المقصف لأشتري قهوة محمولة. ومن شدّة لهفتي لشرب شيء أقوى من شاي المفوضية، حرقت لساني.

يعلو باب محكمة بريستول سقف زجاجي يحمي من الرذاذ مجموعات من الناس يتحدّثون فيما بينهم بسرعة وهم يدخّنون. وبينما كنت أنزل الأدراج دفعتني امرأة كانت قادمة في الاتجاه المعاكس، فاندلقت القهوة على يدي من خلال الغطاء البلاستيكي الذي لم يكن محكم الإغلاق، فقلتُ على نحو آلي:

«معذرة!».

لكنّني لمّا توقفت ورفعت عينَي، لاحظت أنّ المرأة توقفت أيضاً وهي تحمل مايكروفون في يدها. وفجأة جعلني وميض آلة تصوير أنخلع من مكاني، ورأيت مصوّراً على بُعد أمتار منّي.

«ما شعورك اتّجاه إمكانية الحكم عليك بالسجن، جينا؟».

«ماذا؟...».

كان المايكروفون قريباً جداً من وجهي حتّى أنه أوشك على ملامسة شفتي.

«هل ستستمرّين في الإقرار بالمنسوب إليك؟ كيف تعيش أسرة جاكوب هذه الأحداث في نظرك؟».

«أنا... نعم أنا...».

كان الناس يدفعونني من كلّ جانب، والصحافية تطرح أسئلتها بصوت عالٍ لعلّي أسمعها من خلال صخب شعارٍ يردّده الحشد لم أستطع فهم فحواه. كان الصخب من الشدة بحيث خِلْتُ نفسي في ملعب كرة قدم أو صالة للحفلات الموسيقية. شعرت بالاختناق، ولمّا حاولت أن أستدير، دُفِعت في الاتجاه المعاكس. سحب أحدهم معطفي، ففقدت التوازن، وسقطت على شخص، فدفعني بخشونة جعلتني أقف من جديد. ولاحت لي لافتة كُتِبَت على عجل يرفعها حشد المتظاهرين. مَنْ خطَّها شرع بكتابة الحروف الأولى كبيرة بينما كتب الباقي بحروف أصغر حتّى تستوعب كلّ العبارة: **أنصفوا جاكوب!**

أجل، هذا هو الشعار الذي كنت أسمع.

«أنصفوا جاكوب! أنصفوا جاكوب!».

مضوا يردّدون هذا الشعار إلى أن وجدت نفسي محاصرة بالصياح. بحثت عن منفذ من الجانب، لكن الناس كانوا هناك أيضاً. سقطت القهوة من يدي، فانفصل عنها الغطاء لما اصطدمت بالأرض، ولطّخت حذائي قبل أن تسيل على الأدراج. تعثّرت من جديد، وتهيّأ لي لحظة أنّني سأسقط ويدوسني الحشد الغاضب.

«أيتها القذرة!».

لمحتُ فماً مُكشِّراً من الغضب، وقرطَين ضخمَين يتأرجحان من الأمام إلى الخلف. تنخّمتِ المرأة، وبصقت على وجهي، وشعرت باللعاب اللزج الدافئ ينزل على رقبتي ثمّ يقطر على ياقة معطفي.

كان وقع ذلك أشدّ من لو أنّها صفعتني، ورحت أصرخ وأنا أحمي وجهي، منتظرة أن تحطّ عليّ بصقة أخرى.

«أنصفوا جاكوب! أنصفوا جاكوب!».

أمسكَتْ يدٌ بكتفي، فتشنّجت وأنا أحاول أن أتحرّر منها، باحثة بيأس عن منفذ.

«ما رأيك في أن نقوم بجولة معاً؟».

إنّه النقيب ستيفنس. كان الحزم والوجوم باديَين على وجهه. سحبني إلى أعلى السلَّم لكي يعيدني إلى المحكمة. رفع يده عنّي بمجرّد ما تجاوزنا حرّاس الأمن، لكنّه لم يقل شيئاً. تبعته دون أن أنبس أنا أيضاً إلى أن بلغنا فناء هادئاً في خلفية البناية حيث دلّني على بوابة أخرى، وقال:

«اخرجي من هنا. محطّة الحافلات غير بعيدة. هل أنت بخير؟ أترغبين في أن أتّصل بأحد معارفك؟».

«كلا، أنا بخير، شكراً. لا أعرف ماذا كان سيصيبني لولاك».

أغمضت عينَي لحظة، فقال النقيب ستيفنس:

«يا لهم من وحوش! يزعم الصحافيون أنّهم يقومون بواجبهم، لكنّهم مستعدون لبذل الغالي والنفيس من أجل تحقيق سبق صحفي.. أمّا المتظاهرون فبينهم ممسوسون لا شاغل لهم سوى إشهار لافتاتهم عند أوّل فرصة. مهما تكن القضية، تجدهم يتظاهرون في باب المحكمة. لا تعتقدي أنّك الوحيدة التي ووجهت بهذا السلوك».

«سأحاول».

ابتسمتُ بضيق واستدرتُ لأنصرف، لكنّه أوقفني.

«سيّدتي؟».

«نعم؟».

«هل سكنت في المنزل رقم 127 الواقع بشارع غراندام ستريت؟».

فأجبت بحذر:

«كلا يا نقيب. كلا، لم يسبق لي أن سكنت هنالك».

هزّ رأسه وحيّاني بإيماءة من يده. وبينما كنت أجتاز البوابة استرقت النظر إليه، فلاحظت أنّه ظلَّ واقفاً في مكانه يشيّعني.

من حسن حظّي أن القطار المتوجّه إلى سوينسي كان شبه فارغ. سوّيت جلستي على المقعد، وأغمضت عينَي. كنت لا أزال أرتعش بسبب ما رأيته من المتظاهرين. نظرت من النافذة، وشعرت بالارتياح وأنا في طريقي إلى بلاد الغال.

لا تزال أربعة أسابيع تفصلني عن السجن. أمر لا يصدّق، لكنّه حقيقة مع ذلك. اتّصلت بببيثان لأخبرها بأنّني سأعود أخيراً مساء ذلك اليوم.

«هل حصلت على السراح المؤقت بكفالة».

«إلى السابع عشر من مارس».

«خبر سارّ، أليس كذلك؟».

أربكها فتوري. ثمّ سألتها:

«هل نزلت اليوم إلى الشاطئ؟».

«أخرجت الكلاب للنزهة زوالاً. أخذتها إلى أعلى المرتفع الصخري. لماذا؟».

«أكان ثمّة شيء على الرمل؟».

أجابت وهي تضحك:

«كلا، لم ألحظ شيئاً. فِيمَ تفكّرين؟».

تنفّست الصعداء. وبدأت أتساءل عمّا إذا كنت رأيت الحروف حقّاً. فقلت:

«لا شيء. نلتقي لاحقاً».

لمّا وصلت إلى متجر بيثان، دعتني إلى العشاء، لكنّني اعتذرت لأنّني كنت بحاجة إلى أن أخلو إلى نفسي. أصرّت على ألا أذهب فارغة اليدين، وانتظرتها بينما صبّت لي حساء في إناء بلاستيكي. ودّعتها بعد ساعة تقريباً، وعدت إلى البيت الريفي مع بو.

كان الباب قد انفتل بسبب سوء الأحوال الجوية بحيث تعذّرت عليّ إدارة المفتاح في القفل وفتحه. ضربته ضربة قوية بكتفي، فانفتح قليلاً، بما يكفي لتحرير القفل، لكنّ المفتاح أخذ يدور في الفراغ. بدأ بو ينبح بغضب، فطلبت منه أن يصمت. خُيّل إليّ أنّني كسرت الباب، إلا أنّ ذلك لم يعد يهمّني. لو أنّ ليستين أصلحه منذ أن أخبرته بالأمر لأوّل مرّة، لما كان هذا وقع. لقد ضغطت على القفل بقوّة، وهو ما سيتطلب جهداً أكبر لإصلاحه.

سكبت حساء بيثان في إناء ووضعته على النار، ثمّ أخرجت الخبز. كان البيت بارداً، فبحثت عن قميص صوفي في الطابق السفلي، لكنّني لم أعثر عليه. كان بو مضطرباً، يجري من أقصى الصالون إلى أقصاه، كما لو أنّه أمضى اليوم بكامله بعيداً من هنا.

لست أدري لماذا بدا السلَّم مختلفاً اليوم. رغم أن الليل لم يخيّم بعد، فهو غارق في الظلام. شيء ما يمنع الضوء من الدخول من النافذة الصغيرة الموجودة في الطابق العلوي.

وما كدت أصعد حتّى أدركت السبب.

«لم تفي بوعدكِ يا جينيفر».

طوى يان ساقه ووضع رجله على صدري ثمّ دفعني بعنف. زال الدرابزين الخشبي من مكانه فسقطت إلى الخلف وتدحرجت في السلَّم إلى أن اصطدمت بالأرضية الحجرية.

35

نزعتِ الخاتم بعد ثلاثة أيام، وكان وقع ذلك كما لو أنّك وجّهت لي لكمة عنيفة. قلتِ إنّك خفت من إتلافه، وأنّك مضطرّة لنزعه كلّما هممت بالعمل، ممّا قد يعرّضه للضياع. سلكتِه إذاً في سلسلة ذهبيّة دقيقة كنت تلبسينها حول رقبتك، ثمّ طُفنا على الصاغة لعلّنا نعثر على خاتم بسيط يمكن أن ترتديه طوال الوقت.

قلتُ ونحن نغادر متجر المجوهرات:

«يمكن أن تلبسيه من الآن».

«ولكن العرس لن يكون إلا بعد ستّة أشهر».

وبينما كنّا نعبر الشارع ضغطتُ على يدك، وقلت:

«أقصد البسيه عوض خاتم الزواج، حتّى لا تتركي إصبعك فارغاً».

لم تفهمي قصدي.

«هذا لا يزعجني يا يان. أستطيع أن أصبر إلى أن نتزوّج».

«ولكن كيف للناس أن يعرفوا بأنّك مخطوبة؟» ما كان بإمكاني أن أتغاضى عن هذا. أوقفتكِ ووضعت يدي على كتفك. نظرتِ إلى المارّة المتعجلين حولنا وحاولتِ أن تتخلّصي منّي، لكنّني أحكمت

قبضتي عليك. «كيف سيعرفون أنّك على علاقة بي إن أنت لم تلبسي خاتماً؟».

تعرّفت إلى نظرتك، هي نظرة ماري نفسها، نظرة تحدٍّ ممزوجة بالحذر، وقد جعلتني أستشيط غضباً. كيف تجرئين على الخوف منّي؟ وشعرت بجسدي يتشنّج، ولمّا رأيتك تتجهّمين، تنبّهت إلى أنّ أصابعي كانت تضغط بشدة على كتفيك، فحرّرتك.

سألتك:

«هل تحبّينني؟».

«أنتَ تعرف أنّني أحبّك».

«فلماذا لا ترغبين إذاً في أن تشهري للناس زواجنا؟».

حشرتُ يدي في الكيس البلاستيكي لأخرج منه العلبة الصغيرة. كنت أريد أن أزيل هذه النظرة، وعلى نحو تلقائي جثوت على إحدى ركبتَي ومددت لك العلبة المفتوحة. سمعتِ همسات المارّة، فتورّدتِ. خفّف الناس من سيرهم، وتوقّف بعضهم لينظر إلينا، وشعرتُ بالفخر من وجودي معك.

«هل تقبلين الزواج منّي يا حسنائي جينيفر؟».

بدوت متأثرة وأنت تقولين:

«نعم».

كان جوابك أسرع مما كان في المرّة السابقة، وشعرت بالغصة التي كانت في حلقي تتلاشى. وضعت الخاتم في إصبعك، ووقفت لكي أقبّلك. هتف الناس من حولنا، وشعرت بأحدهم يضرب على كتفي، ولم أعد قادراً على ترك الابتسامة. وقلت في نفسي: هذا ما كان عليّ فعله في المرة السابقة، كان عليّ أن أضفي على الأمر طابعاً احتفالياً، صبغة رسميّة. كنت تستحقين أكثر من ذلك.

تجوّلنا يداً في يد بشوارع بريستول الحافلة، وداعبتُ خاتمك بإبهامي وقلت:

«ما رأيك في أن نتزوّج الآن؟ نبحث عن شهود في الشارع، ونذهب توّاً إلى البلدية، وما هي إلا لحظة حتى يكون الأمر قد قُضي».

«ولكن الترتيبات اتّخذناها لشهر سبتمبر! سيحضر كلّ أفراد عائلتي. لا يمكن أن نقوم بهذا الآن».

وظّفت كل ما أملك من ملَكات الحجاج لكي أقنعك بأنّ إقامة العرس في الكنيسة سيكون غلطاً كبيراً: لن يحضُر أبوكِ، ثمّ لماذا تفلسين لإقامة حفل يحضره أصدقاء لم تعد تربطك بهم علاقة؟ كنّا خطّطنا لإقامة حفل في فندق كورتيارد، تتبعه وليمة عشاء لعشرين نفراً. طلبتُ من دوغ أن يكون شاهدي، بينما يكون باقي الضيوف شهودك. حاولتُ أن أتصوّر والدَي بجانبنا، لكنّ الصورة الوحيدة التي كانت تستحوذ على ذهني هي سحنة أبي في آخر مرّة لقيته. سحنة تشي بالإحباط والاشمئزاز، وقد طردت هذه الذكرى من رأسي.

على أنك ثبتِّ على موقفك.

«لا يمكن أن نلغي كلّ شيء الآن يا يان. لننتظر، لم تتبقَّ سوى فترة قصيرة، ستّة أشهر».

صحيح، لكنّني كنت أعُدّ الأيام التي تفصلنا عن اللحظة التي ستصبحين فيها السيدة بيترسن. كنت أقول إنّني سأشعر بنفسي أفضل حينئذ، وأنّ شكوكي ستتبدّد. سأكون متيقّناً من أنّك تحبّينني وستظلّين معي.

وفي الليلة التي سبقت عرسنا، ألححتِ على الذهاب للقاء إيف

في الفندق بينما أقمت أنا في الحانة جنازة برفقة جيف ودوغ ترحّمتُ فيها على حياة العزوبة. وقد حاول دوغ أن يبعث شيئاً من المرح على الجلسة، لكن لا أحد منهما اعترض حين أشرت إلى أنه يحسن بي الخلود إلى النوم باكراً الليلة التي تسبق يوم عرسي.

حين حللتُ بالفندق في اليوم الموالي، طلبتُ كأسَي ويسكي لكي أهدّئ أعصابي. ربتَ جيف على ذراعي قائلاً إنّني شخص رائع، رغم أنّ لا شيء جمع بيننا في السابق. وقد رفض أن يشرب معي. وقبل نصف ساعة من بداية الحفل، أومأ برأسه إلى الباب بينما كانت امرأة ترتدي قبّعة زرقاء داكنة داخلة، وقال:

«هل أنت مستعدّ للقاء حماتك؟ أؤكد لك أنها ليست بالشناعة التي تتصوّر».

المرات القليلة التي التقيت فيها بجيف، كنت أجد مرحه المتكلِّف مقرفاً، لكنني اليوم مبتهج بوجوده إلى جانبي. فهو يساعدني على تغيير أفكاري. ولم أكن أرغب حينئذ إلا في شيء واحد، هو أن أتصل بكِ لكي تُطمئنيني بأنّك قادمة. كانت فكرة أن تتركيني هناك أنتظر، وتهينيني أمام أولئك الناس تبثّ الرعب في نفسي.

عبَرْت القاعة مع جيف، ومدّت لي أمُّكِ يدها فصافحتها، ثمّ مِلتُ عليها لكي أقبّل خدها الجاف.

«سعدت بلقائك يا غراس. لقد سمعتُ عنك كثيراً».

قلتِ لي إنّك لا تشبهين كثيراً أمّك. لكنّها تملك مثلك الوجنتين البارزتين نفسهما. لعلك ورثت بشرة أبيك، وموروّثاته الفنية، لكنك ورثت عن أمك قوامها الرشيق، ونظرتها اليقظة.

فأجابت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مرحة:

«وددت لو كان بإمكاني أن أقول الشيء نفسه، لكن للحصول على أخبار جينا، كان عليّ أن أتّصل بإيف».

حاولت أن أعبِّر لها من خلال ملامح وجهي على تضامني معها، كما لو كنت أنا أيضاً أعاني من عدم عناية جينا بالتواصل. وسألت غراس إن كانت تريد أن تشرب شيئاً، فطلبت كأس شامبانيا. وقالت دون أن تبدي رغبة في قرع الكأسَين:

«في صحّتك!».

تركتِني أنتظر ربع ساعة كما تقتضي الأعراف فيما أظنّ. وتظاهر دوغ بأنّه ضيّع خاتم الزواج كما يحدث في أيّ زواج مدني في أيّ فندق بالبلد، لكن لمّا عبرتِ الممر ماشية، بدوتِ عروساً فريدة في جمالها. كان فستانك بسيطاً: قميص ذو طوق على شكل قلب، يكشف عن رقبتك وكتفيك، وتنّورة ملتصقة بردفيك، وذيل من الساتان اللماع. وكنت تمسكين في يدك باقة ورود بيضاء، وشعرك يحيط بوجهك في شكل جدائل مخرّصة لامعة.

وقفت إلى جانبك ورحت أسترق النظر إليك بينما كنت تنصتين إلى ضابط الحالة المدنيّة وهو يعلن عن زواجنا. وحين نطق بالتهاني، نظرتِ إلى عينَي، فنسيتُ جيف ودوغ وأمّك. حتّى لو كان حاضراً في القاعة ألف شخص، ما كنت لأرى سواك.

«أعلنكما زوجَين تربط بينكما آصرة الزواج».

وتردّدت بعض التصفيقات الخجولة. تبادلنا القبلة قبل أن نعبر الممرّ من جديد. وقد كان القائمون على الفندق قد وضعوا المشروبات والمقبّلات في أحد أركان الحانة، ومضيتُ أراقبك وأنت تطوفين على الضيوف، وتمدّين لهم يدك لكي يعبِّروا عن إعجابهم بخاتمك.

لم ألحظ إيف التي اقتربتْ منّي وقالت:
«إنّها باهرة الجمال اليوم، أليس كذلك؟».
فأجبت:
«هي دائماً باهرة الجمال».
تلقّت إيف استدراكي بحركة من رأسها قبل أن تلتفت إليّ وتنظر في عينيّ، ثمّ تقول:
«لن تسيء إليها، أليس كذلك؟».
ضحكتُ.
«هذا الكلام لا يقال لرجل في يوم عرسه».
«مع أنّه الأهمّ، ألا تظنّ ذلك؟».
ارتشفتْ جرعة صغيرة من الشامبانيا، ثمّ حدّقتْ فيّ واسترسلتْ تقول:
«إنّك تذكّرني كثيراً بأبي».
فرددت بنبرة خشنة:
«لعلّ هذا هو ما يروق جينيفر».
«ربّما. كلّ ما أتمنّاه هو ألا تتخلّى عنها أنت أيضاً».
«ليست لدي أيّ نيّة في التخلي عن أختك. ثمّ إنّ هذا لا شأن لك به. فهي راشدة، ولم تعد طفلة صغيرة صدمتها تصرفات أب كلّ همّه هو الجري وراء النساء».
«لم يكن أبي يجري وراء النساء».
لم تعمد إلى الدفاع عنه، بل اكتفتْ بتقرير حقيقة. وهي حقيقة كانت مفيدة بالنسبة إليّ، لأنني طالما اعتقدتُ أنّ أباكِ ترك أمَّك من أجل امرأة أخرى.

«ولِمَ ترك البيت إذاً؟».

تجاهلت سؤالي.

«اعتنِ بجينا. فهي جديرة بعنايتك».

لم أعد قادراً على تحمّل النظر إلى سحنتها المتعجرفة، وسماع مواعظها التافهة المستعلية. وتركتها في الحانة لألحق بكِ، وأطوّقك بذراعَي. زوجتي الجديدة.

كنت قد وعدتك بالسفر إلى البندقية، وأنا متلهّف لمرافقتك لزيارة المدينة. وفي المطار، مددتِ لهم جوازك الجديد بفخر، وابتسمت لمّا قرأوا اسمك بصوت مرتفع.

«أجده اسماً غريباً!».

«ستعودين عليه بسرعة يا سيدة بيترسن».

لمّا لاحظتِ أنّ التذاكر التي اشتريتُ تخصّ فئة رجال الأعمال، كدت تطيرين من الفرح، وسعيت إلى الاستفادة القصوى من كلّ الامتيازات التي يتيحها السفر في هذه الفئة. ورغم أنّ السفر لم يدم غير ساعتَين، وجدت الوقت لتجرّبي قناع العينين ومشاهدة فيلم وشرب شامبانيا. وقد شعرت بالبهجة وأنا أراك في تلك السعادة، لا سيما أنّني صاحب الفضل فيها.

استغرق التنقل إلى الفندق أكثر ممّا كان متوقّعاً، ووصلنا في وقت متأخّر. كانت الشامبانيا قد تسبّبت لي في الصداع، كما أنّني كنت متعباً، ومتضايقاً من رداءة الخدمة في الفندق. لا ينبغي أن أنسى المطالبة باسترداد تكاليف النقل إلى الفندق حين نعود إلى بريستول.

قلتِ بمجرد ما وطئت قدمكِ أرضية الفندق الرخامية:

«ما رأيك في أن نترك الحقائب في مصلحة الاستقبال، ونخرج فوراً».

«سنقضي هنا أسبوعَين. نودِع متاعنا على مهلنا، ونطلب منهم أن يأتونا بالعشاء إلى الغرفة. البندقية لن ترحل من مكانها غداً» وطوّقتك بذراعي، وقرصت ردفك. «ثمّ إنها ليلة عرسنا».

قبّلتِني. لكنّك تنحّيتِ وأمسكتِ بيدي.

«ما زال الوقت مبكّراً، ما زالت الساعة العاشرة لم تحن! هيّا، لنقم بجولة في الحي، ونشرب كأساً في مكان ما، ثمّ نعود».

ابتسم موظف الاستقبال، ولم يحاول إخفاء إعجابه بهذه التمثيلية المرتجلة.

«خصام المحبّين؟».

ضحك رغم النظرة التي حدجته بها، وتفاجأتُ من رؤيتك تضحكين معه.

«أحاول إقناع زوجي» ابتسمتِ وغمزتني وأنتِ تنطقين هذه الكلمة كما لو أنّ ذلك سيغيّر شيئاً، «سنذهب ربّما للتجوّل في البندقية قبل أن نحمل أمتعتنا إلى الغرفة. يبدو أنّ المدينة رائعة».

أغمضتِ عينيك طويلاً بعد أن غمزت، فانتبهت إلى أنّك بدأت تثملين.

«رائعة جدّاً يا سنيورة، لكنّها ليست في جمالك».

وانحنى موظف الاستقبال انحناءة خفيفة تافهة.

نظرت إليك وأنا أنتظر أن أراك ترفعين عينَيك إلى السماء، لكنّك تورّدت، وفهمت أنّ إطراءه أعجبك. أعجبك إطراء هذا القوّاد، هذا الرجل الناعم ذو الأظافر المقلّمة بعناية الذي يضع وردة بين أزرار سترته.

قلت وأنا أقف بينك وبينه لكي أنحني على المنضدة:

«المفاتيح من فضلك!».

تردّد برهة قبل أن يمدّ لي حامل مفاتيح يضم مفتاحَين مُمَغنطَين.

"Buona sera, signore".

زالت الابتسامة عن وجهه.

رفضت أن يساعدونا في حمل الحقائب، وتركتك تسحبين حقيبتك إلى المصعد حيث ضغطت على زرّ الطابق الثالث، ونظرت إليك في المرآة.

قلتِ:

«كان لطيفاً، أليس كذلك؟».

شعرت بالمرارة في جوفي. كلّ شيء مضى على أحسن ما يرام في المطار وفي الطائرة، وها أنت تفسدين كلّ شيء. كنتِ تتحدّثين، لكنني لم أكن أنصت: كنتُ أفكر في الكيفية التي ابتسمت بها والنحو الذي تورّدتِ به فاتحةً له المجال لمغازلتك، وفي المتعة التي بدت على محيّاك عندما أطرى عليك.

كانت غرفتنا تقع في أقصى ممرّ كُسيَت أرضيتُه بالسجاد. أدخلت البطاقة المُمَغنطة في الفتحة، ثمّ سحبتها منتظراً بفراغ صبر سماع النقرة وانفتاح القفل. وما إن انفتح حتّى دحرجت حقيبتي إلى الداخل غير آبهٍ بما إذا كان سينغلق في وجهك. كان الجوّ ساخناً في الغرفة، ساخناً جدّاً، لكنّ النوافذ لم تكن تنفتح. فتحت طوقي لعلّني أتنفّس قليلاً. كنت أشعر بالدم يخفق في أذني، لكنك كنت لا تزالين تتكلّمين. واصلت ثرثرتك كما لو أنّ شيئاً لم يقع، كما لو أنّني لم أشعر بالإهانة.

أحسستُ براحتي تنقبض، وببشرتي تنشدّ على رسغي المتشنّج، وبالضغط يزيد في صدري، ويعصر رئتي. نظرت إليك وأنت لا تزالين باسمة، مسترسلة في ثرثرتك، فأهويت بلكمة على وجهك.

خفّ الضغط دفعة واحدة، واعتراني هدوء مفاجئ. شعرت بأنّني تخفّفت، كما يحدث بعد الجماع أو بعد حصة رياضية. خفّ الصداع، وكفّ الوريد الموجود في صدغي عن الخفقان. صدر عنك نحيب مخنوق، لكنّني لم أنظر إليك. تركت الغرفة. أخذت المصعد ونزلت إلى الاستقبال. خرجت إلى الشارع دون أن ألتفت إلى منضدة الاستقبال. قصدت حانة وشربت زجاجتَي جعة متجاهلاً النادل الذي حاول التحدّث إلي.

عدتُ إلى الفندق بعد ساعة.

«هل يمكن أن تأتيني بشيء من الثلج من فضلك؟».

«حاضر سيدي».

واختفى موظف الاستقبال قبل أن يعود حاملاً إناء مليئاً بالثلج.

«هل آتيك بكأسي نبيذ يا سيدي؟».

«كلا، شكراً».

كنت قد استعدت هدوئي، وصار تنفّسي هادئاً ومنتظماً. صعدت الأدراج لعلّني أؤخّر قليلاً عودتي.

لمّا فتحت الباب، كنتِ متكومة على السرير. قمتِ وابتعدت إلى الطرف الآخر من السرير لكي تسندي ظهرك إلى الجدار. كانت ثمّة كومة من المناديل الملطّخة بالدم على منضدة السرير، لكن رغم ما بذلتِه من جهد لكي تنظّفي وجهك، كان الدم لا يزال متيبّساً على شفتك العليا. وكانت الزرقة قد بدأت تعلو أرنبة أنفك وتنتشر حول

عينك. ولمّا رأيتني، أجهشت بالبكاء، فكانت دموعك تتلوّن بلون الدم قبل أن تسقط على قميصك، ملطخة إياه ببقع وردية.

وضعتُ الإناء على المنضدة، وبسطتُ فوطة ملأتها بالثلج، ثمّ جلست بقربك. كنت ترتعشين، لكنّني وضعت بلطف الفوطة المحشوّة بالثلج على بشرتك.

وقلت:

«لقد عثرت على حانة لطيفة. أظنّها ستعجبك. وقد جُلتُ في الحيّ، فتعرّفت إلى مطعم أو مطعمَين نتغدى في أحدهما غداً إن لمست في نفسك القدرة على الخروج».

أزحتِ الفوطة، فحدجْتِني بعينين حذرتين. كنت لا تزالين ترتعشين.

«هل تشعرين بالبرد؟ خذي، غطّي نفسك بهذا» تناولتُ الغطاء الموضوع في أسفل السرير لأضعه على كتفيك. «لقد تعبتِ، كان اليوم طويلاً».

قبّلتك على جبينك، لكنّك كنت لا تزالين تنتحبين. ليتك لم تفسدي علينا ليلتنا الأولى. كنت أظنّك مختلفة، وأنّني لن أشعر قطّ بشعور التحرّر هذا: هذا الإحساس بالطمأنينة المطلقة التي تلي الشجار. شعرت بالإحباط وأنا ألاحظ أنّك لم تكوني تختلفين في شيء عن بقية النساء.

36

وجدت صعوبة في التنفّس، وأخذَ بو يئنّ. راح يلحس وجهي، ويضربني بخطمه. حاولت أن أفكّر وأتحرك، إلا أنّ عنف الصدمة قطع أنفاسي وجعلني عاجزة عن القيام. ورغم أنّني ما زلت قادرة على تحريك جسدي، فإن شيئاً ما بداخلي كان يحدث، جعل عالمي يتقلّص أكثر فأكثر. عادت بي الذاكرة فجأة إلى بريستول. لم أكن أعرف كيف سيكون مزاج يان حين سيعود. هيّأتُ له عشاءً ربّما قذفني به. تكوّمت على أرضية ورشتي محاولة أن أحمي نفسي من الضربات التي انهالت عليّ.

نزل يان السلَّم بحذر وهو يحرّك رأسه كما لو أنّه يوبّخ طفلاً صغيراً. رغم ما أبذله من جهد، كنت دائماً أخيّب ظنّه. لم أعرف قط كيف ينبغي أن أتصرّف أو أتحدّث. كان يتكلّم ببطء حتى ليخيَّل للسامع الذي لا يتوقّف عند دلالات الكلمات أنّه قلق عليّ. لكنّ رنّة صوته لوحدها كانت كافية لأن تجعلني أرتعش، كما لو أنّني ممدّدة في الثلج.

وقف فوقي وقد باعد ما بين ساقيه، ومضى يجول ببصره بخمول على جسدي. طيّات سرواله متقنة، وعقدة حزامه من اللمعان بحيث يتراءى لي فيها وجهي المرعوب. لمح شيئاً عالقاً بسترته، ونزع

خيطاً انسلَّ من مكانه، ورمى به على الأرض بلا مبالاة. كان بو لا يزال يئنّ، فعالجه بركلة على رأسه قذفت به بعيداً.

«لا تضربه أرجوك!».

راح بو يصرخ صراخاً كئيباً، لكنّه نهض واختفى في المطبخ.

قال يان:

«ذهبتِ إلى الشرطة يا جينيفر؟».

«آسفة».

قلتُها بصوتٍ خافت، وأنا لست واثقة من أنّه سمعني، لكنّني إن ردّدتها، وخال أنّني أتضرّع إليه، ستثور ثائرته. عليّ أن أنفّذ ما يطلبه منّي بدقة مع الحرص على عدم الظهور بالمظهر الحزين الذي يجعله يستشيط غضباً. وهو أمر كنت، بمرور السنين، أفشل فيه أكثر ممّا أنجح.

بلعت ريقي.

«أنا. . . أنا آسفة».

كان يضع يديه في جيبَيه، ويبدو منبسطاً، لكنّني أعرفه، أعرف السرعة التي يستطيع أن. . .

«أنتِ آسفة؟».

وما هي إلا لحظة حتّى كان جاثياً عليّ، واضعاً ركبتَيه على ذراعَي.

«أتظنّين أنّ أسفك سيغيّر شيئاً؟».

أحنى عليّ وغرز عظم ركبتيه في عضلتَي ذراعَي. لم أتوقّف في عضّ لساني لكي أكبت صراخي من الألم، فبدا الاشمئزاز على وجهه. وشعرت بالمرارة تصعد إلى حلقي، فبلعتها.

«حدّثتِهم عنّي، أليس كذلك؟».

كان يحيط بزاويتي فمه زبد بينما تطايرت قطرات لعاب على وجهي، وتذكّرت فجأة المظاهرة التي رأيتها قبل ساعات في باب المحكمة، لكنّها كانت تبدو بعيدة.

«كلا، كلا، لم أقل لهم شيئاً».

وانطلقت اللعبة من جديد: يلقي سؤالاً، فأجيب قبل أن ينهيه. وهي لعبة كنت أُتقنها. في البداية كان يتهيّأ لي أنّني أرى في عينَيه بصيصاً من الاحترام. كان يتوقّف فجأة في وسط اللعبة، ويشغّل التلفاز أو يخرُج. لكنّني فقدت القدرة على مواصلة اللعبة، أو لعلّه غيّر قواعدها، وبذلك لم أعد قادرة على حسن تقدير الأسئلة. ومهما يكن، فهو يبدو الآن راضياً، وغيّر موضوع الحديث فجأة.

«أنت تلتقين بأحدهم، أليس كذلك؟».

أجبت بسرعة:

«كلا، لا ألتقي بأحد».

سرّني أنّني قلت الحقيقة رغم علمي بأنّه لن يصدقني.

«كذّابة».

لطمني بظهر يده محدثاً صوتاً حادّاً أشبه بصوت سوط، صوت ظلَّ يتردّد في أذنَي حين استأنف قائلاً:

«ساعدك أحدهم على إنشاء موقع إلكتروني، وعثر لك على هذا المكان، من هو؟».

فأجبت وطعم الدم في فمي:

«لا أحد، لقد تدبّرت الأمر وحدي».

«أنا واثق من أنّك لا تستطيعين القيام بهذا بمفردك».

أحنى عليّ حتّى كاد وجهه يلامس وجهي. أجهدت نفسي لكي لا أتحرّك، وأنا أعلم مدى كرهه لقيامي بأي تراجع إلى الخلف.

«فشلتِ حتّى في الاختباء على نحو صحيح. ألم يخطر على بالك أنّ العثور عليك سهل انطلاقاً من تحديد المكان الذي تلتقطين فيه صورك؟ كم كانت فرحة سكان بينفاتش كبيرة وهم يساعدون رجلاً غريباً يبحث عن صديقة قديمة».

لم أتساءل عن الكيفية التي عثر بها يان عليّ. كنت أعلم ذلك لن يستعصي عليه.

«بالمناسبة، أعجبتني كثيراً الصورة التي بعثت إلى أختك».

كان وقع هذه الملاحظة عليّ كلطمة ثانية تهوي على وجهي.

«ماذا فعلتَ لإيف؟».

إن أصاب إيف أو أبناءها مكروه بسبب لا مبالاتي فلن أغفر ذلك لنفسي أبداً. لقد بلغ إصراري على إظهار مدى حبّي لها أن عرّضتها للخطر.

مضى يضحك.

«ماذا تريدينني أن أفعل بها؟ فهي لا تهمّني. ما أنت إلا بائسة قذرة، يا جينيفر. أنت لا شيء من دوني، لا شيء؟ ما أنت؟».

لا أجيب.

«قولي ما أنت؟».

أشعر بالدم يسيل في حلقي، وأجاهد لكي أتحدّث دون أن أختنق.

«أنا لا شيء».

يضحك، وينقل مركز ثقله لكي يخفّف عنّي الضغط، فيهدأ الألم قليلاً في ذراعي. يمرّر إصبعه على وجهي وعلى طول خدّي وشفتَي.

كنت أعرف ماذا سيحدث، لكن ذلك لن يسهّل مأموريتي. فكّ

ببطء أزراري، وفتح قميصي سنتيمتراً بعد سنتيمتر، قبل أن يرفع لباسي الداخلي ويكشف عن صدري. وراحت عيناه تجولان على جسدي، دون أن تظهر فيهما ذرّة شهوة، ثمّ مدّ يده نحو سحّاب سروالي. أغلقت عينَيّ لكي ألوذ بأعماقي عاجزة عن الحركة والكلام. وتساءلت للحظة خاطفة عمّا سيحدث إن أنا صرخت أو تمنّعت، إن أنا قاومت أو ببساطة دفعته عنّي. لكنّني لم أفعل شيئاً من ذلك كعادتي. كلّ ما استطعته هو أن أعاتب نفسي.

لست أدري كم من الوقت مضى وأنا مستلقية هناك في ذلك البيت الريفي المعتم البارد. ارتديت سراولي الجينز، واستدرت على جانبي وأنا أشدّ ركبتيّ إلى صدري. كنت أشعر بآلام حادّة بين فخذي، وبابتلال أظنه دماً. لست واثقة من أنّني فقدت الوعي، لكنني لا أذكر متى انصرف.

ناديت على بو، وبعد لحظة صمت مقلقة، خرج بحذر من المطبخ، خافضاً ذيله وأذنَيه.

«أنا آسفة حقّاً يا بو».

حاولت أن أستقدمه إليّ، لكنّني حين مددت له يدي، مضى ينبح. وبينما كنت أجهد نفسي لأنهض والألم يمزّق أحشائي، سمعت طرقاً على الباب.

كنت أتلوّى من الألم وسط الغرفة، ويدي تمسك بطوق بو الذي مضى يزمجر بصوت خافت دون أن ينبح.

«هل أنت هنا يا جينا؟».

إنّه باتريك.

شعرت بالارتياح. لم يكن الباب موصداً بالمفتاح، فتحته وأنا

أبذل قصارى جهدي لكي لا أنتحب. لم أوقد ضوء الصالون، وتمنّيت أن تكون العتمة من الشدّة بحيث تخفي الكدمات التي لا بدَّ أنها بادية على وجهي.

سأل باتريك:

«هل أنت بخير؟ هل أصابك مكروه؟».

«أنا... غلبني النوم على الأريكة».

«أخبرتني بيثان بعودتك» بدا عليه التردّد، وخفض عينَيه إلى الأرض للحظة خاطفة قبل أن يرفعهما وينظر إليّ من جديد. «جئتك لأطلب المعذرة. ما كان عليّ أن أتحدّث إليك بتلك الطريقة يا جينا. فعلتُ ذلك تحت تأثير الصدمة».

قلت:

«لا عليك» وأنا أنظر خلفه باتجاه المنحدر الصخري الغارق في الظلام، وأتساءل عمّا إذا كان يان لا يزال موجوداً هناك في مكان ما يراقبنا. لا يمكن أن أتركه يراني مع باتريك. لا أستطيع أن أتركه يسيء إليه أو إلى إيف أو إلى كلّ من أُعزّهم. «أهذا ما جاء بك؟».

«هل تسمحين لي بالدخول؟».

تقدّم خطوة، لكنّني حركت رأسي.

«ماذا بك يا جينا؟».

«لا أرغب في رؤيتك يا باتريك».

سمعت نفسي أنطق هذه الكلمات، وقاومت حتى لا أسحبها.

«لست ألومك» كان التعب بادياً عليه، كما لو أنّه لم ينم منذ أيّام. «أعلم أنّني قمت بتصرّف شنيع يا جينا. لست أدري كيف سأكفّر عن ذلك. لمّا علمت بأنّك... بما حدث، صُدمت، ولم أعد قادراً على التفكير السليم، لذلك فضّلت أن أبتعد منك».

أجهشتُ بالبكاء. لم أستطع إمساك دموعي. تناول باتريك يدي، ووددت لو أنّه لا يتركها أبداً.

«أريد أن أفهم يا جينا. لا يمكن أن أتظاهر بأنّني لم أُصدَم، لكنّني أريد معرفة ما وقع. أريد أن أقف إلى جانبك».

لزمتُ الصمت. كنت أعلم أنّ ثمّة شيئاً واحداً يمكن أن أفعله. وسيلة واحدة لحماية باتريك.

وهمس:

«لقد اشتقت إليك يا جينا».

«لا أريد أن أراك ثانية» سحبتُ يدي فجأة، وحرصتُ على أن أُبدي الحزم في كلامي. «لم تعد تربطني بك أيّ علاقة».

جفل وعلاه الشحوب كما لو أنّني وجّهت له ضربة قوية.

«لماذا تتصرّفين معي هكذا؟».

«لأنّ هذه هي إرادتي».

«ألأنني تركتك؟».

«هذا لا يعنيك. لا شيء من كلّ هذا يعنيك. دعني عنك من فضلك».

مضى باتريك يحدّق فيّ، وجاهدت من أجل أن أنظر إليه آملة ألا يرى الصراع الذي لا بدَّ أنّه واضح في عينَي. وانتهى به الأمر أن رفع يديه مقتنعاً بالهزيمة، وعاد أدراجه.

مضى يترنّح على الطريق الضيّق، وما هي إلا لحظة حتّى انطلق جارياً.

أغلقت الباب وتهاويت على الأرض وأنا أسحب بو إليّ. أجهشت بالبكاء وراحت دموعي تسيل على فروه. إذا كنت قد عجزت عن إنقاذ جاكوب، فأنا قادرة على إنقاذ باتريك.

بمجرّد ما ستتحسّن حالي، سأنادي على ليستين لكي يصلح القفل.

قلت:

«لم أعد أستطيع إدارة المفتاح في القفل الآن. لقد تكسّر تماماً. لم تعد من وسيلة لإغلاق الباب».

أجاب ليستين:

«لا تهتمّي بهذا، لا يوجد لصوص هنا».

«أريدك أن تصلحه!».

فاجَأَتْنا معاً النبرة الحازمة التي تحدّثتُ بها.

وبعد صمت قصير، قال:

«سآتي».

لم يأتِ إلا بعد ساعة على الموعد. سارع إلى القيام بالإصلاح، لكنّه رفض الشاي الذي قدّمته له. أزال القفل وراح يشحّمه وهو يصفّر بصوت خافت، ثمّ ركّبه قبل أن يدعوني ليُريني كيف أنّ المفتاح يدور بيُسر. فقلت له وأنا أكاد أنتحب من الرضا: «شكراً».

حدجني ليستين بنظرة غريبة، فأخفيت أطرافي بكنزتي الصوفية. كانت تظهر في أعلى ذراعي كدمات سوداء، تمتدّ كلطخات مداد على ورق نشّاف. كنت أشعر بالألم في سائر أعضاء جسدي، كما لو أنني شاركت في سباق ماراتون. وكان خدّي الأيسر متورّماً، وإحدى أضراسي تتحرّك. كنت أترك شعري منسدلاً على وجهي لإخفاء ما هو أدهى.

ورأيت ليستين ينظر إلى الطلاء الأحمر على الباب، فقلت له:

«سأنظّف كلّ هذا».

لكنّه لم يجب. حيّاني بإيماءة من رأسه، ثمّ بدا عليه التردّد، والتفت إليّ وقال:

«بينفاتش قرية صغيرة. لا يخفى فيها شيء».

«هذا ما فهمته».

إن كان ينتظر أن أجيبه، فسيخيب ظنّه. المخوّل له محاكمتي هي المحكمة لا سكان القرية.

ثمّ أضاف:

«لو كنتُ مكانك لحرصتُ على ألا أثير إليّ الأنظار».

فأجبتُ بفظاظة:

«شكراً على النصيحة».

أغلقت الباب، وصعدت إلى الطابق العلوي لكي أستحم. غطست في الماء الساخن مغمضة عينَي لكي لا أرى الكدمات الظاهرة على جسدي. رضوض زرقاء متناثرة على صدري وفخذي. كم كنت بليدة حين اعتقدتُ بأنّني تخلّصت من الماضي. سيلحق بي حيثما ذهبت.

37

سأل راي رغم علمه بأنّ ماغس قادرة على تدبّر أمرها كعادتها:

«هل تحتاجين إلى مساعدة؟».

فردّت وهي تنزع وزرتها:

«كلّ شيء جاهز. الفلفل الحارّ والأرز في الفرن، وزجاجات الجعة في الثلاجة، وثمّة كعك للتحلية».

«كلّ شيء على ما يرام فيما يبدو».

بقي واقفاً وسط المطبخ.

«إن لم تجد شيئاً تفعله، حاول إفراغ غسّالة الأواني».

بدأ في إخراج الصحون المغسولة وهو يفكّر في موضوع محايد يخوضان فيه لا يجرّهما إلى الخصام.

ماغس هي من راودتها فكرة تنظيم مأدبة عشاء هذا المساء احتفاءً بنهاية تحقيق دُبِّر بنجاح. وتساءل راي في قرارة نفسه عمّا إذا لم تكن هذه وسيلة للاعتذار له عن خصوماتهما الأخيرة.

وحين شعر بأنّ الصمت صار ثقيلاً، قال:

«شكراً لك على هذه الفكرة».

رفع سلّة غسّالة الأواني، فسالت قطرات من الماء على الأرض. مدّت له ماغس منشفة وهي تقول:

«إنّها واحدة من قضاياك التي لاقت أكبر اهتمام من وسائل الإعلام، وهو أمر جدير بأن نحتفل به» تناولت المنشفة من يده ووضعتها في حوض المطبخ. «ثمّ إنه إذا كان الرأي الآخر يقضي بأن تحتفلوا أنتم الثلاثة في مطعم ناغس هيد، فقد تسرّعتم في اختياركم».

تقبّل راي النقد دون أن يردّ. هذا إذاً هو ما يخفيه هذا العشاء.

وانهمكا في العمل معاً كما لو أنّ شيئاً لم يقع، كما لو أنّ راي لم ينم الليلة على الأريكة، كما لو أنّ طفلهما لا يُخفي في غرفته أشياء مسروقة. استرق نظرة إلى وجه ماغس، فلم يستطع استجلاء مشاعرها، وقرّر أن يلزم الصمت. يتهيّأ له في الأيام الأخيرة أنّه يقول دائماً ما لا ينبغي له أن يقول.

كان راي يُدرك أنّ المقارنة بين ماغس وكايت لا تستقيم، مع أنّ التعامل مع كايت أسهل في العمل. فهي لا تغضب أبداً، وبذلك فهو غير مضطرّ للتفكير قبل أن يتحدّث كما يفعل مع ماغس، لا سيما إذا كان الموضوع حسّاساً.

لمّا دعا كايت إلى البيت للعشاء هذا المساء، لم يكن متيقّناً من أنّها ستلبّي الدعوة. لذلك قال لها:

«إن لم تقبلي الدعوة، فأنا أتفهّم رفضك».

وبدت الحيرة على كايت. فسألت وهي تعضّ على شفتها:

«لماذا سأ. . . آه فهمت. . . » حاولت أن تظهر الجدية نفسها التي أبداها راي، لكنّها لم تنجح. «سبق أن قلت لك إنّني نسيت كلّ شيء. هذا لا يطرح لي أيّ مشكلة، اللهم إن كان يطرح لك. . . ».

«حسناً».

تمنّى لو يكون كلامها صادقاً. لكنّه شعر فجأة بالانزعاج من

فكرة أن تجتمع كايت وماغس في الغرفة نفسها. فقد جفاه النوم في اليوم السابق على الأريكة بسبب اقتناعه بأنّ ماغس تعرف أنّه قبّل كايت، وأنّها إنّما دعتها هذه الليلة لكي تواجهها بالحقيقة. ورغم علمه أنّ ماغس ليست من النوع الذي يسوّي خلافاته أمام الملأ، فإن هذه الإمكانية تصيبه بالهلع.

قالت ماغس:

«لقد أتى توم هذا اليوم برسالة من المدرسة».

قالت هذا من دون مقدمات مع أنّه شعر منذ عودته من العمل بأنّها تجاهد من أجل أن تخفي عنه الخبر.

«ماذا يريدون؟».

أخرجت الرسالة من جيب وزرتها، ومدّتها له.

السيد المحترم والسيدة المحترمة ستيفنس،

يسعدني أن أطلب منكما الاتصال بكاتبتي قصد تحديد موعد نلتقي فيه للتداول في مشكلة تواجهها مؤسستنا.

تقبّلا سيدي، سيدتي، أسمى عبارات التقدير.
آن كومبرلاند
مديرة إعدادية مورلان داونز

هتف راي وهو يضرب الرسالة بظهر يده:

«ها هم يعترفون أخيراً بوجود مشكلة، ولكن بعد فوات الأوان. تبّاً لهم!».

فتحت ماغس زجاجة النبيذ، فاسترسل راي يقول:

«مضى أكثر من سنة ونحن نقول لهم إن توم يتعرّض للمضايقة، وهم يرفضون حتّى التفكير في هذه الإمكانية، أليس كذلك؟».

تطلّعت إليه ماغس، فإذا بملامحه قد تشنّجت، فانهارت دفاعاتها.

«كيف أنّنا لم نلحظ هذا؟» بحثتْ عبثاً عن منديل في جيب سترتها، «أشعر بأنّني أمّ غير جديرة بالاحترام!».

وفتّشت في الجيب الآخر دون أن تعثر على شيء.

أخرج راي منديلاً من جيبه وراح يمسح بلطف الدموع التي ترقرقت في عينيها، وقال:

«هيّا يا ماغس، كفّي عن هذا. لا أنت ولا أنا أخطأنا. شعرنا منذ التحاقه بالإعدادية أنّ شيئاً ما ليس على ما يرام، ونبّهناهم منذ أوّل يوم لكي يتدخّلوا ويعالجوا المسألة».

تمخّطت ماغس وقالت:

«ليسوا هم من كان يلزم أن يعالجوا المسألة، بل نحن».

«ربّما، لكنّ المشكلة ليست هنا، أليس كذلك؟ المشكلة في المدرسة. الآن وقد اعترفوا بوجودها، لا بدَّ من أن يتدخّلوا ويتصرّفوا».

«أتمنّى ألا يزيد ذلك وضعية توم سوءاً».

«يمكن أن أطلب من الشرطة المكلّفة بالمنطقة أن يزوروا الإعدادية، ويتحدّثوا للتلاميذ عن المضايقة والعنف المدرسي».

قاطعته ماغس بحدّة قائلة:

«كلا! لِنُسوِّ هذه المشكلة مع إدارة الإعدادية. لا داعي لإقحام الشرطة. لنحفظ هذا السرّ بيننا، مفهوم؟ لا أريدك أن تثير موضوع توم في العمل».

وفي الموعد المحدّد، رنّ جرس الباب.

سأل راي:

«هل أنتِ على ما يرام؟».

هزّت ماغس رأسها، ومسحت وجهها بالمنديل قبل أن تعيده لراي.

«نعم».

نظر إلى وجهه في المرآة الموجودة في المدخل، فرأى لونه الشاحب ومظهره المُتعب. ولولا أنّ ماغس قضت اليوم كلّه في المطبخ تُعِدّ الطعام، وأنّها لن ترضى بأن يذهب كلّ جهدها سُدى، لكان صرف كايت وستامبي. تنفّس بعمق، وفتح الباب.

ترتدي كايت سروال جينز وحذاء طويلاً يبلغ ركبتيها، وقميصاً أسود ذا طوق مفتوح. ورغم أنّ لباسها لم يكن على قدر كبير من الأناقة، كانت تبدو أصغر من سنّها، وأكثر انبساطاً ممّا تكون في العمل. وتنحّى راي لكي يتركها تدخل.

قالت:

«فكرة جيّدة، شكراً على استضافتي».

«العفو» قادها إلى المطبخ. «لقد اشتغلت أنتِ وستامبي بجدٍّ في الأشهر الأخيرة: أردت أن أعبّر لكما عن تقديري لمجهوداتكما» ولاحت على وجهه ابتسامة عريضة. «وحتى أكون صادقاً معك، فماغس هي صاحبة الفكرة، هي من ينبغي أن تُشكَر».

استقبلت ماغس ملاحظته بابتسامة صغيرة.

«مرحباً كايت، أنا سعيدة بالتعرف إليك أخيراً. ألم تجدي صعوبة في العثور على البيت؟».

وقفت المرأتان وجهاً لوجه، فراعَ راي التباين بينهما. لم تكن

ماغس قد وجدت الوقت لكي تغيِّر ملابسها، وبدا قميصها ملطّخاً ببقع من المرق. كانت حفيّة ولطيفة كعادتها، لكنّها أمام كايت، بدت. . . وأجهد نفسه ليعثر على الكلمة المناسبة: أقلّ أناقة. وشعر على الفور بوخز الضمير، فاقترب من ماغس، كما لو أنّ القرب منها عربون على الوفاء.

«يا له من مطبخ رائع!» ألقت كايت نظرة على الكعك الخارج من توّه من الفرن، والمغطّى بطبقة من الشوكولاتة البيضاء، وناولت ماغس علبة كارتون لُفّت فيها فطيرة جبن. «أحضرتُ هذه التحلية، لكنني أخشى الآن من أن تبدو بئيسة أمام هذه الحلوى».

فردّت ماغس وهي تتقدّم منها لتتناول العلبة:

«هذا لطف منك! أجد الحلوى دائماً أروع لمّا لا أكون أنا من صنعتها، ألا يحدث لك هذا؟».

ابتسمت كايت بامتنان، فتنفّس راي الصعداء. لن تكون السهرة مرهقة مثلما توقّع، لكن حبذا لو حضر ستامبي.

سألت ماغس:

«حسناً، ماذا تشربين؟ راي يفضّل الجعة، أما أنا فأشرب النبيذ».

«أشرب مثلك».

صاح راي في السلَّم:

«توم، لوسي، تعالا لتسلّما!».

سمع وقع خطى في الطابق العلوي، وإذا بالطفلَين ينزلان السلَّم باندفاع، ويتوجّهان إلى المطبخ. يقفان في فتحة الباب وقد بدا عليهما الارتباك.

أشارت ماغس قائلة:

«هذه كايت، متدرّبة في فرقة بابا لكي تصير مفتشة شرطة».

مضى راي يحملق في ماغس مندهشاً من هذه الملاحظة، لكن كايت لم تبدِ أيّ انزعاج، بل ردّت وقد ارتسمت على محيّاها ابتسامة عريضة:

«ما هي إلا بضعة شهور وأصبح مفتشة شرطة حقيقيّة. كيف حالكم يا أطفال؟».

فردّا بصوت واحد:

«بخير».

«أنت هي لوسي».

لم تكن الطفلة الصغيرة تشبه أمّها إلا في الشعر، أمّا عدا ذلك، فهي تشبه راي. الجميع يقولون إنّ الطفلين يشبهانه في كلّ شيء. لا يظهر الشبه كثيراً في النهار، لكن حين ينامان، وتنطلق أساريرهما، فيصير الشبه أجلى ما يكون، حتّى أنّ راي يرى فيهما وجهه. وتساءل عمّا إذا كان مظهره عدوانياً كمظهر ابنه الذي كان يرشق الأرض بنظراته القاسية. كان قد طلى شعره بالدهن، وصفّفه في هيئة سنبلة ممّا زاد مظهره قساوة.

قدّمته لوسي قائلة:

«وهذا توم».

وقالت ماغس:

«سلّم على كايت، يا توم».

فقال توم دون أن يرفع عينَيه عن الأرض:

«مرحباً».

فضربته ماغس ضربة خفيفة بالفوطة التي في يدها متضايقة.

«آسفة يا كايت».

ابتسمت له كايت، فنظر إلى أمّه ليرى ما إذا كانت ستطلب منه البقاء.

قالت ماغس وهي تتنهّد:

«يا لهؤلاء الأطفال!» نزعت الغشاء البلاستيكي الغذائي عن صحن به ساندويتشات، ومدّته لتوم. «كُلْ هذا في غرفتك بالطابق العلوي إن كنت لا تريد قضاء السهرة مع **العجزة**».

جحظت ماغس عينيها وهي تنطق بهذه الكلمة، فضحكت لوسي. أمّا توم فرفع عينيه إلى السماء، ثمّ انسحبا جاريين إلى غرفتيهما.

علّقت ماغس:

«إنّهما عاقلان».

ثمّ استدركت:

«في معظم الوقت على الأقل».

غمغمت بهذه الكلمات بحيث لا يعرف السامع ما إذا كانت تحدّث نفسها أم تخاطب الآخرين.

سألت كايت:

«أما زالت لتوم مشاكل في الإعدادية؟».

زمجر راي في قرارة نفسه، وحدّق في ماغس التي تجنّبت نظراته. صكّت أسنانها، وقالت بجفاء:

«ليست له مشاكل في المؤسسة».

قطّب راي وهو ينظر إلى كايت، محاولاً الاعتذار لها دون أن تلحظه ماغس. كان عليه أن يخبرها بأنّ زوجته حسّاسة اتّجاه توم. وحلّ صمت ثقيل إلى أن صدرت رنّة عن هاتف راي معلنة عن

استقبال رسالة. أخرجه من جيبه مبتهجاً بما أن ذلك سيخفّف من شعوره بالضيق، لكن فرحته لم تدم طويلاً. قال:

«لن يتمكّن ستامبي من القدوم. لقد ساءت حال أمّه من جديد».

سألت ماغس:

«هل هي بخير؟».

«أظنّه في الطريق إلى المستشفى» بعث راي رسالة نصية إلى ستامبي، وأعاد الهاتف إلى جيبه. «حسناً، بناء على هذا، سنقضي هذه السهرة ثلاثتنا فقط».

نظرت كايت إلى راي ثمّ إلى ماغس، وراحت تقلّب الفطائر، واقترحت:

«ما رأيكما في أن نؤجّل هذا إلى مرّة قادمة، لمّا يكون بإمكان ستامبي الحضور؟».

فردّ راي بمرح متكلّف:

«لا تقولي حماقات. ثمّ إنّنا حضّرنا كمية كبيرة من الفطائر: لن نستطيع أكلها كلّها إذا لم تساعدينا».

راح راي يراقب ماغس متمنّياً لو ترجّح رأي كايت، فيُلغى العشاء بذلك. لكنّها واصلت تقليب الحلوى.

وأضافت ماغس بحماس:

«تماماً» ومدت قفازَي المطبخ إلى راي، «هل يمكن أن تحمل الطنجرة؟ وأنت يا كايت، هل يمكن أن تحملي هذه الصحون وتضعيها على المائدة من فضلك؟».

لم تكن ماغس قد انتهت من وضع الطعام على المائدة، لكن راي جلس على نحو آلي، وجلست على يساره كايت. وضعت

ماغس وعاءً مليئاً بالأرز، ثمّ عادت إلى المطبخ لتجلب صحن الجبن المبشور ووعاء قشدة حامضة، ثمّ جلست قبالة كايت، وانشغل الجميع للحظة بملء صحونهم.

ضاعف رنين أواني المائدة من ثقل الصمت المخيّم، فراح راي يبحث عمّا يقول. هو يعلم أنّ ماغس لا تحبّذ الخوض في أمور العمل، لكنّه قدّر أنّه أأمن موضوع على الأرجح. وقبل أن يتمكّن من اتخاذ القرار، وضعت ماغس الشوكة على حافّة صحنها وسألت:

«هل أعجبكِ العمل في الفرقة الجنائية يا كايت؟».

«كثيراً، صحيح أنه لا ينبغي الانتباه لساعات العمل، لكن العمل ممتاز بالمقابل. هذا ما كنت أحلم به».

«سمعت أنّ النقيب شخص لا يطاق».

التفت راي فجأة إلى ماغس، فوجدها تبتسم لكايت، فضاعف ذلك القلق الذي بدأ يستحكم منه.

ردّت كايت وهي تسترق النظر إلى راي:

«هناك ما هو أدهى. لا أعرف كيف يمكن للمرء أن يكون فوضوياً إلى ذلك الحدّ: مكتبه طامة كبرى. فناجين القهوة نصف المملوءة متناثرة في كلّ مكان».

فأجاب راي:

«لأنّني غارق في العمل بحيث لا أجد الوقت لإنهائها».

أن يكون محطّ سخرية أهون عليه في هذا الظرف الحرج.

فقالت ماغس:

«هو دائماً على حقّ طبعاً».

تظاهرت كايت بالتفكير، ثمّ قالت:

«إلا حين يُخطئ».

راحتا تضحكان فشعر راي بشيء من الارتياح.

سألت كايت:

«هل يقضي وقته في الترنّم بأغنية «عربات النار» هنا أيضاً؟».

فأجابت ماغس بصوت خافت:

«من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، لأنني أكاد لا ألقاه».

خفّ جوّ المرح هذا، ومضوا يأكلون في صمت. سعل راي، فرفعت كايت عينيها، ووجّهت له ابتسامة اعتذار تجاهَلَها، لكنّه حين التفت إلى ماغس، وجدها تراقبهما وهي مقطّبة. وضعت شوكتها وأبعدت صحنها.

قالت كايت:

«ألا تحنّين إلى العمل؟».

كلّ الناس يسألونها هذا السؤال كما لو أنّهم يتوقّعون أنّها تحلم بالعودة إلى عمل المكتب ومواقيت العمل المقرفة والزنازن التي يتحتّم مسح القدمين عند الخروج منها.

أجابت من دون تردّد:

«بلى».

رفع راي عينَيه وقال:

«صحيح؟».

واسترسلت ماغس في التحدّث إلى كايت متجاهلة سؤال راي.

«الواقع أنّني لا أحنّ إلى العمل، بل إلى المرأة التي كنتها حينذاك. آسف على أنّني لم أعد أجد ما أقول وما أفيد به الناس».

توقّف راي عن الأكل. فماغس لم تتغيّر. ظلّت هي نفسها منذ أن تعرّف إليها. فمغادرتها سلك الشرطة لم يغيّر منها شيئاً.

هزّت كايت رأسها متظاهرة بأنّها تتفهّم الوضع، فاستحسن راي ما تبذله من جهد.

«أتنوين العودة إلى الشرطة يوماً؟».

«مستحيل. من سيرعى هذين الطفلين؟» هزّت ماغس عينَيها باتجاه الغرفتين في الأعلى. «هذا من دون الحديث عنه» التفتت إلى راي، لكنّها لم تكن تبتسم، فحاول أن يفكّ طلاسم نظرتها.

«أتعرفين القول المأثور؟ خلف كلّ رجل عظيم. . .».

فتدخل راي فجأة بهمّة مبالغ فيها:

«هذا صحيح» نظر إلى ماغس. «لست أدري كيف ستكون حالي من دونك؟».

قامت ماغس من مكانها فجأة وهي تقول:

«نسيت التحلية! إلا إذا كنت ما زلت تشتهين الفطائر يا كايت؟».

«كلا، شكراً. هل أساعدك؟».

«لا داعي. سأعود توّاً. سأخلّص المائدة، وأقوم بجولة في الطابق العلوي لكي أطمئِنّ على أنّ الطفلين لا يقومان بحماقات».

حملت كلّ الأواني إلى المطبخ، ثمّ سمع راي وقع خطوات ناعمة في الطابق العلوي، ثمّ بعدها همسات في غرفة لوسي. وقال لكايت:

«آسف، لست أدري ماذا أصابها؟».

فسألت كايت:

«أأنا السبب؟».

«كلا، إطلاقاً. صارت غريبة الأطوار في الأيام الأخيرة. هي قلقة بشأن توم فيما أظن» ووجّه لها ابتسامة مطمْئنَة. «من المؤكّد أنه خطئي كالعادة».

نزلت ماغس السلّم، ثمّ عادت بعد لحظة تحمل صينية مليئة بالحلويات وإناء به قشدة.

قالت كايت لماغس وهي تنهض:

«أظنّ أنّنيَ سأستغني عن التحلية».

«هل تفضّلين الفواكه؟ عندي شمّام إن أردت؟».

«كلا، لا داعي. أكاد أموت من التعب، فقد كان الأسبوع مرهقاً. على كلّ حال، كان العشاء لذيذاً، شكراً».

«ما دام الأمر كذلك، فلا بأس» وضعت صينية الحلويات. «لم أهنئك على قضيّة غراي. أخبرني راي بأنّك صاحبة الفضل الأكبر في ذلك. هذا شيء جيّد بالنسبة إلى مسيرتك المهنية، لا سيما أنك لا تزالين في بداية المشوار».

«الواقع أنّني لم أكن بمفردي. فنحن نشكّل فريقاً متكاملاً».

كان راي يدرك بأنّها تتحدّث عن شعبة مكافحة الجريمة بكاملها، لكنّها بينما كانت تقول هذا، رمقته بنظرة جعلته غير قادر على التطلّع إلى ماغس.

توجّهوا إلى باب المدخل بحيث قبّلت ماغس كايت على خدّها.

«مرحباً بك في البيت متى شئت، وقد سعدتُ كثيراً بلقائك».

تمنّى راي أن يكون الوحيد الذي تفطّن إلى غياب الصدق في صوت زوجته. ودّع كايت، وتردّد لحظة في تقبيلها. ولمّا قدّر أنّ عدم تقبيلها أكثر إثارة للشبهة، مدّ لها خدّه، وقبّلها بأسرع ما يمكن، لكنه شعر بنظرات ماغس تتابعه، ولم يُخفِ توتّره إلا لمّا انطلقت كايت في الممرّ، وأغلق باب البيت خلفها.

قال بنبرة مرحة لا تخلو من تكلّف:

«حسناً، أظن أنه بإمكاني الآن أن أستمتع بهذه الحلوى. أأعطيك منها؟».

أجابت ماغس:

«أتّبع حمية» ذهبت إلى المطبخ، ونصبت طاولة الكي، ثمّ سكبت الماء في المكواة، وانتظرت أن يسخن. وضعت علبة بلاستيكية بها أرز وفطائر لستامبي في الثلاجة. «هل يمكن أن تأخذها له غداً؟ سيكون جائعاً إن أمضى الليلة في المستشفى، ولن تكون له رغبة في الدخول إلى المطبخ».

حمل راي صحنه إلى المطبخ، ومضى يأكل واقفاً.

«هذا لطف منك».

«ستامبي رجل طيّب».

«هذا صحيح. إنّني أعمل مع فريق رائع».

لزمت ماغس الصمت لبرهة. تناولت سروالاً، وراحت تكويه، ولمّا عادت إلى الكلام كانت نبرتها لا مبالية، لكنّها كانت تضغط بشدّة بمقدّمة المكواة على الثوب.

«إنها جميلة».

«من؟ كايت؟».

«كلا، ستامبي» حدّقت فيه بسخط. «كايت طبعاً».

«هذه ملاحظتك، أما أنا فلم يتبادر هذا إلى ذهني قط».

كانت الكذبة سخيفة، فماغس تعرفه أكثر من أيّ كان.

قطّبت حاجبيها، لكن راي تنفّس الصعداء لما رآها تبتسم، وتجاسر على معاكستها.

«أتغارين منها؟».

«إطلاقاً. ثمّ إن كانت مستعدّة لكيّ الملابس، ما عليها إلا أن تأتي بأغراضها وتستقرّ هنا».

«آسف على أنّني أثرت موضوع توم».

ضغطت ماغس على زرّ، فلفظت المكواة سحابة بخارٍ على السروال، وواصلت الكيّ من دون أن ترفع عينيها.

«أنت تحبّ عملك يا راي، وهذا أمر لا يضايقني. إنّه جزء منك، لكنّك تتصرّف كما لو أنّنا، أنا والأطفال، غير موجودين. يتهيّأ لي أحياناً أنّك لا تراني».

فتح راي فمه ليعترض عليها، لكنّها هزّت رأسها وأضافت:

«إنّك تتحدّث مع كايت أكثر مما تتحدّث معي. وقد وقفتُ هذا المساء على ذلك التفاهم الخفيّ بينكما. فأنا لست غبيّة. أُدرك معنى أن يعمل المرء مع شخص طوال اليوم: يقضيان الوقت في الحديث طبعاً. على أنّ هذا لا ينبغي أن يمنعك من التحدّث إليّ أنا أيضاً». وضغطت على زرّ المكواة من جديد، فانبعثت منها سحابة أخرى من البخار، وراحت تسحبها من الأمام إلى الخلف. «لا أحد يندم في نهاية حياته على أنه قضى وقتاً قصيراً في العمل. طفلانا يكبران، وأنت عن ذلك لاهٍ. سيرحلان عن البيت قريباً، وستُحال على التقاعد، ولن يمكث هنا إلا أنا وأنت. حينئذ لن نجد شيئاً نحكيه لبعضنا بعضاً».

حدّث راي نفسه بأن هذا غير صحيح، وأجهد نفسه ليعثر على كلمات مناسبة ليعبّر لها عن ذلك، لكنّها ظلّت عالقة في حلقه واكتفى بأن هزّ رأسه، كما لو أنّ هذه الحركة تستطيع أن تمحو ما قالت. وخُيّل له أنّه سمعها تتنهّد، لكن ذلك قد لا يكون إلا سحابة أخرى من البخار.



لم تغفري لي قطّ ما حدث في البندقية. ظللتِ دائماً حذرة، ولم تسلّمي لي نفسك أبداً. وحتى لمّا اختفت الكدمة من أرنبة أنفك، وصار بوسعنا أن ننسى كلّ ما حدث، كنتُ واثقاً من أنّك ما زلت تذكرينه. كنت أعلم ذلك من نظراتك حين أذهب لأحضر زجاجة جعة، ومن الارتباك الذي يعتري صوتك قبل أن تجيبي عن أسئلتي، رغم أنّك لم تكوني تكفّي عن ترديد أنّ كلّ شيء على ما يرام.

ذهبنا لنتعشّى في المطعم بمناسبة ذكرى مرور سنة على زواجنا. كنت قد عثرت لك على مجلّد حول رودان عند بائع الكتب القديمة في شابيل روود، ولففته في ورق جريدة تحمل تاريخ يوم زواجنا كنت قد احتفظت بها.

وقلت لك مذكّراً:

«اليوم ذكرى مرور سنة على زواجنا».

لاح البشر في عينيك، وقلتِ:

«ممتاز!» طويتِ ورق الجريدة بعناية، ووضعته داخل الكتاب الذي كتبتُ عليه إهداءً: **إلى جينيفر التي يزداد حبّي لها يوماً بعد يوم**، وقبّلتني بحرارة.

ثمّ أضفت:

«أنت تعرف أنّني أحبّك».

أسأل نفسي أحياناً، لكنني لم أشكّ في مشاعري نحوك قطّ. ومن شدّة حبّي لك يتملّكني الخوف أحياناً. كنت أجهل أنّ حبّ شخص قد يذهب بالمرء إلى فعل أيّ شيء من أجل الحفاظ عليه. لو أمكنني أن آخذك إلى جزيرة خالية، بعيدة عن كلّ شيء، لفعلت.

وبينما كان النادل يقودنا إلى مائدتنا، قلتِ:

«اقترحوا عليّ أن أتكفّل بصفّ جديد من الراشدين».

«هل الراتب جيّد؟».

«إلى حدٍّ ما. دروس علاجية بأثمنة زهيدة مخصّصة لأشخاص يعانون من الانهيار العصبي. أظنّه عرضاً لا بأس به».

اغتصبتُ ضحكة وقلتُ:

«ستكون دروساً ممتعة».

«هناك علاقة وثيقة بين النشاط الإبداعي وأمزجة الناس. ستسرّني مساعدتهم، لا سيما أنّ المدة لن تتجاوز ثمانية أسابيع. ينبغي أن أُفسِح لها حيّزاً بين دروسي الأخرى».

«لا بأس طالما أنّك تجدين الوقت لتنحتي. فمنحوتاتك معروضة الآن في خمسة متاجر».

حرّكتِ رأسك مؤيِّدة، ثمّ قلت:

«سأحاول الاستمرار في تزويد المتاجر على نحو منتظم، وسأقلّص عدد الطلبيات لفترة قصيرة. لاحظْ أنّني لم أكن أتوقع أن أعطي هذا الكم الكبير من الدروس. ينبغي أن أقلِّصها قليلاً في السنة القادمة».

فرددتُ وأنا أضحك:

«لعلّك تعرفين المقولة الشهيرة: الكفؤ يبدع بينما العاجز يُدرِّس!».

لزمتِ الصمت.

أتى النادل بالطعام، وأزال المنديل من كأسك بحركة مبهرَجة لكي يسكب فيه النبيذ.

وأعلنتِ:

«قلت في نفسي قد يكون من المفيد أن أفتح حساباً في البنك باسمي من أجل معاملاتي».

«ولماذا؟».

تساءلتُ في نفسي عمّن أوحى لكِ بهذه الفكرة، ولماذا تحدّثت عن أمورنا المالية مع الغرباء.

«سيُيسّر عليّ ذلك التصريح بالضرائب».

فعلّقت:

«لن يفيدك هذا في شيء، اللهم إذا كنت ترغبين في تبديد الوقت في الإجراءات الإدارية والوثائق».

شطرتُ شريحة اللحم نصفين لكي أتأكّد من أنّها ناضجة كما أريدها، وأزلتُ عنها الشحم بعناية لأضعها على حافة الصحن.

«لن يزعجني ذلك».

فقلتُ بنبرة حاسمة:

«الأمر أسهل إن تركت كلّ مداخيلك تذهب إلى حسابي. على كلّ حال، فأنا مَنْ أؤدي أقساط قرض السكن، وأدفع الفواتير».

«أعرف ذلك».

التقطتِ لقمة صغيرة من صحنك. وسألتُك:

«هل أنت بحاجة إلى مال؟ أستطيع أن أعطيك مبلغاً أكبر هذا الشهر إن شئت».

«قد أحتاج».

«ماذا ستفعلين به؟»

«أريد أن أتسوّق قليلاً. أنا بحاجة إلى ملابس».

«لماذا لا نذهب معاً؟ أنتِ أدرى بحالك لمّا تشترين الملابس: تختارين ملابس لا تلبسينها سوى مرة ثمّ تُرجعين نصفها» ضحكتُ وأنا أشدّ على يدكِ من تحت المائدة. «سأتغيّب عن العمل يوماً، وأرافقك. سنتغدى في المطعم قبل أن نتسوّق. حينئذٍ سأضع بطاقة ائتماني تحت تصرّفك لتفعلي بها ما تشائين، ما رأيك؟».

حرّكت رأسك موافقة، فأقبلتُ على التهام شريحة اللحم. طلبتُ زجاجة نبيذ أخرى، وعندما أنهيتها، لم يكن قد تبقى في المطعم أحد سوانا. تركت للنادل بقشيشاً بالغ السخاء، وحين أتاني بمعطفي ترنّحتُ وسقطت عليه، فقلتِ له:

«اعذره. لقد أفرط في الشرب قليلاً».

ابتسم النادل بأدب، وانتظرتُ إلى أن خرجنا من المطعم لكي أمسك بذراعك وأضغط عليه بين إبهامي وسبّابتي.

«لا تعتذري عنّي أبداً بعد اليوم».

بدوت مصدومة، ولا أعرف السبب: أليس هذا هو ما كنتِ تخشينه بعد واقعة البندقية؟

وقلتِ:

«آسفة».

فتركت ذراعك لأمسك بيدك.

مباشرة بعد عودتنا إلى البيت في وقت متأخّر، صعدتِ إلى

الطابق العلوي. أطفأتُ أنوار الطابق الأرضي لألحق بك، لكنّك كنت قد خلدت إلى السرير. ولمّا استلقيت إلى جانبك، استدرت نحوي، وقبّلتني ومضيتِ تداعبين صدري، ثمّ همست:

«آسفة. أحبّك».

أغمضت عيني وانتظرت أن تدخلي رأسك تحت الغطاء. كنت أعلم أنّ لا فائدة من ذلك: فقد شربت زجاجتي نبيذ، وبالكاد شعرت بقشعريرة خفيفة لما قبّلتِ فمي. تركتكِ تجرّبين لحظة قبل أن أدفع رأسك عنّي، وقلتُ:

«لم تعودي تثيرينني».

استدرتُ نحو الجدار وأغمضتُ عيني. نهضتِ لكي تذهبي إلى الحمّام، وبينما كنتُ نائماً، سمعتك تنتحبين.

لم أكن أنوي خيانتك بعد زواجنا، لكنّك لم تكوني تبذلين أيّ جهد في السرير. لعلّك تلومينني لأنّني بحثت عن غيرك؟ لكن لم يكن أمامي إلا هذا الخيار أو مضاجعتك وأنت مغمضة العينين. صرت أخرج مساء كل جمعة من العمل ولا أعود إلى البيت إلا فجر اليوم الموالي، بعد أن أسأم من تلك التي قضت معي الليلة. ولم يكن يبدو أنّ ذلك يضايقك. وبعد فترة، لم أعد أكلّف نفسي العودة باكراً. أعود السبت زوالاً، فأجدك منهمكة في ورشتك. لم تكوني تسألينني أبداً عمّا فعلت، ولا مع من قضيت الليلة، وصار ذلك شيئاً أشبه باللعبة. كنت أريد أن أرى إلى أيّ مدى يمكن أن أذهب قبل أن تجرئي على اتّهامي بالخيانة.

وقع ذلك ذات يوم بينما كنت أشاهد مباراة في كرة القدم. كان فريق مانشستر يواجه فريق تشيلسي، وكنت جالساً على الأريكة على

نحو مريح، واضعاً قدمي على المائدة، وزجاجة جعة في يدي. جلستِ أمام التلفاز بحيث حجبت عنّي الشاشة، فقلت لك:

«قومي من هناك، لم يتبقَّ من المباراة غير الوقت بدل الضائع!».

وسألتني:

«من تكون شارلوت؟».

«ماذا تقصدين؟».

اِشرأبْتُ بعنقي لأشاهد الشاشة.

«عثرت في جيب معطفك على وصل بهذا الاسم، ومعه هذا الرقم الهاتفي. من تكون؟».

سمعت المشجّعين يضجّون في موجة عارمة من الفرح، عندما سجّل مانشستر هدفاً قبيل أن يعلن الحكم عن نهاية المباراة. تنهّدت، وتناولت آلة التحكم عن بعد لكي أطفئ التلفاز.

«أهذا ما يسرّك؟».

أشعلتُ سيجارة وأنا أعرف تماماً بأنّ ذلك سيغيظك.

«ألا تستطيع أن تدخن في الخارج؟».

قلتُ وأنا أنفث الدخان باتجاهك:

«كلا، لا أستطيع، لأنّ هذا البيت بيتي لا بيتك».

«من تكون شارلوت؟».

كنت ترتعشين، لكنكِ بقيت واقفة أمامي، ورحتُ أضحك:

«لا أعرف» لم أكن أكذب، فأنا لا أذكر من تكون حقّاً. «لعلّها نادلةٌ بهرني جمالها. قد أكون وضعت الوصل في جيبي دون أن أنتبه إلى ما كُتِب عليه» كنت أتحدّث من دون توتّر ولا ارتباك، فرأيتك تترنّحين. «أتمنّى ألا تتّهميني عن باطل».

نظرتُ إليك بتحدٍّ، فحوّلتِ بصرك، ولُذت بالصمت. كاد تصرّفك يضحكني. فقد استسلمت بسهولة.

نهضت من مكاني. كنت تلبسين قميصاً خفيفاً شبه شفاف.

سألتك:

«هل خرجت بهذا اللباس؟».

«نعم، ولكن للتسوّق فقط».

«بهذين الثديين المكشوفين؟ أتريدين إثارة الأنظار إليك على شاكلة العاهرات، أهذا ما تريدين؟» وضعتِ يديكِ على صدرك، فأزحتهما. «ألا يزعجك أن تكشفيهما للغرباء بينما تخفيهما عنّي أنا؟ ينبغي أن تختاري يا جينيفر: إمّا أن تكوني عاهرة وإما ألا تكوني».

فهمستِ:

«لست عاهرة».

«لكن من يراك لن يداخله شكٌّ في أنّك عاهرة».

رفعت يدي وسحقت السيجارة بين نهديك. وما كدتِ تصرخين حتّى كنت قد غادرت الغرفة.

39

بينما كان راي متوجّهاً إلى مكتبه بخطى حثيثة بعد الاجتماع الصباحي، أوقفته راشيل، شرطية المداومة، وهي امرأة نحيفة في حوالي الخمسين من عمرها، ذات أنف معقوف كمنقار الطير، وشعرٍ فضيٍّ مقصوص.

«أأنت قائد المصلحة اليوم يا راي؟».

أجاب بحذر:

«نعم، أنا».

هذا سؤال لا يبشّر بخير.

«هناك سيدة تُدعى إيف مانينغس تنتظر في الاستقبال، تريد التبليغ عن شخص في خطر: إنّها قلقة على أختها».

«ألا يوجد شرطي يستطيع التكفّل بها؟».

«خرجوا جميعهم، وهي في غاية الاضطراب. منذ ساعة وهي تنتظر».

قدّرتْ راشيل أنّه من غير المفيد أن تضيف شيئاً. واكتفت بالنظر إلى راي من خلف نظارتها ذات الإطار الفولاذي منتظرة أن يتّخذ القرار الذي يراه مناسباً. تهيّأ له من هيأتها ونبرة كلامها كما لو أنّ خالة ودودةً توبّخه.

أطلّ من الباب ليلقي نظرة على الاستقبال فرأى امرأة عاكفة على هاتفها.

«هذه هي؟».

كانت إيف مانينغس جالسة بارتياح كما لو أنّها في مقهى. ذات شعر كستنائي ناعم، ينسدل على كتفيها لمّا ترفع رأسها، وتلبس معطفاً أصفر فاتحاً، بأزرار كبيرة وتبطين ورديّ. كانت ممتقعة، لكن ذلك لا يعكس بالضرورة حالتها النفسية. إذ يبدو أنّ التدفئة المركزية في المفوضية لا توفِّر إلا اختيارين: إما باردة للغاية وإما ساخنة للغاية، وقد كان واضحاً أنّها مضبوطة هذا اليوم على الاختيار الثاني. لعنَ راي في سرّه هذا القانون الذي يفرض على الشرطي أن يتكفّل بكلّ من دار في خلده التبليغ عن إنسان في خطر. وقد كان بإمكان راشيل اليوم أن تتكلّف بهذا التبليغ.

تنهّد وقال:

«حسناً، سأبعث من يتكفّل بها».

فعادت راشيل إلى الاستقبال راضية.

صعد راي إلى الطابق الثالث، فوجد كايت في مكتبها.

«هل يمكن أن تنزلي إلى الطابق الأرضي، وتتولّي أمر حالة وافدة على المفوضية؟».

«ألا يوجد شرطي يستطيع أن يتولاها؟».

ضحك راي وهو يرى سُحنتها.

«حاولت عبثاً أن أعثر على أحدهم. اذهبي، لن يأخذ منك الأمر أكثر من عشرين دقيقة».

تنهّدت كايت.

«تلحُّ عليّ لأنّك واثق من أنّني لا أرفض لك طلباً».

«احترسي، قد يسمعك أحد!».

ابتسم راي بخبث، فرفعت كايت عينَيها إلى السماء، لكنّها لم تستطع أن تخفي تورّدها.

«حسناً، ماذا في الأمر؟».

«امرأة تريد التبليغ عن شخص في خطر. إيف مانينغس، هي تنتظر في الاستقبال».

«موافقة، ولكنك ستكون مديناً لي بكأس».

فهتف بها بينما كانت تغادر المكتب:

«على الرحب والسعة».

اعتذر لها عن العشاء المُحرج الذي دعاها إليه، لكنّ كايت أجابت بأنّها لم تأبه بذلك، وطلبت منه ألا يعود إلى هذا الموضوع.

ذهب إلى مكتبه، وما كاد يفتح مفكرته حتّى عثرَ على قطعة ورق صغيرة دوّنت عليها ماغس تاريخ وساعة موعد لقائهما بإدارة الإعدادية في الأسبوع الموالي. وقد أحاطت الرسالة بدائرة خطّتها بقلم لبدي أحمر حتى تكون بارزة. ألصقها على شاشة حاسوبه إلى جانب قطع الورق الأخرى التي علّقها هناك لتذكّره بمواعيد ومعلومات هامة.

لم يكن قد أتى على نصف كومة الوثائق التي يتحتّم عليه أن يعالجها ذلك الصباح حين طرقت كايت باب مكتبه، فبادرها:

«لا تقاطعيني، فأنا مستغرق في العمل».

«أتريد أن أطلعك على سرّ الحالة التي بعثتني لمعالجتها؟».

توقّف وأومأ لها بالجلوس، فسألته وهي تنظر إلى جبل الوثائق على مكتبه:

«ماذا تفعل؟».

«أوراق كما ترين. ينبغي أن أرتّبها. مصروفات الستة أشهر الماضية. طلبت الإدارة أن أوافيهم بها اليوم، وهددوا بأنهم لن يرخّصوا لنا بنفقات أخرى إن أنا تأخّرت».

«أنت بحاجة إلى كاتبة».

«أنا بحاجة إلى أن يتركوني أقوم بعملي البوليسي عوض هذه السخافات. المعذرة! ماذا عن التبليغ؟».

نظرت كايت إلى الملاحظات التي دوّنت، وقالت:

«تعيش إيف مانينغس في أكسفورد، لكن أختها جينيفر تعيش هنا في بريستول مع زوجها يان بيترسن. وقع شنآن بين إيف وأختها قبل خمس سنوات ممّا تسبب في انقطاع أخبارها وأخبار زوجها عنها منذئذ. على أن بيترسن زارها في بيتها بغتة قبل أسابيع ليسألها عن أختها».

«أهجرَتْه؟»

«الظاهر أن السيدة مانينغس تلقَّت بطاقة بريدية من أختها منذ أشهر، لكنّها لم تتعرّف إلى خاتم مكتب البريد الذي بُعِثت منه. وقد عثرتْ على البطاقة ممزّقة إرَباً خلف ساعة صغيرة فوق المدفأة، وهي واثقة من أنّ زوج أختها هو من مزّقها خلال زيارته».

«ولماذا فعل ذلك؟».

هزّت كايت كتفيها، وقالت:

«لا أدري، والسيدة مانينغس لا تعرف السبب كذلك. على كلّ حال، هي تريد التبليغ عن اختفاء أختها».

فهتف راي متضايقاً:

«ولكنها لم تختفِ بما أنّها بعثت بطاقة. كلّ ما في الأمر هو أنّها لا تريدهم أن يعثروا عليها. وهذا ليس اختفاء».

«هذا هو ما قلت لها.. باختصار، كلّ شيء ها هنا».

ناولته غلافاً بلاستيكياً يحتوي على صفحتَين مخطوطتَين.

«شكراً، سألقي عليهما نظرة» تناول راي التبليغ، ووضعه على كومة الوثائق المتراكمة على مكتبه، «إذا نجحت في إنهاء كلّ هذه. أما زلت راغبة في شرب كأس بعد حين؟ أظنّني سأكون بحاجة إليه».

«راغبة بالطبع، وأكثر من أيّ وقت آخر».

«ممتاز. يريد توم أن يذهب إلى مكان ما بعد المدرسة، وقد وعدته بأن ألحق به على الساعة السابعة، وبناء عليه سنشرب كأساً بسرعة».

«لا مانع. معنى هذا أنّ توم صار له أصدقاء؟».

«أظنّ ذلك، وإن كان لا يحدّثني عن أموره. آمل أن نعرف المزيد لمّا نزور الإعدادية في الأسبوع القادم، لكنّني لست من النوع الذي يخادع نفسه».

فقالت كايت:

«على كلّ حال إن شئت أن تتحدّث في الموضوع حين نكون في الحانة، فلا تتردّد. لكن عليك أن تعلم أنّني لست خبيرة بشؤون المراهقين».

ضحك راي، وقال:

«إن أردت الصدق، فأنا أفضّل الحديث في شيء آخر».

«سأكون سعيدة بتسليتك قليلاً».

ابتسمت كايت، وتذكّر راي من جديد ذلك المساء أمام منزلها. أتراها ما زالت تذكر ذلك هي أيضاً؟ وهمّ بأن يسألها عن الأمر، لكنّها كانت قد قامت وتوجّهت إلى مكتبها.

أخرج هاتفه لكي يبعث برسالة نصية إلى ماغس. حدّق في

الشاشة محاولاً أن يعثر على صيغة لا تغيظها دون أن يضطرّ إلى الكذب. مهما يكن، فلا فرق بين أن يشرب كأساً مع كايت أو مع ستامبي. وتجاهل الصوت الخافت في ذهنه الذي راح يشرح له الفرق بينهما.

تنهّد وأعاد الهاتف إلى جيبه دون أن يكتب الرسالة. فلزوم الصمت أسهل من الكلام. وألقى نظرة من خلال الباب المفتوح، فلاحت له قنة رأس كايت وهي تهمّ بالجلوس إلى مكتبها. وقال في نفسه: أن تسليه، فهذا أمر لا شكّ فيه، ولكن هل هذا تصرّف حكيم؟

40

انتظرتُ أسبوعين قبل أن أجرؤ على الخروج أمام الملأ، أيّ إلى أن استحالت الكدمات على ذراعي من اللون البنفسجي القاتم إلى الأخضر الفاتح. وقد هالني مقدار ما صارت الرضوض على بشرتي تبدو لي فظيعة بعدما كنت أراها قبل سنتين كما لو أنّها جزء منّي، تماماً كلون شعري.

كان عليّ أن أخرج لشراء طعام الكلاب، فتركت بو في البيت الريفي، لأنّني كنت سأستقلّ الحافلة إلى سوينسي حيث لا يأبه أحد بامرأة تتجوّل في سوق ممتاز غاضّةً بصرها، يغطّي عنقها وشاح رغم الحرّ. انطلقتُ أمشي في الطريق الضيّق المفضي إلى المخيم، لكنّني لم أستطع التخلُّص من فكرة أن أحدهم يراقبني. أنظر خلفي ثمّ أجول ببصري فجأة يُمنة ويُسرة وأنا أقول في نفسي إنّه موجود ربّما في الجهة الأخرى، لكنّني لا أعثر على أحد. يتملّكني الهلع، فأدور على نفسي دون أن أرى شيئاً بسبب البقع السوداء التي تحجب عينَي، وتتبَع بصري حيثما نقلتُه. يعقد الخوف معدتي على نحو مؤلم، فأهرول إلى أن تلوح لي المنازل المتنقّلة ومتجر بيثان. عندئذ تشرع دقات قلبي في التباطؤ، وأجهد نفسي لكي أستعيد هدوئي. ففي هذه اللحظات يبدو لي السجن أهون من هذه الحياة التي أعيشها.

موقف السيارات مخصّص لزبائن المخيّم، لكن قربه من الشاطئ يجعل المتنزهين الراغبين في المشي على الطريق الساحلي يختارونه لركن سياراتهم، وهو أمر لا يزعج بيثان إلا في الموسم الذي يكون فيه المخيم حاشداً، حيث تُشهِر لوحة كُتِب عليها «موقف خاص»، وتخرج من متجرها جارية كلّما رأت أُسرة تفرغ أدوات التخييم من سيارتها. أمّا في هذه الفترة من السنة، حين يكون المخيّم مغلقاً، تسمح لمن ينزّهون كلابهم أو لمن يعشقون المشي في الطبيعة بركن سياراتهم هنا.

قالت لي بيثان في أوّل مرّة لقيتها:

«بإمكانك أن تتركي سيارتك هنا».

فأجبتها:

«لا أملك سيارة».

فردّت بأنّ من يفد عليّ من الضيوف يستطيعون استعمال الموقف، لكنّها لم تلمّح قطّ إلى أنّ أحداً لم يزرني باستثناء باتريك الذي يركن سيارته اللاندروفر. طردتُ هذه الذكرى قبل أن تستحوذ على ذهني.

لا توجد سيارات كثيرة اليوم: سيارة بيثان القديمة وشاحنة صغيرة لا أعرف صاحبها و... أُنعِم النظر مدهوشة. مستحيل، لا يمكن أن تكون هذه سيارتي. شعرت بنفسي أتصبّب عرقاً، والتقطت نفساً عميقاً محاولة فهم ما أرى. ممتصّ الصدمات محطّم، وفي وسط الزجاج الأمامي صدع بحجم قبضة اليد أشبه بنسيج عنكبوت.

إنّها سيارتي.

ما معنى هذا؟ فأنا قد تركتها في بريستول حين غادرت، لا خوفاً من أن تتعقّب الشرطة أثرها -وإن كانت هذه الفكرة راودتني-

بل لأنّني لم أطق رؤيتها. استبدّ بي الذعر، وتساءلت عمّا إذا كانت الشرطة قد عثرت عليها وجاءت بها إلى هنا لتختبر ردّ فعلي. جُلت ببصري في موقف السيارات كما لو أنّ أفراداً من الشرطة مسلّحين متأهّبين للانقضاض عليّ.

وفي غمرة ارتباكي، لم أعد أدري ما إذا كان هذا الأمر مهمّاً. لكنّه قد يكون كذلك، وإلا لما كان المحققون ألحّوا عليّ لأخبرهم بمصير السيارة. عليّ أن أتخلّص منها. تذكّرت ما شاهدت من أفلام. أأدفعها من أعلى المرتفع؟ أأحرقها؟ تلزمني أعواد ثقاب وغاز، أو بالأحرى بنزين. ولكن كيف أضرم فيها النار دون أن تراني بيثان؟

ألقيت نظرة باتجاه المتجر، لم تكن عند النافذة، فتنفّست الصعداء وعبرت الموقف إلى أن بلغت السيارة. رأيت المفاتيح في مكانها، ففتحت الباب من دون تردّد. وما إن جلست في مقعد السياقة حتّى حاصرتني ذكرى الحادثة: سمعت عويل أمّ جاكوب، وكذا صرختي المذعورة. كنت أرتعش، ومع ذلك حاولت استعادة رباطة جأشي. شغّلت المحرك من أوّل محاولة، وغادرت المكان بسرعة فائقة. لو أطلّت بيثان في هذه اللحظة، ما كانت لتلمحني. لن ترى سوى سحابة غبار متعالية خلفي وأنا متّجهة إلى بينفاتش.

«ما أبهج أن يجد المرء نفسه خلف المقود من جديد!».

كان صوت يان رزيناً وجافّاً. ضغطت على الفرامل، فجنحت السيارة إلى اليسار بينما فقدت السيطرة على المقود. وبينما أمسكت بمقبض الباب، تنبّهت إلى أن الصوت آتٍ من آلة التسجيل.

«لقد اشتقتِ إلى سيارتك، أليس كذلك؟ لا داعي لأن تشكريني».

لصوته وقع فوريٌّ عليّ. شعرت بنفسي أتضاءل وأنا أتكوّم على المقعد كما لو أنّني أحاول أن أتلاشى بداخله، وأحسست بيدَي ساخنتَين ورطبتَين.

«أتُراك نسيتِ وعود زواجنا يا جينيفر؟».

ضغطتُ بيديّ على صدري محاولة تبطيء دقات قلبي المتسارعة.

«وعدتني بأن تحبّيني وتشرّفيني وتطيعين أوامري إلى أن يفرّق الموت بيننا».

إنّه يتهكّم منّي بصوته الفاتر وهو يردّد الوعود التي نطقت بها قبل سنوات. يا له من مجنون! الآن فقط أتنبّه إلى هذا، ويتملّكني الرعب وأنا أتذكّر كلّ هذه السنوات التي قضيتها بجانبه دون أن أتنبّه إلى ما هو قادر على ارتكابه من حماقات.

«ألا تعتقدين يا جينيفر بأنّك شرّفتني حين لجأت إلى الشرطة وأطلعتهم على قصصك البئيسة؟ وأنّك خرجت عن طاعتي حين أسررت لهم بشؤوننا الحميمية؟ لا تنسي أنّك لم تنالي إلا ما تستحقّين. . . ».

لم أعد قادرة على الاستمرار في سماع هذا. ضغطت على أزرار مشغّل الأقراص، فلفظ القرصَ ببطء لا يُطاق. تناولته وحاولت تكسيره إلى نصفين، لكنّني لم أنجح حتى في ثنيه، وانتهيت بأن أخذت أصرخ عليه، فلاحت لي سحنتي المتشنّجة على صفحته اللامعة. ترجّلت من السيارة، ورميته بعيداً بين الأحراش.

«دعني عنك! دعني!».

رحت أسوق السيارة في أزقّة بينفاتش المحفوفة بسياجات عالية

كمجنونة لكي أغادر القرية وأجد نفسي في الريف. كنت أرتعد بشدّة بحيث صرت غير قادرة على معالجة مبدّل السرعة، فحافظت على السرعة الثانية ممّا جعل السيارة تصدر صوتاً كالعويل. وكانت كلمات يان لا تزال تتردّد في رأسي.

إلى أن يفرّق الموت بيننا.

رأيت مستودعاً قديماً يبعد قليلاً عن الطريق، في مكان منعزل بعيداً عن البيوت، فانعطفت إلى الطريق المترب الذي يقود إليه. وبالاقتراب منه، لاحظت أنّه بلا سقف، وعوارضه الخشبية العارية ترتفع في السماء. تتراكم في أحد أركانه إطارات عجلات وآلات صدئة. إنّه مكان مناسب. قدت السيارة إلى الطرف الآخر من المخزن، وركنتها في الزاوية. وجدت مشمّعاً أخضر مرمياً على الأرض. وبينما تناولته وبسطته، بللتني المياه الراكدة المتجمّعة عليه. سحبته على السيارة بحيث أخفيتها. قلت في نفسي إنّ إخفاءها هنا مجازفة، لكنّ المستودع يبدو مهجوراً منذ مدّة طويلة.

وانطلقتُ ماشية إلى أن بلغت البيت الريفي، وهو ما ذكّرني بيوم وصولي إلى بينفاتش، حين كان ما ينتظرني أكبر بكثير ممّا تركت خلفي. أمّا الآن فأنا أعرف ما يخبّئه لي المستقبل: بقي لي أسبوعان في بينفاتش ثمّ أعود إلى بريستول لأحاكَم وأرتاح.

وجدت موقف حافلات أمامي، لكنني تابعت المشي، باحثة عن السلوى في إيقاع خطواتي. وشيئاً فشيئاً استعدت هدوئي. كلّ ما في الأمر هو أنّ يان يتسلّى بتنكيدي. لو كان عازماً على قتلي، لكان فعل حين زارني.

كان النهار قد شارف على النهاية عندما وصلت إلى البيت، وفي السماء بدأت تتراكم غيوم داكنة. ارتديت معطفي، وأخذت بو

ليجري على الشاطئ، ولكي أتنفس قليلاً وأنا أقول في نفسي إن هذا هو ما سأشتاق إليه أكثر.

انتابني شعور ملحّ بأنّني مراقبَة، فأدرت ظهري للبحر، وتملّكني خوف شديد لمّا أبصرت رجلاً يقف قبالتي أعلى المنحدر. تسارعت دقات قلبي، فناديت على بو، وأمسكت بطوقه، لكنّه مضى ينبح. تخلّص من قبضتي فجأة لينطلق باتجاه الطريق الضيّق الذي يقود إلى المكان الذي يبدو فيه طيف الرجل.

«ارجع يا بو!».

لم يستجب لندائي وانطلق جارياً بينما بقيت متسمّرة في مكاني. ولم يتحرك الطيف إلا لما وصل بو إلى الطرف الآخر من الشاطئ، وارتقى بخفة الطريق الضيّق. أحنى عليه الرجل وراح يداعبه، فتعرفت إليه من حركاته. إنه باتريك.

كان من الممكن أن أتردّد في لقائه بعدما وقع في المرّة الفارطة، لكنّني وجدت نفسي، بعد أن اطمأننت، أقتفي على نحو آلي آثار قوائم بو لألحق به.

قال لي:

«كيف حالك؟».

«بخير».

كنّا كغريبَين يبحثان عن موضوع يتحدّثان فيه.

«تركت لك الكثير من الرسائل الصوتية».

«أعرف».

تجاهلتُها كلّها. في البداية كنت أسمعها، لكنّها كانت تذكّرني بما فعلته في حقّه، فعمدت إلى محو الرسائل اللاحقة، ثم انتهى بي الأمر أن أغلقت هاتفي.

«لقد اشتقت إليك يا جينا».

وجدت غضبه مبرّراً وسهل الاحتمال، لكنّه الآن هادئ ومتودّد بحيث شعرت بشكيمتي بدأت تلين. وانطلقتُ أمشي باتّجاه البيت.

«ليس لديك ما تفعلُه هنا».

كنت مرعوبة من فكرة أن يرانا يان معاً، لكنّني قاومت الرغبة في النظر حولي لأتأكّد من عدم وجود من يراقبنا.

شعرت بقطرة مطر على وجهي فوضعت الواقي على رأسي بينما كان باتريك يحاول اللحاق بي بخطى واسعة.

«كلّميني يا جينا. كفاك هروباً!».

ولكن الهرب هو ما فعلته طوال حياتي، ولم أكلّف نفسي عناء تبرير ذلك.

أومض البرق، وشرع المطر يسقط بغزارة قطعتْ أنفاسي. وأظلمت السماء بسرعة حتى أنّنا لم نعد نرى بعضنا بعضاً. أمّا بو فتكوّم على الأرض خافضاً أذنيه. انطلقنا جاريين نحو البيت، وما كدت أفتح الباب بعنف حتّى هدر الرعد، وتسلّل بو بين أقدامنا وصعد جارياً إلى الطابق العلوي. ناديت عليه، لكنّه لم يأتِ.

«سأصعد لأرى ما به»، صعد باتريك. أغلقتُ الباب بالمفتاح قبل أن ألحق به بعد هنيهة، فوجدته جالساً على الأرض في غرفتي، وبو يرتعد بين يديه.

قال معلّقاً وقد علت وجهه ابتسامة:

«كلّ الكلاب تتشابه: لا فرق بين الوديع والشرس. كلّها تخشى الرعد والألعاب النارية».

جثوت بجانبهما، ورحت أداعب رأس بو، فأخذ يئنُّ بصوت خافت.

سأل باتريك وهو يشير إلى الصندوق الخشبي البارز تحت سريري.

«ما هذا؟».

فأجبت بنبرة فظّة وأنا أوجّه له ركلة لأعيده إلى مكانه:

«صندوقي».

مضى باتريك يحملق فيّ دون أن ينبس. نهض على نحو أخرق، وحمل بو إلى الطابق السفلي.

«سيكون من المفيد أن تشغّلي له المذياع».

كان يتحدّث بنبرة البيطري مع زبونته. وتساءلت عمّا إذا كان ذلك بفعل العادة أم أنّه جارى رغبتي وتعمّد إقامة مسافة بيني وبينه. إلا أنّه ما إن وضع بو على الأريكة، وشغّل المذياع بصوت عالٍ يحجُب هزيم الرعد حتّى استأنف الكلام بصوت هادئ.

«سأتكفّل به».

عضضت شفتي، فأضاف:

«اتركيه هنا إذا رحلت، وبذلك لن تضطرّي إلى لقائي والتحدّث إليّ. سأحتفظ به المدّة التي تقضينها في...» وتوقّف عن الكلام، «مدّة غيابك».

فقلت بصوت محطّم:

«قد يدوم ذلك سنوات».

فردَّ:

«سنرى، لكلّ شيء أوانه».

أحنى عليّ وطبع قبلات رقيقة على جبيني.

سلّمته نسخة من مفتاح البيت كنت أحفظها في درج المطبخ، وانصرف دون أن يضيف شيئاً. حبست دموعاً ما كان عليّ أن

أذرفها. فهذا اختياري، وعليّ أن أتحمّل تبعاته مهما كانت مؤلمة. انخلع قلبي حين سمعت طرقاً على الباب ولم تمضِ دقائق على انصراف باتريك. ظننت أنّه نسي شيئاً.

فتحت، فإذا بليستين يبادرني بلا مقدمات:

«لا أريد أن أراك هنا ثانية».

«ماذا؟» استندت على الجدار لكي لا أتهاوى، «لماذا؟».

لم ينظر في عينيّ مفضّلاً مداعبة بو.

«أُمهلك حتّى صباح الغد لكي تهيّئي حقائبك».

«مستحيل يا ليستين! أنت تعرف ما وقع. من المفروض أن أظلّ هنا إلى أن يحين موعد محاكمتي».

رفع ليستين عينَيه نحوي أخيراً. كان واضحاً أنّه فعل هذا على مضض. بدا وجهه قاسياً، لكن نظرته تشي بالحزن، وقال:

«هذه ليست مشكلتي! اسمعي يا جينا، كلّ بينفاتش تعرف أنّك اعتقلت بسبب قتل ذلك الطفل، وهم جميعاً يعرفون بأنّك موجودة هنا لأنّني أجّرتك هذا البيت. بالنسبة إليهم، لا فرق بيني وبينك».

ثمّ أشار إلى الكتابة على الباب التي ظلّت بارزة رغم ما بذلته من جهد لمحوها، وأضاف:

«ما هذه إلا البداية. في المرّة القادمة سيضعون براز كلاب في صندوق البريد، ومفرقعات وبنزين. . . هذا ما تنشره الجرائد كلّ يوم».

«ليس لي مكان آخر أذهب إليه يا ليستين».

تضرّعت إليه، لكنه لم يَلِن. واسترسل يقول:

«متجر البلد لم يعد يقبل بيع منتوجاتي. هم غاضبون منّي لأنّني آوي امرأة قاتلة» بلعتُ ريقي. «وقد رفضوا هذا الصباح التعامل مع

غلينيس. أن يهاجموني أنا، أمر أستحمله، لكن أن يهاجموا زوجتي...».

«كلّ ما أنا بحاجة إليه بضعة أيام أخرى يا ليستين. موعد محاكمتي بعد أسبوعين. حينئذ سأرحل من تلقاء نفسي. من فضلك يا ليستين، دعني إلى أن يحين ذلك اليوم».

حشر ليستين يديه في جيبيه، ونظر إلى الأفق لحظة. أمّا أنا فرحت أنتظر وأنا واثقة من أنّني لا حول لي ولا قوّة لأثنيه عن قراره. وقال أخيراً:

«سأمهلك أسبوعين. لن أضيف يوماً واحداً. وإذا كنت تملكين ذرّة من الحسّ السليم، تجنّبي الذهاب إلى القرية حتّى ذلك الحين».

41

كنت تقضين نهاراتك في الورشة، وتعودين إليها مساء إلا إذا طلبتُ منك ألا تذهبي. لم تكوني تأبهين بأنّني أقضي الأسبوع كلّه في الكدّ، وأكون بحاجة إلى قسط من الراحة في المساء، وإلى مَن يسألني كيف قضيت يومي. كنتِ كجرذ صغير، تسارعين إلى اللوذ بكوخك كلّما سنحت الفرصة. لست أدري كيف تمكّنت من أن تصبحي مشهورة كنحاتة في المنطقة، لا بمزهرياتك بل بفضل تماثيلك الصغيرة المنحوتة يدويّاً. لم أكن أجد لها أيّ رونق، بوجوهها الشوهاء، وأطرافها غير المتناسبة. لكنّها كانت مطلوبة في السوق فيما يبدو، وكنت تجدين صعوبة في تلبية الطلب عليها.

قلتُ ذات سبت لما جئتِ إلى المطبخ لكي تسخّني الماء:

«اشتريت قرص دي في دي لهذه الأمسية».

«حسناً».

لم تسأليني عن عنوان الفيلم أو نوعه، والحالُ أنّني أنا نفسي لم أكن أعرف.

استندتِ على طاولة المطبخ بينما كان الماء يسخن، وقد حشرت إبهاميك في جيبي سروال الجينز. كان شعرك مرسلاً، لكنّه

عالق خلف أذنيك، فلاحظت الخدش على خدك، ولمّا رأيتني أنظر إليه، سحبت الشعر على وجهك لإخفائه.

وسألتِني:

«هل تريد قهوة؟».

«نعم، شكراً». سكبتِ ماء في فنجانين، لكنّك لم تضيفي القهوة إلا في أحدهما. «ألا تشربين؟».

«لا أشعر أنني على ما يرام» أخذتِ قطعة ليمون، ووضعتها في الفنجان. «منذ أيام وأنا أشعر بنفسي مرهقة».

«كان عليك أن تخبريني بذلك يا حبيبتي. تعالي اجلسي بجانبي».

سحبت لك كرسياً، لكنك حركت رأسك.

«لا داعي، كل ما في الأمر أنّني مكدّرة المزاج. من المؤكد أنّ حالي ستتحسن غداً».

طوّقتك بذراعي، وضغطت خدي إلى خدك.

«سأعتني بك يا حبيبتي».

لففتِ ذراعيك حولي، فهدهدتُك بحنان إلى أن تخلّصتِ من بين ذراعي. لم أكن أحبّ هذه الحركة لأنّها كانت تشعرني كما لو أنّك نبذتني بينما أحاول مواساتك. وأحسست بفكّي ينقبض، فرأيت في عينيك وميضاً حذراً يلتمع. كنت منزعجاً ومسروراً في الآن نفسه من أنّك ما زلت تنتبهين إلى ما أفكّر فيه وأفعله.

رفعت مرفقي نحوك فتراجعتِ وأنت تحبسين أنفاسك وتغمضين عينَيك. لمست جبينك، وأزلتُ شيئاً كان عالقاً في شعرك. وقلت وأنا أفتح راحتي لأريك ما أزلت:

«دعسوقة! تجلب السعادة، أليس كذلك؟».

لم تتحسّن حالك في اليوم الموالي، فألححت عليك أن تلزمي السرير. جلبت لك بسكويت جافّ لعلّه يهدّئ ما تشعرين به من غثيان. ورحت أقرأ لك إلى أن طلبتِ منّي التوقّف لأنّك كنت تشعرين بالصداع. هممتُ بالاتصال بالطبيب، لكنّك وعدتني بأن تزوريه صباح الاثنين باكراً. داعبتُ شعرك، ثمّ رأيت جفنيك يرتعدان وأنت نائمة، فتساءلت بِمَ تحلُمين.

كنتِ لا تزالين نائمة حين غادرت البيت صباح الاثنين، وتركت لك كلمة بجانب وسادتك أذكّرك فيها بزيارة الطبيب. اتّصلت بك من العمل، لكنّك لم تجيبي. ورغم أنّني عمدت إلى إعادة الاتصال على رأس كلّ نصف ساعة، ظلَّ هاتف البيت يرنُّ من دون ردّ بينما كان محمولك غير مشغّل. استبدَّ بي القلق، وما إن حلّ الزوال حتى عدت إلى البيت لأطمئنّ عليك.

كانت سيارتك مركونة أمام البيت، وحين أدرت المفتاح تنبّهت إلى أنّ الباب لم يكن مغلقاً. كنت جالسة على الأريكة واضعة رأسك بين يديك.

كاد يقتلني القلق، وسألتك:

«أأنت بخير؟».

رفعتِ رأسك ولَمْ تقولي شيئاً.

«طول الصباح وأنا أتّصل بك يا جينيفر، لماذا لم تجيبي؟».

قلتِ لي:

«خرجت، وبعد...».

ثمّ صمتّ من دون سبب، فتملّكني الغضب.

«ألم يخطر ببالك أنّني سأقلق عليك؟».

أمسكت بخناقك، صرخت، فشوّش ذلك الصراخ أفكاري.

دفعتك بقوّة حتّى التصقت بالجدار وأصابعي تضغط على حلقك، وشعرت بدقات قلبك تتسارع.

هتفتِ:

«توقّف من فضلك؟».

نشبت أصابعي في عنقك ببطء، ورأيت يدي تنغلق كما لو أنّها ليست منّي، فاختنقتِ.

«أنا حامل».

حرّرتك من قبضتي.

«مستحيل».

«إنّها الحقيقة».

«ولكنّك تتناولين حبوب منع الحمل!».

أجهشتِ بالبكاء، وتركت نفسك تنزلقين على الجدار لتجلسي أرضاً، وقد طوّقت ركبتيك بذراعيك. بقيتُ واقفاً أحاول استيعاب ما سمعت. أنت حامل.

قلتِ:

«قد يكون وقع ذلك يوم تقيأتُ».

قرفصت لأحضنك. تذكّرت أبي الذي كان بالغ الفتور والتحفّظ، وأقسمت ألا أكون مثله مع ابني أبداً. وتمنّيت أن يكون ولداً، وأن يُعجب بي ويسعى إلى أن يكون مثلي. ولم أستطع مقاومة الابتسامة.

بسطتِ ركبتيك ورحتِ تنظرين إليّ. كنتِ لا تزالين ترتعدين، فداعبت خدّك.

«سنُرزق بمولود؟».

كانت عيناك لا تزالان متألّقتين، لكنّ وجهك تطلّق شيئاً فشيئاً.

«أأنتَ غاضبٌ منّي؟».

«ولماذا سأغضب؟».

شعرتُ بالانتشاء. سيتغيّر كلّ شيء. وتخيّلتكِ ببطن مكوّر ممتلئ، تعتمدين عليّ لأطعمك على نحو صحّي، مسرورة بأن أدلّك قدميك أو أجلب لك الشاي. ولمّا تلدين، ستتوقّفين عن العمل، وسأُعيلُكما معاً. ومضيت أستعرض شريط المستقبل في خيالي.

هتفت:

«إنّه وليد مُعجزة». أمسكت بكتفيك، فتشنّجتِ. «أعلم أنّ علاقتنا لم تكن مثالية مؤخّراً، لكن الأمر سيكون مختلفاً الآن. سأعتني بك» نظرتِ إلى عينيّ فساورني شعور عارم بالذنب. «ستمضي الأمور على أحسن ما يرام الآن. إنّني أهيم بحبّك يا جينيفر».

واغرورقت عيناك بالدموع.

«أنا أيضاً».

وددت لو أطلب منكِ المعذرة -أعتذر لكِ عن كلّ الأذى الذي أصابك منّي-، لكن الكلمات ظلّت عالقة في حلقي. وعوض ذلك قلت:

«لا تُخبري أحداً بهذا».

«بماذا؟».

«بشجاراتنا. عِديني بألا تذكري هذا لأحد».

وشعرتُ بكتفيك تنقبضان تحت أصابعي، ورأيت عينيك تتّسعان من الخوف.

وأجبتِ هامسة بصوت خافت لا يكاد يسمع:

«أبداً. لن أذكر هذا لأحد أبداً».

ابتسمتُ.

«ينبغي أن تتوقّفي الآن عن البكاء، لا ينبغي أن تُجهدي الطفل» نهضتُ ومددت لكِ يدي لأساعدك على الوقوف. «أتشعرين بالغثيان؟».

حرّكتِ رأسك مؤيّدة.

«استلقي، سآتيك بغطاء».

رفضتِ، لكنني رافقتك إلى الأريكة، وساعدتك على الاستلقاء. كنت تحملين ابني، وكنتُ مصمّماً على العناية بكما معاً.

كنت قلقة قبل أوّل فحص بالصدى.

«ماذا لو اكتشفنا أن ثمّة شيئاً ليس على ما يرام؟».

فرددتُ على الفور:

«ولماذا سيكون ثمّة شيء ليس على ما يرام؟».

تعطّلتُ ذلك اليوم عن العمل، وأخذتك بسيارتي إلى المشفى.

هتفتِ إثر قراءتك أحد تلك الكتب العديدة حول الحمل:

«شيء لا يصدّق! هو قادر الآن على أن يشدّ قبضة يده».

صرتِ مهووسة بالحمل، وطفقتِ تشترين الكثير من المجلات، وتقضين وقتك تبحثين على الإنترنت عن نصائح حول الوضع والرضاعة. ومهما كنت أفعل، كان الحديث يعود بنا دائماً إلى أسماء الأطفال والأغراض التي يلزم أن نشتريها.

ورغم علمي بذلك من قبل لكثرة ما سمعت عن فترة الحمل، كنت أجيب:

«مدهش!».

لم يكن الحمل يجري كما توقّعته. كنتِ تصرّين على أن تعملي

مثلما كنت تفعلين من قبل، ورغم أنك قبلت أن آتيك بالشاي وأُدلِّك قدميك، لم يكن يبدو أنّ ذلك يرضيك. كنتِ تهتمّين بطفلنا الذي سيولد -طفل لم يكن قد بدأ يعي أنّنا نتحدّث عنه- أكثر من اهتمامك بزوجك الماثل أمامك. وتخيّلتك تهتمّين بوليدك متناسية حتّى دوري في إنجابه، وتراءيتِ لي فجأة تلاعبين هذا الهرير لساعات طوال.

لما دَهَنَ مُخَطِّطُ الصدى بطنك بالمرهم، أمسكتِ بيدي، وشددت عليها بقوة إلى أن بدت بوضوح على الشاشة هيئة صغيرة يصاحبها خفقان مكتوم.

وقال المُخطِّط:

«ها هو الرأس. أترىان الذراعين؟ انظرا، هو يحيّيكما!».

رحتِ تضحكين، وسألتُ وكلّي أمل:

«هو؟».

رفع مخطِّط الصدى عينيه، وقال:

«اعتدت على استعمال «هو». الواقع أنّنا لا يمكن أن نعرف الجنس. علينا أن ننتظر قليلاً، لكن كل شيء على ما يرام» وطبع صورة ومدّها لك. «تهانينا».

كنّا على موعد مع القابلة بعد نصف ساعة من ذلك، وجلسنا في قاعة الانتظار بجانب أزواج آخرين. كانت تجلس قبالتنا امرأة ذات بطن منتفخ على نحو فظيع أجبرها على الجلوس مباعدة بين ساقيها. أشحت بوجهي عنها، ولم أتنفّس الصعداء إلا لما نادوا علينا.

تناولت القابلة دفتر حملكِ، وتصفّحته. تحقّقت من المعلومات، وأخرجت بطاقات تتضمّن معلومات حول التغذية والنظافة خلال الحمل.

قلت لها:

«لقد صارت خبيرة من كثرة ما قرأت من كتب، تكاد تعرف كلّ شيء».

حدّقت فيّ القابلة وقالت:

«وأنت يا سيد بيترسن؟ أأنت أيضاً خبير؟».

أجبت وأنا أحدّق فيها بدوري:

«لست بحاجة إلى ذلك. لست أنا الحامل».

قالت:

«سأقيس ضغطكِ يا جينا. شمّري عن كمّيك وضعي يدك على المكتب من فضلك».

تردّدتِ، وفكّرتُ هنيهة قبل أن أفهم سبب تردّدك. شعرت بانقباض فكّي، لكنّني أسندتُ ظهري على مسند الكرسي، ومضيتُ أتابع ما تفعل متظاهراً باللامبالاة.

كانت الكدمة في أعلى ذراعك قد صارت خضراء اللون، وبدأت تختفي خلال الأيام الأخيرة، لكنّها كانت لا تزال بارزة مع ذلك. ورغم علمي أنّه لا دخل لكِ في ذلك، كان يخيّل إليّ أحياناً أنّك تتعمّدين الاحتفاظ بها لكي تذكّريني بما وقع، وتجعليني أشعر بالذنب.

لم تقل القابلة شيئاً، فشعرت بشيء من الطمأنينة. قاست ضغطك الذي كان مرتفعاً قليلاً ودوّنته، ثمّ التفتت إليّ:

«هل يمكن أن تنتظر في القاعة بالخارج؟ أريد التحدّث إلى جينا على انفراد».

فأجبت:

«لا داعي لذلك، فنحن لا نُخفي شيئاً عن بعضنا بعضاً».

فردّت بفظاظة:

«هذه هي الإجراءات المعمول بها هنا».

حدّقتُ فيها، لكنّها لم تتراجع، فقمت واقفاً وقلت:

«حسناً».

غادرت الغرفة على مهل، وذهبت للانتظار قرب آلة القهوة حيث كان بإمكاني أن أراقب باب قاعة الفحص.

نظرتُ إلى الأزواج الآخرين، لم يكن بينهم أيّ رجل بمفرده، أيّ أنّ لا أحد غيري عومِلَ بهذا النحو. توجّهت بخطى واثقة إلى قاعة الفحص وفتحت الباب دون أن أطرقه. كنتِ تمسكين شيئاً في يدك، فأخفيته بين صفحات دفتر الحمل. بطاقة صغيرة مستطيلة، زرقاء فاتحة تحمل شارة.

قلتُ:

«ينبغي أن نحرّك السيارة يا جينيفر. لا يمكن أن نركنها إلا ساعة واحدة».

«حسناً، آسفة».

كانت الجملة الأخيرة موجّهة للقابلة التي ابتسمت لك وتجاهلتْني. أحنت عليك، ووضعت يدها على ساعدك.

«رقمنا الهاتفي موجود على غلاف دفترك. إذا كان لديك أيّ سؤال حول أي شيء، لا تتردّدي في الاتصال».

ركبنا السيارة وانطلقنا صامتين. كنت تضعين الصورة على ركبتيك، ورأيتك تتحسّسين بطنك بيديك بين الفينة والأخرى.

وما إن وصلنا إلى البيت حتّى سألتك:

«عن ماذا حدّثتك القابلة؟».

«عن سوابقي الصحية».

بدا جوابك سريعاً ومهيّأً.

كنتُ واثقا من أنّك تكذبين. ولمّا نمتِ، بحثت عن البطاقة الزرقاء ذات الشارة المدوّرة في دفترك، لكنّني لم أعثر عليها.

بمقدار ما كان بطنك ينتفخ كنت ألاحظ أنّك تتغيّرين. ظننتُك ستحتاجين إلي أكثر، لكن بدأ يتبيّن أنّك تصيرين أقوى وأكثر استقلالاً. وتنبّهت إلى أنّني سأفقدك بسبب هذا الجنين، ولم أعد أدري كيف أستعيدك.

كان الصيف تلك السنة حارّاً. وبدا لي كما لو أنّك تستمتعين بالتجوّل في البيت وأنت ترتدين تنورة وقميصاً قصيراً يكشف عن بطنك. كانت سُرّتك ظاهرة، ولم أكن أطيق رؤيتها. لم أكن أفهم لماذا كنت تصرّين على أن تتهادي هكذا، حتّى حين تذهبين لفتح الباب إذا طُرِق.

توقّفتِ عن العمل رغم أنّ موعد الولادة لم يكن متوقّعاً إلا بعد أسابيع، فطلبتُ إذاً من الخادمة أن تكفّ عن المجيء. كان من العبث أن أستمرّ في دفع أجرها مع أنّك تقضين اليوم كلّه في البيت لا تفعلين شيئاً.

تركت لك يوماً ملابس لتكويها، ولما عدت وجدتك قد كويتها، كما وجدت البيت مرتّباً على نحو رائع. كنتِ تبدين مُتعبة، فتأثّرت لِما بذلته من جهد. قرّرت أن أملأ لك حوض الحمام وأُدَلِّكك قليلاً. تساءلت عمّا إذا كنت ترغبين في أن أطلب طعاماً جاهزاً من الخارج أم أطبخه لك في البيت. حملتُ القمصان إلى الطابق العلوي، وفتحتُ حنفية الحمّام وناديتك.

وبينما كنت أعلّق القمصان في الخزانة، لاحظت شيئاً.

«ماذا أصاب هذا القميص؟».

شحب لونُك على الفور.

«آسفة. احترق. كنت أكويه فرنّ الهاتف. انشغلت بالمكالمة وسهوت عنه. الواقع أنّ المكان الذي احترق يوجد في الأسفل، إن أدخلتَه في السروال، لن يظهر».

كنتِ في منتهى الاضطراب رغم أنّ الأمر لم يكن بتلك الخطورة. مجرّد قميص. وضعتُه وتقدّمت منك خطوة لأحضنك، لكنّك تراجعت وطوّقت بطنك بيديك لحمايته، وقد بدا على وجهك الذعر. خفت من شيء لم يخطر على بالي أن أفعله، ولم يكن ثمّة من داعٍ لأن يحدث.

لكنّه حدث، ولا يمكن أن تلومي أحداً على حدوثه سوى نفسك.

42

بينما كان راي يركن سيارته في آخر مكان شاغر في الساحة، رنّ هاتفه. ضغط على زرّ قبول المكالمة والتفت إلى الخلف ليرى ما إذا كان بإمكانه أن يستمرّ في الرجوع إلى الخلف.

دخلت محافِظة الأمن السيدة ريبون إلى الموضوع من دون مقدّمات.

«أريدك أن تنفّذ عملية فولكن اليوم».

اصطدمت سيارة راي بسيارة فولفو مركونة خلفه.

«اللعنة!».

«ليس هذا هو الجواب الذي كنت أنتظره منك».

كان في صوت المحافِظة رنّة تشي بالانشراح لم يسبق لراي أن سمعها من قبل، وتساءل عن الشيء الذي قد يكون روّق مزاجها.

«معذرة سيدتي!».

ترجّل من السيارة تاركاً فيها مفتاح تشغيلها في حال ما إذا أراد صاحب سيارة الفولفو المغادرة، وألقى نظرة على الواقي من الصدمات، فلم يلحظ فيه شيئاً.

«ماذا قلت؟».

فاستأنفت أوليفيا بصبر غير معهود فيها:

«الاجتماع التحضيري لعملية فولكن مقرّر يوم الاثنين، لكنّني أريدك أن تقدّمه. لعلّك رأيت في نشرة الأخبار هذا الصباح الانتقادات التي وُجِّهت لقوّات الأمن لعدم حزمها في مكافحة المخدرات».

قال راي في نفسه: هذا هو ما يفسِّر مزاجها الرائق إذاً.

«هذا هو الوقت الأنسب لكي نظهر حزمنا. فالصحافة الوطنية أخبرت بالعملية المرتقبة. أريدك أن تجمع فرقك قبل الموعد بأيّام».

تجمّد الدم في عروق راي، وقال:

« مستحيل القيام بهذا اليوم».

خيّم الصمت للحظة.

انتظر راي أن تتكلّم، لكنّ الصمت طال إلى أن شعر بالحاجة ماسّة لملئه.

«لديّ موعد مع إدارة الإعدادية التي يدرس فيها ابني على الساعة الثانية عشرة زوالاً».

يُشاع أنّ أوليفيا تشارك في اجتماعات آباء التلاميذ في المدرسة التي يدرس فيها أبناؤها بواسطة الاتصال الهاتفي المرئي عن بعد، ومن ثمّة كان راي مقتنعاً بأنّ هذا العذر لن يحملها على تغيير رأيها.

قالت بنبرة صارمة:

«أنت تعلم يا راي أنّني متضامنة مع الناس الذين لهم أطفال، بل إنني دافعت عن توقيت مكيف بالنسبة إلى الآباء، ولكنّني أعلم، إن لم تكن معلوماتي خاطئة، أنّك متزوّج، أليس كذلك؟».

«نعم».

«اعذرني إن تدخّلت في أمورك الشخصية، ولكن أين هي المشكلة؟».

أسند راي ظهره إلى الجدار قرب الباب الخلفي للبناية، ورفع عينيه إلى السماء لعلّها تلهمه، إلا أنّه لم يجد غير غيوم داكنة.

«أظنّ أنّ ابني يعاني من مضايقات في المدرسة يا سيدتي. وهذه هي أوّل فرصة تتاح لنا للحديث مع إدارة الإعدادية بعد أن اعترفوا بأنّ ثمة مشكلة، وزوجتي تصرّ على أن أرافقها» ولام راي نفسه على إلقاء المسؤوليّة على ماغس.

ثمّ أضاف:

«وأنا راغب في الحضور، بل يتعيّن عليّ أن أحضر».

قالت أوليفيا بنبرة ألطف قليلاً:

«آسفة راي. الأطفال يتسبّبون لنا أحياناً في كثير من المتاعب. إذا كنت تقدّر بأنّ حضورك هذا اللقاء ضروري، فلن أمنعك بالطبع، ولكن العملية ستنفّذ اليوم بتغطية صحفية وطنية ما أحوجنا إليها. ينبغي أن نروّج لسياستنا المتشدّدة اتّجاه المخدرات. فإذا كنت غير مستعدّ للإشراف عليها، سأضطرّ للبحث عن غيرك. سأتّصل بك بعد ساعة».

غمغم راي وهو يعيد الهاتف إلى جيبه:

«تتكلّم كما لو أنّها تركت لي هامشاً للاختيار!».

عليه أن يختار بين نجاحه المهني وأُسرته. وعندما دخل إلى مكتبه، أغلق الباب وجلس على مقعده وهو يشدّ على أطراف أصابعه. إنّ عملية اليوم على قدر كبير من الأهمية، وهو لا يشكّ في أنّها اختبار للمؤهّلات التي قد ترشّحه لارتقاء درجات أخرى على سلَّم الرتب. لم يَعُد واثقاً من نفسه، ولم يَعُد يعرف ما إذا كان هذا هو مراده حقّاً. وفكّر في السيارة الجديدة التي سيكون بحاجة إليها في غضون سنة أو سنتين، وفي العطل التي سيشرع الطفلان قريباً في

المطالبة بقضائها في الخارج، وفي المنزل الأوسع الذي تستحقّه ماغس. لديه طفلان ذكيان يأمل في إرسالهما إلى الجامعة، ولكن من أين سيأتي بالمال لتمويل دراستهما إن هو لم يستمرّ في ارتقاء الرُّتب؟ لا يمكن للمرء أن ينال أمنياته من دون تضحيات.

تنفّس بعمق، وتناول سماعة الهاتف ليتّصل بماغس.

كان الإعلان عن عملية فولكن عملاً ناجحاً. دُعي الصحافيون إلى قاعة المؤتمرات بولاية الأمن من أجل مؤتمر صحفي يدوم نصف ساعة، ستُقدِّم خلاله المحافِظة راي بوصفه «أحد خيرة رجال الشرطة في المنطقة». وشعر بدفق من الأدرينالين وهو يجيب عن أسئلة حول حجم مشكلة المخدرات في بريستول، والطرق التي تستعملها الشرطة لفرض احترام القانون، وانخراطه الشخصي في القضاء على تجارة المخدرات في الفضاءات العامة، وإعادة الأمن للساكنة. ولمّا سأله مراسل ITN عمّا إذا كان لديه شيء يضيفه، واجه الكاميرا مباشرة وقال:

«هناك أناس في هذه المدينة يبيعون المخدرات دون أن يطالَهم العقاب، ويعتقدون أنّ الشرطة غير قادرة على توقيفهم. لكنّنا نملك الإمكانات، ونحن مصمّمون على الإمساك بهم. وطالما أن شوارع هذه المدينة لم تتخلّص منهم، فلن يغمض لنا جفن».

ضجّت القاعة بالتصفيقات، فألقى راي نظرة إلى المحافظة التي حرّكت رأسها على نحو لا يكاد يُلحظ. كانت التوقيفات قد جرت في وقت سابق، وبلغت أربعة عشر توقيفاً في أماكن متباينة. أمّا تفتيش المنازل فسيتطلّب ساعات، وتساءل عن الكيفية التي ستدبّر بها كايت هذا الأمر باعتبارها المسؤولة عن وثائق الإثبات.

وما إن واتته الفرصة حتّى اتّصل بها، فقالت:

«اتّصلتَ في الوقت المناسب. أأنت في المفوضيّة؟».

«أنا في مكتبي، لماذا؟».

«الحق بي في المقصف بعد عشر دقائق. لديّ شيء أريد إطلاعك عليه».

لم تكد تمضي خمس دقائق حتّى كان في المقصف. وراح ينتظر بفراغ صبر كايت التي جاءت مهرولة وقد ارتسمت على محيّاها ابتسامة عريضة.

بادرها:

«هل تشربين قهوة؟».

«ليس لدي وقت، ينبغي أن أعود، ولكن ألقِ نظرة على هذا».

أخرجت كيساً بلاستيكياً شفافاً توجد بداخله بطاقة زرقاء فاتحة.

علّق راي:

«ألم تكن توجد في حافظة أوراق جينا غراي بطاقة تشبهها؟ أين عثرت عليها؟».

«في أحد المنازل التي فتشناها هذا الصباح، لكنّها لا تشبهها تماماً» وشدّت البلاستيك لكي يستطيع راي قراءة ما كتب عليها.

«البطاقة نفسها، الشارة نفسها، لكنّ العنوان مختلف».

«هذا شيء مهمّ. لمن المنزل؟».

«دومينيكا ليتس. رفضت الكلام طالما لم يحضر محاميها» نظرت كايت إلى ساعتها. «تبّاً! ينبغي أن أذهب» مدّت الكيس لراي، «بإمكانك أن تحتفظ به، عندي كيس مثله».

ابتسمت من جديد واختفت تاركة راي يتفحص البطاقة. لم يكن في العنوان ما يثير الانتباه -حي سكني مثل غراهام ستريت-، لكنّه

قال في نفسه إنّ عليه مع ذلك أن يستنبط شيئاً من هذه الشارة. كانت عبارة عن نصفَي رقم ثمانية ملتفين على بعضهما مثل دمى روسية.

حرّك رأسه. كان عليه قبل العودة إلى بيته أن يتأكّد ممّا إذا كانت الاحتجازات تجري على ما يرام، وأن يتثبّت لآخر مرّة من أنّ كلّ شيء جاهز لمحاكمة غراي في اليوم الموالي. طوى الكيس ووضعه في جيبه.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة ليلاً عندما امتطى راي سيارته، وتساءل لأوّل مرّة، منذ الصباح، عمّا إذا كان مُحقّاً حين قرّر تقديم العمل على الأُسرة. طوال الطريق وهو يفكّر في هذا الأمر، وحين وصل أمام بيته، كان مقتنعاً بأنّه قام بالاختيار الصحيح، وهو في الواقع الاختيار الوحيد الذي كان أمامه. لكنّه ما إن أدار المفتاح في القفل حتّى سمع ماغس تنتحب.

«يا إلهي! ماذا جرى يا ماغس؟» ترك حقيبته تسقط أرضاً عند المدخل وهرع إلى زوجته. جثا أمام المقعد، وأزاح الشعر لينظر إلى وجهها، «هل توم بخير؟».

«كلا، ليس بخير!».

أزاحت يديه عنها.

«ماذا قالوا لك في المدرسة؟».

«قالوا إن هذا الحال ليس جديداً، بل يدوم منذ أكثر من سنة. إلا أنّ المديرة صرحت بأنّها لا تستطيع أن تتصرّف طالما أنّها لا تملك دلائل».

«لكنّهم يتوفّرون عليها الآن؟».

انفجرت ماغس ضاحكة.

«أمّا هذا، فصحيح! الظاهر أنّه انتشر انتشاراً واسعاً على الإنترنت. سرقة السلع في المتاجر، والآن، وهو الأدهى، جرى تصوير مشاهِد تعنيف، وأذيعت على يوتيوب حتّى يتفرّج عليها الجميع».

شعر راي بغصّة في حلقه وهو يفكّر في ما قد يكون تحمّله توم من معاناة، ثمّ سأل وهو يومئ برأسه باتّجاه غرفته:

«أهو نائم؟».

«أظنّه نام. لا بدَّ أنّه مرهق: طوال ساعة ونصف وأنا أصرخ في وجهه».

سأل راي وهو ينهض واقفاً:

«تصرخين عليه؟ يا إلهي؟ ولماذا تصرخين عليه؟ ألا يكفيه ما تعرّض له؟».

توجّه نحو السلَّم، لكن ماغس أمسكت به.

«الظاهر أنّك لم تفهم شيئاً!».

حدّق فيها راي مصعوقاً، فقالت له:

«أنت منشغل بعملك بحيث لا تكاد تعرف شيئاً ممّا يجري في عقر دارك! توم لا يتعرّض للمضايقة يا راي، هو من يضايق الآخرين ويعتدي عليهم».

شعر راي كما لو أنّه تلقّى لكمة عنيفة.

«لا بدّ أنّ أحدهم هو من يجبره على...».

فقاطعته ماغس بلطف وهي تتنهّد:

«لا أحد يجبره على شيء. الظاهر أنّ توم يترأّس «عصابة» صغيرة مؤثّرة، تتألّف على الأرجح من ستة أطفال، من بينهم فيليب مارتان وكونور أكستيل».

فعلّق راي بنبرة حزينة وقد تعرّف أصحاب هذه الأسماء:

«واضح».

«الأكيد أنّ توم هو من يرأس العصابة. هو صاحب فكرة التغيُّب عن الدروس، وهو صاحب فكرة انتظار الأطفال عند باب مركز التربية المتخصّصة...».

شعر راي بالدوار، وسأل:

«والأغراض الموجودة تحت سريره؟».

«مسروقة تحت الطلب فيما يبدو. ولا شيء منها سرقه هو. يبدو أنّه يتجنّب تلويث يديه».

لم يسبق لراي أن لمس مثل هذه المرارة في صوت ماغس.

«ماذا سنفعل؟».

حين لا يسير أمر ما كما ينبغي في العمل، يوجد قانون يمكن الاحتكام إليه، وتوجد بروتوكولات ونصوص، كما يوجد فريق عمل يساعده. أما هنا في البيت، فشعر بنفسه عاجزاً.

أجابت ماغس ببساطة:

«سنسوّي هذه المشكلة. سنعتذر للناس الذين أساء إليهم توم، وسنعيد الأشياء التي سرق، وسنحاول على الخصوص البحث عن الأسباب التي جعلته يفعل هذا».

لزم راي الصمت لحظة. عبَرت ذهنه فكرة، لم يستطع الجهر بها في البداية، لكنّه صمّم على إعلانها. سأل:

«أبسبب خطئي؟ ألأنني كنت غائباً عن البيت؟».

«كُفّ عن هذا الهراء ولا داعي لأن تلوم نفسك. إنّه خطئي أنا أيضاً، لأنّني لم ألحظ شيئاً».

«كان عليّ مع ذلك أن أقضي وقتاً أطول في البيت».

لم تعترض عليه ماغس.

«أنا آسف حقّاً يا ماغس. أعدك بألا تسير الأمور على هذا النحو مستقبلاً. بمجرّد ما سأترقى إلى رتبة مفوّض شرطة، سأ. . .».

«ولكنك تعشق عملك كنقيب».

«نعم، ولكن. . .».

«فلِمَ تسعى إذاً إلى أن تترقّى مهما كلّف الثمن؟».

راح راي يحدّق فيها مذهولاً.

«من أجلنا. من أجل أن نحصل على منزل واسع وألا تضطري للعودة إلى العمل».

التفتت إليه ماغس ساخطة، وقالت:

«ولكنني أرغب في العودة إلى العمل! فالأطفال يقضون يومهم في المدرسة، وأنت في المخفر. . . أريد أن أفعل شيئاً لنفسي، أن أستأنف مسيرة مهنية جديدة تجعل لي هدفاً أسعى إليه، وهو أمر حُرمته لسنوات طويلة» تفرّست راي وتجهّمت ملامحها. «لا تكن أبله!».

كرّر راي:

«آسف».

أحنت عليه لتقبّل جبينه.

«انسَ توم هذا المساء. لن يذهب إلى المدرسة غداً، سنستغل فرصة بقائه في البيت لنتحدّث إليه. أمّا الآن فالأحرى أن نتحدّث عن نفسينا».

حين فتح راي عينيه، رأى ماغس تضع فنجان شاي على منضدة السرير بلطف. قالت له:

«قلت في نفسي لعلّك تريد أن تستيقظ باكراً. هذا هو يوم محاكمة غراي، أليس كذلك؟».

«نعم، ولكن يمكن أن تحضرها كايت» واستوى جالساً. «سأمكث لكي نتحدث مع توم».

«وتفوّت لحظة المجد؟ لا عليك، اذهب! سنتكفّل أنا وتوم معاً بالمنزل كما كان الحال حين كان صغيراً. يتهيّأ لي أنّه ليس بحاجة إلى الكلام، بل إلى أن ننصت إليه».

تعجّب راي من هدوئها.

«لو أنّك امتهنت التعليم، لكنت أستاذة بارعة يا ماغس» تناول يدها. «إنني لا أستحقك».

ابتسمتْ.

«ربّما، لكنك مضطر للعيش معي».

ضغطت على يده ثمّ نزلت إلى الطابق السفلي تاركة إياه يشرب شايه بهدوء. وتساءل عن المدة التي قضاها يقدّم عمله على أسرته، وشعر بالخزي حين تنبّه إلى أنّه فعل ذلك طوال حياته. عليه أن يتغيّر، ويعطي الأولوية لماغس والطفلين. كيف سمح لنفسه بأن يتجاهل إلى هذا الحدّ حاجات ماغس، ويغفل رغبتها في العودة إلى العمل؟ واضح أنّه ليس الوحيد الذي يجد الحياة مملّة أحياناً. وإذا كانت ماغس قد وجدت الحل في العودة إلى العمل واستئناف مسيرة مهنية جديدة، فماذا سيفعل هو؟ فكّر في كايت، وشعر بوجهه يتورّد.

استحمّ وارتدى ملابسه ثمّ نزل إلى الطابق السفلي باحثاً عن سترته.

هتفت ماغس وهي خارجة بها من الصالون:

«ها هي!» أشارت إلى الكيس البلاستيكي الذي كان نصفه ظاهراً من الجيب. «ما هذا؟».

تناوله راي ومدّه إليها.

«شيء قد تكون له علاقة بقضية غراي. ما زلت أحاول فكّ شيفرة هذه الشارة».

رفعت ماغس الكيس، وتفحّصت البطاقة وقالت متردّدة:

«يخيّل إليّ أنها عبارة عن شخص يضمّ شخصاً آخر بين ذراعيه؟ أليس كذلك؟».

فغر راي فمه. نظر إلى البطاقة، ورأى على الفور ما وصفت ماغس. ما بدا له رقم ثمانية غير المكتمل هو في الواقع رأس وكتفان، بينما تطوّق اليدان هيئة أصغر تتناسب مع خطوط الهيئة الأولى.

وصاح:

«بلى».

تذكّر منزل غرانتان ستريت، بأقفاله المتعدّدة، وستائره المسحوبة، وجينا غراي ونظراتها الخائفة، فبدأت ترتسم في ذهنه صورة شيئاً فشيئاً.

تردّد وقع أقدامٍ في السلَّم، وما هي إلا ثوانٍ حتى ظهر توم وقد بدا عليه القلق. تفرّسه راي. لشهور وهو يعتقد عن خطأ أنّ ابنه ضحيّة.

قال بصوت مرتفع:

«كلّ شيء كان خاطئاً».

سألت ماغس:

«عمَّ تتحدّث؟».

أمّا راي فكان قد اختفى.

43

مدخل محكمة الجنايات ببريستول مخفيٌّ في شارع ضيّق يُسمّى سمول ستريت. قال لي سائق التاكسي:

«أنا مضطرّ لأن أدعك هنا يا سيدتي» إذا كان قد تعرّف إلي انطلاقاً من الصورة المنشورة في جريدة اليوم، فإنّه لم يُظهر ذلك. «هناك شيء غير عادي أمام المحكمة، لا يمكنني أن أذهب بالسيارة أبعد».

وقف عند زاوية الشارع حيث كان رهط من الرجال يرتدون سترات أنيقة وربطات عنق يغادرون حانة آل بار وان وقد بدا عليهم الانتشاء.

نظر إليّ أحدهم نظرة شهوانية، وقال:

«ألا تشربين معي كأساً أيّتها الحسناء؟».

أشحتُ عنه فغمغم:

«أيّتها الداعرة الباردة!».

وانفجر رفاقه ضاحكين.

تنفّست بعمق وأنا حريصة على التغلُّب على الخوف الذي انتابني بينما كنت أجول ببصري في الشارع بحثاً عن يان. أتُراه جاء؟ أتُراه يراقبني في هذه الأثناء؟

تُطوّق شارع سمول ستريت بنايات عالية تحجب عنه الضوء، وتجعل للأصوات فيه صدى أصابني بالقشعريرة. ولم أكد أسير بضع خطوات حتّى أدركت ماذا قصد سائق التاكسي. ذلك أنّ جزءاً من الشارع مطوّق بحواجز أمنية يجتمع خلفها قرابة ثلاثين متظاهراً. كثير منهم يحملون على أكتافهم لافتات، والحاجز الموجود أمامهم مباشرة كُتبت عليه كلمة **قاتلة** بلون أحمر وحروف كبيرة تسيل من كلٍّ منها قطرات أشبه بقطرات دم. وبقرب الجماعة وقف شرطيان يرتديان سترة فلورسنت، لا يبدو أنّ الشعارات التي تصلني في الطرف الآخر من الشارع تزعجهما.

«أنصفوا جاكوب! أنصفوا جاكوب!».

مشيت ببطء نحو المحكمة نادمة على أنّني لم أجلب معي وشاحاً أو نظارات سوداء. ومن زاوية عيني لمحت رجلاً واقفاً على الرصيف المقابل. كان مستنداً إلى الجدار، لكنّه ما إن رآني حتى استوى في وقفته وأخرج هاتفاً من جيبه. حثثت الخطو حتّى أصل بأسرع وقت إلى مدخل المحكمة، لكن الرجل انطلق بسرعتي نفسها من الجانب الآخر من الشارع. أجرى مكالمة دامت بضع ثوان. كان متأبّطاً حقيبة سوداء، وأبصرت صدفة جيوب سترته البنية الفاتحة مليئة بالعدسات. جرى أمامي، فتح الحقيبة وأخرج منها آلة تصوير، ثمّ ركّب عليها عدسة بحركة رشيقة تشهد على سنوات من الخبرة، والتقط لي صورة.

قلت في نفسي وأنا ألهث: سأتجاهل المتظاهرين، وأدخل إلى المحكمة كما لو أنّهم غير موجودين. لن يستطيعوا إيذائي، فالشرطة حاضرة لكي تمنعهم من الوصول إليّ. سأتصرّف إذاً كما لو أنّهم ليسوا موجودين.

لكنني ما إن انعطفت نحو مدخل المحكمة حتّى لمحت الصحافي الذي لاحقني عند خروجي من المحكمة الابتدائية.

«هل من تصريح لجريدة **بوست** يا جينا؟ إنّها فرصتك لكي تقدّمي روايتك لما حدث».

التفتُّ، فأصابني الشلل، إذ وجدت نفسي وجهاً لوجه مع المتظاهرين. ترك الشعار مكانه لهتافات الاستهجان والصراخ، وفجأة تحرّك الحشد باتجاهي. أسقطوا الحاجز الذي اصطدم بالأرض محدثاً صوتاً تردّد كطلقة نارية في الشارع. هبَّ الشرطيان بتراخٍ وقد فتحا أذرعهما لردّ المتظاهرين. كان بعضهم لا يزال يصرخ، لكن معظمهم مضى يضحك ويتبادل أطراف الحديث كما لو أنهم إنّما جاؤوا إلى هنا لتزجية الوقت مع أصدقائهم.

وبينما كان المتظاهرون يتراجعون، والشرطيان يعيدان نصب الحواجز، وجدت نفسي وجهاً لوجه مع امرأة تصغرني سنّاً، بالكاد تبلغ الثلاثين. وبخلاف بقيّة المتظاهرين، لم تكن تحمل في يدها لافتة ولا لوحة، بل شيئاً آخر. ترتدي فستاناً بنيّاً قصيراً مع سروال ضيق أسود وحذاءً رياضياً أبيض في حالة يرثى لها، لا يتناسب مع بقية لباسها. ورغم البرد، كان معطفها مفتوحاً.

قالت بصوت هادئ:

«كان صبيّاً رزيناً».

وسرعان ما تنبّهت إلى الشبه بينها وبين جاكوب: بعينيها الزرقاوين المنسحبتين، ووجهها الذي يشبه القلب، وذقنها الصغير الحادّ.

صمت المتظاهرون، وراح الجميع يراقبوننا.

«لم يكن يبكي قطّ، حتّى لما كان يمرض. كل ما كان يفعل هو أنه يضغط نفسه إليّ ويحدّق فيّ بانتظار أن يزول الألم».

كانت تتحدّث إنجليزية متقنة، لكن بلكنة لم أستطع تحديدها، قد تكون لكنة أوروبا الشرقية. كان صوتها متّزناً كما لو أنّها تستظهر نصّاً حفظته عن ظهر قلب. ورغم أنّها تُجهد نفسها لإخفاء مشاعرها، خِلْت أنّ هذا اللقاء أخافها مثلما أخافني، بل ربّما أكثر ممّا أخافني.

«أنجبته وأنا لا أزال صغيرة. كنت لا أزال أنا نفسي طفلة. لم يكن أبوه يريدني أن أحتفظ به، لكنني لم أستطع إجهاضه. أحببته وهو لا يزال جنيناً» كانت تتحدث بهدوء ومن دون انفعال. «كان جاكوب هو كلّ ما أملك».

اغرورقت عيناي بالدموع، ولُمْت نفسي على ذلك بينما ظلّت عينا أم جاكوب جافتين. أجهدت نفسي لكي لا أتحرّك، لكي لا أمسح خدّي. كنت واثقة من أنّها كانت تفكر مثلي في ذلك المساء، لمّا حدّقت في الزجاج الأمامي للسيارة المكسوّ بقطرات المطر، مجعِّدة عينيها بسبب الضوء الساطع. أما اليوم، فلا حاجز بيننا، تراني بوضوح مثلما أراها. كنت أتساءل لِمَ لَمْ ترتَمِ عليّ لكي تقتصّ منّي، تعضّني أو تضربني. أجهل ما إذا كنت سأكون قادرة على التصرف برباطة جأشها لو كنت مكانها.

«آنيا!».

لوّح لها رجل من وسط حشد المتظاهرين، لكنّها تجاهلته. مدّت لي صورة وأجبرتني على تناولها.

لم تكن صورته التي رأيتها في الصحف أو على الإنترنت: في لباسه المدرسي وابتسامة عريضة تعلو محيّاه، مديراً رأسه قليلاً نحو المصوّر. يبدو جاكوب في هذه الصورة أصغر سنّاً، ربّما في الثالثة

أو الرابعة من عمره، متكوّماً في حضن أمّه وهما مستلقيان معاً على ظهريهما فوق عشب طويل تناثرت فيه الهندباء البرية. ويبدو من خلال زاوية الصورة أنّ آنيا التقطتها لنفسها: ذراعها ممدودة كما لو أنها تهمّ بالإمساك بشيء خارج إطار الصورة، وجاكوب ينظر إلى آلة التصوير، وقد جعّد عينَيه بسبب أشعة الشمس بينما تضحك آنيا وهي مُلتفِتَة نحو جاكوب، ووجه ابنها ينعكس في عينيها.

قلت:

«أنا آسفة».

بدت هاتان الكلمتان تافهتَين، لكنّني لم أجد غيرهما، ولم أحتمل أن أظلّ صامتة أمام حزنها.

«هل لديك أبناء؟».

تذكّرت ابني وجسده البالغ الخفة، المدثر في غطاء المستشفى، كما تذكّرت الألم الذي كان يمزّق أحشائي، والذي لم يفارقني أبداً. كان ينبغي أن توجد في اللغة كلمة تعيّن أمّاً بلا أطفال، تُعيّن المرأة التي تُحرَم أطفالاً يملؤون عليها حياتها.

«كلا».

بحثت عمّا أقوله، فلم يتبادر شيء إلى ذهني، فمددت الصورة لآنيا التي حركت رأسها وهي تقول:

«لست بحاجة إليها. وجهه منقوش ها هنا» ووضعت راحة يدها مبسوطة على صدرها. «أنت من ينبغي أن تتذكّري فيما أظنّ، أن تتذكري أنّه كان طفلاً صغيراً، له أمّ، وقد تحطّم قلبها».

عادت أدراجها، ومرّت من تحت الحاجز، واختفت في الحشد. التقطت نفساً عميقاً كما لو أنّ أحداً كان يغطّس رأسي في الماء.

محاميتي امرأة في الأربعين من العمر. نظرتْ إليّ باهتمام حين دخلت إلى غرفة المقابلة التي يقف عند بابها حارس، وقالت مقدّمة نفسها وهي تمدّ لي يداً صلبة:

«اسمي روث جيفرسن. المسطرة سهلة اليوم يا سيّدة غراي. بما أنّك اعترفت بالمنسوب إليك، فإن المحكمة ستحاول فقط تقدير العقوبة. ستُعرَضين على أنظار المحكمة بعد الفطور مباشرة. من سوء حظّك أنّ من يترأّس الجلسة هو القاضي كينغ».

جلستْ إلى الطاولة قبالتي.

«ما المشكلة مع القاضي كينغ؟».

ردّت روث وقد ندّت عنها ضحكة لا مرح فيها، كشفت عن أسنان بيضاء متناسقة:

«لِنَقُل ببساطة إنّه غير معروف بالرأفة».

سألتُها دون أن أشعر:

«بماذا سيحكم عليّ؟».

لا أهميّة لذلك، أهمّ شيء الآن هو إقرار العدالة.

«من الصعب تخمين ذلك. فعقوبة جريمة الاصطدام والهروب هي سحب رخصة السياقة، لكن مهما يكن، فأدنى عقوبة بالنسبة إلى السياقة المتهوّرة المُفضية إلى القتل هي سحب الرخصة لمدّة سنتين. يبقى أن مدّة السجن هي التي يمكن أن يكون فيها الاختلاف كبيراً. فالسياقة المتهوّرة المتسبّبة في الموت قد تبلغ عقوبتها أربع عشرة سنة، لكن في الواقع، تتراوح المدّة بين سنتين وستّ سنوات، وستكون مهمتي هي إقناع المحكمة بأنّ عقوبة سنتين هي الأنسب» أزالت غطاء قلم حبر أسود. «هل سبق أن عانيت من اختلالات عقلية؟».

حرّكت رأسي نافية، فرأيت آثار الخيبة على وجهها.

«لنتحدّث عن الحادثة إذاً. حسبما فهمت، كانت الرؤية سيّئة للغاية. هل رأيت الطفل قبل أن تصدميه؟».

«كلا».

«هل تعانين من مرض مزمن؟ قد يكون هذا مفيداً في هذا النوع من القضايا. أو ربّما لم تكوني تشعرين بنفسك على ما يرام ذلك اليوم؟».

رُحْت أنظر إليها مصعوقة، فقطّبت.

«إنّك لا تسهّلين عليّ المهمة يا سيّدة غراي. هل تعانين من الحساسية؟ لعلّك أصبت بنوبة عطاس لحظة الحادثة؟».

«لست أفهم قصدك؟».

تنهّدت روث، ثمّ مضت تتحدّث ببطء كما لو أنّها تخاطب طفلاً.

«لا بدَّ أن القاضي كينغ ألقى نظرة على ملفّك، ولا بدَّ أنه هيّأ حكماً. مهمّتي تتمثّل في عرض ما وقع كما لو أنّه لا يعدو أن يكون حادثة محزنة. حادثة ما كان بإمكانك أن تتجنّبيها، وأنّك نادمة كلّ الندم على وقوعها» ورشقتني بنظرة حافلة بالإيحاءات. «ليس قصدي أن أقوِّلك ما لم تقولي، ولكن إن كانت انتابتك نوبة من العطاس مثلاً...».

«لا شيء من هذا».

أهكذا تجري الأمور؟ نسيج من الأكاذيب الغاية منها الحصول على أخفّ عقوبة ممكنة. أيُعقل أن يكون نظامنا القضائي مُغرِض إلى هذا الحدّ؟ شيء يحطّم القلب.

راجعت روث جيفرسن ملاحظاتها، ثمّ رفعت رأسها فجأة.

«هل ارتمى الطفل تحت عجلاتك؟ فحسب ما صرّحت به الأم، قالت إنها كانت تمسك به، لكنّها حرّرت يده بينما اقتربا من الطريق، إذاً. . .».

«لم يكن ذلك بسبب خطئها!».

قطّبت المحامية وقالت بنبرة لطيفة:

«سيّدة غراي، لسنا هنا من أجل تعيين المسؤول عن هذه الحادثة الحزينة، بل نحن هنا للحديث عن الملابسات والظروف التي يمكن أن تخفّف العقوبة. حاولي ألا تستسلمي لعواطفك».

«آسفة، ولكن لا وجود لظروف تخفيف».

فردّت روث:

«واجبي هو أن أجدها» وضعت الملف ومالت نحوي. «صدّقيني يا سيّدة غراي، هناك فرق كبير بين سنتين وست سنوات سجناً. وإذا كان ثمّة شيء يمكن أن يبرّر قتلك لطفل في الخامسة من عمره، ثمّ الفرار، عليك أن تطلعيني عليه فوراً».

رحنا نتبادل النظرات، وقلت:

«لا شيء يبرّره مع الأسف».

44

اندفع راي دون أن ينزع معطفه إلى مكاتب شعبة الجنايات، فوجد كايت مستغرقة في مراجعة قضايا الليلة السابقة.

«الحقي بي إلى مكتبي فوراً!».

قامت واقفة وتبعته.

«ماذا جرى؟».

لم يجب عن سؤالها. شغّل حاسوبه ووضع البطاقة الزرقاء على مكتبه.

«ذكّريني بصاحب هذه البطاقة».

«دومينيكا ليتس، عشيقة أحد من نتعقّبهم».

«هل اعترفت بشيء؟».

«كلا».

شبك ذراعيه، وقال:

«إنّه ملجأ نساء».

مضت كايت تحدّق بارتباك دون أن تفهم. فقال موضِّحاً:

«منزل غراهام ستريت. وهذه»، مومئاً برأسه إلى البطاقة الزرقاء، «أظنّه ملجأ للنساء اللواتي يعانين من العنف الزوجي» سوّى جلسته على الكرسي، وشبك يديه خلف رأسه. «نحن نعرف أن

دومينيكا ليتس إحدى ضحايا هذا العنف، وهذا ما كاد يعصف بعمليّة فولكن. مررت أمام هذا العنوان وأنا قادم إلى العمل، ولاحظت أنّه يشبه تماماً غراهام ستريت: وسائل استشعار الحركة أمام المدخل، ستائر في كلّ النوافذ، لا وجود لفتحة بريد في الباب».

«أتظنّ أنّ جينا غراي أيضاً تعاني من العنف الزوجي؟».

حرّك راي رأسه وقال:

«ألم تلاحظي أنّها لا تنظر إلى عيني مخاطبها أبداً؟ وأنّها متوتّرة، تجنح إلى الانغلاق بمجرّد ما يُطلب منها تقديم إيضاحات؟».

وقبل أن يُتمّ حديثه، رنّ هاتفه، وظهر على شاشته رقم مصلحة الاستقبال.

قالت راشيل:

«هناك شخص يريد لقاءك، يدعى باتريك ماثيوز».

«لا أنتظر أحداً يا راشيل. هل يمكن أن تسجّلي ما يريد، وتتخلّصي منه؟».

«حاولت، لكنّه يلحّ. قال إنّه يريد أن يحدثك بشأن صديقته... جينا غراي».

اندهش راي: صديق جينا! الأبحاث التي أجراها عن ماضيه لم تسفر سوى عن أنّه تلقّى تنبيهاً لما كان طالباً بسبب السكر العلني، لكن، أكانت المظاهر خدّاعة؟

«آتيني به».

وبينما كان ينتظره، أخبر كايت بالأمر، فسألت:

«أتُراه الرفيق الذي يعنّفها؟».

حرّك راي رأسه.

«لا يبدو من مظهره أنّه من تلك الطينة».

«الناس لا يبدون دائماً. . .».

وصمتت فجأة حين وصلت راشيل مع باتريك ماثيوز. كان يلبس سترة متآكلة، ويعلّق على كتفه حقيبة. أشار راي إلى الكرسي بجانب كايت، فجلس على حافته كما لو أنه متأهّب للمغادرة في أي لحظة.

بادره راي:

«أعتقد أن لديك معلومات تتعلّق بجينا غراي».

«لا أظنّها معلومات بقدر ما هو انطباع».

نظر راي إلى ساعته. فمحاكمة جينا ستنطلق بعد الغداء مباشرة، وهو يرغب في حضور الجلسة قبل النطق بالحكم.

«أيّ نوع من الانطباعات، يا سيد ماثيوز؟».

نظر إلى كايت التي هزّت كتفيها على نحو بالكاد يُلحظ. فباتريك ماثيوز ليس الرجل الذي كانت تخافه جينا. ولكن، من يكون هذا الرجل يا ترى؟

«ناديني باتريك من فضلك. اسمع، أعلم أنّكما ستندهشان لو أنني قلت لكما العكس، لكنني لا أظنّ أن جينا هي الجانية».

أثارت هذه المقدمة فضول راي. واسترسل باتريك قائلاً:

«هناك شيء تخفيه عنّي وقع ليلة الحادثة، شيء لم تبح به لأحد. كنت أظنّ حقّاً أنّنا نستطيع العيش بقيّة حياتنا معاً، لكنني لست أدري كيف ستكون هذه الحياة إن هي رفضت أن تُسِرّ لي بذلك».

رفع يديه دلالة على اليأس، فتذكّر راي زوجته التي قالت له: **أنت لا تتحدث إليّ أبداً.**

تدخّل راي بغتة:

«ماذا تعتقد أنّها تخفي عنك؟».

وتساءل: أبين كل الأزواج أسرار؟

«جينا تحتفظ بصندوق تحت سريرها» وبدا باتريك منزعجاً. «لم يخطر على بالي قط أن أفتش أغراضها، لكنّها رفضت أن تطلعني على سرّها. ولمّا لمست هذا الصندوق، تصرّفتْ على نحو غريب... كنت آمل أن أجد أجوبة».

«ألقيت نظرة على محتوياته إذاً؟».

نظر راي إلى باتريك، لم يكن يبدو عدوانياً، لكن تفتيش أغراض الآخرين معناه أنهّ يميل إلى مراقبة كلّ شيء.

هزّ باتريك رأسه مُقرّاً.

«أتوفر على مفتاح البيت الريفي. كنت قد اتفقت معها على أن أذهب ذلك الصباح إلى البيت لآخذ كلبها بعد أن تنصرف» وتنهّد. «ما كان عليّ ربما أن أفعل ذلك» مدّ ظرفاً لراي. «انظر ما في داخله».

فتح راي الظرف، وأبصر الغلاف الأحمر الذي يميّز جواز السفر البريطاني. اكتشف بداخله صورة لجينا وهي لا تزال شابّة، تبدو جادّة، تشدّ شعرها على شكل ذيل فرس، وقرأ على يمين الصورة اسم: جينيفر بيترسن.

«إنّها متزوّجة» نظر راي إلى كايت، كيف أنّها لم تكتشف هذا؟ مع أنّ هوية كل من يُحتجز من أجل التحقيق تُفحَص بعناية بالغة: كيف ضللهما تغيير بسيط في الاسم؟ نظرت إلى باتريك. «أكنت تعرف هذا؟».

كانت المحاكمة ستشرع بعد دقائق، ومضى راي ينقر بأصابعه على مكتبه. بيترسن. تهيّأ له أنّه سمع بهذا الاسم من قبل، ولكن أين؟

«قالت لي إنّها كانت متزوجة. أظنّها مطلّقة».

تبادل راي وكايت النظرات، ورفع سماعة الهاتف وطلب رقم المحكمة.

«هل نودي على غراي؟».

استمهله الموظف ريثما يراجع لائحة القضايا المدرجة في الجلسة.

اسمها بيترسن لا غراي، يا لها من غلطة!

«حسناً، شكراً» وضع السماعة. «لقد تأخّر القاضي كينغ، أمامنا نصف ساعة».

مالت كايت نحوه وسألت:

«التصريحات التي أعطيتك ذلك اليوم، حين كلّفتني باستقبال تلك المرأة التي جاءت لتبلّغ عن حياة شخص في خطر، أين هي؟».

أجاب راي:

«في مكان ما فوق مكتبي».

شرعت كايت تفتّش بين الأوراق المتراكمة على المكتب. تناولت ثلاثة ملفّات من أعلى كومة الوثائق التي تنتظر المعالجة، ولمّا لم تعثر على حيّز فارغ فوق الطاولة، وضعتها على الأرض، وواصلت تصفّح بقيّة الوثائق بسرعة فائقة.

ثمّ قالت بنبرة ظافرة:

«ها هي».

أخرجت التصريحات من الغلاف البلاستيكي، ووضعتها على

مكتب راي، فتناثرت قطع صور ممزّقة. التقط باتريك قطعة. تفحّصها بفضول، ثمّ رفع عينيه نحو راي:

«هل أستطيع؟».

فأجابه راي دون أن يعرف على وجه الدقة ماذا يطلب:

«تفضّل!».

جمع باتريك القطع، وحاول أن يعيد تشكيل الصورة. ولمّا بدأت معالم خليج بينفاتش تتّضح، صدر عن راي صفير خافت.

«جينا غراي هي إذاً أخت إيف مانينغس التي كانت قلقة على حياتها».

«نشكرك يا سيد ماثيوز على جلب الجواز. سأضطر إلى أن أطلب منك انتظارنا بالمحكمة. ستدلُّك راشيل، من مصلحة الاستقبال، على الطريق. سنلحق بك في أسرع وقت ممكن. الحقي بي يا كايت إلى مصلحة حماية الأُسر بعد خمس دقائق».

بينما رافقت كايت باتريك إلى الأسفل، تناول راي سماعة الهاتف:

«مرحباً ناتالي، أنا راي ستيفنس من قسم الشرطة الجنائية. هل يمكن أن تنظري إلى المعلومات المتوفّرة لديكم عن يان بيترسن؟ رجل أبيض في حوالي الخمسين من العمر...».

نزل راي السلَّم باندفاع ثمّ انطلق مسرعاً في أحد الأروقة قبل أن يدخل باباً كُتب عليه «مصالح الحماية». لحقت به كايت بعد لحظات، وقرعا معاً جرس فرقة حماية الأسر. فتحت الباب امرأة مرحة ذات شعر قصير أسود، تلبس مجوهرات متلألئة.

«هل عثرتِ على شيء يا ناتالي؟».

أدخلتهما، وأدارت لهما شاشة حاسوبها، وقالت:

«ولد يان فرانسيس بيترسن يوم 12 أبريل 1965. له سوابق تتمثّل في السكر والضرب والجرح، وهو الآن محكوم بأمر تقييدي».

سألت كايت:

«أصَدَرَ هذا الحكم لصالح امرأة تدعى جينيفر؟».

«لصالح ماري وولكر. ساعدناها على ترك بيترسن بعد ستّ سنوات من التعنيف. قدّمت شكاية، لكنّها سحبتها. الأمر التقييدي أصدرته محكمة المقاطعة، وهو لا يزال ساري المفعول».

«هل كان عنيفاً مع نساء أخريات كنّ على علاقة به؟».

«حسب المعلومات المتوفّرة لدينا، كلا، لكنّه كان قد تلقّى إنذاراً قبل عشر سنوات بسبب اعتدائه على أمّه».

شعر راي بالمرارة تصعد إلى حلقه.

ثمّ أضافت:

«ويعتقد أن بيترسن متزوّج من المرأة المتّهمة بقتل جاكوب جوردان».

قامت ناتالي واتّجهت نحو جدار تغطّيه حافظات أوراق معدنية رمادية، ثمّ فتحت أحداها وراحت تقلّب الأوراق التي بداخلها.

قالت وهي تُخرج ملفّاً:

«ها هو! هذا كلّ ما لدينا عن جينفير ويان بيترسن. قد يحتاج إلى وقت لقراءته...».

45

كان يخيّم على معارضك ملل قاتل. وإذا كانت أماكن إقامتها متباينة: مخازن أعيدت تهيئتها، ورشات، متاجر، فإن زوّارها لا يتغيّرون: يساريون ساخطون يرتدون أوشحة ملوّنة. نساء مشعّرات يملكن رأياً في كلّ شيء، رجال تافهون وخاضعون. وحتّى النبيذ لم يكن له طعم.

خلال أسبوع معرضك في نوفمبر، بدوت مرهقة على نحو خاص. ساعدتك في نقل أعمالك إلى المخزن قبل المعرض بثلاثة أيام، وقضيتِ هناك الأسبوع بكامله تستعدّين وتحضّرين.

لما عدتِ إلى البيت متأخّرة للمرّة الثانية على التوالي، سألتك:

«كم يلزم من الوقت لترتيب ذلك العدد القليل من المنحوتات؟».

أجبتِ:

«المنحوتات تروي حكاية. فالضيوف يتنقلون من عمل إلى آخر، وكلّ عمل ينبغي أن يتحدّث إليهم».

ضحكتِ.

«ليتك تنصتين إلى ما تقولين! ما هذا الهراء؟ اكتفي بإشهار الأثمنة على نحو بارز، هذا هو الأهم».

«لستَ مُجبراً على المجيء إن كنت لا ترغب في ذلك».

«ألا تريدينني أن آتي؟».

حدّقتُ فيك بارتياب. كانت عيناك أشدّ بريقاً، وذقنك مرتفع قليلاً عن المعتاد، وتساءلت عن مبعث هذا الابتهاج المفاجئ بالحياة.

«بلى، كلّ ما في الأمر هو أنّني لا أريدك أن تشعر بالضجر. نستطيع أن نتدبّر الأمر من دونك».

ورأيت ذلك الالتماع الغامض في عينيك. سألت وأنا أقطّب:

«نستطيع؟».

ارتبكتِ، وأدرتِ وجهك متظاهرة باستغراقك في غسل الأواني.

«أنا وفيليب، القيِّم على المعرض».

وشرعتِ في غسل مقلاة كنتِ قد تركتِها مغمورة في الماء. أتيت وراءكِ وضغطتك بجسدي إلى حوض المطبخ، ووضعت فمي بمحاذاة أذنك.

«أأنت واثقة من أنّه القيّم على المعرض؟ أم هكذا تسمينه حين ينكحُك؟».

فأجبتِ:

«إطلاقاً».

منذ أن حبلتِ، صرتِ تتخذين نبرة خاصة عند التحدّث إليّ، نبرة في غاية الهدوء، كتلك التي تُستعمَل للحديث مع طفل ينتحب، أو مع مختلّ عقلي. كنت أبغضها. تراجعت قليلاً، وشعرت بك تزفرين، ثمّ ضغطتك من جديد. انقطعت أنفاسك، واستندتِ على حافة الحوض لكي تأخذي نفساً.

«هل تستهوين فيليب؟».

لفظتُ هذه الكلمات وفمي ملتصق بقفاك.

«لا أستهوي أحداً».

«الأكيد هو أنّك لا تستهوينني أنا، على الأقل في هذه الأيام».

شعرتُ بك تتشنّجين، وكنت أعلم أنّك تنتظرين أن أداعبك، بل لعلّ هذا ما كنت ترغبين فيه. وقد كاد يشقّ عليّ أن أخيّب انتظارك، لكنّ ردفك المهزول لم يعد يثيرني منذ مدّة طويلة.

ويوم افتتاح المعرض، كنتُ في غرفة نومنا لما صعدتِ لكي تغيّري ملابسك. رأيتك متردّدة، فقلت لك:

«لماذا أنت مترددة في نزع ملابسك أمامي كما لو أنّني لم أرَك عارية قط؟!».

أخرجتُ قميصاً نظيفاً علّقتُه على باب الخزنة، بينما نشرتِ أنت الملابس على السرير. رحتُ أنظر إليك وأنت تنزعين سروالك الرياضي، وتطوين كنزتك. كنتِ ترتدين حمّالة صدر بيضاء، ولباساً داخلياً يناسبها، وتساءلتُ عمّا إذا لم تكوني اخترت هذا اللون عمداً لتُبرزي الكدمة الزرقاء على وركك. كانت لا تزال متورّمة، ورأيتك تغضّنين وجهك وأنت تجلسين على السرير، كما لو أنّك تقصدين إلى إثارة انتباهي لذلك. لبستِ سروال كتان واسعاً وقميصاً واسعاً كذلك، يكشف عن عظام كتفيك البارزة. اخترتِ عِقد لآلئ كبيرة خضراء كان موضوعاً على منضدة زينتك.

«أتريدين أن أساعدك على ارتدائه؟».

تردّدتِ، ثمّ جلست على المقعد الصغير. رفعت شعرك فمرّرت يدي من فوق رأسك لأمسك بالعقد وشددته على حنجرتك للحظة

خاطفة، فشعرت بك تتشنّجين. ضحكتُ ثم سددت المشبك، وقلت:

«رائع!» أحنيت لكي أنظر إليك في المرآة. «حاولي تجنّب تلك التصرفات السخيفة يا جينيفر. فأنت تهينين نفسك دائماً بالإفراط في الشرب والتودّد للضيوف».

قمت لارتداء قميصي، واخترت ربطة عنق ذات لون وردي فاتح تناسبه. لبست سترتي قبل أن أنظر إلى نفسي بعين الرضا في المرآة، وقلت:

«بما أنّك لن تشربي، فأنت من ستقودين».

اقترحت عليك مراراً أن أشتري لك سيارة جديدة، لكنّك أصررت على الاحتفاظ بسيارتك الفورد المتداعية. ورغم أنّني كنت أحرص على ألا أركبها إلا لماماً، كنت قد صمّمت على ألا أعهد لك بسياقة سيارتي الأودي منذ أن بعجتها بينما كنت تركنينها. جلست إذاً في المقعد الأمامي للسيارة المهترئة، وتركتك تقلّينني إلى المعرض.

لمّا وصلنا وجدنا أناساً سبقونا إلى الحانة، فأثار دخولنا همسات إعجاب. ضرب أحدهم بيده، فجاراه الآخرون، لكن لم يكن ثمّة ما يكفي من الناس لنسمّي ذلك تصفيقاً. وكانت النتيجة مربكة أكثر من أيّ شيء آخر.

مددتِ لي كأس شامبانيا واحتفظت بآخر لنفسك. اقترب منّا رجل ذو شعر بني متموّج، وأدركت من نظرتك أنّه فيليب.

«جينا!».

قبّلك على خدّيك، ولمحتُ يدك تلامس على نحو خاطف يده

التي ظننتِ على الأرجح أنّني لم ألحظها. كان ذلك خاطفاً بحيث يكاد يبدو لا إرادياً. لكنّني كنت أعلم أن الأمر بخلاف ذلك.

قدّمتِني لفيليب فصافحني وهو يقول:

«ينبغي أن تكون فخوراً بها».

«زوجتي تملك موهبة خارقة. أنا فخور بها طبعاً».

تردّد فيليب قبل أن يستأنف قائلاً:

«آسف، أنا مضطرّ إلى أخذها منك. يلزم أن أقدّم جينا إلى بعض الضيوف، فقد أعجبهم عملها كثيراً، و...».

لم ينهِ جملته مفضّلاً فَرْك إبهامه بأصابعه الأخرى، وغمز لي بعينه، فقلت:

«لم آتِ إلى هنا لعرقلة بيع المعروضات!».

تابعتكما وأنتما تجولان على الصالة معاً، ويد فيليب موضوعة على خصرك. اقتنعت حينئذ بأنكما على علاقة غرامية. لست أدري كيف حافظت على هدوئي خلال الحفل، لكن عيني لم تغفل عنك. ولمّا فرغت الشامبانيا، شرعت في شرب النبيذ، وجلست قرب المشرب لأتفادى الذهاب والإياب في كلّ مرّة. ورحت أراقبك. كانت تلوح على وجهك ابتسامة لم أرَ مثلها منذ مدّة طويلة، ذكّرتني بالفتاة التي كانت تضحك إلى أن تغروْرق عيناها بالدموع مع صديقاتها في مقصف الجامعة. أمّا هذه الأيام، فلم تعودي تضحكين.

فرغَتِ الزجاجة، فطلبت أخرى. تبادل النُّدُل النظرات فيما بينهم، لكنّهم لبّوا طلبي. وبينما شرع الناس يغادرون، مضيت أراقبك وأنت تودّعينهم: كنت تقبّلين بعضهم، وتصافحين آخرين. ولم تعاملي أحداً بالودّ نفسه الذي كنت تعاملين به القائم على معرضك. ولمّا لم يفضل إلا بضعة ضيوف، لحقتُ بك، وقلت:

«لقد حان وقت العودة».

بدا عليك الضيق وأنت تجيبين:

«لا يمكن أن أعود الآن يا يان. ما زال ضيوف بالمعرض، ثمّ إنه يتعيّن عليّ أن أساعد في ترتيب المكان وتنظيفه».

«يكفي جينا. هذا المسكين يان بالكاد رآك، وهو متشوّق طبعاً لأن تتيحي له فرصة الاحتفال بهذا معك. اتركي أمر الترتيب إلى الغد. لقد لاقى المعرض نجاحاً باهراً، أحسنت!».

لم يقبّلك هذه المرّة إلا على خدّ واحد، لكنّني كنت أستشيط غضباً، وعلى وشك أن أنفجر.

رضختِ لطلبي، لكنّ الخيبة كانت بادية عليك. أكنتِ تأملين أن يطلب منك البقاء؟ أن يصرفني لتظلّي إلى جانبه؟ أمسكت بيدك وضغطت عليها بينما كنت لا تزالين تتحدّثين إليه. كنت أعلم أنّك لن تقولي شيئاً، فواصلت الضغط أكثر فأكثر إلى أن أوشكتُ على سحق أصابعك.

صمت فيليب أخيراً ومدّ لي يده، فاضطررت إلى ترك يدك. سمعتك تتنهّدين ورأيتك تفركين أصابعك.

«سعدت بلقائك يا يان» وألقى إليك نظرة خاطفة قبل أن ينظر إليّ من جديد. «اعتنِ بها!».

تساءلت عمّا إذا كنت حكيت له.

فأجبت بصوت هادئ:

«هذا ما أفعل دائماً».

استدرتُ نحو المدخل وأنا أمسك بذراعك، ناشباً أصابعي في لحمك.

قلت هامسة:

«إنّك تؤلمني، قد يلاحظ الناس ذلك».

كانت تلك هي أوّل مرّة أسمعك فيها تتحدّثين إليّ بهذه النبرة.

«كيف تجرئين على الهزء بي؟».

نزلنا السلَّم والتقينا بزوجَين ابتسما لنا بلطف، ثمّ استأنفتُ:

«لم تتورّعي عن مغازلته أمام الملأ، قضيت الأمسية تلمسينه وتقبّلينه!» ولمّا بلغنا موقف السيارات، لم أعد أكلّف نفسي الحديث بصوت خافت، فتردّد صدى كلماتي في الظلام. «إنّك تضاجعينه، أليس كذلك؟».

لزمتِ الصمت، فأفقدني صمتك السيطرة على أعصابي. أمسكت بذراعك، ولويته إلى ظهرك ضاغطاً عليه إلى أن صرخت.

«أتيتِ بي إلى هنا لكي تهزئي بي؟».

«كلا».

كانت الدموع تسيل على خديك، تاركة بقعاً داكنة على قميصك.

مضت قبضتي تنشدّ من تلقاء نفسها، لكن في اللحظة التي شعرت فيها برعشة في مرفقي، مرّ رجل بجوارنا، وحيّانا قائلاً:

«مساء الخير».

تسمّرنا في مكاننا إلى أن اختفى في الظلام.

«اصعدي إلى السيارة».

فتحتِ الباب، وجلستِ في مقعد السائق، وتردّدتِ طويلاً قبل أن تضعي المفتاح وتشغّلي المحرّك. كانت الساعة بالكاد تشير إلى الرابعة بعد الزوال، لكنّ الظلام بدأ يخيّم. كان المطر قد سقط، وكنت تجعّدين عينيك كلّما قابلتنا سيارة وانعكست أضواؤها على الأسفلت المبلّل. كنتِ لا تزالين تبكين، ومسحتِ أنفك بظهر يدك.

قلت لك:

«انظري إلى حالتك. هل يعرف فيليب أنّك هكذا؟ هل يعرف أنّك بكاءة وجبانة؟».

أجبتِ:

«لا أستهوي فيليب».

كنت تتوقّفين بين الكلمات لكي تؤكّدي كلامك، لكّنني ضربت بقبضتي على لوحة القيادة.

جفلتِ وقلتِ:

«لست من النوع الذي يمكن أن يستهويه فيليب. إنّه...».

«لا تستبلديني يا جينيفر! فأنا أميّز، وقد رأيت ما بينكما».

فرملتِ فجأة عند ضوء أحمر، ثمّ انطلقت بسرعة فائقة عندما اشتعل الضوء الأخضر. رحتُ أتقلّب في مكاني وأنا اراقبك. حاولتُ النظر إلى وجهك، وقراءة أفكارك، معرفة ما إذا كنتِ تفكرين فيه. وتبيّن لي أنّ الأمر كذلك رغم حرصك على إخفائه.

بمجرّد ما نصل إلى البيت، سأنهي هذه المهزلة. بمجرّد ما نصل سأعالجك حتّى لا تفكّري في هذا أبداً.

46

محكمة الجنايات ببريستول أقدم من المحكمة الابتدائية، تتنفّس أروقتُها الملبّسة بالخشب المهابةَ. يدخل محضّرو الجلسات إلى قاعة المحكمة ويخرجون بسرعة، بحيث تحرّك جُبّاتُهم السوداء الهواء كلما مرّوا، فيرفع الأوراق من فوق مكتب كاتبة الضبط. يُخيّم صمت ثقيل شبيه بصمت المكتبات، صمت يبعث على الرغبة في الصراخ. أفركُ عينَي، فتصير رؤيتي غير واضحة، وأودّ لو أحتفظ بهذه الصورة: الأشكال المضبّبة ذات المحيط الغامض تجعل الجوّ أقل اكفهراراً، وأقلّ جدّية.

أنا الآن هنا مرعوبة، تبدّدت شجاعتي. ورغم شعوري بخوف شديد ممّا سيفعله بي يان إن أطلقوا سراحي، انتابني فجأة رعبٌ لا يقلّ عنه ممّا ينتظرني في السجن. أشدُّ قبضتي فأنشب أظافري في لحم راحتي اليسرى. وفي رأسي يتردّد وقع أقدام على أرضية حديدية، وتتراءى لي مضاجع ضيّقة في زنزانة رمادية ذات جدران سميكة بحيث يستحيل أن يسمع أحد صراخي من خلالها. وشعرت بغتة بألم حادّ في ظهر يدي، وحين خفضت بصري، تنبّهت إلى أنني أنشبت أظافري بقوّة حتّى راح الدم ينزف. مسحته، فترك خطّاً ورديّاً على بشرتي.

يمكن أن تسع المقصورة التي أوجد فيها عدّة أشخاص. وهي تضمّ صفين من الكراسي المثبّتة في الأرض، مقاعدها مرفوعة على شاكلة مقاعد السينما، وثلاثة من جوانبها محاطة بالزجاج. وبينما كانت قاعة المحكمة تمتلئ، كنت أتلوّى في مقعدي. كان عدد الحاضرين في هذه الجلسة أكثر بكثير من الجلسة التمهيدية. والفضول الذي كان بادياً على وجوه النساء في المحكمة الابتدائية عوّضته نظرات المطالبين بالإنصاف المشبعة بالبغض. وقد لاحظت أنّ رجلاً زيتوني البشرة، يرتدي سترة جلدية تكبره، لا يحوّل بصره عنّي وقد انقبضت ملامح وجهه من الغضب. أجهشتُ بالبكاء، فحرّك رأسه وقد ظهر على وجهه الاشمئزاز.

كنت أحمل صورة جاكوب في جيبي. تحسّستها بيدي، ورحت أتلهّى بمداعبة زواياها.

كان يجلس خلف كلّ محامٍ عدد من مساعديه، يميلون إلى الأمام ويتهامسون آخر التعليمات. ولعلّ الوحيدين الذين لم يكن يبدو عليهم الضيق هم المحامون وكتّاب الضبط، يتبادلون المزح بصوت عالٍ دون أن يأبهوا بالحضور، وتساءلت لِمَ تجري الأمور بهذا النحو، ولماذا يتعمّد النظام تهميش من هم بحاجة إليه؟ وسُمع صرير الباب وهو ينفتح، فدخلت موجة جديدة من الجمهور، بدا عليهم الضيق والتردد. لمّا رأيت آنيا، حبست أنفاسي. تسلّلت إلى الصفّ الأوّل وجلست إلى جانب الرجل صاحب السترة الجلدية، فأمسك بيدها.

عليك أن تتذكّري أنّه كان طفلاً صغيراً، له أمّ، وقد تحطّم قلبها.

المقاعد الشاغرة الوحيدة في القاعة هي مقاعد هيئة المحكمة.

تصوّرت اثني عشر رجلاً وامرأة جالسين عليها جاؤوا للإصغاء للشهادات، والتحديق فيّ، والنظر في الذنب الذي ارتكبت. وقد وفّرت عليهم هذا، وفّرت عليهم عناء التساؤل عمّا إذا كانوا قد اتّخذوا القرار المناسب، ووفّرت على آنيا عذاب متابعة تفاصيل موت ابنها. كانت روث جيفرسن قد شرحت لي أنّ ذلك سيكون في صالحي، لأنّ القضاة يكونون أرأف بمن يوفّرون على المحكمة الوقت والجهد.

«محكمة!».

القاضي رجل مسنّ، تُقرأ على وجهه حكايات آلاف الأُسر. جال بعينَيه الثاقبتَين في القاعة، لكنّه لم يُطل النظر إليّ. فأنا لست إلا فصلاً آخر من فصول مسيرة مهنية حافلة بالقرارات الصعبة. وتساءلت عمّا إذا كان قد قرّ قرارُه على الحكم الذي سينطق به في قضيتي، وعمّا إذا كان يعرف المدّة التي سأقضيها خلف القضبان.

مضى كاتب الضبط يقرأ وثيقةً بصوت جهوري:

«سيدي القاضي، المتّهمة في القضية هي جينا غراي... السيدة غراي، أنتِ متّهمة بالسياقة المتهورة المؤدّية إلى القتل، ثمّ بجريمة الاصگدام والهروب» ورفع بصره نحوي. «فماذا تقولين؟».

شددت يدي على الصورة الموجودة في جيبي، وقلت:

«أعترف بالمنسوب إليّ».

وتردّد نشيج مخنوق في المكان المخصّص للجمهور.

قلبي يتقطع.

«بإمكانك أن تجلسي».

نهض ممثل النيابة العامة، وتناول قنّينة موضوعة أمامه. سكب

منها الماء ببطء، فتردّد صوت الماء وهو يملأ كأسه في أرجاء القاعة الصامتة. ولمّا شدّ إليه كلّ الأنظار، قال:

«المتهمة يا سيدي القاضي تعترف بتسبّبها في مقتل جاكوب جوردان، وهو طفل في الخامسة من عمره. هي تعترف بأنّ طريقة سياقتها ذلك المساء لم تكن سياقة امرأة مسؤولة. ومن ثمّة فإنّ تحقيق الشرطة أثبت أنّ سيارة السيدة غراي انزاحت عن الطريق، وصعدت إلى الرصيف قبيل الحادثة، وأنّها كانت تسوق بسرعة تتراوح بين ستين وثمانية وستين كيلومتراً، متجاوزة بكثير السرعة المسموح بها التي هي خمسون كيلومتراً في الساعة».

شددت على قبضتي، وحاولت أن أتنفّس ببطء وهدوء، لكنّ الغصة التي في حلقي منعتني. وبدأت أسمع دقات قلبي تتردّد في رأسي، فأغمضت عينَي. تراءت لي قطرات المطر على الزجاج الأمامي، وسمعت الصراخ -صراخي- لمّا رأيت الطفل على الرصيف وهو ينطلق جارياً ويدير رأسه إلى أمّه ليقول لها شيئاً.

«ثمّ إنّها، يا سعادة القاضي، بعد أن صدمت جاكوب، وقتلته على الفور، لم تتوقّف». جال ببصره في القاعة، وبدت فصاحته لا لزوم لها في غياب هيئة تحتاج إلى إقناع. «لم تترجّل من السيارة، ولم تتّصل بالنجدة، ولم تعبّر عن أسفها، ولم تعرض مساعدة. عوض كلّ هذا، لاذت بالفرار تاركة خلفها الطفل الصغير في حضن أمه المكلومة».

أتذكر أنّها أحنت على ابنها، ومعطفها يكاد يغطيه محاولة حمايته من المطر. كشفت أضواء السيارة عن كلّ التفاصيل، فوضعت يدي على فمي مرعوبة.

«قد يتبادر إلى الذهن، يا سيدي القاضي، أنّ المتهمة قد تكون

أقدمت على هذا التصرف بسبب الصدمة، وأنّها غادرت المكان بسبب الخوف. لكن، لو كان الأمر كذلك لكانت عادت إلى رشدها بعد دقائق، أو ربّما بعد ساعات أو حتى بعد يوم، وتوجّهت إلى الشرطة. لكن عوض هذا، غادرت المنطقة لتختفي في قرية تبعد من هنا بمئة وخمسين كيلومتراً، حيث لا يعرفها أحد. لم تسلِّم نفسها للشرطة، وهي إنّما تعترف اليوم بالمنسوب إليها لأنّها لا تستطيع الهرب. ولهذا فإن النيابة العامة تلتمس منكم أن تأخذوا هذا الأمر بعين الاعتبار عند إصدار حكمكم».

«شكراً السيد ممثل النيابة العامة».

مضى القاضي يدوّن ملاحظات على كراسته بينما أحنى ممثل النيابة رأسه قبل أن يعود إلى الجلوس. كانت راحتَي تنضحان عرقاً، ورأيت نظرات الجمهور مشبعة بالكراهية.

لملمتْ محامية الدفاع أوراقها. ورغم أنّني اعترفت بالمنسوب إليّ، وإصراري على أن أؤدّي ثمن ما وقع، انتابتني فجأة رغبة في رؤية روث جيفرسن ترافع عنّي. وشعرت بالغثيان لما أدركت أنّها فرصتي الأخيرة لكي أتحدّث. بعد لحظات سينطق القاضي بالحكم، وحينئذ سيكون الأوان قد فات.

وقفت روث جيفرسن، لكنها عندما همّت بالحديث انفتح باب القاعة فجأة، فرفع القاضي عينَيه وقد بدا عليه الانزعاج.

لم أتعرّف إلى باتريك فوراً لأنّني لم أتوقّع حضوره. نظر إليّ وقد ارتسم على وجهه الانفعال من رؤيتي مصفّدة في مقصورة المتّهمين ذات الجنبات الزجاجية السميكة. ماذا تُراه يفعل ها هنا؟ وتنبّهت إلى أنّ الرجل الذي يرافقه هو النقيب ستيفنس الذي أومأ

برأسه إلى القاضي قبل أن يتوجّه إلى وسط القاعة لكي يحني على ممثل النيابة العامة ويهمس له بشيء.

راح ممثل النيابة ينصت باهتمام ويدوّن شيئاً على ورقة مدّها بعد ذلك إلى روث جيفرسن في الطرف الآخر من المقعد. وعمَّ صمت ثقيل، كما لو أنّ الجميع حبسوا أنفاسهم.

قرأت محاميّتي الورقة، ونهضت واقفة ببطء.

«هل أستطيع أن أحظى، سيدي القاضي، برفع الجلسة للحظة؟».

تنهّد القاضي كينغ.

«هل يلزم أن أذكّرك، يا أستاذة جيفرسن، كم قضية عندي عصر هذا اليوم؟ لقد استغرقتِ ستّة أسابيع في التداول مع موكّلتك».

«العفو سيدي، لقد بلغتني الآن عناصر جديدة يمكن أن يكون لها تأثير على دفاع موكلتي».

«حسناً، سأرفع الجلسة لربع ساعة، بعدها سأنطق بالحكم مباشرة».

وأومأ لكاتبة الضبط التي صاحت: وقوف، محكمة!

وبينما كان القاضي كينغ يغادر قاعة المحكمة، دخل حارس إلى المقصورة لكي يأخذني إلى الطابق تحت أرضي.

قلت:

«ماذا جرى؟».

«الله وحده يعلم يا عزيزتي، ولكنّها الحكاية نفسها. أقضي وقتي في الصعود والهبوط كلعبة أطفال».

رافقني إلى الغرفة الخانقة التي تحدّثت فيها إلى محاميّتي. ولم تلبث روث جيفرسن أن لحقت بي، يتبعها النقيب ستيفنس، وشرعت روث في الكلام حتّى قبل أن ينغلق الباب خلفهما.

«آمل يا سيدة غراي أن تكوني واعية بأنّ المحاكم لا تستهين بإعاقة عمل العدالة».

لم أُجِب بشيء، فجلست بجانبي. أعادت خصلة شعر شاردة تحت باروكة المحاماة.

أخرج النقيب ستيفنس جواز سفر من جيبه ورماه على الطاولة. لم أكن بحاجة إلى فتحه لأعرف أنه جوازي. نظرت إليهما، ثمّ مددت يدي لألمسه. ما زلت أذكر اليوم الذي ملأت فيه البطاقة لتغيير اسمي قبل زواجي. كنت قد جرّبت عشرات الإمضاءات، طالبة من يان أيَّها يشبه إمضاء إنسان راشد. ولمّا توصّلت بالجواز، كان أوّلَ دليل ملموس على تغيير وضعيّتي، وكنت متلهّفة لعرضه في المطار.

أحنى النقيب ستيفنس، ووضع يديه على الطاولة، ووجهه يكاد يلامس وجهي، وقال:

«لم تعودي مجبرة على التستر عليه يا جينيفر».

فجفلت.

«لا تدعوني بهذا الاسم من فضلك».

«احكي لي ما وقع».

لزمتُ الصمت.

مضى النقيب ستيفنس يتحدّث ببطء، فطمأنني هدوءه.

«لن نتركه يؤذيك بعد اليوم يا جينا».

اكتشفوا السرّ إذاً. تنهدت ونظرت إلى النقيب ستيفنس أولاً، ثمّ روث جيفرسن. وشعرت فجأة بالإنهاك. وفتح النقيب ملفّاً بُنياً قرأتُ عليه اسم «بيترسن»، وهو الاسم الذي أخذته من زوجي. اسم يان. وقال:

«لقد توصّلنا بالعديد من التبليغات. كثير من الجيران والأطباء

والمارّة اتّصلوا إلا أنت. لم تتّصلي بنا قطّ. ولمّا زرناك، رفضت أن تتقدّمي بشكاية. لماذا رفضت مساعدتنا؟».

«لأنّه سيقتلني».

وخيّم الصمت قبل أن يستأنف النقيب ستيفنس.

«متى ضربك أوّل مرّة؟».

فسألتْ روث وهي تنظر إلى ساعتها:

«هل لهذا أهمية؟».

فردّ النقيب ستيفنس بفظاظة:

«نعم».

واتّكأ على مسند الكرسي وقد قطب حاجبيه.

«بدأ ذلك منذ ليلة عرسنا».

أغمضت عيني وأنا أتذكّر ذلك الألم الذي لا أعرف من أين انبعث، والخزي من أنّني فشلت في زواجي حتى قبل أن يبدأ. تذكّرت حنان يان لمّا عاد، وما أظهره من رقّة في العناية بوجهي المكدوم. طلبتُ منه المعذرة، وظللتُ أفعل ذلك لسبع سنوات.

«متى عدتِ إلى مأوى غرانتام ستريت؟».

تفاجأتُ من كونه يعلم كلّ هذا.

«إطلاقاً. رأوا كدماتي في المستشفى، وسألوني عن زواجي. لكنّني لم أخبرهم بشيء، ومع ذلك سلّموني بطاقة وأخبروني بأنني يمكن أن ألجأ إليهم متى شئت، وأنّني سأكون في أمان. لم أصدق كلامهم -كيف لي أن أكون في أمان وأنا قريبة من يان؟-، لكنّني احتفظت بالبطاقة. ذلك أن وجودها كان يخفِّف من شعوري بالوحدة».

سأل النقيب ستيفنس:

«ألم تحاولي مغادرته أبداً؟».

كان الغضب بادياً على وجهي، لكنّه ليس غضباً من نفسي.

«بلى، حاولت مراراً. حين كان يان يذهب إلى العمل، أشرع في حزم حقائبي. أطوف على أرجاء البيت لجمع التذكارات التي أقدّر أنّني أستطيع حملها معي. أضع كلّ ذلك في السيارة... أنا من كنت دائماً صاحبة السيارة، أرأيت؟».

حرك النقيب ستيفنس رأسه مستوضّحاً.

«كانت البطاقة الرمادية لا تزال باسمي الأصلي. لم يكن ذلك مقصوداً في البداية -كان من بين الأمور التي نسيت تغييرها بعد زواجنا-، لكنه صار فيما بعد ذا أهمية بالنسبة إلي. كلّ شيء كان باسم يان: البيت والحساب البنكي... وبدأ يتهيّأ لي أنّني لم أعد موجودة، بل صرت ملكاً له. لذلك لم أغيّر البطاقة الرمادية. أعلم أنّها لم تكن شيئاً ذا بال، ولكن...» هززت كتفي، «باختصار، كنت أشحن أغراضي في السيارة ثمّ أغيّر رأيي، فأعيد كلّ شيء إلى مكانه. هذا ما كان يحدث كلّ مرّة».

«لماذا؟».

«لأنّه كان سيعثر علي».

تصفّح النقيب ستيفنس الملف. وهو ملف سميك على نحو لا يصدق، مع أنه لا يتضمّن على الأرجح سوى الوقائع التي تمَّ التبليغ عنها للشرطة. الأضلاع المكسورة وارتجاج الدماغ اللذان اضطرّاني إلى الإقامة في المستشفى. فمقابل كلّ أمارة بارزة، هناك اثنتا عشرة أخرى خفية.

وضعت روث جيفرسن يدها على الملف.

«هل أستطيع؟...».

نظر إليّ النقيب، فأومأت برأسي موافقة. مدّه لها، فشرعت في تصفّحه.

سأل النقيب ستيفنس:

«لكنّك غادرت مباشرة بعد الحادثة. ما الذي تغيّر؟».

التقطتُ نفساً عميقاً. وددت لو أجيب بأنّني وجدت الشجاعة أخيراً لكي أرحل، لكنّ ذلك غير صحيح بالطبع.

قلت بهدوء:

«هدّدني يان. قال لي إن أنا زرت الشرطة، أو حكيت ما وقع لأيّ كان، سيقتلني. وكنت واثقة من أنّه جادّ فيما يقول. بعد الحادثة ذلك المساء، أوسعني ضرباً حتّى صرت لا أقوى على الوقوف. أوقفني بعد ذلك، وثبّت ذراعي في حوض المطبخ ثمّ صبّ ماء حارقاً على يدي فأُغمي عليّ. سحبني إلى الورشة، وأجبرني على أن أنظر إليه وهو يكسّر كلّ ما فيها» لم أكن قادرة على رفع عينَي إلى النقيب ستيفنس. بالكاد كنت أقوى على الكلام. «بعد ذلك غادر إلى حيث لا أدري. قضيت الليلة الأولى ممدّدة على أرض المطبخ، ثمّ زحفت إلى أن بلغت الطابق العلوي لكي أستلقي على السرير. ابتهلت إلى الله من أجل أن أموت، من أجل ألا يؤذيني ثانية لمّا يعود. لكنّه لم يعد. مرّت بضعة أيام، واسترجعت عافيتي شيئاً فشيئاً. بدأت أعتقد أنّه غادر من غير عودة، لكنّه لم يأخذ معه شيئاً تقريباً، فاقتنعت بأنه عائد لا محالة. وأدركت أنّني إن بقيت معه، سيقتلني في يوم من الأيام. عندئذ قرّرت الرحيل».

«احكي لي ما وقع مع جاكوب».

حشرت يدي في جيبي لكي ألمس الصورة.

«تشاجرنا. كنت أعرض أعمالي في أحد المخازن. كان ذلك أكبر معرض نظّمته في حياتي، وكنت قد قضيت أيّاماً في ترتيبه مع القيِّم، وهو رجل يدعى فيليب. رغم أنّ افتتاح المعرض كان خلال النهار، أفرط يان في الشرب، واتّهمني بأنني أخونه مع فيليب».

«أكان ذلك صحيحاً؟».

جعلني هذا السؤال الفضولي أتورّد. وقلت:

«فيليب شخص مثلي، لكن يان رفض الإقرار بهذه الحقيقة. كنت أبكي، ولا أبصر الطريق جيّداً. كان المطر قد سقط، وأضواء السيارات تبهرني. مضى يصرخ عليّ ناعتاً إيّاي بالعاهرة. مررت بفيشبوندس لكي أتفادى زحمة السيارات، لكنّ يان أجبرني على التوقّف. ضربني وأخذ منّي المفاتيح. كان ثملاً بحيث لا يقوى على الوقوف. انطلق يسوق السيارة مثل مجنون وهو يصيح بأنّه سيُلقّنُني درساً لن أنساه. وبينما كنّا نعبُرُ حيّاً سكنيّاً، زاد يان من سرعة السيارة. أصابني الرعب» مددتُ يدَي على ركبتَي. «وعندئذ لمحتُ الولد. صرختُ، لكنّ يان لم يخفّض السرعة. صدمه، ورأيت الأمّ تنهار كما لو أنّها هي من صُدِمَت. حاولتُ الترجّل من السيارة، لكنه أقفل الأبواب وعاد بالسيارة إلى الخلف، ورفض أن يتركني أعود إلى مكان الحادث».

التقطتُ نفساً عميقاً، ولمّا زفرت ندّ من حلقي صوتٌ كالأنين. وساد الصمت في الغرفة الصغيرة، وقلت:

«قتل يان جاكوب، لكنّني أحسست كما لو أنّه قتلني أنا».

47

كان باتريك يسوق بحذر، وهيّأتُ نفسي لآلاف الأسئلة، لكنّه كان ينتظر أن نبتعد عن بريستول لكي يتكلّم. وحين تركَتِ المدينة المكانَ للحقول الخضراء، وبدأت حافّة الساحل الخشنة تظهر أمامنا، التفت إليّ وقال:

«كان من الممكن أن تُسجَني».

«هذا ما كنت أريده».

«لماذا؟».

لم يكن يتوخّى اللوم من هذا السؤال، بل كان يسعى إلى أن يفهم.

«لأنه كان يلزم أن يدفع أحدٌ ثمن ما وقع. ينبغي أن يُسجن أحد لكي تستعيد أمّ جاكوب السكينة. لكي تعرفَ أنّ أحداً أدّى ثمن موت ابنها».

«ولكن ليس أنتِ يا جينا».

قبل الانصراف سألتُ النقيب ستيفنس عمّا سيقول لأمّ جاكوب التي ستُصدَم فجأة بإلغاء محاكمة المرأة التي اعتقدت أنّها الجانية. فأجابني:

«سننتظر إلى أن نضعه خلف القضبان لكي نشرح لها الموقف».

وتنبّهتُ إلى أنّ تصرّفي سيجعلها تعيش كلّ هذه التجربة مرّة ثانية.

وقال باتريك بغتة:

«رأيتُ في الصندوق إلى جانب جواز سفرك... رأيت لعبة أطفال».

وصمَتَ دون أن يعيد صياغة سؤاله.

«إنّها لعبة ابني «بين». شعرتُ بالرعب لما وجدت نفسي حبلى. كنت أظنّ أنّ ذلك سيُغيظ يان، لكنّه كاد يطير فرحاً. قال لي إنّ ذلك سيغيّر كلّ شيء. ورغم أنّه لم يصرّح بذلك قط، كنت واثقة من أنّه ندم على الطريقة التي كان يعاملني بها حتى ذلك الوقت. كنت أظنّ أنّ ذلك الطفل سيكون منعطفاً في حياتنا، وأنّ يان سينتبِهُ إلى أننا يمكن أن نعيش كأسرة سعيدة».

«لكن الأمور لم تجرِ بهذا النحو».

«كلا. في البداية كان شديد الاعتناء بي. صار يعاملني كأميرة، وكان ينبّهني إلى ما ينبغي أن آكله وما ينبغي أن أتجنّبه. لكن بمقدار ما كان بطني ينتفخ، بدأ فتوره في معاملتي يزيد أكثر فأكثر، كما لو أنّه لم يعد يطيق حملي، بل كما لو أنّه صار يمتعض منه. وفي الشهر السابع، بينما كنت أكوي أحد قمصانه، سهوت عن المكواة لحظة، فاحترق. كان ذلك تصرّفاً بليداً من قبلي. انشغلت في الحديث في الهاتف، ولم أنتبه إلى المكواة إلا بعد فوات الأوان. استشاط يان غضباً، ووجّه لكمة قوية إلى بطني، فبدأت أنزف».

ركن باتريك السيارة في جانب الطريق، وأوقف المحرّك. رحت أحدّق في حقل غير مزروع أمامنا. كان ثمّة صندوق قمامة يفيض بما فيه، وأوراق تلفيف تتطاير في الهواء.

«اتّصل يان بالنجدة، وزعم لهم أنّني سقطت. أظنّ أنّهم لم يصدّقوه، لكن ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا؟ عند وصولنا إلى المشفى، كان النزيف قد توقّف، لكنّني كنت واثقة من أنّه مات حتى قبل إجراء الفحص بالصدى. شعرت بذلك. اقترحوا عليّ أن أجري عملية قيصرية، لكنّني رفضت أن يجرّدوني منه هكذا. كنت أرغب في أن ألده» ومدّ لي باتريك يده، فلم أمسكها. تركها تسقط على مقعده. «قدّموا لي أدوية تعجّل بالمخاض، وانتظرت في مشفى الولادة مع باقي النساء، وعشت نفس ما عشن: الآلام الأولى، أوكسيد النيتروز، زيارات القابلات والأطباء. كان الفرق الوحيد بيني وبينهنّ هو أن وليدي ميّت. ولمّا أخذوني أخيراً إلى قاعة الولادة، أومأتْ لي المرأة التي كانت بجانبي بيدها، وتمنّت لي حظّاً سعيداً. بقي يان إلى جانبي خلال الوضع، ورغم أنّني كنت ساخطة عليه، أمسكت بيده وأنا أدفع، وتركته يقبّلني على جبيني. مهما يكن، فليس لي غيره. كنت أقول لنفسي، لو أنّني لم أحرق قميصه، لكان بين لا يزال على قيد الحياة».

تملّكتني الرعشة، فضغطت يدَي على ركبتَي لكي أهدأ. وقد حاول جسدي في الأسابيع التي تلت موت بين أن يوهمني بأنّني أمّ. كان ثدياي يؤلمانني، وكنتُ أضغط على حلمتيّ تحت الرشاش لكي أخرج الحليب المتجمّع فيهما وأنا أتشمّم الرائحة التي تصعد إلى أنفي. وذات يوم رفعت بصري، فوجدت يان واقفاً عند باب الحمّام يراقبني. كان بطني لا يزال منتفخاً، وبشرتي مرتخية ومترهلة. وفي ثدييّ المنتفخين تظهر عروق زرقاء، والحليب يقطر ويسيل على جسدي. رأيت التقزّز ظاهراً على وجهه قبل أن يعود أدراجه.

كانت المرّة الوحيدة التي حاولت أن أحدّثه فيها عن بين يومَ بلغ

بي ألم فقدانه ذروته، وشعرت بالحاجة إلى أن يشاركني أحدٌ حزني -أيّاً كان-، ولم يكن لدي حينئذ أحد أبثّه أحزاني. لكنّه لم يتركني أنهي جملتي حتّى قال:

«هذا لم يحدث أبداً. هذا الطفل لم يوجد قطّ».

صحيح أن بين لم يرَ النور، ولكنه عاش، عاش في أحشائي، وتنفّس الهواء الذي تنفّست، واقتسم معي الطعام الذي طعِمت. كان جزءاً من كياني. ومنذ ذلك اليوم قرّرت ألا أتحدّث عنه أبداً.

لم أستطع النظر إلى باتريك. الآن وقد بدأت، لا يمكن أن أتوقف، وراحت الكلمات تتزاحم في فمي.

«خيّم صمت رهيب عند خروجه. نطق أحدهم بالساعة بصوت عالٍ، ثمّ وضعوه بين ذراعَي بلطف، كما لو أنّهم كانوا يحرصون على عدم إيذائه، وتركونا بمفردنا معه. ومكثتُ على هذه الحالة فترة طويلة بدت لي دهراً، أتأمّل وجهه وأهدابه وشفتيه. داعبت راحته وأنا أتخيّله قادراً على الإمساك بأصابعي، لكنّهم عادوا لكي ينتزعوه منّي. صرخت وأنا أتشبّث به إلى أن عمدوا إلى حقني بعقار مسكّن. مع ذلك رفضت أن أنام، لأنني كنت أعلم أنّني حين أستيقظ، سأجد نفسي وحيدة من جديد».

لمّا انتهيت، نظرت إلى باتريك، فرأيت عينيه قد اغرورقتا بالدموع. ولمّا حاولت أن أقول له إنّني بخير، وأنّ الأمور على ما يرام، أجهشت بالبكاء أنا أيضاً، وتشبّثنا ببعضنا بعضاً في السيارة المركونة على حافة الطريق إلى أن بدأت الشمس تميل إلى الغروب، ثمّ انطلقنا إلى بينفاتش.

ركن باتريك السيارة في المخيّم، ورافقني إلى البيت الريفي. ورغم أنّ الإيجار كان مدفوعاً إلى آخر الشهر، توقّفت ومضيت أفكر

في كلام ليستين، في الامتعاض الذي كان بادياً في صوته لمّا طلب منّي الرحيل.

قال باتريك وكأنّه قرأ أفكاري:

«اتّصلت به، وشرحت له كلّ شيء».

تحدّث باتريك بصوت هادئ ولطيف، كما لو كنت مريضة تتعافى من مرض طويل. شعرت بالأمان بجانبه بينما كانت يدي تمسك بيده.

قلت له ونحن على وشك الوصول إلى البيت:

«هل تستطيع أن تحضر بو».

«إن أردتِ».

«كلّ ما أريد هو أن تعود حياتي إلى نسقها العادي».

انتبهت وأنا أقول هذه الكلمات إلى أنّني لست واثقة من أنّني أعرف معنى النسق العادي.

سحب باتريك الستائر، ومضى ليحضّر لي الشاي، ولمّا تأكّد من أنني في فراش دافئ مريح، طبع قبلة على شفتَي وانصرف. نظرت حولي إلى هذه الأشياء الصغيرة التي أحاطت بحياتي هنا في هذا المكان: الصور والصدف وإناء بو الموضوع على أرضية المطبخ، فشعرت بأنّني في بيتي. شعور لم أحسّ به طوال سنوات إقامتي في بريستول.

مددت ذراعي على نحو تلقائي نحو قاطع التيار عن المصباح الموجود بجانبي. إنّه المصباح الوحيد الموقد في الطابق الأرضي، وهو يغمر الغرفة بضوء ضعيف دافئ ذي لون ورديّ فاتح. أطفأته، فوجدت نفسي غارقة في الظلمة. رحت أنتظر، لكنّ دقات قلبي ظلّت منتظمة، وراحتاي جافتَين، ولم أحسّ في قفاي بأيّ قشعريرة. ابتسمت: لم أعد خائفة.

48

سأل راي ستامبي:

«أأنت متأكّد من أنّ هذا هو العنوان الصحيح؟».

لم تكن قد مضت ساعتان على مغادرة محكمة الجنايات حين جمع راي فريق التدخل بعدما كان ستامبي قد اتصل بمصلحة الاستعلامات بالمنطقة ليتزوّد بمعلومات عن عنوان يان بيترسن.

أجاب ستامبي:

«واثق كلّ الوثوق. فتبعاً لسجل الناخبين، هو يسكن في 72 ألبيركومب تيراس، وقد قامت مصلحة الاستعلامات بمقارنة معلوماتها بمعلومات مصلحة تسجيل السيارات، وتبيّن أن بيترسن فقد ثلاث نقاط بسبب الإفراط في السرعة قبل شهرين، وقد بعثوا برخصة سياقته إلى هذا العنوان».

قال راي:

«حسناً. آمل أن يكون في بيته» التفت إلى فريق التدخل الذي بدأ صبره ينفذ. «إنّ إلقاء القبض على بيترسن يكتسي أهميّة بالغة، ليس فقط بالنسبة إلى حلّ القضية، بل أيضاً حفاظاً على سلامة جينا. فبيترسن شخص عنيف، ولهذا غادرته جينا بعد سنوات من سوء المعاملة».

حرّك الشرطيون الموجودون في المكتب رؤوسهم، وقد بدا على وجوههم التصميم. فهم يعرفون جميعاً أيّ نوع من الرجال بيترسن.

واسترسل راي قائلاً:

«لا غرابة في أن ينبّهنا الحاسوب المركزي إلى أنّه شخص ذو سوابق في الاعتداء والسياقة في حالة سكر والإخلال بالنظام العام. لا أريدكم أن تخاطروا. ادخلوا عليه إذاً، صفّدوه ثمّ اخرجوا. مفهوم؟».

أجابوا بصوت واحد:

«مفهوم».

«انطلقوا إذاً».

ألبيركومب تيراس شارع عادي بأرصفة ضيّقة، تُركَن بمحاذاتها سيارات كثيرة، والشيء الوحيد الذي يميّز المنزل 72 عن البيوت المجاورة هو أنّ كلّ نوافذه مسدلة الستائر.

ركن راي وكايت السيارة في زقاق قريب، وانتظرا ريثما يأتيهما التأكيد بأنّ عنصرَين من فرقة التدخل وصلا إلى خلفية منزل بيترسن. أوقفت كايت المحرّك، فخيّم صمت لم تكن تقطعه سوى طقطقات المحرّك وهو يبرد.

سأل راي:

«كلّ شيء على ما يرام؟».

فأجابت كايت بفظاظة:

«نعم».

كانت تتّخذ سحنة حازمة لا تكشف عن شيء من مشاعرها. وشعر راي بالدم يغلي في عروقه. بعد قليل سيساعده الأدرينالين

على إنجاز مهمّته، لكنّه لا يجد في الوقت الراهن سبيلاً للتخلّص منها. مضى يطبطب برجله على دواسة الواصل، واسترق من جديد النظر إلى كايت.

«هل أحضرت صِدارك؟».

ضربت كايت على صدرها على سبيل الجواب، فسمع صوت الصدار الواقي من الرصاص تحت كنزتها الثقيلة. يمكن أن يُشهر المبحوث عنه سكيناً مخفياً في رمشة عين، ووراي لا يمكن أن يخاطر. هو من شهد كيف أنّ مآسياً كثيرة جرى تجنُّبها بشقّ الأنفس. تحسّس الهراوة والقنبلة المسيلة للدموع المعلّقة في حزامه، فطمأنه وجودهما.

«احرصي على أن تبقي بقربي. فإذا ما أشهر سلاحاً، اخلي المكان».

قطّبت كايت وقالت:

«ألأنني أنثى؟» اغتصبت ضحكة. «سأتراجع عندما تتراجع أنت».

«أنت تعلمين أنّني أهزأ بالكليشيهات يا كايت!» وضرب براحة يده على المقود، ثمّ صمت وراح يحدّق من خلال الزجاج الأمامي في الشارع الخالي. «كلّ ما قصدت هو أنّني أحرص على ألا يصيبك مكروه».

وقبل أن يضيف أيّ منهما شيئاً، رنّ جهاز الراديو.

«صفر ستة سيدي».

كان أعضاء الفريق قد أخذوا أماكنهم.

أجاب راي:

«وصل. إذا خرج من الباب الخلفي، اقبضوا عليه، هيّا!».

«مفهوم».

التفت راي إلى كايت، وقال:

«مستعدّة؟».

«أكثر من أيّ وقت مضى».

توجّها بخطى واثقة نحو الباب الرئيس للمنزل. طرق راي ووقف على أطراف أصابعه لينظر من خلال الزجاجة الموجودة فوق مقرعة الباب.

«هل رأيت شيئاً؟».

«كلا».

طرق من جديد، فتردّد صدى الصوت في الشارع المقفر.

شغّلت كايت الراديو:

«تانغو، تشارلي 461 بالمركز، هل يمكن أن أتحدّث إلى برافو فوكستروت 275؟».

«تفضّلي».

تحدثت مباشرة مع الشرطيَّين الموجودَين في خلفية المنزل.

«هل لاحظتما حركة؟».

«لا شيء».

«حسناً، الزما مكانكما».

«حاضر».

«شكراً للمركز» أعادت كايت الراديو إلى جيبها، والتفتت إلى راي. «حان وقت المفتاح الأحمر العملاق».

وجّه شرطيان متخصّصان من فرق التدخل ضربة بالمطرقة الضخمة إلى الباب، فتكسّر الخشب مصدراً صوتاً يصمُّ الآذان.

انفتح الباب وارتطم بجدار ممرٍّ ضيّق، ثمّ تنحّى راي وكايت ليتركا رجال الشرطة يدخلون مثنى مثنى ويتوزّعون في غرف البيت.

«لا شيء!».

«لا شيء!».

«لا شيء!».

تبعهما راي وكايت إلى الداخل دون أن يغيب أحدهما عن مجال رؤية الآخر، منتظرَين أن يتأكّد إيقاف بيترسن. ولم تكد تمضي دقيقتان حتّى ظهر الضابط الذي يرأس فريق التدخل وهو ينزل السلَّم ويحرّك رأسه:

«المنزل خالٍ أيّها النقيب. بحثنا في الغرفة، وفتشنا الخزنة والحمّام، فلم نعثر له على أثر. الظاهر أنّه رحل».

«اللعنة!» ضرب راي بقبضة يده على درابزين الدرج. «اتّصلي بجينا يا كايت بواسطة محمولك. اسأليها أين هي، واطلبي منها ألا تبرح مكانها».

توجّه بخطى واسعة نحو السيارة بحيث اضطرت كايت إلى الجري لكي تلحق به.

«جهاز الردّ الآلي هو الذي يجيب».

جلس راي إلى المقود وانطلق.

سألته كايت وهي تشدّ حزامها:

«إلى أين نحن ذاهبان؟».

قال بنبرة حازمة:

«إلى بلاد الغال».

ومضى يصيح لكايت بالتعليمات وهو يسوق:

«اتّصلي بالاستعلامات لكي يستخرجوا لك كلّ ما يتوفّرون عليه حول بيترسن. اتّصلي بشرطة تامس فالي واطلبي منهم أن يبعثوا شرطياً إلى بيت إيف مانينغ في أكسفورد. فقد سبق له أن هدّدها ذات مرّة، ومن المحتمل جدّاً أن يعود إليها. اتّصلي أيضاً بزملائنا في جنوب ويلز، واصدري إعلاناً باسم غر...» واستدرك، «بيترسن. أريدهم أن يرسلوا أحداً إلى البيت الريفي لكي يتأكّد من سلامتها».

بينما كان راي يصدر تعليماته، كانت كايت تدوّنها، ثمّ أخذت تقدّم له ملخّصاً بعد كلّ اتصال.

«لا يوجد أحد في المداومة في بينفاتش هذا المساء. سيبعثون شرطياً من سوينسي. لكن المدينة كلّها مشلولة بسبب مقابلة في كرة القدم».

تنهّد راي بغضب.

«هل فهموا الوضع؟».

«نعم، وقالوا إنّهم سيجعلون هذا الأمر من أولوياتهم. لكنّهم لا يعرفون متى سيتمكنون من الالتحاق بالبيت».

فقال راي ساخطاً:

«تبّاً، لا ينقص غير هذا!».

وبينما كانت كايت تجرّب الاتصال بمحمول باتريك، مضت تنقر بقلمها على زجاج النافذة.

«لا يردّ».

«لا بدَّ أن ننجح في الاتصال بأحدهم، شخص يقطن في المنطقة».

نظر راي إلى كايت وقال:

«ألا يوجد جيران؟ هناك المخيّم!».

بحثت كايت عن الرقم، وعثرت عليه بسرعة، ثمّ ركّبته.

«ها قد عثرت عليه... أجب، هيّا... هيّا...».

«شغّلي مكبّر الصوت».

«مخيّم بينفاتش، مرحباً، بيثان معكم».

«مرحباً، معك المفتشة كايت إيفانس من فرقة بريستول الجنائية. أبحث عن جينا غراي. هل رأيتها اليوم؟».

«ليس اليوم يا عزيزتي. ثمّ إنّها غير موجودة هنا في حدود علمي. أليست في بريستول؟» كان صوت بيثان يشي بالحذر. «هل ثمّة مشكلة؟ ماذا حدث في المحكمة؟».

«حُكم عليها بالبراءة. اسمعي، آسفة إن كنت بدوت لك في غاية الاستعجال. لقد غادرت جينا بريستول في اتّجاه بينفاتش في حوالي الواحدة زوالاً، وأريد الاطمئنان على أنّها وصلت بخير. لقد عادت بالسيارة مع باتريك ماثيوز».

«لم ألتقِ أيّاً منهما، لكن جينا موجودة هنا. لقد نزلت إلى الشاطئ».

«كيف عرفت ذلك؟».

«عدت توّاً من الخارج. أخرجت الكلاب للنزهة، فرأيت إحدى رسائلها على الرمل. لكنها كانت غريبة إلى حدٍّ ما، لا تشبه ما تكتبه في العادة».

شعر راي بالقلق يستبدّ به.

«ماذا كتب في الرسالة؟».

فردّت بيثان:

«ماذا حدث؟ ماذا تخفون عنّي؟».

«ماذا كُتب فيها؟».

لم يتعمّد راي الصراخ، وظنَّ للحظة خاطفة أنّ بيثان أغلقت الخط. ولمّا استأنفت الكلام أخيراً، كان واضحاً من ارتباك صوتها أنّها أدركت أنّ ثمّة شيئاً ليس على ما يرام.

«كلّ ما كتب فيها كلمة: «خيانة»».



لم أكن أنوي النوم، لكنّ طرقاً على الباب جعلني أرفع رأسي وأنا أفرك رقبتي المتنمّلة. قضيت لحظة وأنا أتساءل أين أوجد. طُرِق الباب من جديد طرقات متتابعة، وتساءلت كم يكون مضى من الوقت على باتريك وهو ينتظر أمام البيت. قمت من الفراش بصعوبة بينما شعرت بتشنّج في بطّة ساقي.

انتابني وأنا أدير المفتاح إحساس بأنّ شرّاً يتربّص بي. وقبل أن أسحب الباب، انفتح بعنف فوجدت نفسي ملتصقة بالجدار، ورأيت يان ممتقعاً، متقطّع الأنفاس. هيّأت نفسي لتلقّي لكمة، لكنّها لم تأتِ، ورحت أحسب دقّات قلبي بينما مضى يقفل الباب ببطء.

واحدة، اثنتان، ثلاثة.

انهالت على صدري بسرعة وعنف.

سبعة ثمانية تسعة.

ها هو متأهّب. التفت إليّ وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة أعرفها جيّداً مثلما أعرف ابتسامتي. ابتسامة لا تصل إلى عينَيه، توحي بما يخبّئه لي. ابتسامة تحدّثني بأنّ النهاية حتّى لو كانت وشيكة، فلن تكون سريعة.

أمسكت يدُه بقفاي، وضغطت أصابعه على عنقي. كان شعوراً مزعجاً، لكنّه غير مؤلم.

«بُحت باسمي للشرطة يا جينيفر».

«لم. . .».

أمسك بشعري وسحبني إليه بحركة عنيفة. أغمضت عينَي وأنا أنتظر الألم المبرح، لكنّني لمّا فتحتهما، وجدت وجهه لا يبعد إلا بسنتيمترات عن وجهي. كان يفوح بالويسكي والعرق.

«لا تكذبي يا جينيفر».

أغمضت عينيّ من جديد وأنا أقول في نفسي سأتحمّل وسأظلّ على قيد الحياة، رغم أنّ كلّ قطعة من جسدي تودّ أن تتوسّل إليه كي يقتلني بضربة واحدة.

أمسكتْ يدُه الأخرى بفكّي، وجال إبهامُه على شفتَي قبل أن يحشر أحد أصابعه في فمي. وبينما كنت أقاوم الشعور بالغثيان ضغط على لساني.

وقال بصوت هادئ كما لو أنّه يُثني عليّ:

«خُنتِني أيّتها العاهرة. ألم تعاهديني يا جينيفر؟ وعدتني بألا تخبري الشرطة، وماذا رأيتُ اليوم؟ رأيتُك تبحثين عن خلاصك على حسابي. رأيت اسمي -اسمي أنا- على الصفحة الأولى من **بريستول بوست**».

«سأقول لهم» حاولت أن أنطق رغم إصبعه في فمي، «سأقول لهم إنّ ذلك غير صحيح، وأنّني كذبت عليهم».

بلّلتُ يده بريقي، فغضّن وجهه اشمئزازاً، وردّ:

«كلا، لن تقولي شيئاً لأحد».

حرّر فكّي دون أن يخلّص شعري، ومضى يضربني بعنف.

«اصعدي إلى الطابق العلوي».

أخذت أشدّ قبضتي على سائر جسدي وأنا مصمّمة على أن أحمي وجهي رغم الألم. وشعرتُ بطعم الدم في فمي. بلعت ريقي خلسة، وقلت له بصوت واهن بدا كما لو أنّه صوت شخص آخر:

«من فضلك، من فضلك لا...».

ورحت أبحث عن ألفاظ، ألفاظ لا يُحتمل أن تؤجّج غضبه. كنت أودّ أن أقول له: **لا تغتصبني**. حدث ذلك مراراً حتّى أنني كدت أتعوّد عليه، ومع ذلك لم أحتمل فكرة أن يعتليني مرّة أخرى، أن أشعر به بداخلي مجبِراً إيّاي على أصواتٍ أبعد ما تكون عن الكراهية التي أكنُّها له.

قلت وأنا ألعن صوتي المتقطّع الذي كشف الأهمية التي أوليها للأمر:

«لا أرغب في الجماع».

فردّ وهو يبصق عليّ:

«أنا أجامعك؟!».

شعرت بقطرات من البصاق تسيل على وجهي، ثمّ أضاف وهو يرخي شعري، وينظر إليّ من الأسفل إلى الأعلى:

«أراك معجبة بنفسك يا جينيفر. اصعدي إلى الطابق العلوي».

شعرت وأنا أخطو الخطوات القليلة التي تفصلني عن السلَّم بساقَي تتداعيان من تحتي، ثمّ تشبّثت بالدرابزين وأنا أشعر به من خلفي. حاولت أن أحسب الوقت الذي سيستغرقه باتريك ليعود، لكنني كنت قد فقدت كلّ إحساس بالزمن.

دفعني يان إلى الحمّام وقال:

«انزعي ملابسك».

وشعرت بالخجل من أن أطيع أمره بسهولة.

شبك يديه وراح يراقب المشقة التي أنزع بها ملابسي. كنت أذرف دموعاً ساخنة رغم علمي بأنّها لن تزيده إلا غضباً، لكنّ ذلك كان خارج إرادتي.

أغلق منفذ حوض الاستحمام، وفتح حنفية الماء البارد من دون حنفية الماء الساخن. كنت واقفة أمامه عارية أرتعد. مضى ينظر إلى جسدي وعلامات الامتعاض بادية عليه، وتذكّرت الفترة التي كان يُقبّل فيها عنقي قبل أن يجول بأصابعه بغاية اللطف بين نهدي وعلى بطني.

تنهّد وهو يقول:

«لا تلومي إلا نفسك. كان بوسعي أن ألحق بك متى شئت، لكنني تركتك ترحلين. لم أعد أرغب فيك. كل ما كان عليك أن تفعلي هو أن تلزمي الصمت، وتواصلي حياتك الحقيرة هنا. لكنّك لم تفعلي، فضّلت الذهاب إلى الشرطة وإفشاء كلّ شيء» أغلق الحنفيّة. «اصعدي إلى الحوض».

لم أقاوم، لم تعد المقاومة تجدي نفعاً الآن. دخلت إلى الحوض وجلست، فقطع الماء البارد أنفاسي، وأخذ يقرص بطني. حاولت أن أقنع نفسي بأنّه ساخن.

«قومي الآن».

تناول قنينة ماء جافيل كانت موضوعة بجانب حوض المرحاض، وفتحها. عضضت على شفتَي، فقد سبق أن أجبرني على شرب ماء جافيل ذات مرّة بينما عدت متأخّرة من عشاء برفقة أصدقاء الكلّية. قلت له إنّني لم أكن أملك الوقت لزيارته، لكنّه سكب السائل الدبق في كأس نبيذ، ومضى ينظر إليّ وأنا أرفعه إلى فمي.

أوقفني بعد الجرعة الأولى وانفجر ضاحكاً وقال إنّه لن تقبل بشرب هذا سوى غبيّة. قضيت الليل كلّه وأنا أتقيأ، ولازم الطعم الكيماوي فمي لأيّام عديدة.

سكب ماء جافيل على خرقة الاستحمام، ففاض السائل وأخذ يقطر في الحوض ناشراً بقعاً زرقاء على سطح الماء مثل مداد على منشفة، ثمّ ناولني الخرقة وقال:

«افركي أعضاءك جيّداً».

فركت بالخرقة ذراعي وأنا أحاول في الآن ذاته أن أسكب الماء لكي أذيب السائل.

ثمّ أضاف:

«والآن بقيّة جسدك، ولا تنسي وجهك. افركي جيداً يا جينيفر، وإلا فركت عوضاً عنك. لعلّ هذا يغسل ذنوبك».

أجبرني على تنظيف كافة أعضاء جسدي بماء جافيل. فلمّا أنهيت، بدأت بشرتي تلسعني. غطست في الماء المتجمّد لعلّه يخفِّف عنّي هذا الشعور وأسناني تصطك من البرد. كان الموت أهون عليّ من هذا الألم وهذه الإهانة. وتمنّيت لو أنّه عجّل بقتلي.

لم أعد أشعر بقدمَي، فمددت يدي لكي أفركهما، لكنّ أصابعي صارت كما لو أنّها ليست منّي. كنت متجمّدة، وحاولت أن أقوم لعلّي أحافظ على نصف جسدي خارج الماء، لكنّه أجبرني على البقاء مستلقية، وساقَي مثنيتَين إلى الجانب حتّى يسعني الحوض الصغير. أعاد فتح حنفية الماء البارد حتّى امتلأ الحوض، وفاضت جنباته. لم تعد دقات قلبي تنبض في أذني، لكنّها استمرت في النبض باحتشام في صدري. وأحسست بنفسي ضعيفة ومخدّرة، وأخذت أسمع كلماته كما لو أنها آتية من مكان بعيد جدّاً. كانت

أسناني تصطك، وعضضتُ لساني، لكنّني بالكاد شعرتُ بالألم.

بينما كنت غاطسة في الماء ظلّ هو واقفاً بقرب حوض الحمّام، ثمّ جلس على مقعد المرحاض وأخذ يراقبني ببرود. وخلته سيغرقني. لن يستغرق منه ذلك طويلاً، فأنا نصف ميّتة.

قال بنبرة لا مبالية كما لو كنّا صديقَين قديمَين يتجاذبان أطراف الحديث في حانة:

«كان من السهل عليّ العثور عليك. ليس من الصعب إنشاء موقع إلكتروني من دون ترك آثار، لكنّك كنت من البلادة بحيث لم تتنبهي إلى السهولة التي يمكن بها العثور على عنوانك».

لم أقل شيئاً، لكن كان واضحاً أنه لا ينتظر جواباً. ثمّ استرسل يقول:

«أنتنّ أيّتها النساء تعتقدن أنّ بإمكانكنّ الاعتماد على أنفسكنّ. لكن بمجرّد ما نغيب عنكنّ، يتبيّن أنكنّ لا تستطعن شيئاً. كلكنّ تتشابهن. هذا فضلاً عن الكذب. يا لبراعتكنّ في الكذب! أنتنّ مفطورات عليه. هو أشبه بالتنفس لديكنّ».

كنتُ متعبة، متعبة على نحو محبط، وشعرت بنفسي أنزلق تحت صفحة الماء فأنتفض لكي أحافظ على يقظتي. نشبت أظافري في فخذي، لكنني بالكاد أشعر بها.

«تعتقدن أنكنّ تستطعن الإفلات من العقاب، لكن ينتهي بكنّ الأمر دائماً إلى أن تُكشفن. أكاذيبكنّ وضرباتكنّ الغادرة وخياناتكنّ. . . ».

لم تعد كلماته تؤثّر فيّ.

«كنت واضحاً معكِ منذ البداية. لم أكن أرغب في الأطفال» أُغمِضُ عينَي، «لكنّك لا تعبئين برأيي، أليس كذلك؟ المرأة هي التي

تقرّر. هي من تختار ما إذا كانت ستجهض أم لا. واختياري أنا، ما موقعه من الإعراب في كلّ هذا أيّتها العاهرة؟».

تذكّرت بين. كان من الممكن أن يظلّ حيّاً لو أنّني عرفت كيف أحميه لبضعة أسابيع أخرى...

«أُخبِرتُ ذات يوم بأنني سأرزق بولد، وكان من المفترض أن أحتفل بذلك! الاحتفال بطفل لم أرغب قط في أن أُرزَقَه. طفل ما كان له أبداً أن يوجد لو أنها لم تحمل منّي خلسة».

فتحت عينَي فرأيت شقوقاً تعبُر مربّعات البلاط المثبّت فوق الحنفيّة، فتبعتها ببصري إلى أن امتلأت عيناي بالماء، وصار كلّ شيء مضبّباً. إنّه يقول كلاماً لا معنى له، أو ربّما أنا من لم أعد أفهم ما يقول. حاولت الكلام، لكنّ لساني انعقد. لم أحمل منه خلسة، بل كان الأمر مجرّد حادثة، ثمّ إنه كان سعيداً. واعترف بأنّ ذلك سيغيّر كلّ شيء.

أحنى يان واضعاً مرفقيه على ركبتَيه، ويداه قرب فمه، كما لو أنّه يصلي. لكنّ قبضتَيه كانتا مشدودتَين، وشريان يخفق بغضب على صدغه.

ثمّ واصل يقول:

«كنت قد حذّرتها. قلت لها إنّني لا أريد علاقة جادّة، لكنّها أفسدت كلّ شيء» نظر إليّ. «كان من المفروض أن تكون قصة بلا غد، علاقة عابرة مع فتاة تافهة. لم يكن ثمّة من داعٍ إلى أن أقول لك هذا يوماً. إلا أنّها حبلت، وعوض أن تختفي، قرّرت أن تبقى وتحوّل حياتي إلى جحيم».

أجهدت نفسي لكي أفهم ما يحكي. وقلت له بعد جهد جهيد:

«هل لديك ولد؟».

نظر إليّ، واغتصب ضحكة. وقال مصحّحاً:

«كلا، لم يكن ابني أبداً، بل ابن عاهرة بولندية كانت تنظّف المراحيض في العمل. لم أكن سوى متبرّع بالنطفة. جاءت للقائي لمّا علِمتْ بأنّها حامل، فشرحتُ لها بوضوح أنّها إن احتفظت به، عليها أن تعتمد على نفسها ولا تعوّل عليّ» تنهّد. «ولم أسمع عنها شيئاً منذئذ إلى أن التحق الطفل بالمدرسة. بعد ذلك لم تتوقّف عن ملاحقتي» غضّن وجهه وراح يحاكي على نحو سيّئ نبرة القادمين من أوروبا الشرقية، «**هو بحاجة إلى أب يا يان. أريد أن يعرف جاكوب مَنْ أبوه**».

بذلت جهداً جعلني أصرخ من الألم لأرفع رأسي، واعتمدت على قاع الحوض لكي أجلس. وسألت:

«جاكوب؟ أأنت أب جاكوب؟».

تفرّسني لحظة في صمت، ثمّ أمسك بذراعي فجأة.

«اخرجي».

ترنّحت على حافة حوض الحمام وهويت على الأرض. فقد تصلبت ركبتاي بعد أن صدمتُهما بقوة في الماء البارد.

رمى لي برداء حمّام، وقال:

«البسي».

فلبسته على الفور. كنت أشعر بالدوار: هل جاكوب ابن يان؟ ولكن عندما اكتشف يان بأنّه صدم جاكوب، لا بدّ أنّه...

أحسست وأنا أكتشف أخيراً الحقيقة كما لو أنّني تلقّيت طعنة في البطن. فموت جاكوب لم يكن حادثة، بل عملية قتل مدبّرة. فقد قتل ابنه، والآن حان دوري.

50

«أوقفي السيارة، قلت لك».

تجاهلتِ كلامي، فأمسكت بالمقود.

«كلا يان، كلا!».

حاولتِ أن تُخلّصي المقود من بين يدَي، فصدمنا الرصيف قبل أن نعود إلى وسط الطريق وقد أوشكنا على الارتطام بسيارة كانت قادمة في الاتجاه المعاكس. لم يكن أمامك سوى رفع رجلك عن دوّاسة السرعة والضغط على الفرامل، فتوقّفت السيارة بعرض الطريق.

«ترجّلي».

لم تتردّدي في النزول، لكنّك ما إن ترجّلت حتى تسمّرت قرب الباب تحت المطر الخفيف. طفتُ على السيارة لألحق بك في الجانب الآخر.

«انظري إليّ».

لم ترفعي عينيك عن الأرض. وقلت لك من جديد:

«انظري إليّ».

رفعت رأسك ببطء، لكنّك نظرت خلفي، من فوق كتفي.

تزحزحتُ قليلاً لكي أدخل إلى مجال بصرك، فحوّلتِ نظرك إلى

الجانب الآخر. أمسكتُ بكتفك ورحتُ أخضُّكِ بكلّ ما أوتيت من قوة. وددت لو أسمعك تصرخين فأتوقّف، لكنك لزمتِ الصمت. زممتِ فمك. كنتِ تريدين أن تلعبي معي مع علمك بأنّني سأنتصر. سأجعلك تصرخين.

حرّرتُ كتفك، فلم تنجحي في إخفاء شعورك بالارتياح. كان الارتياح لا يزال ظاهراً على وجهك لمّا شددتُ قبضتي ووجّهتُ لك لكمة تحت الذقن جعلت رأسك يتراجع إلى الخلف ويصدم سطح السيارة. تداعت قدماك، فسقطتِ أرضاً، وأخيراً أصدرتِ صوتاً، أنيناً أشبه بعواء كلب مضروب، فلم أستطع أن أمنع نفسي من ابتسامة انتصارٍ صغير. إلا أنّه لم يكن كافياً. أردت أن أسمعك تطلبين المعذرة، وتعترفين بأنّك تضاجعين شخصاً آخر.

نظرت إليك وأنت تتخبّطين فوق الأسفلت المبلّل، لكنّ ذلك لم يُشفِ غليلي. لم يطفئ نار الغضب المتوقّدة في صدري. سأنهي هذا في البيت.

«اصعدي إلى السيارة».

وقفت بصعوبة. كان الدم يسيل من فمك، حاولت عبثاً مسحه بوشاحك. هممت بالعودة إلى مقعد القيادة، فمنعتك.

«اركبي من الجهة الأخرى».

شغّلت محرّك السيارة وأقلعت قبل أن تتمكّني من الاستواء على المقعد، فندّت عنك صرخة مرعوبة. صفقت الباب ورحتِ تبحثين على نحو محموم عن حزام السلامة. ضحكتُ، لكن ذلك لم يخفّف من غضبي، وتساءلت عمّا إذا لم أكن على وشك أن أُصاب بأزمة قلبية. فقد كنت أشعر بضغط مؤلم في صدري وصعوبة في التنفس. كلّ ذلك بسبب خطئك.

فقلتِ ورذاذ من الدم يتطاير من فمك على علبة القفازات.
«تمهّل، إنّك تفرط في السرعة».
ضغطت على دواسة السرعة أكثر لأبيّن لك من صاحب الحلّ والعقد. كنّا نعبر حيّاً سكنيّاً هادئاً، به منازل جميلة، وعلى جانب الطريق الذي يحاذيني، رُكِنت سيارات كثيرة. انحرفت قليلاً لكي أتجاوزها رغم أضواء السيارات الساطعة القادمة من الاتجاه المعاكس، وضغطت على دواسة السرعة إلى أقصاها، ورأيتك ترفعين يدك لتحمي وجهك، ذلك أنّ السيارة القادمة زمّرت ونبّهتني بالضوء بينما كنت أحاول أن أتجنّبها في آخر لحظة.
خفّ الضغط في صدري قليلاً، وتركت رجلي ضاغطة على دواسة السرعة. وانعطفنا يساراً في شارع طويل مستقيم تحفّ به الأشجار. وتعرّفت فجأة إلى المكان، رغم أنّني لم أزُره إلا مرّة واحدة. هذا هو الشارع الذي تقطن فيه آنيا. هنا ضاجعتها. أفلت المقود من يدي فصدمتِ السيارة الرصيف.
«أتوسّل إليك يان، خفّض السرعة!».
كان ثمّة امرأة وطفلها على الرصيف على بعد مئة متر تقريباً. كان الطفل يضع على رأسه قبّعة مزركشة والمرأة... أحكمتُ قبضتي على المقود وأنا مستغرق في التخيّلات. تخيّلتها هي لمجرّد أننا في الشارع الذي تسكنه. لا يمكن أن تكون هي.
رفعت المرأة عينيها. كان شعرها مرسلاً، ورغم الجو الماطر، لم تكن تضع قبعة ولا قلنسوة. وقفت قبالتي وهي تضحك بينما يجري الطفل حولها. وشعرت فجأة كما لو أنّ رأسي سينفجر. إنّها هي.
طردت آنيا بعد أن ضاجعتها، ولم أكن أرغب في تكرار تلك

التجربة، ولا في رؤية رأسها الفارغ يجوب المكتب. لمّا ظهرت من جديد في الشهر السالف، بالكاد تعرّفت إليها. لم تكن تريد أن تتركني لحالي. ورأيتها تتّجه إلى مجال إنارة أضواء السيارة.

يريد أن يتعرّف إلى أبيه، يريد أن يلقاه.

سيفسد كلّ شيء، سيفسد هذا الطفل كلّ شيء. نظرت إليك، كنت مطأطئةً. لماذا لم تكوني تنظرين إليّ؟ كنتِ متعوّدة على وضع يدك على فخذي حين أسوق، وكنت تتحرّكين على مقعدك لكي تتمكّني من مراقبتي. أمّا الآن، فبالكاد تلتفتين إليّ. كنت قد بدأت أفقدك، وإذا ما اكتشفتِ وجود هذا الطفل لن أستطيع استردادك أبداً.

شرعا في عبور الطريق. كنت أشعر بصداع رهيب، وأنت تنتحبين كذبابة تطنّ في أذني. وضغطت بقوّة على دوّاسة السرعة.

51

قلت وأنا لا أكاد أقوى على النطق:

«لماذا قتلت جاكوب؟».

أجاب يان ببساطة:

«كان سيفسد كلّ شيء. لو أنّ آنيا ظلّت بعيدة عنّي لما أصابهما مكروه. إن كان لا بدَّ من أن تلوم أحداً، فينبغي أن تلوم نفسها».

تذكّرت تلك المرأة أمام محكمة الجنايات، بهيئتها المنهكة.

«أكانت بحاجة إلى المال؟».

ضحك يان.

«ليت الأمر كان كذلك! كلا، كانت تريدني أن أكون أباً، وأن آتي لرؤية الطفل في عطلة نهاية الأسبوع، وآخذه إلى بيتي لقضاء الليلة، وأشتري له هدايا عيد الميلاد...».

وبينما حاولتُ النهوض بحذر وأنا أتشبّث بحوض المغسل في حال ما إذا لم تقوَ قدماي على حملي، توقّف عن الكلام. وشعرت برجلَي تخزانني بينما تدفآن. نظرت إلى نفسي في المرآة، فلم أتعرّف إلى صورتي.

واستأنف يقول:

«لو أنّك علمت بوجوده ووجود آنيا، كنت ستتركينني».

كان واقفاً من خلفي، ووضع يديه بلطف على كتفي. ولمحت على وجهه تلك السحنة التي كنت أراها كلّما ضربني. أظنّني رأيت الندم -على الرغم من أنّه لم يعتذر قط-، لكنّني تنبّهت إلى أنّه الخوف. الخوف من أن أراه على حقيقته. الخوف من ألا أعود بحاجة إليه.

وقلت في نفسي إنّني كنت سأحبّ جاكوب كما لو كان طفلي. كنت سأستقبله وألعب معه، وأقدّم له الهدايا لا لشيء إلا لأرى الفرحة على وجهه. وتهيّأ لي بغتة أنّ يان لم يحرمني طفلاً واحداً، بل طفلين. وهاتان الحياتان اللتان أُهدِرَتا، ألهَمَتاني الطاقة من جديد.

شعرت بالوهن، فخفضت رأسي نحو حوض المغسل قبل أن أرفعه إلى الخلف بكل ما أوتيت من قوة. وتردّدتْ فرقعة بغيضة حين صدمت جمجمتي رأسه.

حرّرني ليمسك وجهه بيديه. مضى الدم يسيل بين أصابعه، فاندفعت نحو الغرفة، ومنها نحو الطابق السفلي، لكنّه لحق بي. كان أسرع منّي. أمسك بمعصمي قبل أن أنزل السلَّم. كانت أصابعه الملطّخة بالدم تنزلق على بشرتي المبلّلة، فرحت أتخبّط لأتحرّر من قبضته. ضربته بمرفقي على بطنه، وتلقّيت بالمقابل لكمة قطعت أنفاسي. أظلمت الدنيا في عينَي، ولم أعد أعرف أين يوجد السلَّم. تحسّست الأرض بقدمي، فلمست قضيب الدرابزين المعدني في حافة الدرج الأوّل.

ارتميت من تحت ذراع يان ووضعت يدَي معاً على الجدار، ثنيتُ مرفقَي ثمّ بسطتهما بعنف لأبعده إلى الخلف بكلّ ما أوتيت من

قوة وأدفعه بكلّ ثقلي. ندّت عنه صرخة قصيرة وهو يفقد توازنه، ويتدحرج في السلَّم قبل أن يرتطم بالأرض في الأسفل.

حلّ الصمت من جديد.

أشعلت النور.

كان مستلقياً أسفل السلَّم بغير حراك، ممدّداً على بطنه فوق الأرضية الحجرية، وجرح غائر في الجزء الخلفي من جمجمته ينزف. مضيت أنظر إليه وأنا أرتعش.

تشبّثت بالدرابزين ونزلت السلَّم خطوة خطوة دون أن أحوّل بصري عن الهيئة الممدّدة. توقّفت في الدرج الأخير. كان صدر يان يهتز على نحو بالكاد يلحظ.

مددت رجلي وأنا ألهث لأضعها بحذر على الأرضية الحجرية بجانبه، وتوقّفت ثمّ تخطيت ذراعه.

أمسكتْ يدُه بكاحلي، فصرخت. كان الأوان قد فات. أسقطني أرضاً وصعد فوقي وقد تلطّخ وجهه ويداه بالدم. حاول أن يقول شيئاً، لكنّ الكلمات ظلّت عالقة في فمه.

وبينما كان يتشبّث بكتفي لكي يرفعني إلى مستوى وجهه، وجّهت له ضربة بركبتي إلى عضوه التناسلي، فتركني وهو يصرخ، وراح يتلوّى من الألم. قمت بسرعة واندفعت بلا تردّد نحو الباب. حاولت أن أسحب المزلاج، لكنّه انزلق مرتين من بين أصابعي قبل أن أتمكّن من فتحه وأخرُج. كان الليل بارداً، والقمر تكاد تحجبه الغيوم بالكامل. انطلقتُ أجري على غير هدى، لكنّني ما كدت أبتعد قليلاً حتّى سمعت خطوات يان الثقيلة خلفي. استدرت، لا لكي أعرف المسافة التي تفصلني عنه، بل لأنّني كنت أسمعه يزمجر عند كلّ خطوة.

جريتُ بمشقّة على الممر الصخري الوعر حافية القدمين، وما لبثت أن تنبّهت إلى أنّ الزمجرة خفّت، وظننت أنّني ابتعدت عنه. حاولت أن أحبس أنفاسي، وأُحدِث أقلّ ما يمكن من الضوضاء. ولم أدرك بأنني أخطأت الطريق إلى المخيّم إلا لما سمعت صوت ارتطام الأمواج. لعنت بلادتي، ولم يعد أمامي سوى خيارَين: إمّا أن أتابع السير على الطريق الذي ينحدر إلى الشاطئ وإما أن أنعطف إلى اليمين وأسلك الطريق الساحلي الذي يبتعد من بينفاتش. كنت قد سلكت هذا الطريق مراراً مع بو، لكنني لم أسلكه ليلاً قطّ. فهو يحاذي حافّة المنحدر، ولطالما خفت من أن يفقد بو توازنه. تردّدت لحظة، لكنّني كنت مرعوبة من فكرة أن أجد نفسي محاصرة على الشاطئ. حظوظي في النجاة أكبر على الأرجح إن واصلت الجري. انعطفت يميناً إذاً، وانطلقت في الطريق الساحلي. وبينما بدأت الريح تهبّ طاردة الغيوم، أنار القمر ظلمة الليل. جازفت بالنظر إلى الخلف، فبدا لي الطريق خالياً.

خفّفت سرعتي إلى أن صرت أمشي، ثمّ توقفت لأصيخ السمع. كان الصمت مُطبقاً باستثناء صخب الأمواج. وبدأ قلبي يهدأ قليلاً. كانت الأمواج تتكسّر بانتظام على الشاطئ، وسمعت صفارة أحد المراكب البعيدة. التقطت أنفاسي وأنا أحاول أن أحدّد موقع المكان الذي أوجد فيه.

«انتهى الأمر يا جينيفر».

استدرت بغتة، لكنّني لم أرَه. حدّقت في الظلمة فميّزت أَجَمة وسلَّماً يقود إلى كوخ أحد الرعاة.

صرخت:

«أينك؟».

لكن صراخي ذهب في مهبّ الريح. التقطت نفساً عميقاً وأنا مستعدّة للصراخ، لكنني ما لبثت أن تنبّهت إلى أنّه خلفي ويده تمسك بعنقي. سحبني إليه ورفعني إلى أن بدأت أختنق، فضربته بمرفقي على أضلاعه، فخفّ ضغط قبضته بحيث استطعت التنفس. وصمّمت على ألا أموت هذه الليلة. قضيت الجزء الأكبر من شبابي وأنا أختبئ وأهرب. قضيته في الخوف، والآن، بعد أن شعرت بالكاد أنّني في أمان، عاد ليقتلني. لن أتركه يفعل. شعرت بدفق من الأدرينالين، فانحنيت إلى الأمام ووجّهت له ضربة قوية تحت ذقنه جعلته يتراجع ويترنّح على حافة المنحدر. حاول أن يتشبّث بردائي، لكنّ أصابعه لم تمسك بالثوب. صرخت وتراجعت إلى الخلف. فقدت توازني وخِلتُ للحظة بأنّني سأسقط معه، لكنّني وجدت نفسي منبطحة على بطني على حافة المنحدر بينما هوى هو في الفراغ، ورأيت عينَيه الجاحظتين قبل أن تبتلعه الأمواج.

52

بينما كان راي ماراً بمحاذاة كارديف، رنّ هاتفه، فألقى نظرة على الشاشة.

«إنّها شرطة سوينسي الجنائية».

مضت كايت تراقبه بينما تسمع آخر أخبار بينفاتش. وهتف:

«حمداً لله! لا مشكلة، شكراً على الإخبار».

أغلق الخط، وتنهّد بعمق.

«هي بخير أو بالأحرى هي لا تزال على قيد الحياة».

فسألت كايت:

«وبيترسن؟».

«لم يحالفه الحظ مثلها. الظاهر أنّه تعقّبها على الطريق الساحلي. تعاركا، فهوى في المنحدر».

«يا لها من ميتة!».

فردّ راي:

«الميتة التي يستحق. بإنعام النظر، لا أعتقد أنّه «سقط» حقّاً. أظنّك فهمت قصدي. لكن جنايات سوينسي اتّخذت القرار المناسب: بالنسبة إليهم، يتعلّق الأمر بحادثة».

وخيّم الصمت.

سألتْ:

«هل نعود أدراجنا إلى بريستول؟».

هزّ راي رأسه.

«ماذا سنفعل هناك؟ فجينا في مشفى سوينسي، ونحن سنلحق بها في أقلّ من ساعة. بما أنّنا وصلنا إلى هنا، الأحرى أن ننهي العمل، ونأكل لقمة قبل أن نعود».

تحسّنت حركة المرور فيما تبقّى من الطريق، وبلغا مشفى سوينسي بعد السابعة بقليل. كان مدخل الطوارئ مزدحماً: مدخّنون يعلّقون أذرعهم في أعناقهم، وكواحل مضمّدة وكلّ أنواع الجروح غير الظاهرة. وبينما كان راي يمشي تجنّب رجلاً معقوفاً من شدّة الألم في بطنه. ورغم ذلك لم يتوانَ في أن يسحب نفساً عميقاً من سيجارة قرّبتها رفيقته من فمه.

وسرعان ما حلّت رائحة مواد التعقيم في قسم الطوارئ محلّ رائحة التبغ التي كانت تفوح في الهواء البارد بالخارج. أشهر راي بطاقة الشرطة لامرأة بدا عليها الإنهاك، فدلّتهما على غرفة في الجناح س حيث ترقد جينا ورأسها مسند إلى كومة من الوسائد.

صُدم راي من رؤية الكدمات البنفسجية التي تكسو عنقها وتظهر من خلال قميص الاستشفاء. كان شعرها المرسل ينسدل على كتفيها، وارتسمت على محيّاها آثار التعب والألم. وإلى جوارها جلس باتريك وبجانبه جريدة مفتوحة على صفحة الكلمات المتقاطعة.

قال راي بصوت خافت:

«مرحباً. كيف حالك؟».

لاحت على وجهها ابتسامة متعبة.

«بخير على كلّ حال».

قال راي وهو يقترب من السرير:

«لقد عشتِ مِحناً كثيرة. نحن آسفون على عدم التمكّن من إلقاء القبض عليه في الوقت المناسب».

«لا أهميّة لذلك الآن».

التفت راي نحو باتريك وقال:

«بلغني أنّك كنت بطل هذا اليوم يا سيد ماثيوز».

فرفع باتريك يده معترضاً:

«غير صحيح. لو أنّني وصلت ساعة من قبل، لربّما كان وجودي مجدياً، لكنّهم أخّروني في العيادة، وعند وصولي إلى هناك...».

نظر إلى جينا، فقالت:

«لولاك ما كنت أظنّني قادرة على العودة إلى البيت الريفي، ولكنت لا أزال إلى حدود الساعة مستلقية هناك أحدّق في البحر».

تملّكتها القشعريرة، فشعر راي بالبرودة تسري في أوصاله رغم هواء المستشفى الخانق. ما الذي يكون قد جرى هناك في أعلى المرتفع الصخري يا ترى؟

سأل:

«هل أخبروك بالمدّة التي ستقضينها هنا؟».

حرّكت جينا رأسها نافية.

«يريدون الاحتفاظ بي قيد المراقبة فيما يبدو، لكنّني آمل ألا يتجاوز ذلك أربعاً وعشرين ساعة»، نظرت إلى راي وكايت، «هل الكذبة التي كذبت عليكم بشأن السائق ستؤلّب عليّ أعداءً؟».

فأجاب راي:

«قد تُتابَعين بتهمة تضليل العدالة، لكنّني لا أظنّهم سيجعلونها من الأولويات. . .».

ابتسم، فتنفّست جينا الصعداء. ثمّ استرسل:

«سيدَعونك تعيشين في اطمئنان» ونظر إلى باتريك، «اعتنِ بها، مفهوم؟».

غادر راي وكايت المشفى على متن السيارة، وقطعا المسافة القصيرة التي تفصلهما عن مفوضية شرطة سوينسي حيث كان زملاؤهما بانتظارهما. كان النقيب فرانك روستن يكبر راي ببضع سنوات، ويملك جسداً أنسب لممارسة الكرة المستطيلة منه للجلوس أمام شاشة حاسوب. استقبلهما بحفاوة، ورافقهما إلى مكتبه حيث اقترح عليهما شرب فنجان قهوة، لكنّهما رفضا.

قال راي مبرّراً:

«ينبغي أن نعود، وإلا استحوذت المفتشة إيفانس على رصيدي من الساعات الإضافية».

فقال فرانك:

«مع الأسف، نحن سننظّم حفل عشاء هذا المساء بمناسبة إحالة أحد رؤسائنا على التقاعد. إذا شئتم الانضمام إلينا، فمرحباً بكما».

فردّ راي:

«هذا لطف منك، إلا أننا مضطرّين إلى العودة. هل ستحتفظون بجثة بيترسن هنا أم أتّصل بمكتب الطب الشرعي في بريستول؟».

«إذا كنت تملك رقمه، فأنا لا أمانع. سأتّصل بك حين نعثر على الجثة».

«ألم تعثروا عليها؟».

«ليس بعد. لقد سقطت من مكان يبعد بحوالي ثمانمئة متر عن

بيت غراي، في الاتجاه المقابل لمخيم بينفاتش. لعلّك تعرف المنطقة، أليس كذلك؟».

حرّك راي رأسه. فواصل فرانك:

«الشخص الذي عثر على غراي، باتريك ماثيوز، أخذنا إلى المكان. الراجح أن السقوط كان هناك. وكلّ شيء يتطابق مع شهادة غراي: هناك آثار عراك على الأرض كما أن حافّة المنحدر ثُلِمَت حديثاً».

«ولكن، ألا توجد جثّة؟».

«لا غرابة في ذلك في الحقيقة» لاحظ فرانك التقطيب على وجه راي، فقاوم الابتسامة. «اعتدنا على عدم العثور على الجثث فوراً. يحدث أحياناً أن يقفز أحدهم، أو ينزلق وهو عائد من حانة بينفاتش. قد تلزم أيام قبل أن يلفظ البحر الجثة. وفي بعض الأحيان، تختفي إلى الأبد. وفي أحيان أخرى لا نعثر إلا على قطع منها».

سألت كايت:

«كيف؟».

«علو المنحدر في ذلك المكان يتجاوز ستين متراً. بقليل من الحظّ قد لا تسقط الضحية على الصخور، لكن الأمواج سترطمها بها مرات ومرات» ثم هزَّ كتفيه. «جسد الإنسان يتفتت بسرعة».

فقالت كايت مستغربة:

«هذا ينفّر المرء من العيش على الساحل!».

وبدت على فرانك ابتسامة عريضة.

«حسناً، أنتما إذاً واثقان من أنّ حفلنا لن يغريكما بالبقاء؟

فكّرتُ ذات مرّة في طلب الانتقال للعمل في آفون وسميرسيت، أودّ لو أعرف ماذا قد يكون فاتني».

ونهض.

قالت كايت وهي تنظر إلى راي:

«ألم نقل إنّنا سنأكل لقمة قبل العودة؟».

فعلّق فرانك ملحّاً:

«هيّا! سنقضي لحظات ممتعة. سيحضر كلّ العاملين بالشعبة الجنائية وكذلك بعض أعوان الشرطة» ورافقهما إلى مكتب الاستقبال ثمّ حيّاهما. «سنلتقي بعد نصف ساعة براج في هاي ستريت. جنحة الاصطدام والهروب هذه إنجاز رائع بالنسبة إليكما، أليس كذلك؟ عليكما أن ترتّبا أموركما لكي تقضيا الليلة هنا وتحتفلا على نحو لائق!».

ودّعا فرانك، وبينما كانا متّجهين إلى السيارة، شعر راي ببطنه يقرقر. ما كان يلزمه هو طبق دجاج مطبوخ على الطريقة الهندية وزجاجة جعة بعد هذا اليوم الشاق. استرق النظر إلى كايت، وقال في نفسه إنّ قضاء السهرة مع شرطة سوينسي شيء مغرٍ. سيكون من المؤسف الانطلاق في طريق العودة الآن، وفرانك محقّ فيما قال. بإمكانه أن يزعم يوم غد بأنّه اضطرّ لقضاء الليلة حتى يسوّي بعض التفاصيل.

قالت كايت:

«هيّا بنا!» توقّفَت والتفتَت نحو راي، «سيكون حفلاً لطيفاً، ثمّ إنه على حقّ فيما قال. ينبغي أن نحتفل بهذا». كانا قريبين من بعضهما بعضاً حتّى أنّهما كادا يتلامسان، وتخيّل راي نفسه يودّع زملاءه في سوينسي بعد العشاء، ويذهب لشرب كأس في مكان ما

مع كايت، ثمّ يعودان إلى الفندق. وبلع ريقه وهو يتخيّل ما يمكن أن يقع بعد ذلك. وقال بنبرة حاسمة:

«نترك هذا إلى مرّة أخرى».

خيّم الصمت، ثمّ حركت كايت رأسها ببطء، وقالت:

«حسناً».

وبينما كانا متّجهين نحو السيارة أخرج راي هاتفه المحمول وبعث برسالة نصية إلى ماغس.

«سأعود هذا المساء، ما رأيك في أن نطلب وجبة عشاء؟».

53

عاملتني الممرضات بلطف. عالجن جراحي بنجاعة وديعة، دون أن يتبرّمن من سؤالي المتكرّر عمّا إذا كان يان قد مات فعلاً. وقال لي الطبيب:

«انسي ما فات. عليك الآن أن ترتاحي».

لم أكن أشعر بنفسي لا مرتاحة ولا متحرّرة، كلّ ما أشعر به هو أنني منهكة. أما باتريك فكان مرابطاً بجوار سريري. كنت أستيقظ مرعوبة مراراً خلال الليل، فأجده ما زال بجانبي لكي يخفّف عنّي تلك الكوابيس. وانتهى بي الأمر إلى قبول المسكِّن الذي عرضته عليّ الممرضة. وتهيّأ لي أنّني أسمع باتريك يتحدّث في الهاتف، لكنّني أعود إلى النوم قبل أن أتمكّن من سؤاله مع من يتكلم.

لمّا استيقظت، كانت أشعة الشمس تنفذ من خلال ستائر النافذة، راسمة خطوطاً من الضوء على سريري، ووجدت صينيّة موضوعة على المنضدة بجانبي.

بادرني باتريك:

«لا بدَّ أنّ الشاي برد. سأرى ما إذا كان بالإمكان أن أجلب لك آخر».

قلت وأنا أستوي جالسة بمشقّة:

«لا داعي».

كنت أشعر بألم في عنقي، فتحسّستُه بحذر. وصدرتْ عن هاتف باتريك رنّة، فغادر الغرفة ليقرأ الرسالة.

«من؟».

«لا أحد» وغيّر الموضوع، «قال الطبيب إنّ آلامك ستستمرّ بضعة أيام أخرى، لكنّك لا تعانين من كسور. وصف لك مرهماً لإبطال مفعول ماء جافيل، عليك أن تدهني به جسمك كلّ يوم حتّى تتجنّبي اجتفاف بشرتك».

ثنيت ساقي لأفسح له مكاناً جلس فيه بجواري على السرير. كان جبينه مغضّناً، ولُمْت نفسي على ما تسبّبت له من متاعب.

«أؤكّد لك أنني أشعر بنفسي على ما يرام. كلّ ما أريد هو أن أعود إلى البيت».

رأيته يبحث في وجهي عن أجوبة: يريد أن يعرف شعوري نحوه، على أنّني أنا نفسي ما زلت لا أعرف. كلّ ما أعرف هو أنني لا يمكن أن أعتمد على حدسي. أجهدت نفسي من أجل أن أبتسم لكي أثبت له أنني بخير، ثمّ أغمضت عينَي لأنام، أو بالأحرى لأتجنّب نظراته.

أيقظني وقع خطوات أمام باب غرفتي، وتمنيت أن يكون الطبيب، لكنّني سمعت باتريك يكلّم امرأة.

«هي موجودة في الغرفة. سأذهب إلى المقصف لأشرب قهوة وأترككما معاً بعض الوقت».

لم أستطع تخمين من قد تكون، ولمّا انفتح الباب رأيت هيئة نحيلة في معطف أصفر فاتح بأزرار كبيرة. لزمتني بضع ثوانٍ لأفهم ما يقع. فتحت فمي، لكنّ الغصّة في حلقي منعتني من الكلام.

هرعتْ إيف إليّ وحضنتني بكل ما أوتيت من قوّة.

«آه كم اشتقت إليك!».

تشبّثنا ببعضنا بعضاً، وظللنا على ذلك الحال إلى أن هدأ روعنا. ثمّ تربّعنا وكلّ منّا تمسك بيد الأخرى كما كان الحال في طفولتنا، حين كنّا نجلس الواحدة قبالة الأخرى فوق السرير.

سألتها:

«هل قصصت شعرك؟ تناسبك التسريحة كثيراً».

تحسّست إيف شعرها الناعم الأملس المقصوص على شكل مربّع.

«أظنّ أن جيف يفضّله أطول، إلا أنّه يعجبني هكذا. إنّه يرسل لك السلام، والأطفال بعثوا لك بهذا» بحثت في حقيبتها وأخرجت ورقة مكمّشة رُسم عليها شيء، مطويّة على هيئة بطاقة تمنيات بالشفاء. «قلت لهم إنّك في المشفى، فظنّوا أنّك مصابة بجدري الماء».

نظرت إلى الرسم، فإذا به يصوّرني في السرير مكسوّة بالبثور، فضحكت.

«اشتقت إليهم. اشتقت إليكم جميعاً».

«نحن أيضاً اشتقنا إليك» التقطت إيف نفساً عميقاً. «ما كان عليّ أبداً أن أقول ما قلت. ما كان ذلك من حقّي».

تذكّرت نفسي مستلقية في المشفى بعد ميلاد بين. لم يفكر أحد في إزالة السرير الصغير الذي كان يشمتُ بي في إحدى زوايا الغرفة. لم أكن قد أخبرت إيف بالأمر، لكنّها لمّا وصلت، علمتُ من ملامح وجهها أنّ الممرضات أخبرنها. ورغم ما بذلت من جهد لإخفاء ذلك، كانت تظهر من حقيبتها هدية مُزِّق ورق تلفيفها. وتساءلت عمّا

ستفعل بها، إن كانت ستعثر على وليد آخر تهديه الملابس التي اختارتها بعناية لابني.

لم تقل في البداية شيئاً، إلا أنّها لم تستطع أن تتمالك نفسها من الكلام.

«هل فعل لك يان شيئاً؟ أهو من؟...».

أشحت بعيني، فرأيت السرير الصغير الفارغ، وأغمضت عينَي. لم تثق إيف في يان أبداً رغم حرصه على إخفاء وجهه الحقيقي. كنت دائماً أؤكّد لها أنّ العلاقة بيننا على أحسن ما يرام، لأنّ الحبّ كان قد أعماني من جهة، ومنعني من أن أرى ما في علاقتنا من عيوب، ولأنني كنت أخجل من جهة أخرى من الاعتراف بأنّني مكثت طول تلك المدّة مع رجل يؤذيني كل ذلك الأذى.

وددت لو تضمّني أختي بين ذراعيها، وتشدّني إليها لكي تخفّف عنّي ذلك الألم الذي يمزق أحشائي. لكنّها كانت غاضبة، وكان حزنها يطالب بجواب، بسبب مقنع، بالكشف عن المسؤول عمّا وقع. وقالت:

«هذا الشخص غير واضح، لن تجني من ورائه غير المتاعب» أمعنتُ في إغماض جفنَي. «لعلك لا ترين ذلك، أمّا أنا فأراه. ما كان عليك أبداً أن تستمرّي في الحياة معه بعدما حملت. لو فعلت لكان طفلك ما زال على قيد الحياة الآن. مسؤوليتك فيما وقع لا تقلّ عن مسؤوليته».

فتحتُ عينَي مفزوعة، فقد أصابت كلمات إيف قلبي في الصميم، فقلت لها بصوت متقطّع، لكنّه حازم:

«ارحلي من هنا! حياتي لا تعنيك، وليس من حقّك أن تملي عليّ ما ينبغي أن أفعله. اغربي عن وجهي! لا أريد أن أراك ثانية».

غادرت إيف مشفى الولادة، وتركتني وحيدة مع بطني الفارغ، وأنا في منتهى الجزع. لقد جرحتني كلماتها، لكنّها لم تقل غير الحقيقة. فأنا مسؤولة عن موت بين.

حاولت إيف الاتصال بي في الأسابيع اللاحقة، إلا أنّني رفضت التحدّث إليها. وانتهى بها المطاف أن توقّفت عن الاتصال.

قلت لها:

«لقد تفطّنت إلى حقيقة يان منذ مدّة طويلة. كان علي أن أنصت إلى كلامك».

فأجابت ببساطة:

«كنتِ متعلِّقة به مثلما كانت أمّنا تحبّ أبانا».

استويت في جلستي:

«كيف؟».

خيّم الصمت، ورأيت إيف تفكّر فيما ستقول لي. حرّكت رأسي وقد فهمت فجأة ما كنت أرفض أن أسلِّم به لمّا كنت صغيرة.

«أكان يعنّفها؟ هذا ما تقصدين؟».

واكتفت بأن حرّكت رأسها.

تذكّرتُ أبي الوسيم الذكي الذي كان يجد دائماً شيئاً مسلّياً يقترحه عليّ، يمسك بيدي ويديرني في الهواء حتّى لما كبرت عن ذلك. وتذكّرت أمّي التي كانت دائماً هادئة ومتحفّظة، بل فاترة. وتذكّرت كيف حقدتُ عليها حين صرَفَته.

أضافت إيف موضّحة:

«تحمّلتْ ذلك لسنوات. دخلتُ إلى المطبخ بعد العودة من

المدرسة ذات يوم ورأيته يعنّفها. صرختُ عليه لكي يتوقّف، فاستدار وضربني على وجهي».

«يا إلهي!».

وذُهِلت من الفرق الموجود بين ذكريات كلّ منّا عن طفولتنا.

«شعر بالحرج، ولم يعد يدري ما يفعل. اعتذر وقال إنّه لم يرني، لكنني رأيت نظرته قبل أن يضربني. كانت تنضح بُغضاً. كان بإمكانه أن يقتلني في تلك اللحظة. ثمّ إن ماما -كما لو أنّ الغشاوة زالت عن عينيها بغتة- أمرته بأن يرحل، فاستجاب دون أن ينبس».

قلتُ لها وأنا أتذكّر الحزن الذي شعرت به ذلك اليوم:

«وجدته قد رحل حين عدت من حصة الرقص».

«قالت له ماما إنّها ستشكوه إلى الشرطة إن تجرّأ على الاقتراب منّا ثانية. لا شكّ أنّ طرده حطّم قلبها، لكنّها أرادت أن تحمينا».

«لم تخبرني بذلك أبداً».

صحيح أنّني لم أُتِح لها الفرصة قطّ. أتساءل كيف أنني أوّلت الأمور بذلك النحو السيّئ. وتمنّيت لو أنّها لا تزال حيّة لكي أفاتحها في ذلك.

اجتاحتني موجة من الانفعال، فرُحتُ أنتحب.

«أعرف يا عزيزتي، أعرف».

مضت إيف تمسح على شعري كما كانت تفعل لمّا كنّا صغيرتَين، ثمّ ضمّتني بين ذراعيها، وأجهشت بالبكاء هي أيضاً.

مكثت ساعتين بينما مضى باتريك يتردّد بين الغرفة والمقصف ليترك لنا الوقت لنتحدث إلى بعضنا بعضاً، مع حرصه على ألا أُتعِب نفسي.

أعطتني إيف حزمة مجلات لن أقرأها، ووعدتني بأن تزورني

فور عودتي إلى البيت، وهو أمر يمكن أن يتمّ، حسب الطبيب، بعد بضعة أيّام.

ضغط باتريك على يدي، وقال:

«سيبعث ليستين شخصَين من المزرعة لتنظيف البيت. سيغيّران القفل لتتأكّدي بذلك من أنّك الوحيدة من تملكين المفتاح» لعلّه قرأ القلق في وجهي. «سيصلحان كلّ شيء. كما لو أن شيئاً لم يقع».

قلت في نفسي: كلا، لن يحدث هذا أبداً.

ضغطت على يده بدوري. كان وجهه يشي بالاستقامة واللطف، وقلت في نفسي مهما يكن فالحياة تستحقّ أن تعاش برفقة هذا الرجل، بل يمكن أن تكون جميلة.

خاتمة

صارت النهارات طويلة، واستعادت بينفاتش إيقاعها الطبيعي، ولم يكن يشوّشها شيء سوى تدفّق العائلات على الشاطئ للاستمتاع بالصيف. تشبّع الهواء برائحة المراهم الشمسية وملح البحر، وناقوس باب المتجر لم يكن يتوقّف عن الرنين. أمّا المخيّم ففتح أبوابه في بداية الموسم، وازدهى بطبقة جديدة من الطلاء، وامتلأت رفوف المتجر عن آخرها بالبضائع اللازمة للمصطافين.

لم يكن هؤلاء الوافدون يحفلون بنمائم القرية، وقصّتي لم تعد تثير سكّانها. وما إن حلّ الخريف حتّى كادت النمائم تُنسى بسبب غياب معلومات جديدة من جهة، وتصدّي بيثان وليستين لكلّ من يزعم أنّه يعرف حقيقة ما وقع. وما كادت آخر خيمة تُزال، وآخر سطل يُباع، وآخر المثلجات تُلتهَم، حتّى طوى النسيان كلّ شيء. وحيث لم أكن أجد سوى الصدود والازدراء، صرت أُستقبَل بالأحضان.

قام ليستين بإصلاح البيت الريفي كما وعد. غيّر القفل، وثبّت نوافذ جديدة، وأعاد طلاء باب المدخل ومحا آثار كلّ ما وقع. ورغم أنّني لا يمكن أن أنسى ذلك المساء، أردت أن أمكث هناك، في أعلى المرتفع الصخري، حيث لا يجاورني سوى البحر. كنت

سعيدة في ذلك البيت، ورفضت أن يدمّر يان هذا الجزء من حياتي أيضاً.

أتناول حبل بو، فيقف عند الباب منتظراً بفارغ الصبر أن أرتدي معطفي لكي آخذه للنزهة آخر مرّة هذا اليوم قبل أن نخلد للنوم. كنت لا أزال لا أستطيع ترك باب البيت مفتوحاً حين أخرج، لكنّني لمّا أكون بالداخل، لم أكن أقفله، ولا ينخلع قلبي حين تدخل بيثان دون أن تطرق.

وإذا كان باتريك يبيت في المنزل أحياناً، فهو يعرف اللحظات التي أكون فيها بحاجة إلى أن أخلو إلى نفسي، فيعود خلسة إلى بورت إيليس تاركاً إيّاي مستغرقة في أفكاري.

نظرت إلى المدّ في الأسفل وهو يغمر الشاطئ الذي تملؤه آثار المتنزّهين وكلابهم، ويَحفلُ بالنوارس القادمة لأكل الديدان الموجودة في الرمل. كان الوقت متأخّراً، والممرّ الساحلي الضيق مقفراً في الأعلى حيث نُصِب حاجز ليُذكّر المشاة بعدم الاقتراب من حافّة المنحدر، وشعرت بقشعريرة تعبر جسدي، وأسفت على عدم وجود باتريك إلى جانبي هذا المساء.

كانت الأمواج تتكسّر على الشاطئ وقد علاها زبد أبيض. كلّ منها تحاول أن تتجاوز سابقتها، كاشفة خلال ثوانٍ عن حيّز من الرمل الناعم المتلألئ قبل أن تعوّضها أخرى. وبينما كنت أتأهب لأعود أدراجي، لمحت شيئاً مرسوماً على الرمل اختفى في لمح البصر. محا البحر الكتابة بسرعة حتّى أنني لم أعد واثقة من أنّني رأيتها، وبدأ الشاطئ يتعتّم بينما مضت أشعة الشمس الغاربة تنعكس على الماء. حرّكت رأسي وانطلقت عائدة في الطريق الضيّق، لكن

شيئاً ما شدّني، فعدت إلى حافّة المنحدر مقتربة منه ما وسعني لكي أتفرّس الشاطئ.

لا يوجد شيء.

شعرت بالقشعريرة، فزرّرت معطفي لأحتمي من البرد. إنّها مجرد تهيّؤات. لا يوجد شيء، لا توجد حروف. لم أرَ اسمي: **جينيفر**.

لم يترنّح البحر. تحطّمت الموجة اللاحقة، فتبدّدت العلامات من صفحة الرمل، ورسم نورس آخر دائرة في السماء بينما كان المدّ ما زال يصعد، والشمس تتلاشى في الأفق.

ثم خيّم الظلام.

ملاحظة المؤلِّفة

بدأتُ فترة تكويني كشرطيّة سنة 1999، وعُيِّنت للعمل بأكسفورد سنة 2000. وفي شهر ديسمبر من تلك السنة، قتل سائق متهوّر كان يقود سيارة مسروقة طفلاً بحي بلاكبورد ليز. وقد دام التحقيق أربع سنوات طويلة، جرت خلالها تعبئة عدد كبير من رجال الشرطة ونسائها. وقد شكّلت هذه القضية خلفيّة للسنوات الأولى التي قضيتها شرطيّة، واستمرّ التحقيق فيها لمّا التحقت بفرقة الشرطة الجنائية ثلاث سنوات أخرى بعد ذلك.

وقد خُصِّصت مكافأة مهمّة لمن يدلّ على السائق، وكذا مُنِحت الحصانة لراكب السيارة إن هو تعرّف إليه. لكن لم يُعثَر على الجاني رغم العديد من التوقيفات.

كان وقع هذه الجريمة كبيراً عليّ. كيف لسائق تلك السيارة أن يعيش حياة وادعة بعد ما اقترف؟ كيف لزم الراكب الصمت؟ كيف لأمّ الطفل أن تتغلّب على فقدان ابنها المأساوي؟ وقد استهوتني المعلومات التي كانت تُجمَع كلّ سنة إثر توجيه نداء بحثٍ عن شهود في ذكرى الحادثة، والعمل الدقيق الذي تقوم به الشرطة لفحص كلّ معلومة تفد عليها بأمل العثور على القطعة التي تتمّم الصورة.

بعد ذلك بسنوات، حين مات ابني في ظروف مغايرة تماماً،

وقفت بنفسي على أنّ العواطف يمكن أن تؤثّر على ملَكَة الحكم، وتُغيِّر السلوك. ذلك أنّ الحزن والحسرة شعوران قويان، وشرعت أتساءل كيف لهما أن يؤثّرا على سلوك امرأتَين متورّطتَين بكيفيّتَين مختلفتَين جدّاً في الحادثة نفسها. وكانت النتيجة هي: **تركتك ترحلين**.

كلير ماكينتوش

تركتكِ ترحلين

حادث مأسوي.
جرى كل شيء في رمشة عين.
لم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً لتمنعه.
ألم يكن بإمكانها فعل شيء حقّاً؟

في جزء من الثانية تتحوّل حياة جينا غراي إلى كابوس. ولكي تستمر في العيش بعد ما جرى، لم يكن أمامها سوى الفرار وبدء حياة جديدة. تترك كل شيء وتستقر في بيت ريفي تهبّ عليه الريح من كلّ جانب، آملة أن تترك هذه الفاجعة خلفها. لكنْ، الخوف والحزن وذكريات تلك الليلة الرهيبة التي غيّرت حياتها إلى الأبد، كلّ ذلك ظلّ يطاردها...

تركتكِ ترحلين رواية سيكولوجية رائعة، مليئة بمفاجآت تقطع الأنفاس، تتسم بقوة نادرة، ألّفتها قائدة سابقة في الشرطة البريطانية، وجعلت منها فور صدورها اسماً لامعاً وظاهرة أدبية عالمية تُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة.

◆ ◆ ◆

«رواية مفعمة بالإثارة والأحداث غير المنتَظَرَة والمشاعر المتضاربة».

جريدة ذي ميرور

«لا تنخدعوا بالعنوان، فمن الصعب ترك هذه الرواية بمجرد البدء في قراءتها».

جريدة لو فيغارو

«كلير ماكينتوش مُناوِرَة بارعة لا يستطيع القارئ إلّا أن يحبها».

مجلة لو بوان